





الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

# الصبغ البديعي
# في اللغة العربية

تأليف
الدكتور أحمد ابراهيم موسى

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# الصِّبغ البديعيُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ

# المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
بالاشتراك مع
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

« أما بعد »

فقد اخترت الصبغ البديعى فى اللغة العربية موضوعا لبحثى ، وعالجته من ناحيتين :

الأولى : مسايرته فى حياتيه : الأدبية والعلمية .

الثانية : تحديد مكانه اللائق به من البلاغة .

وقد يبدو للنظرة الأولى أن هذا موضوع قديم لاجديد فيه لباحث ، مذاع لاسر فيه لكاتب .

وإذ كنت أتقدم به إلى لجنة موقرة انتظمت نخبة مختارة من الأساتذة الأجلاء الذين سموا إلى مكانة ممتازة فى العلم والأدب فإنى لا أستطيع أن أقول — تحدثا بأنعم الله — أنى لم أسبق بهذا الموضوع على هذا النحو بأحد ، ولا أن أقول .. أنى وفقت إلى جعله جديدا فى جملته وتفصيله ، أسلوبا وعرضا ، وفكرة ولبّا ، وبناء وهدما ، فذلك ماسيعلن عنه حضرات الأعضاء إثباتا أو نفيا ، فهم وحدهم أصحاب الحق فى هذا الإعلان ، وحكمهم له أو عليه هو الفيصل الذى لايدفع عليه هوى ، ولا يبعث عليه ميل سوى إحقاق الحق ووضع الأمور فى نصابها ، وليس لى سوى أن أقول .. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

القاهرة فى : جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ هجرية — الموافق مايو ١٩٤٤ ميلادية .

« أحمد إبراهيم موسى »

# المحتوى

# القسم الأول

# الباب الأول

## البديع قبل أن يكون فنًّا

# الفصل الأول

## الصبغ البديعي في العهد القديم

أبرز عناصر هذا الفصل :

تحديد كلمة البديع فى عرف اللغة ثم فى عرف البلاغيين ـ غرضنا من هذا الفصل تحديد عهد الأقدمين والمحدثين ـ الفوارق بين الأدبين ـ مميزات الأدب القديم ـ عبيد الشعر فى العهد القديم ـ العرب لاتعمد إلى البديع ـ أثر الإسلام فى الشعر ـ الشعر الإسلامى امتداد للشعر الجاهلى ـ ـ أسباب ذلك ومظاهره ـ تحسس أمثلة للصبغ البديعى فى العهد القديم ـ الطباق ـ مراعاة النظير ـ الأرصاد المشاكلة ـ الجمع ـ التقسيم ـ الجمع مع التفريق ـ الجمع مع التقسيم ـ الجمع مع التفريق والتقسيم ـ التجريد ـ المبالغة ـ المذهب الكلامى ـ حسن التعليل ـ التفريع ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ التوجيه ـ الهزل الذى يراد به الجد ـ تجاهل العارف ـ القول بالموجب ـ الاطراد ـ الجناس ـ رد العجز على الصدر ـ لزوم مالا يلزم ـ القلب ـ الموازنة ـ السجع ـ ارتيابنا فى سجع الكهان ـ الباعث على هذا الارتياب ـ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سجع الكهان ـ اختلاف العلماء فى توجيه النهى ـ رأى الأزهرى ـ رأى الباقلانى ـ رأى العسكرى ـ رأى الخفاجي ـ رأى ابن الأثير ـ رأى التنوخي ـ رأى ابن حمزة اليمنى ـ رأينا فى السجع ـ رأينا فى توجيه النهى ـ أمثلة للسجع المقبول .

كلمة البديع فى اللغة :

يجدر بنا قبل الخوض فى هذا الفصل أن نعرض لتحديد كلمة البديع فى عرف اللغة ثم فى عرف البلاغيين ، ليكون ذلك نبراسا يضىء لنا الطريق ، ودستورا يعصمنا من الشطط .

كلمة البديع فى اللغة تدور حول الجديد ، والمحدث ، والمخترع ، جاء فى لسان العرب ، بَدَعَ الشيء يَبْدَعه بَدعاً وابتدعه أنشأه وبدأه ، وبدع الرّكيّة استنبطها وأحدثها ، والبديع المحدث العجيب ، وأبدعت الشيء اخترعته لا على مثال ، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، ويجوز أن يكون بمعنى مبدع ، أو يكون من بدع الخلق أى بدأه ، والله تعالى — كما قال — بديع السموات والأرض أى خالقهما ومبدعهما فهو سبحانه الخالق المخترع لاعن مثال سابق، وسقاء بديع جديد ، وكذلك زمام بديع ، وحبل بديع جديد ، وأبدع الشاعر جاء(١) بالبديع

## البديع فى عرف البلاغيين :

وأما البديع فى مصطلح علماء البلاغة(٢) فقد عرفه الخطيب القزوينى فى التلخيص بقوله ، هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة . وسيأتى فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله موقفنا من هذا التعريف ورأينا فيه من حيث الإبطال .

والمناسبة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى واضحة جلية ، وذلك أن الجديد أو المحدث العجيب ، أو المخترع ، من شأنه أن يكون فيه حسن وبهجة وطرافة وروعة ، وبهاء ورواء ، ولذة ومتاع .

وإذا أنت استعرضت ألوان الكلام التى أطلق عليها المحدثون اسم البديع أو اللطيف ، ألفيتها تكسب الكلام حسنا وجمالا ، وتخلع عليه بهجة وجلالا ، مما جعل بين المعنى الاصطلاحى واللغوى رحما قريبة ، وصلة وشيجة سوّغت التسمية وجوّزت الإطلاق .

## غرضنا من هذا الفصل:

وهدفنا الذى نرمى إليه فى هذا الفصل . عرض أمثلة لأنواع من البديع

(١) لعل هذا مما حدث من الاستعمالات بعد العصر القديم فيكون مرجعه اصطلاح الأدباء الذين أطلقوا اسم البديع على هذه المحاسن المخصوصة . ويكون ذكره فى اللغة كما يذكر مصطلح العروضيين والنحويين وغير ذلك .

(٢) وسيمر بك تدرج هذه الكلمة فى معانيها المختلفة إذا تابعت هذا البحث .

الفطرى وجدت فى أدب القدامى . واتفقت لهم اتفاقا ، واطردت فى كلامهم اطرادا ، عن عفو الخاطر ، وفيض الفطرة ، ووحى السليقة من غير أن يعمدوا إليها متعلمين متكلفين ومن غير أن يعرفوا لها أسماء سوى أنها من ألوان كلامهم الذى به يؤدون أغراضهم ، وذلك يحتاج إلى تمهيد وجيز يكشف عن تحديد الأدب القديم ، ويبين عن خصائصه ، ويسفر عن مميزاته ، ويوضح الفوارق بينه وبين أدب المحدثين .

## الأدب القديم :

ما الأدب القديم ؟

أجمع علماء النقد الأدبى ــ القدامى منهم والمحدثون ــ على أن فى الأدب العربى عصرين ممتازين ، يتسم كل منهما بسمات تغاير سمات الآخر .

أولهما : عصر القدماء ، وثانيهما عصر المحدثين .

ويبتدىء عصر القدماء باكتمال الأدب العربى ونضجه قبل الإسلام بنحو قرن ونصف قرن ، وينتهى فى أوائل القرن الثانى الهجرى قبيل قيام الدولة العباسية بزمن يسير ، فهو يشمل الأدب الجاهلى والأدب الإسلامى الشامل للعصر الأموى .

أما عصر المحدثين(١) ، فبدؤه على الأرجح قبيل قيام الدولة العباسية من عهد بشار بن برد وإبراهيم بن هرمة ، ومروان بن أبى حفصة ، ومطيع ابن أياس وغيرهم من مخضرمى الدولتين ويشمل كل من جاء بعدهم ممن زاولوا صناعة الشعر العربى إلى اليوم .

## الفوارق بين الأدبين :

هذا الفصل بين الأدب القديم والمحدث على هذا الوجه يرتكز على فوارق حقيقية فاصلة بين العصرين قضت على كل منهما بمغايرة الآخر .

(١) المحدث فى اللغة نقيض القديم وقد أطلق (المحدثون) فى اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشأوا فى العصر العباسى ، كما أطلق عليهم اسم ( المولدين ) والمولد فى اللغة اسم لمن نشأ غير خالص العروبة مقرفا كان أم هجينا . ولكنه أطلق على الشعراء المذكورين ولو كانوا عربا خلصا دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصى العروبة .

فلئن فرق الدين بين الجاهليين والإسلاميين ، لقد وحدت بينهما الفطرة السليمة وجمعتهما السليقة الصحيحة ، وأنهما لم يندفعا إلى القول إلا بباعث من الوجدان الصادق ، وحافز من الشعور الحقيق ، وإملاء من الإحساس النفسى ، فأما التكلف أو الصنعة ، وما إليهما من مدلولات الكلمات التى تنبيء عن كد وتعب ، وتكشف عن كدح ونصب فى قرض الشعر أو صدوره عن غير داع مستقر فى أعماق النفس فليس لها أثر ظاهر فى ذلك العصر .

فمهما اختلفت مشارب الجاهليين والإسلاميين ، ومهما تباينوا فى المذهب والطريقة والصياغة وفنون القول ، فإنهم جميعا يسقون من رحيق واحد ويصدرون عن مورد واحد ويتقاربون تقاربا تاما فى منازع التفكير ومناحى التعبير ، فزهير يختلف عن طرفة وذو الرمة يختلف عن جرير ، وعمر بن أبى ربيعة يختلف عن العرجى ، ولكنه اختلاف الأنهار انسابت عن قمة واحدة واستمدت ماءها من سحب واحدة ، أو اختلاف الأثمار تألقت فوق شجرة واحدة ، واستمدت حيويتها من تربة واحدة يبعث فى صميمها الحياة والنمو ماء واحد ، اختلاف قضت به الاتجاهات المتباينة فى أصل الطبائع والفطر ، فأما السبل التى تسلك وتحتذى والمناحى التى تؤم وتقصد فهى واحدة ليس بينها مايوجب تبدلا ، أو يؤذن باختلاف ، فلما كان القرن الثانى الهجرى أخذ الشعر العربى يلبس رويدا ثوبا من الزخرف والتنسيق قصد توشيته بحلى وزخارف لا عهد له بها — على هذا النحو — فى قديم عصره وغابر زمانه ، ذلك هو الذى وقع عليه فيما بعد اسم البديع أو اللطيف ، وهذا هو الذى يقتضينا الإلمام بطرف من مميزات الأدب القديم التى تمت إلى هذا اللون من الكلام بأقرب الصلات وأمسّها رحما حتى ندرك على ضوئه بديع المحدثين وتجديدهم فيه ، وهل هم مبتكرون منشئون لهذا الذى دعوه باسم البديع؟ أو كانوا ينظرون فى تجديدهم إلى ألوان من الكلام وفنون من القول وقعوا عليها فى شعر الأقدمين من غير أن يعرفوا لها هذا الاسم فيطلقوه عليها ، فحذوا حذوهم ولفوا لفهم مولعين بهذه الأصباغ مفتونين بها فكان منهم المسيء ومنهم المحسن ومنهم المذموم ومنهم المحمود ، ومنهم الغوى ، ومنهم الرشيد .

## مميزات الأدب القديم :

ما خصائص الأدب القديم ؟

جدّت فى الأدب العربى عوامل قوية خطت به مسرعة إلى الاتقان ، وقفزت به إلى النضج والإحكام ، فقد طغى اللسان القرشى على كل لسان فى شبه الجزيرة العربية ، واستبد فيها بزمام البيان ، وتملك منها عنان القول حتى غدا لسان الشعراء والخطباء من جميع القبائل . هـــذا من جهة اللغة .

أما من ناحية المعانى ، فقد نجمت فى شبه الجزيرة العربية أحداث عظام ، موزعة بين السياسة والاجتماع ، أخصبت الأخيلة عند العرب ، وغذت المشاعر ، وأمدت الأذهان ونمت العقول ، وصقلت الأفكار ، فقد كثرت منهم الرحلات إلى البلاد المجاورة ، فتنوعت المشاهدات ، وتعددت آفاق المرئيات ، وتفلتت إلى صميم البلاد العربية التى غلبت عليها الوثنية ، تعاليم يهودية وأخرى مسيحية ، وسمت حياة العرب المادية بعض السمو ، والتهبت نيران الحروب للتخلص من القحطانيين تارة كحرب أسد وكندة ، أو للمخاصمات بين العدنانيين أنفسهم ربعيين ومضريين تارة أخرى كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

هذه الحياة المضطربة الثائرة ، وتلك النفوس التى لا يهدأ لها بال ، ولا يقر لها قرار على الضيم والهوان ، وهذه البداوة التى تغرس فى النفوس روح الحرية وتذكى فيها الطموح والاستقلال ، وتُنَمِّى الأنفة والاستكبار وعدم الخضوع لسيطرة مذلة قاتلة ، وسلطان ظالم قاهر ، وتلك التربة المبسوطة الرقعـــة ، النقية الأديم المجلوة الآفاق ، الموفورة الوحش والطير ، والإبل والخيل ، وذلك الجو الطليق العليل نسيمه ، البليل هواؤه ، وتلك السماء الصاحية الصافية التى سطعت كواكبها ووضحت شمسها ، وسفر بدرها طبعت العرب على صفاء النفس ، ودقة الحس ، ورقة الشعور فافتتنوا بها ، وتغنوا بمشاهدها ، فكان لهم من فطرهم السليمة وسجاياهم الصحيحة ، أقوى مساعد وأكبر معاضد ففاضت بذلك نفوسهم وتشبعت

أذهانهم فنطقت ألسنتهم ، وكان الشعر أكبر مظهر وأقوى معين يترجم عن تلك المشاعر ويكشف عن هذه الوجدانات ، ويصور هذه الحياة فى أدق الصور وأصدقها وأجلاها وأظهرها .

فهذا الأدب عربى فى نشأته ، عربى فى تكوينه عربى فى نهجه ، عربى فى روحه ولد فى الصحراء ، وشبّ بين مشاهد البداوة ، فهو يصور البداوة وما فيها من خشونة وجهالة ، ورعونة واضطراب ، وصفاء نفس ، ودقة حس ورقة شعور ، ويجلى الحياة الصحراوية وما فيها من اقامة وظعن ، وعشب ورعى وسهول مبسوطة ، وجبال شم ، ووعول ممتنعة ، وظباء نافرة ، وإبل صابرة ، وخيل سابقة ، وخباء وأطناب ، وأوتاد وجبال ، ونؤى وأحجار ، وغارات وحروب ، ومفاخرات ومنافرات ، أدب قوم فخرهم بيانهم ، وعزتهم سنانهم ، يستجيبون لداعى القلب أكثر مما يستجيبون لداعى الفكر والعقل ، يعيشون بأهوائهم لا بالتبصر والروية ، تسود أغلبهم البديهة والارتجال ، وحدة الخاطر ونفاذ الطبع فينطقون بوحى السلائق ويقولون بإلهام الفطر دون أن يكون لهم صبر على الأناة وجلد على العمق الفلسفى الذى لم يكن لهم منه أدنى حظ وأيسر نصيب .

فكان أدبهم مرآة جلية انعكست عليها أخلاقهم ، وتمثلت فيها حقيقة حالهم فهو ترجمان صادق لكوامن نفوسهم وخفى إحساسهم وشعورهم ، وكل أولئك محدود بالبيئة التى يعيشون فيها فلم تكن أخيلتهم تحلق فى أجواء غير التى تحيط بهم وتكتنفهم من مفاوز عريضة ، وما فيها من سفر وإبل ، وأخذ بثأر ، ومباكرة بغارة ، ومفاجأة بحرب ، ولم تكن نفوسهم تتجه لغير كر وحرب ، ولهو وطرب ، صاغت بيئتهم عقولهم وقدرت أفكارهم على مشاهدها ، وحددت لهم أغراض كلامهم ، فإن كانوا خطباء أثاروا الشعور ، وأيقظوا الوجدان وهيجوا العواطف ، وألهبوا النفوس فى التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، والحث على المنافرات والمفاخرات بقوة العصبية وكرم الأصل وشرف الخصال وعظم الفعال ، فى عبارات رائعة كثيرة الفواصل والأسجاع لحسن وقعها وبالغ تأثيرها فى الأسماع .

وإن كانوا شعراء أخذوا بمجامع القلوب ، وسحروا الألباب فى نسيبهم وغزلهم ، وفخرهم ومدحهم ، ورثائهم وهجائهم ، واعتذارهم ووصفهم ، وكان الشعر عندهم سليقة وفطرة ، يمتزج بتكوينهم الروحى ، يفيض من القلوب الثائرة ، وينبعث عن الجوانح الطامحة ، لايكدون فيه قرائحهم ولا يشقون به ولا يتكلفونه ، ولا ينصبون فى إعداد رسومه ، وإقامة معالمه فى نفوسهم ، يبين فيه الشاعر عما يحسه ، وما يدور بخلده من شعور أو نظرات فمتى جالت الخواطر بأذهانهم ، أو طافت الأخيلة برءوسهم أو جاشت الأهواء فى صدروهم ، عبروا عنها فى قوة ، وأبرزوها فى وضوح متوخين أخصر الطرق ، سالكين أقرب السبل لا يتعملون ولا يتأنقون ، قال الجاحظ :(١) «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع ، أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد فتأتيه المعانى أرسالاً (٢) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لايقيده على نفسه ولا يُدرسه أحدا من ولده ، وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لايتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وأن شيئا الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعد التراب وهو الله الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون ونحن —أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ،

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ — ٢٠ .

(٢) جمع رسل وهو القطيع من كل شيء .

ومن المنثور والأسْجاع ومن المزدوج ومالا يزدوج فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلاّ فى اليسير والنبذ القليل » .

ومن أوضح المميزات التى امتاز بها العرب أنهم يحرصون على المعنى قبل أن يحرصوا على الصياغة وكل مايهمهم ويعنيهم إنما هو بسطه وإبرازه فى قوة وجلاء وظهور ووضوح مطابقا للواقع ، مصوراً للحقيقة ، معتمداً على الحس ، أكثر من غيره ، مستمداً عناصره الخيالية من الصحراء وما فيها من مشاهد ، مجانبا للمبالغة والغلو والإغراق التى تخرجه عن معروف عقولهم ، وتبعده عن مألوف طباعهم من حب الصراحة ، وإيلاف الصدق فى تصوير الأشياء على ما هى عليه من صور القوة أو الضعف لايزيدون ولا ينقصون ، فطرياً سمحاً لا أثر فيه للتعقيد ولا للتفكير العميق فى ألفاظ جزلة ضخمة ، وعبارات محكمة قوية ، وصياغات فصيحة رصينة يبدو عليها جفاء الصحراء وسذاجة البداوة وطبيعة الارتجال وقد نعدها غريبة عنا وإن كانت لهم مألوفة ، وما ذاك إلاّ لأنهم مفطورون على جزالة اللفظ ومتانة الكلام .

عبيد الشعر :

أما قول الأصمعى . زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ، ويشغلان به حواسهما وخواطرهما — كما قال ابن رشيق(١) — فليس ذلك بناقض هذا الحكم العام لأنه ليس من جنس التكلف الذى اتصف به المحدثون ، بل كانوا حريصين على ألا تخرج أشعارهم للناس إلا بعد تهذيبها ولم يكن هذا التهذيب إلا طرح مالا يحتاج إليه المعنى أو إبعاد معنى لا روعة له ولا قوة أو تغيير عبارة بأختها أو لفظة بغيرها أتم منها وأكمل . قال الجاحظ :(٢) « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة

(١) العمدة جـ ١ — ١١٢ .
(٢) البيان والتبيين جـ ٢ — ٧ .

تمكث عنده حولا كريتا(١) وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه وإحرازا لما خوّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد « الحوليات والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات » ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا . » ويقول الجاحظ : (٢) « قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك » وكان الأصمعى يقول : « زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر » . وكذلك كل من يجود فى جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة . وقال ابن قتيبة الدينورى : (٣) « ومن الشعراء المتكلف والمطبوع فالمتكلف هو الذى قوّم شعره بالثقاف ، ونقّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعى يقول : زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولى المنقح المحكك ، وكان زهير يسمى كبير قصائده الحوليات » .

ومهما يكن من رمى هذه الفئة بالتكلف فإنها لم تبلغ مابلغه المحدثون من الإجهاد والإتعاب للقرائح والتغيير والتحوير لا من أجل المعنى بل من أجل اللفظ والبديع قال ابن رشيق : (٤) « ومن الشعر مطبوع ومصنوع . فالمطبوع هو الأصل وعليه المدار ، والمصنوع — وإن وقع عليه هذا الاسم — فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تعمّل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك » .

(١) تاماً .
(٢) البيان والتبيين جـ ٢-١١ .
(٣) الشعر والشعراء ٧ .
(٤) العمدة جـ ١ — ١٠٨ .

## العرب لايعمدون إلى أصباغ البديع :

تلك هي الحال التي لابست فحول الشعراء وغيرهم من الجاهليين ، وذلك هو شعرهم الذى امتاز بإرساله على حسب ما اقتضته بلاغتهم الفطرية ، بدون تكلف وبدون مراعاة لما تستدعيه الصناعة البديعية ، فلم يتعمدوا جناسا ، ولم يتكلفوا طباقا ، ولم يقصدوا إلى تورية ، ولم ينقبوا عن مجاز ، ولم يفتشوا عن كناية ، وما وقع لهم من ذلك– على ندرته– فإنما كان عفوا صفوا ، لا أثر فيه لتعمل وتكلف خلا بعضا من سجع الكهان كما سيجيء .

قال ابن رشيق(١) : « والعرب لاتنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافى وتلاحم الكلام بعضه ببعض » ويقول الجرجانى(٢) ، « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط » .

فأنت ترى من هذا أن العرب كانوا يحرصون على المعنى قبل حرصهم على الصياغة ، وترى إذا أنت استعرضت أشعارهم أن مثلهم الأعلى فى القصيدة أن تبدأ غالبا بالنسيب بذكر الحبيبة القاصية ، والوقوف على رسوم

---

(١) العمدة جـ ١ – ١٠٨

(٢) الوساطة : ٣٧

منازلها الدارسة التى سكنتها زمنا فكانت نعيمها وسعادتها ، وورونقها وبهجتها ، والتحسر على ذلك العهد السعيد الذى ولى عن هذه الديار ، والتشوق إلى الحبيبة بحنين الإبل ولمعان البرق والطرب إلى النسيم العليل الذى ينبعث من جهتها ، والنار التى تلوح وتظهر من ناحيتها . ثم ينتقل إلى وصف الرحيل والانتقال والسفر وما صادف فيه من أهوال، وما جاب من مفاوز ، وما أنضى من ركائب ، وما تجشم من هول الليل وظلمته ، وما تكبد من لفح النهار وحرارته ، ويخرج من ذلك فى اقتضاب — فى الأعم الأغلب — إلى غرضه المروم من القصيدة فيمدح أو يفخر ، وأحيانا يختم كلامه بطرف من الحكم والأمثال والنظرات فى أحوال الحياة الاجتماعية للعرب .

ذلك هو الطابع الذى انتهى إليه الشعر يوم نضج فى أوزانه وقوافيه ويوم أصبحت اللغة العربية فسيحة معبدة يتسع صدرها لكل المعانى ولا يضيق ذرعا بمختلف الهواجس ومتباين الأفكار، وذلك هو القالب الذى وضع فيه ماتناقله الرواة من أمهات القصائد والأراجيز .

أثر الإسلام فى الشعر :

فلما جاء الإسلام وكان أهم حدث فى حياة العرب ، ونزل القرآن وكان أبلغ كتاب فى أغراضه ومعانيه ، وأفصحه فى ألفاظه ومبانيه ، كان لذلك أثر بعيد المدى فى أغراض اللغة ومعانيها وألفاظها وأساليبها ، لتشرب قرائح المسلمين روح القرآن وحفظهم كلامه ، وإعجابهم به ، وإنما تتكيف ملكة الشاعر أو الخطيب أو الكاتب بمحفوظه فلا غرو إذا ظهرت أغراض القرآن ومعانيه ، ورقة ألفاظه وإحكام أساليبه فى لغة المسلمين شعراً وخطابة وكتابة ، إلا أن طابع الشعر ومنهجه ، ومثله الأعلى لم يتغير تغيراً جوهريا بل مضى الشعر الإسلامى فى طريقته ومعناه وجزالة عبارته وضخامة لفظه كما كان الشعر الجاهلى ، وبقى جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة والقطامى كزهير والأعشى والنابغة فى تناول الشعر نوعا وغرضا وطابعا ، فلم يبتكر شعراء الإسلام مذهبا جديداً فيها ، وكل ما جد إنما هو تغيير خفيف فى أغراض

الشعر تبعا للتغير الخفيف الذى حدث فى الجزيرة العربية فى صدر الإسلام ، فقوى النسيب مثلا وكان ضعيفا فى الجاهلية ، واشتد الهجاء وأقذع الشعراء فيه إقذاعا لم يعهد من قبل، وظهر الشعر السياسى فى العراق والشام ، وكل هذا فى محاذاة الشعر الجاهلى وحدوده ، وقد كانت نواته موجودة من قبل ، وليس من جديد سوى أنه ساير الحياة الجديدة وخضع لعوامل الرقى فيها ، ولسنا ننكر أن معانى الشعر قد اتسعت ، وأن عباراته قد هذبت وصقلت ، فصفت وعذبت ، وأن أثر القرآن ونقاء أساليبه وصفاءها يظهر واضحا فى شعر جرير والفرزدق وغيرهما من الإسلاميين ، بل إن ذلك ليتمثل فى شعر حسان وكعب بن زهير ، إلا أننا نحكم مطمئنين إلى هذا الحكم بأن هذا كله وأبعد منه لم يغير من كنه الشعر ، فظل جاهليا وبقيت أعلامه ماثلة واضحة كما أقامها الجاهليون ، فترسّمها من بعدهم الإسلاميون ، وليس بغريب أن يبقى الشعر الإسلامى جاهليا فى جملته ، فلا تزال الدولة عربية خالصة للعرب ، ولا تزال منابع الثقافة عربية محضة خلع عليها الإسلام ثوب التثقيف ، والتهذيب ، ولايزال جمهور الشعراء عربا صقلت طباعهم ، ولطفت أذواقهم يعتزون بالعربية ويفخرون بها ، ويذودون عن حياضها شوائب العجمة ، ويأنفون من مخالطة الأعاجم ، ولا تزال الصحراء مقام الكثير منهم ولم يكن تحضر من سكن المدن منهم لينزع من شعره متانة العبارة العربية ، وفحولة اللهجة البدوية ، للصوقهم بالبادية وأهلها وقرب عهدهم بسكناها فكأنهم وهم على شرفات قصور دمشق قاعدة ملكهم الجديدة فى عهد الأمويين يحنون إلى باديتهم ويتلهفون عليها(١) ويوجهون نظرات الحب والشوق تلهفا على سابق حرية بدوية وحنينا إلى عيشة إن لم تكن رغدة ناعمة فهى طليقة من كل عقال ، ولا تزال السجية الصحيحة والفطرة السليمة هى الطابع الغالب عليهم فى أشعارهم والنفرة

(١) قالت مجون الكلابية زوج معاوية :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلى من قصر منيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلى من نقر الدفوف
وأكل كسيرة فى كن بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيف

وغير هذا مما روى عن عبد الملك بن مروان وغيره كثير لا يفوت من يطلبه .

من مخالطة الأعاجم متأصلة فى نفوسهم وليس بين الحياة الإسلامية إلى أوائل القرن الثانى الهجرى والحياة الجاهلية من فوارق جوهرية تؤذن بتغير الشعر الجاهلى إلى شعر جديد فى ثوب جديد .

لذلك كان الإسلاميون والجاهليون فى كفة واحدة فى نظر علماء اللغة والنحو احتجوا بهؤلاء كما احتجوا بأولئك ، وذلك من أقوى المظاهر التى تؤكد صدق مانقول من أن الشعر الإسلامى امتداد للشعر الجاهلى .

تلك هى حال الشعر العربى حين آل إلى المحدثين فى أوائل القرن الثانى الهجرى فقد انتهى إليهم صحيحا فى مبانيه ، قويا فى عباراته ، جزلا فى تراكيبه ، محكما فى نسجه ، واضحا فى معانيه ، لاتزال تستشف فيه روح البداوة القديمة فى المنهج والصياغة والطابع والخيال ، والبعد عن الحشو ، والنفرة من المبالغة المغرقة الغالية وعدم العمد والقصد إلى الأصباغ التى عرفت فيما بعد بالبديعية إلا ما جاء عن عفو الخاطر مما يستدعيه المعنى استدعاء قويا ويطلبه طلبا ملحا ، فقد كانت هذه الأصباغ وتلك الحلى عند الإسلاميين كما كانت عند أسلافهم ومورثيهم الجاهليين فطرية سمحة ، لا تعمل فيها ولا كلفة فإذا وقعت فى النظم على هذا النحو أكسبته الروعة وكسته ثوب البهاء وكانت مثل الياقوتة التى تكون فريدة العقد وعين القلادة ودرة الشذر ، وإذا اعترضت فى كلام وشحته وزينته وتميزت عنه ، وبانت بحسنها منه ، فإن كانت فى رسالة كانت عينها أوفى خطبة كانت وجهها أوفى قصيدة كانت غرتها اللامعة ودرتها الساطعة ، قال عبد الله بن المعتز(١) : « قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء

---

(١) مقدمة كتاب البديع .

فى بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل » وقال الآمدى(١) : « على أن مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب ولاهو أول فيه ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منشورة متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها وهى فى كتاب الله عزوجل موجودة » .

ما أصباغ البديع التى طرقها الأقدمون ؟

وقد آن لنا بعد هذا العرض الموجز الذى استدعاه المقام أن نتحسس أمثلة لهذه الألوان البيانية التى وقع عليها فيما بعد اسم البديع ، والتى طرقها القدماء جاهليين وإسلاميين من غير أن يعرفوا لها هذه الأسماء مسايرين الخطيب القزوينى صاحب الإيضاح فى الأنواع البديعية التى ذكرها فيه ، تاركين التشبيه وأنواع المجاز والكناية ، والالتفات ، وأنواع الإطناب التى اعتبرت فى زمن غير قليل ضمن أصباغ البديع فإنه لا سبيل إلى استقصائها وحصرها لوفرتها فى الشعر القديم وفى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف وكثرة إطافتها بها ، ولئلا يتشعب بنا الحديث ويطول إذا حاولنا ذلك ، وفى أنواع الإيضاح كفاية .

هذا ، وسنأخذ أنفسنا بذكر الأمثلة وسردها ، لكل نوع من الأدب الجاهلى أولا ، ومن القرآن أو الحديث ثانيا ، ومن الأدب الإسلامى إلى أوائل القرن الثانى الهجرى ثالثا ، أومن أحدها إذا لم يعثرنا التنقيب على شواهد منها جميعا ، وليست بنا حاجة إلى التعرض لهذه الأصباغ بالتحديد والتعريف فلهذا مكانه فى طيات القسم الثانى من هذا البحث ، كما أنه ليست بنا حاجة إلى تحليل كل شاهد بعد تقديمنا الطابع العام الذى ينتظمها جميعا فى هذا العهد القديم .

---

(١) الموازنة ص ٦ .

فمن الأنواع الفطرية التى طرقها القدماء عن عفو الخاطر من غير أن يعرفوا لها أسماء وسميت فى عصر المحدثين بالبديع .

(١) الطباق :

منه قول امرئ القيس الكندى :

مكر مفر مقبل مدبر معـــاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

طابق بين الإقبال والإدبار :

وقول زهير بن أبى سلمى :

ليث بعثر (١) يصطاد الرجال إذا ما كذب (٢) الليث عن أقرانه صدقا

طابق بين الصدق والكذب .

وقول النابغة الجعدى مقابلا « وهو مخضرم » وقد نسب إلى الذبيانى خطأ :

فتى تم فيــه ما يسرّ صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

قابل يسر وصديق بيسوء والأعادى .

ومن التدبيج قول عمرو بن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضــا ونصدرهن حمراً قد روينا

كنى ببياض الرايات عن عدم القتل ، وبحمرتها عن القتل .

ومن الطباق قول الله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » طابق بين الإيتاء والنزع ، والإعزاز والإذلال .

وقوله تعالى — فى أسلوب المقابلة « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً » قابل الضحك القليل بالبكاء الكثير ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » قابل الكثرة عند الفزع بالقلة عند الطمع .

---

(١) على وزن بقم ( مأسدة : قاموس ) .

(٢) كذب : جبن أو أحجم .

وقول الفرزدق :

لعن الإله بنى كليب أنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حمــارهم وتنــام أعينهم عن الأوتار

طابق فى الأول بين الغدر والوفاء ، وفى الثانى بين الاستيقاظ والنوم .

وقول الأخطل :

المهديات لمن هوين مســبة والمحسنات لمن قلين مقــالا

طابق بين الهوى والقلى :

(٢) مراعاة النظير :

منه قول امرئ القيس :

فدمعهما سَكْبٌ وسَحٌ ودِيمَةٌ ورَشٌ وتوكافٌ وتنهمــلان(١)

جمع بين الأمور المتناسبة مما هو ظاهر .

وقوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ومن تشابه الأطراف قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ومن إيهام التناسب قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» ومن مراعاة النظير قول ذى الرمة :

لَمْياء فى شفتيها حُوّةٌ لَعَسٌ وفى اللثات وفى أنيابها شَنَبُ(٢)

وقد قلنا فيما تقدم إن الشعر فى العصر الإسلامى لا تزال صياغته فى جملتها تمثل الفطرة والسليقة وقلما يجنح شاعر إسلامى عن الجيد المقبول إلى الضعيف المرذول . أما الكلام فى المعانى فكان على شىء من السعة والكثرة لأنها من روح الشاعر ومن عقله ولأنها تعبير عن شعوره وتفكيره ، وكثيراً ما يكون فى ذلك مآخذ فقد عارض الكميت الأسدى وهو من آخر شعراء العهد القديم

(١) سكب : مسكوب . سح : سائل . الديمة المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . توكاف : مصدر وكف البيت أى قطر . تنهملان : تفيضان .

(٢) لمياء : بينة اللمى وهى سمرة فى الشفة تستحسن. اللعس : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا من باب طرب . الشنب : الحدة فى الأسنان ، وقيل برد وعذوبة ، وامرأة شنباء : بينة الشنب .

قصيدة ذى الرمة التى منها هذا البيت المتقدم والتى مطلعها :

مابال عينيك منها الماء ينسكب .

واجتمع ببعض الشعراء – ومنهم نصيب – وأنشدهم ما قال حتى إذ بلغ إلى قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعـــة وإن تكامل فيها الأنس والشنب

عقد نصيب واحدة : فقال له الكميت ماذا تحصى ؟ قال خطأك . باعدت فى القول ما الأنس من الشنب ؟ ويروى صاحب الأغانى البيت بوجه آخر .

وقد رأينا بها حوراً منعمـــــة بيضا تكامل فيها الدلّ والشنب

ثم يقول . فقال له نصيب : أين الدلّ من الشنب . إنما يكون الدلّ مع الغنج(١) . ونحوه ، والشنب مع اللعس أو ما يجرى مجراه من أوصاف الثغر والفم ثم قال له نصيب : ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لميـــاء فى شفتيهـــا حوّة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

فترى أن نصيباً بفعله هذا ينقد معنى فى بيت الكميت لأنه قد جمع بين أمرين لا يجتمعان لافى الخارج ولا فى الذهن ، أو لم يأت بما سمى فيما بعد بمراعاة النظير .

(٣) الإرصاد :

منه قول زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا – لا أبالك – يسأم .

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى .

إذا لم تستطيع شيئاً فدعـــــه وجاوزه إلى ما تستطيـــع

وقول الله تعالى : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

وقول عدى بن الرقاع العاملى فى صفة الظبية وولدها :

تزجى أغنّ كأن إبرة روقة(٢) قلم أصاب من الدواة مدادها

---

(١) هو الشكل والدل .

(٢) قرنه .

ومنه ما حكى أن جريراً أنشد بحضرة الفرزدق — وفى عنفقة الفرزدق حينئذ شيب أبياتا جاء منها :

لها برص بجانب أسكتيها(١) ....

فوضع الفرزدق يده على عنفقته وقال : قبحك الله ، قبل أن يتلفظ جرير بعجز البيت . وهو : كعنفقة الفرزدق حين شابا .

(٤) المشاكلة :

منها قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا

وقول الله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

وشهد رجل عند شريح القاضى فقال. إنك لَسَبْط(٢) الشهادة. فقال الرجل: إنها لم تُجعَّد عنى » قال صاحب الإيضاح : « فالذى سوّغ تجعيد الشهادة هو المشاكلة . فلولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها .

(٥) الاستطراد :

قال ابن رشيق(٣) : وأوضح الاستطراد قول السموءل وهو أول من نطق به حيث يقول :

وإنا لقوم ما نرى القتــل سبّة إذا ما رأته عامــر وسلــول

ومنه قول الله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » قال الزمخشرى: « وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر السّوءات وخصف الورق عليها إظهارا للسنة فيما خلق الله من اللباس ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى » .

---

(١) الأسكتان أو الإسكتان : شفرا الرحم أو جانباه مما يلى شفرتيه.
(٢) السبط بتسكين الباء وتحريكها ككتف : نقيض الجعد وسبط ككرم وفرح .
(٣) العمدة ج ٢ — ٣٧

وقول جرير : —

وضعت على الفرزدق ميسمي وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل(١)

فهجا واحدا واستطرد باثنين .

(٦) العكس والتبديل :

منه قول الأضبط بن قريع من شعراء الجاهلية :

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه

ومنه قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى »

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم » جار الدار أحق بدار الجار »

وقول عبد الله بن الزبير الأسدى .

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

(٧) الرجوع :

منه قول زهير :

قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم

وقول حسان :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعرى

(٨) التورية :

منها قول عمرو بن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)

قال ابن حجة الحموى(٣): « وهو فعل من السخاء أو اسم من السخونة »

وقول النابغة الذبيانى :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما(٤)

(١) ضغا : استخذى . الميسم : المكواة جمعه مياسم ومواسم .

(٢) شعشع الشراب : مزجه. الحص : الورس أو الزعفران جمعه حصوص . سخى كسعى ودعا وسرو ورضى — سخاء وسخى الخ ( قاموس ) .

(٣) الخزانة للحموى — ٢٩٦

(٤) قال ابن حجة — ٢٩٧ : أراد بالصيام ها هنا القيام وورى بقوله : تعلك اللجما عن الصيام ، وفى القاموس : صام : أمسك عن الطعام والسير الخ .

ومنه قوله تعالى: « الرحمن على العرش استوى » فإنه أراد استولى.

وقول يحيى بن منصور الحنفى « إسلامى »

فلما نأت عنا العشيرة كلهـــا … أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنـــا عند يوم كريهةٍ … ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

قال صاحب الإيضاح « المراد به إغماد السيوف فإن الإغضاء مما يلائم جفن العين لا جفن السيف وإن كان المراد به إغماد السيوف لأن السيف إذا أغمد انطبق الجفن عليه وإذا جرد انفتح للخلاء الذى بين الدفتين ».

(٩) الاستخدام :

منه قول الله تعالى « لكل أجل كتاب — يمحو الله ما يشاء ويثبت » قال ابن حجة الحموى »(١): « فإن لفظة كتاب يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم. والكتاب المكتوب. وقد توسطت بين لفظتى أجل ويمحو فاستخدمت « فى » أحد مفهوميها وهو الأمد بقرينة ذكر الأجل. واستخدمت فى المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب بقرينة يمحو(٢).

ومنه قول معاوية بن مالك — وهو جاهلى — يصف قومه بالغلبة لغيرهم(٣)

إذا نزل السمـــاء بأرض قـــوم … رعيناه وإن كانوا غضابـــا

أراد بالسماء الغيث وبضميرها النبت.

(١٠) اللف والنشر :

منه قول امرئ القيس الكندى :

كأن قلوب الطير رطبا ويابســا … لدى وكرها العنّاب والحشف البالى

ومنه قول الله تعالى « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ».

---

(١) الخزانة : ٦٥

(٢) والاستخدام فى الآية جار على طريقة بدر الدين بن مالك فى المصباح ومحصلها. أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ثم يأتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر المعنى الآخر سواء كان اللفظان متأخرين عن المشترك أومتقدمين أو المشترك متوسطا بينهما (الخزانة لابن حجة — ٦٥).

(٣) هكذا فى المفضليات وينسب إلى جرير فى بعض المصادر.

وقول الفرزدق :

لقد خنت قوما لو رجعت إليهم ... طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا ... وراءك شذرا بالوشيج المقدم(١)

(١١) الجمع :

منه قول الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

(١٢) التقسيم :

منه قول زهير بن أبى سلمى :

فإن الحق مقطعه ثلاث ... أداء أو نفار أو جلاء

قال ابن رشيق(٢) : « قيل إن عمر بن الخطاب كان يتعجب من قول زهير فإن الحق .. ( البيت ) ثم قال . وسمى زهير قاضى الشعراء بهذا البيت . يقول . لا يقطع الحق إلا الأداء أو النفار . وهو الحكومة .. أو الجلاء وهو العذر الواضح ، ويروى . يمين أو نفار « وهذه الثلاث على الحقيقة هى مقاطع الحق كما قال . على أنه جاهلى وقد وكدها الإسلام » .

ومنه قول الله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعا » .

وقول نصيب : —

فقال فريق القوم لا ، وفريقهم ... نعم ، وفريق قال : ويحك لا أدرى

ولما قدم قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان خطب الناس فقال . « من كان فى يده من مال عبد الله بن حازم شىء فلينبذه وإن كان فى فمه فليلفظْه ، وإن كان فى صدره فلينفثه » .

ووقف أعرابى على مجلس الحسن البصرى فقال : « رحم الله عبداً أعطى من سعة أو آسى من كفاف أو آثر من قلة » . فقال الحسن البصرى : «ما ترك لأحد عذراً (٣) » .

---

( ١ ) فى رواية أخرى بالوشيج المقوم . والوشيج : شجر الرماح ، تشذر : تهيأ للقتال وتوعد وتغضب ونشط وتسرع إلى الأمر .

( ٢ ) العمدة ج ١ — ٤١

( ٣ ) المثل السائر — ٢٩٣

(١٣) الجمع مع التفريق :

منه قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » .

(١٤) الجمع مع التقسيم :

منه قول حسان بن ثابت .

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

(١٥) الجمع مع التفريق والتقسيم :

منهقول الله تعالى : « يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد : فأما الذين شقوا فى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد، وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

ومن استيفاء أقسام الشىء قول زهير بن أبى سلمى :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم مافى غدٍ عمِ

وقوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أويزوجهم ذكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » .

(١٦) التجريد :

منه قول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

وقوله : —

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وقول قتادة بن مسلمة الحنفى « جاهلى »(١) :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

وقول الله تعالى : « لهم فيها دار الخلد» .

وقول أرطاة بن سُهَيّة المرى :

إن تلقنى لا ترى غيرى بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

(١) الكامل للمبرد جـ ٤ — ٣٧ ، النقائض — ٩٠ ، ١٣٤

(١٧) المبالغة :

منها قول امرئ القيس الكندى « تبليغ » :

فعادى عداء بين ثور ونعجـــة دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

وقول المهلهل « غلو » :

فلولا الريح أسمع من بحجـــر صليل البيض تقرع بالذكـــور

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب . فبين حجر وهى قصبة اليمامة وبين مكان الوقعة عشرة أيام .

وقول زهير بن أبى سلمى « إغراق مقرب بلو » :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعـــدوا

وقول الله تعالى: «يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » «غلومقبول» .

وقول عمرو بن الأيهم التغلبى – أموى – « إغراق » :

ونكـــرم جارنا ما دام فينـــا ونتبعه الكرامة حيث مـــالا

(١٨) المذهب الكلامى :

منه قول زهير بن أبى سلمى :

ومايك من خير أتوه فإنمـــا توارثه آباء آبائهم قبـــل

وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجهُ(١) وتنبت إلا فى منابتها النخـــل

وقول الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »

وقول الفرزدق : –

لكل امرئ نفسان : نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفـــع للنـــدى إذا قلّ من أحرارهن شفيعهـــا

(١٩) حسن التعليل :

أما حسن التعليل فلم أظفر له بمثال جاهلى وليس ذلك بعجيب أومستنكر فالقوم مجبولون على تعليل الأشياء – إن عللوها – تعليلا حقيقياً مطابقاً للواقع

(١) الخط : مرفأ السفن بالبحرين وإليه نسبت الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها .
الوشيج : شجر الرماح .

ولا كذلك حسن التعليل مع فيه من خلابة وسحر واعتماد على الخيال وكذلك لم أجد له شاهداً من القرآن أو السنة وليس ذلك بغريب للعلة السابقة .

ولم أجد ما يصح أن ينصب شاهداً له من الأدب الإسلامى — على أحد احتمالين — سوى قول النجاشى فى هجاء بنى العجلان رهط ابن مقبل :

وما سمى العجلان إلا لقـــوله خذالقعب(١)واحلب أيهاالعبدواعجل

وبنو العجلان يزعمون أنه سمى كذلك لتعجيله قرى الضيوف ، ولكن الشاعر قد ادعى علة أخرى للتسمية وهو قوله : « خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل » أى لبخله وإقتاره ، وعلى هذا يكون من حسن التعليل بالتحديد الذى حده به صاحب الإيضاح ، أما إذا كان المعنى على الكرم فيكون تعليلا حقيقياً ، وسيأتى فى الفصل الثانى بمشيئة الله . أن أول من استخدم حسن التعليل من غير احتمال شىء آخر هو بشار بن برد زعيم البديعيين فى عهد المحدثين .

(٢٠) التفريع :

منه قول الأعشى (٢) :

ما روضة من رياض الحَزْن معشبة غنّاء جاد عليها مسبل هطـــل
يضاحك الزهر منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهـــل
يوما بأطيب منها طيب رائحـة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل(٣)

وقول الكميت(٤) من قصيدة فى مدح آل البيت :

أحلامكم لسقام الجهل شافيـــة كما دماؤكم تشفى من الكلـــب

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « الخمر تعلو الخطايا كما أن شجرها يعلو الشجر » .

(١) القعب : القدح الضخم الجافى أو إلى الصغر أو يروى الرجل . جمعه أقعب وقعاب وقعبة.

(٢) خزانة ابن حجة الحموى — ٥٠٦ .

(٣) الحزن : ما غلظ من الأرض، وحى من غسان، وبلاد العرب، وعين لبنى يربوع وفيه رياض وقيعان ، مكتهل : نبت كهل . ومكتهل متناه ، واكتهلت الروضة عمها نورها (قاموس) شرق : شرقت الشمس : ضعف ضوؤها أو دنت للغروب.

(٤) المتوفى سنة ١٢٦ هو من ختم بهم عهد الأقدمين .

## (٢١) تأكيد المدح بما يشبه الذم :

منه قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم  بهن فلول من قراع الكتائب

ومنه قول الله تعالى : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا »

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » .

وقول النابغة الجعدى « مخضرم » .

فتى كملت أخلاقه غير أنه  جواد فما يبقى من المال باقيا

## (٢٢) التوجيه :

منه قول الله تعالى : « واسمع غير مسمع وراعنا » فغير مسمع حال من المخاطب وهو ذو وجهين يحتمل الذم، أى اسمع مدعوا عليك بلا سمعت ويحتمل المدح أى اسمع غير مسمع مكروها من أسمع فلان فلانا إذا سبه وكذلك راعنا أى ارقبنا فيكون مدحا ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها.

## (٢٣) الهزل الذى يراد به الجد :

منه قول امرئ القيس الكندى :

أيقتلنى أنى شغفت فؤادها  كما شغف المهنوءةَ الرجُل الطالى(١)

وقد علمت سلمى — وإن كان بَعْلَها  بأن الفتى يهذى وليس بفعال

الشاهد فى قوله : « وليس بفعال » لأن ظاهره هزل ولكنه أريد به الجد وهو هجو بعلها .

## (٢٤) تجاهل العارف :

منه قول زهير بن أبى سلمى :

وما أدرى وسوف إخال أدرى  أقوم آل حصن أم نساء

وقول النابغة الذبيانى :

ألمحة من سنا برق رأى بصرى  أم وجه نعم بدا لى أم سنا نار

ومنه قول الله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو فى ضلال مبين » .

وقول العرجى :(٢)

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا  ليلاى منكن أم ليلى من البشر

(١) المهنوءة : المطلية بالهناء وهو القطران .

(٢) نسب إلى المجنون . وإلى ذى الرمة . وإلى الحسين بن عبد الله العرفى والراجح الأول ( معاهد التنصيص ) .

(٢٥) القول بالموجب :

منه قول الله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ومنه قول القبعثرى للحجاج وقد قال له متوعداً « لأحملنك على الأدهم » : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب »

(٢٦) الاطراد :

منه قول الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد — وأنت امرؤ ترجو بقاءك وائل(١)

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ذلك مبلغ الجهد ، ووسع الطاقة من أمثلة البديع الذى أطلق عليه العلماء اسم المعنوى فى العهد القديم : أما الذى أطلقوا عليه اسم اللفظى فإليك ما أعثرنا عليه البحث من أمثلة :

(١) الجناس :

منه قول امرئ القيس :

لقد طمح الطمّاح من بعد أرضه — ليُلْبسَن من دائه ما تلبسا(٢)

ومنه قول الله تعالى : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى — ومازال محبوسا عن المجد حابس

وقول النعمان بن بشير :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنـــا — وليلك عما ناب قومك نائم(٣)

(١) وفى رواية العمدة (ترجو شبابك وائل) .

(٢) الطماح : الشره ورجل من أسد بعثوه إلى قيصر فمحل بامرىء القيس حتى سم ، ومعنى محل : مكر وكاد .

(٣) تبتدركم : تعاجلكم .

وقول خالد بن صفوان لرجل من بنى عبد الدار : « هشمتك هاشم ، وأمتك(١) أمية ، وخزمتك مخزوم ، فأنت ابن عبد دارها ومنتهى عارها » .

(٢) رد العجز على الصدر :

منه قول امرئ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانـــه   فليس على شيء سواه بخزان

وقول زهير : —

كذلك خيمهم ولكل قـــوم   إذا مستهم الضراء خيم(٢)

ومنه قول الله تعالى : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

وقول الصّمة بن عبد الله القشيرى « إسلامى » :

تمتّع من شميم عـــرار نجـــد   فما بعد العشية من عرارا(٣)

وقول أبى الأسود الدؤلى . واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان :

وماكل ذى لب بمؤتيـــك نصحه   وماكل مؤت نصحه بلبيب

وقول جرير :

سقى الرّمل جون مستهل ربابه   وما ذاك إلا حب من حل بالرمل(٤)

(٣) لزوم مالايلزم :

منه قول طرفة بن العبد البكرى :

ألم تر أن المال يكسب أهله   فُضوحا إذا لم يعط منه نواسبه(٥)

أرى كل مال لا محـــالة ذاهبا   وأفضله يبقى وإن مات كاسبه

ومنه قول الله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » .

وقول الفرزدق :

منع الحياة من الرجال ونفعهـــا   حدق تقلبها النساء مراض

وكأن أفئدة الرجال إذا رأوا   حدق النساء لنبلهـــا أغراض

(١) أمه أما فهو أميم ومأموم : أصاب أم رأسه . وشجه آمة ومأمومة : بلغت أم الرأس . خزمتك : خزمه يخزمه شكه والبعير جلل فى منحزه الخزامة .

(٢) الخيم : السجية والطبع بلا واحد ، وفرند السيف .

(٣) العرار : بهار البر واحدته بهاء .

(٤) هل المطر : اشتد انصبابه ، كانهل واستهل ، الرباب ، السحاب الأبيض .

(٥) فضحه : كشف مساويه ، والاسم الفضيحة والفضوح .

(٤) القلب :

منه قول الله تعالى : « وربك فكبر » وقوله : « كل فى فلك » .

(٥) الموازنة :

منها قول الله تعالى : « ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة » .

وقوله تعالى : «وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم».

تلك هى الأنواع التى عثرنا على شواهد لها فى العهد القديم ، وكل الأمثلة التى وقفنا عليها سواء ذكرناها هنا أم لم نذكرها توخيا للإيجاز ، تمثل فى جملتها صدق الفطرة وسلامة السليقة دون تكلف أوتصنع ،ودون عمد أوسبق إصرار ، ولكنا حينما نريد أن نعرض للسجع بالتمثيل من الأدب الجاهلى ، نجد أن هذا اللون من الكلام ، لم يصح دائما ، ولم يسلم من التكلف فى كل حال ، بل يتجاذبه الحسن والقبح فمنه الصحيح ومنه السقيم ، ومنه الفطرى ومنه المتكلف ، وذلك خروج على معروف الطبيعة العربية ، والسجية البدوية .

(٦) السجع :

فمن السجع الفطرى قول قس بن ساعدة الإيادى(١) : « أيها الناس اسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ،(٢) وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر وبحار تزخر » ..... الخطبة .

وقول عبد المطلب بن هاشم يهنىء سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة(٣) : « إن الله تعالى – أيها الملك – أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم معدن وأطيب موطن »(٤) .

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ – ٣٥

(٢) ساج : ساكن دائم .

(٣) المرجع المتقدم ج ١ – ٣١

(٤) باذخ : عال . الأرومة : الأصل . جرثومته . أصله .

ومن السجع المتكلف ، قول سطيح بن مازن من كهان العرب فى تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمى أحد ملوك اليمن : «أحلف بما بين الحرتين من حنش ليهبطن أرضكم الحبش وليملكن ما بين أبين إلى جرش »(١) .

وقول شق أنمار من كهان العرب فى تعبير تلك الرؤيا . « أحلف بما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان . وليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن إلى ما بين أبين ونجران(٢) » .

وأعمق من هذا فى التكلف البارد قول مسيلمة الكذاب : « ياضفدع نقى نقى لم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين »(٣) .

وكثير من ذلك قد توخى فيه الكهان السجع مناجاة لآلهتهم ، وتقييداً لحكمهم ، وفتنة لسامعيهم ، وإلهاء لهم عن تتبع ما يلقون إليهم من أخبار .

على أننا وإن ساورتنا الشكوك وخالجتنا الريب فى مثل هذه النصوص لخروجها على مألوف الطبيعة العربية والسجية البدوية — لا نستطيع الجزم بكذبها جميعا فقد نقل صاحب اللسان عن الأزهرى(٤) قال : « ولما قضى النبى صلى الله عليه وسلم فى جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة . قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطلّ : قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم وسجع الكهان » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن السجع فى الدعاء .

قال الأزهرى : إنه صلى الله عليه وسلم كره السجع فى الكلام والدعاء لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذى لا يشاكل السجع فهو مباح فى الخطب والرسائل .

( ١ ) الحرتين : تثنية حرة وهى أرض ذات حجارة نخرة سود . الحنش : الذباب والحية وكل ما يصاد من الطير والهوام وحشرات الأرض، جرش : كزفر مخلاف باليمن .

( ٢ ) تاريخ الأدب الجاهلى للأستاذ محمد هاشم عطيه . وطفلة البنان : رخصة البنان ناعمته .

( ٣ ) نهاية الإيجاز للرازى — ٣٤

( ٤ ) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهرى الملقب بالأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ له معجم سمى بتهذيب اللغة .

## مبعث الخلاف بين العلماء فى السجع :

هذا الحديث كان مثاراً لخلاف نجم بين العلماء موضوعه : السجع من حيث الإباحة والحظر ومن حيث جواز إطلاقه على مافى القرآن من فواصل وعدم الجواز .

لهذا نستجيز القارئ فى أن نضع بين يديه صورا من تلك الآراء مجرّدة من التعليق ، ثم نختار منها ماهو الحق فى نظرنا ثم نوشح ذلك بأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب الإسلامى حتى يتم الغرض المروم .

رأى الباقلانى :(١)

عقد أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن فصلا فضفاضا دلل فيه على نفى السجع من القرآن نلخصه فى النبذ التالية :

قال – ذهب أصحابنا كلهم(٢) إلى نفى السجع من القرآن . وذكره أبو الحسن الأشعرى فى موضع من كتبه .

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك ، وأقوى أدلتهم على ذلك :

اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام ، ولمكان السجع قيل فى موضع ( هارون وموسى) وفى موضع (موسى وهارون) .

وقد جاء فى القرآن سجع كثير فلا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه .

ويبنون الأمر فى ذلك كله على تحديد معنى السجع . قال أهل اللغة( هو موالاة الكلام على وزن واحد » قا ابن دريد . سجعت الحمامة معناها رددت صوتها وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجع تميل بها ضحوا غصون نوائع(٣)

ثم أخذ الباقلانى يرد على المثبتين ما ذهبوا إليه . قال : لوكان القرآن

( ١ ) هو القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٤

( ٢ ) أراد بهم أصحاب أبي منصور الماتريدى .

( ٣ ) نوائع : موائل .

سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذين جاءوا وكلموه فى شأن الجنين ، كيف ندى من لا شرب(١) ولا أكل ولا صاح فاستهل أليس دمه قد يطل ، فقال أسجاعة كسجاعة الجاهلية . وفى بعضها أسجعاً كسجع الكهان . فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون فى دلالته . ثم قال : والذى يقدرونه أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، ثم قال : إنه لوكان سجعا لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر ، ثم قال : ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لاينبى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر مسجعا لأن رؤية يتفق ولايختلف . ثم قال : وأما الأمور التى يستريح إليها الكلام فإنها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك إنما يكون فى الشعر ، وربما كان ماينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل ، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام ولاتناسب . ثم قال : وأما ماذكروه من تقديم موسى على هارون فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع فليس بصحيح ، لأن الفائدة عندنا غير ماذكروه وهى : أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به

---

(١) فى الأصل . من لا أكل ولا شرب ولعل فيه تقديما وتأخيراً حتى يوافق جميع الروايات فى سائر المصادر .

ومكررا ، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى معناها وتحويها وجعلوها بإزاء ما جاء به وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به ، كيف وقد قال لهم : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » ، فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقين جميعا دون التسجيع الذى توهموه ، ثم قال : فبان بما قلنا أن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الأسجاع لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها فى باب السجع. ثم ختم الفصل بقوله : ولابد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام وعباد بن سليمان وهشام القرطى ويذهب مذهبهم فى أنه ليس فى نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف .

## رأى أبى هلال العسكرى(١) :

عقد أبو هلال فى الصناعتين بابا للسجع والازدواج جاء فيه : « وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة لما يجرى مجراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه : «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا » قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : « والسماء والأرض . والقرض والفرض . والغمر والبرض »(٢) ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل قال له : « أندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل فمثل ذلك يطل » أسجعا كسجع الكهان. لأن التكلف فى سجعهم فاش ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : «أسجعا» ثم سكت. وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه

(١) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

(٢) الغمر : الماء الكثير . والبرض : القليل .

كثير من كلامه عليه السلام مثل قوله : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ».

وكان صلى الله عليه وسلم ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله : « أعيذه من الهامة(١) والسامة وكل عين لامة » وإنما أراد ملمة . وقوله : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات قصدا للتوازن وصحة التسجيع ، فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف .

رأى ابن سنان الخفاجى(٢):

قال ابن سينا فى سر الفصاحة : « ومن المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ السجع والازدواج ويحدّ السجع بأنه تماثل الحروف فى مقاطع الفصول : ثم قال : وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً . وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلّف وتعمل واستكراه فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه . وحجة من يختاره . أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، والفصيح من العرب . وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله ثم قال : والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل أنه لأجله ورد ، ليصير وصلة إليه ، ثم قال : أما الفواصل التى فى القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعا وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى أنفسها ، وقال على بن عيسى الرمانى ، « إن الفواصل بلاغة والسجع عيب »

---

(١) الهامة : الدابة . السامة : الموت وذات السم من الحيوان . العين اللامة المصيبة بسوء .

(٢) هو الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ . وكان ممن يقولون بالصرفة .

وعلّل ذلك بما ذكرناه . من أن السجع تتبعه المعانى والفواصل تتبع المعانى . وهذا غير صحيح .

والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول على ماذكرناه ، والفواصل على ضربين ، ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقاربت حروفه فى المقاطع ولم تماثل ولايخلو كل واحد من القسمين أعنى المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعا سهلا وتابعا للمعانى وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ؛ فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض ، ثم أشار إلى أن ما فى القرآن كله إنما هو المحمود وساق أمثلة للمتماثل ثم قال : « وهذا جائز أن يسمى سجعا لأن فيه معنى السجع ولامانع فى الشرع يمنع من ذلك .

ثم قال : وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض فى التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضا ، وصوتا ، وحروفاً ، وكلاماً ، وعربياً ، ومؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة فى البيان ، ولافرق بين الفواصل التى تماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع .

## رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر (١) :

عقد ابن الأثير فى كتابه المثل السائر فصلا مطولا فى السجع حذا فيه حذو أبى هلال فى الصناعتين ، وأربى عليه حتى تكلف إلى أن جعل ماورد من نظم القرآن غير مسجع لإرادة الإيجاز والاختصار ، استمع إليه يقول (٢) : « فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعا وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه

---

( ١ ) هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى الشافعى المتوفى سنة ٦٣٧ .

( ٢ ) المثل السائر — ٧٦

غير المسجوع . قلت فى الجواب . إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتى جميعها مسجوعة وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار ، والسجع لا يواتى فى كل موضع من الكلام على حدّ الإيجاز والاختصار فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب(١) ثم قال : وها هنا وجه آخر أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين ، ثم أربى عليه فى توجيه الحديث ، قال : إن النهى لم يكن عن السجع نفسه وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع . ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنين بغرّة عبد أو أمة . قال الرجل «أأدى من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل ذلك يطل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » أسجعا كسجع الكهان » ، أى أتتبع(٢) سجعاً كسجع الكهان ، وكذلك الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً . ثم قال فالسجع إذن ليس بمنهى عنه وإنما المنهى عنه هو الحكم المسجوع(٣) فى قول الكاهن فقال الرسول صلى الله عليه وسلم » أسجعاً كسجع الكهان » أى أحكما كحكم الكهان ، وإلا فالسجع الذى أتى به الرجل لا بأس به لأنه قال ، أأدى من لا شرب ولا أكل، ولا نطق فاستهل، ومثل ذلك يطل، وهذا الكلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة » .

رأى التنوخى : (٤)

قال التنوخى(٥) « ومن عاب السجع مطلقاً فمخطئٌ لأن السجع فى

(١) وتلك جرأة وبعد عن هدف التوفيق من ابن الأثير إذ كلامه يعطى أن الله ترك السجع إلى غيره لأنه لا يواتى فى كل موضع على حد الإيجاز والاختصار تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

(٢) هكذا فى الأصل ولعلها أتسجع .

(٣) فى الأصل المتبوع والظاهر أنها المسجوع .

(٤) هو الإمام زين الدين أبوعبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخى أحد أعيان المائة السابعة الهجرية .

(٥) فى كتابه الأقصى القريب فى علم البيان .

كلام الله كثير وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والفصحاء كقس وسحبان ، وإنما يعاب السجع إذا احتاج متكلفه إلى تنقيص المعنى أو زيادته وفعل ذلك فالذى فاته من المعنى يقبح وترك السجع لا يقبح فيكون حينئذ السجع قبيحا لاستلزام القبح . وبهذا يجاب عن قول النبى صلى الله عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهان ». فإنه لو عاب السجع مطلقاً لما نطق به ، ولا يمكنه أن يعيبه مطلقاً لمجيئه فى كتاب الله تعالى كثيرا . فالمعيب هو سجع مخصوص وهو الذى مثله بسجع الكهان وهو الذى ينقص المعنى أو يزيده » .

رأى اليمنى صاحب الطراز(١) :

عرض للمذهبين فى السجع(٢) . الجواز والكراهة وساق أدلة للمذهبين تدور حول ما تقدم ، وجنح إلى الجواز ، وبين أنه هو المعول عليه عند علماء البيان.

هذه جولة جلناها فى كتب المؤلفين الذين عرضوا للسجع عرضناها بإيجاز استيفاء للبحث وتتميما للغرض .

رأينا فى السجع :

والذى نراه مطمئنين إليه هو ما يراه المجيزون من أمثال أبى هلال وابن سنان والتنوخى باحتياطاتهم المتقدمة . وذلك لحسن موقعه فى السمع وتأثيره فى النفس ، وخلابته للعقل ، وسهولته فى الحفظ ، ولا نرى مانعاً من إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل ، ما دام لم يرد نص شرعى صريح يمنع من ذلك كما قال ابن سنان الخفاجى .

رأينا فى توجيه النهى :

ونرى أن النهى فى الحديث منصب على سجع الكهان لا لتكلفه فحسب كما قال أبو هلال ولا لما تضمنه من حكم كما قال ابن الأثير ، بل إنه قد عهد فى الكهان التمويه فى أحكامهم ، وإنما يقصدون إلى السجع مصرين عامدين . لأنه يخامر العقول ويخدر الأعصاب ، ويؤثر فى النفوس تأثير السحر ، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة ، والموسيقى القوية ،

(١) هو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ .
(٢) الطراز – ١٩٣

التى تطرب لها الأذن وتهش النفس ، فيغفل العقل عن تمييز الصحيح من الزائف ، ويلهو الفكر عن تمحيص الحق من الباطل .

هذا ، ولا حرج علينا بعد هذا البيان أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعاً وهاك أمثلة من سجع القرآن .

قال تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ... » إقرأ هذه السورة تجد سجعاتها قد بنيت على حرف الراء ولا تجد حرفاً مستكرها ، ولا فاصلة قلقة ، ولا تضحية بالمعنى فى سبيل السجع وهكذا فكل ما جاء فى القرآن من سجع يأخذ هذا الحكم مما جعله يفيض سحراً ويقطر عذوبة ويسيل رقة وتترامى فى تضامينه مواطن سجود البلغاء والفصحاء .

ووصف عبد الله بن عباس أبا بكر الصديق رضى الله عنهما قال :(١) «رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن المنكر ناهيا ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعا وكفافا ، وسادهم زهداً وعفافا » .

ومن خطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ :« وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان »(٢) .

وما إلى ذلك من الأمثلة التى توحيها الفطرة الخالصة . وتمليها السليقة الصحيحة التى لم تكدر صفوها صنعة المحدثين وتكلف كثير منهم ، ذلك ما سنكشف عنه فى الفصل التالى بمشيئة الله تعالى .

---

(١) جمهرة خطب العرب جـ ٢ – ٨٣

(٢) جمهرة خطب العرب جـ ٢ – ٣٠٠




# الفصل الثاني

## الصبغ البديعي في عصر المحدثين إلى عصر التأليف

أبرز عناصر هذا الفصل :

استحالة الحياة العربية فى العصر العباسى إلى حياة أخرى — مظاهر التحول ، إغراق الشعراء فى حياة الترف ، تأثر عقولهم بهذه الحياة المعقدة — الشعر أسرع أنواع الكلام لأن تنطبع فيه مقومات الأمة — الشعر العباسى امتداد للشعر القديم فى نوعه وغرضه — حدوث بعض الأغراض والإسراف فى بعض آخر — رأينا فيما جدّ من أغراض — محاولة المحدثين التجديد — مقياس الجمال الشعرى عند المحدثين يغايره عند الأقدمين — عدم انفرادهم واستقلالهم بما سموه البديع أو اللطيف — استنجادهم الأدب القديم فى هذا البديع — الابتعاد بأصباغ البديع بالتدريج عما عرفه الأقدمون — سبب ذلك — عبيد الشعر لم يخرجوا عن مألوف الأقدمين — صيرورة الشعر مذهبين — مذهب المجددين ومذهب المحافظين — أقدم النصوص التى تشير إلى البديع وتذكر هواته — اضطراب هذه النصوص فى تحديد زعيم البديع فى العهد الحديث — التوفيق بينها — المدارس البديعية من حيث الطابع أربع (١) المدرسة الأولى عميدها بشار ومن رجالها ابن هرمة — العتابى — منصور النمرى — أبو نواس — الطابع العام لهذه المدرسة — أولية حسن التعليل — أثر الفارسية فيه — دليل ذلك . (٢) المدرسة الثانية يمثلها مسلم بن الوليد — طابع هذه المدرسة . (٣) المدرسة الثالثة يمثلها أبو تمام — تلمذته على ديوان مسلم — تملّؤه من الثقافة والفلسفة — بديهته وذكاؤه — شقاؤه فى هذه الصنعة — طوابع مدرسته — غرامه بالجناس — اعتلال كثير منه عليه — مآخذ العلماء عليه فى الاستعارات . (٤) المدرسة الرابعة — عماداها . البحترى ، وابن المعتز — طابع البحترى وغرامه بالطباق ، طابع ابن المعتز وغرامه بالتشبيه الحسى — موقفه من

أبي تمام — ابن المعتز أول من ألف فى البديع كتابا — تدهور الصنعة البديعية فى الشعر بعدهما — متى نضجت الصنعة البديعية فى النثر. رجالها— حكم عام على الصنعة البديعية ينتظمها فى جميع العصور .

***

قدّمنا فى الفصل السابق أن الحياة العربية فى القرن الأول الهجرى لم تختلف كثيراً عن الحياة فى العصر الجاهلى ، ولم تتباين عنها تبايناً يقضى باستحالة الشعر الجاهلى إلى شعر آخر ، إذ كان ينبع من المعين الذى نبع منه الشعر الجاهلى وكانت الأمة معتزة بعربيتها ، فخورا بعاداتها وتقاليدها ، حريصة على سلامة أخلاقها محتفظة بدينها وإسلامها ، فلما كانت أوائل القرن الثانى الهجرى ، أخذت الحياة العربية تسير بخطا فسيحة ، وتقفز قفزات سريعة فى طريق الابتعاد عن العصر الجاهلى، فما إن جاءت الدولة العباسية ووطدت دعائم خلافتها على أنقاض الأمويين بإفناء جيوشهم والقضاء على مشايعيهم ، وإعمال السيوف والأموال فيمن يدعون إلى أنفسهم بأحقية الخلافة ، حتى أخذوا يجنون ثمار ما ظفروا وساقتهم الطمأنينة وحفزهم الأمن ، ودفعهم الرخاء ، إلى التبسط فى ألوان الترف والحضارة ، والانكباب على العلوم والثقافات المتداولة بين الأمم التى أخضعوها لسلطانهم ، فهرعوا إلى تحصيلها جادين مسرعين ، فلم يدعوا علماً إلا زاولوه ولا صناعة إلا عالجوها ، فبرز منهم فى ألوان الثقافات عدد غير قليل . ممن أحيوا معالمها وأوضحوا آثارها ورفعوا منارها فى العربية . فكانوا مبعث الخير والبركة ، واليمن والإقبال على علوم هذه اللغة ومعارفها فى جميع الأصقاع والبقاع التى سادتها إلى هذا الأوان . فتلونت المنابع الفكرية فى حياة الأمة العربية ، وكان نقل قاعدة الخلافة ومثابة الشعراء والعلماء . من الشام إلى العراق إعلاماً بوقوع العرب تحت تأثير الفرس . فتوطدت الروابط بين العرب والأمم التى أخضعوها ، وتم التفاهم بالمصاهرة والإقامة والولاء ، وتعقدت الصلات وتشابكت بينهم وبين الأمم الملاصقة لهم . وعاش العرب معيشة حضرية مترفة لاتمت إلى الصحراء بل إلى المدن وما فيها من زخارف الحياة ومتعها . نعم إن العرب تحضروا بعض التحضر فى العصر الأموى فسكنوا المدن وعاشوا فيها ، ولكن هذا التحضر لم ينزع من أعماق نفوسهم طبيعة البداوة ولا سيما فى حياتهم

الشعرية فما تزال نماذج الشعر العربى تفصح عن حوادث الصحراء ، وتتحدث عن مشاهد البداوة كما نرى عند جرير والفرزدق ، والأخطل وغيرهم ، أما فى العصر العباسى فقد بلغت المملكة العربية أسمى ذرى الحضارة وأرفع قمم المدنية ، فعم الأمن ، وكثر الخير وتعددت مناحى الرزق ، وتفرغ العرب للتمتع بما يدرّه الملك الفسيح من ألوان النعيم ، فرتعوا فى بحبوحة العيش ، ورفلوا فى أبهى أنواع الحلل ، فارتدوا الخز والديباج واستبدلوا بالعباءة المطارف والغلائل ، وبالمضارب التى بسطها الرمال ، قصوراً شامخة فرشها الطنافس والبسط ، وعلى جدرانها الستائر الحريرية الموشاة بالفضة والذهب ، تحوطها الحدائق الغن ، وتجرى من تحتها الأنهار العذبة ، وبذلك أخذت حياة العرب الاجتماعية تتحول فى جميع نواحيها تحولا حقيقياً ، وصقلت طباعهم ، ورقت أذواقهم ، وأضحت بداوتهم أثراً من بعد عين ، وتغيرت أصول العادات والأخلاق ففشا المجون ، وانتشرت الزندقة ، وشاع الجهر بالفسق ، وتعقدت الحياة العربية الساميّة فصارت حياة ملتوية مشوبة ، تجمع بين الساميّ والآرى ، آخذة من هذا ومن ذاك بأتم حظ وأوفر نصيب .

وقد أقام كثير من الشعراء فى الحواضر الإسلامية وكانوا أقرب الناس إلى الخلفاء والأمراء ، وأدناهم مجالس من الخاصة والكبراء ، وأكثرهم اتصالا بذوى الترف والرخاء ، واختلافاً إلى أندية الطرب والغناء فكان حظهم من تلك الحضارة أتم وأوفر ونصيبهم من هذا النعيم أضخم وأجزل ، فرتعوا فى ثياب العيش الرغد مع الخلفاء والأمراء والوزراء والعظماء ، وتملئوا من زخرف الحياة ومتع الدنيا مما جعل كثيراً منهم فى عداد ذوى الغنى والثراء .

قال ابن رشيق(١) : « وأما المجدودون فى التكسب بالشعر ، والحظوة عند الملوك، فمنهم سلم الخاسرمات عن مائة ألف دينار ولم يترك وارثاً . وأبو العتاهية صنع : —

تعالى الله يا سلم بن عمـــــــــرو     أذل الحرص أعناق الرجال

وكان صديقه(٢) جدا ، فقال سلم : ويلى من ابن الفاعلة جمع القناطير

---

(١) العمدة : ٢ — ١٧٧

(٢) يعنى سلما .

من الذهب ونسبني إلى ما ترون من الحرص ، ولم يرد ذلك أبو العتاهية لكن دعاه يعجبه كما يفعل الصديق مع صديقه ، ومروان ابن أبي حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ...... وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما وصل إليه لكنه كان متلافا سمحاً وكان يتساجل في الإنفاق هو وعباس بن الأحنف ، وصريع الغواني ، وكان البحترى مليّا(١) قد فاض كسبه من الشعر ، وكان يركب في موكب من عبيده ، وأما أبو تمام فما وفى حقه مع كثرة ما صار إليه من الأموال لأنه تبذل وجاب الأرض وكذلك أبو الطيب » ويقول أبو الفرج الأصبهاني :(٢) « وكان المهدى يعطى مروان وسلما الخاسر عطية واحدة فكان سلم يأتى باب المهدى على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ولباسه الخز والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه » .

وهكذا عاش غير سلم من الشعراء فتأثرت عقولهم بهذه الألوان الجديدة وانطبعت في مخيّلاتهم صور جديدة ومشاهد جديدة لم يألفها أهل البادية ولم تخطر لهم ببال ، وأضحى مراد القول أمامهم متراميا فسيحاً ، ومجال الخيال متسعاً رحيباً من مناظر ساحرة تسمع الصم وتنطق البكم ، وتسيل القرائح الجامدة ، وتوقد نار الأفكار الخامدة ، وتطلق الألسن من عقلها ، فتجرى بأعذب مقال وأروع بيان فما على الشعراء إلاّ أن يفتحوا أعينهم فيبصروا ، ويجيلوا خواطرهم فيصوروا ، تملى عليهم تلك الحضارة فيقولون ، وتحرّك من وجدانهم فينطقون .

وإذا كان الشعر للأمة مرآة حياتها ، ولسانها المترجم عن أحوالها ، والمصور لأخلاقها والممثل لعواطفها ، وأدق مشاعرها ، والمفصح عما يحوطها ويكنفها فهو أسرع أنواع الكلام لأن تنطبع فيه مقوّمات أحوال الأمة ، وتعكس فيه صورة أخلاقها وأحوالها الاجتماعية ، وأطوع قبولا لما تمليه الحضارة ، وأصدق تمثيلا لما توحيه المدنية ، فلا عجب إذا تأثر بهذه الألوان الجديدة وبدا في ثوب من الزخرف والتنميق والزينة ليس له به إلف في سابق

(١) مليا : مخفف مليئا .
(٢) الأغاني : ٢١ – ٧٨ .

زمانه ، ولا عجب إذا سار الشعر فى طريق الصنعة سيراً حثيثاً ودبّ خلفه النثر دبيباً خفيفاً .

ولكن على الرغم من ذلك كله ظل الشعر العربى فى نوعه عند المحدثين غنائياً لم يتغير عما ألفه الجاهليون والإسلاميون . وبقيت أغراضه كما كانت عند الأقدمين يتوزّعها المديح والهجاء والوصف والتحزب .

الجديد فى أغراض الشعر ورأينا فيه :

وكل ما جدّ فى هذه الحياة اللاهية الناعمة إنما هو الإكثار من شعر المجون واللهو والاستهتار بالشراب ، ووصف القصور والدور والرياض والأزهار ، وإذا أنعمنا النظر فى ذلك كله لم نلفه جديداً بالمعنى الصحيح إذ له أصل فى الشعر القديم عند الأعشى وطرفة ، والمنخل اليشكرى ، والوليد ابن عقبة ، والأخطل ، والقطامى ، والوليد بن يزيد ، نعم وجد غرض جديد فى الشعر العربى على يد المحدثين هو الغزل بالمذكر ، وقد ساعد على إبرازه من حيز العدم إلى حيز الوجود ضعف الوازع الدينى والخلقى ، وانحلال السياج الاجتماعى ، ومسايرة الشعراء للحياة الجديدة والتمشى معها فى بعض صورها وألوانها ، على أنه من السهل لدى الشعراء نقل وصف المرأة إلى الغلام فيكون الجديد هو نقل الغزل من المؤنث إلى المذكر فلا يكون جديداً بمعناه الصحيح عندنا ، فليس فى الشعر العباسى إذن من جديد فى نوعه أو غرضه . فالمحدثون نهجوا نهج القدماء فى نوع الشعر وفى أغراضه ومراميه فمدحوا وهجوا وانتصروا للعصبية ورثوا ، وتشيعوا للأحزاب ، وقالوا فى المجون وفى الخمر وهذه جميعاً أمور عرض لها القدماء من قريب أو من بعيد .

ومع أن المحدثين ترسّموا آثار القدماء فى نوع الشعر وفى غرضه . فقد حاولوا التجديد مسايرة لروح العصر ومجاراة للحياة الجديدة ، فساروا فى حدود القديم وهم يبغون الجديد ، فاضطروا أن يكون إبداعهم وابتكارهم ضمن هذه الحدود .

وهنا نتساءل . ما تجديد المحدثين . ؟

قلنا فى الفصل السابق ، إن الهدف الأسمى للشعر عند القدماء . كلام

يسيل عن فيض السليقة ، وقول ينبعث عن وحى الفطرة ، ومعان تمليها عليهم حياتهم وما فيها من صور ومشاهد ، أبرز مميزاتها الوضوح ، وأجلى خصائصها السهولة دون مجهود عميق ، أو غوص شاق ، فى أساليب رصينة قوية تغمرها الفحولة ، وتكسوها الجزالة لا يقصد بها إلا إبراز المعنى وتحديده . فأما الهدف الأسمى للشعر عند المحدثين فقد كان شيئاً آخر غير ما حرص عليه المتقدمون ، أرادوا أن يقرضوا شعراً يشف عن روعة الحياة وجمالها وفهموا من جمال الشعر ورواته غير ما فهمه الأقدمون ، فالجمال الشعرى القديم هو السلامة فى الفطرة والصدق فى التعبير ، والقوة فى الإبانة والوضوح فى التصوير ، وإرسال بوارع الكلم حسبما يوحى به الطبع الجياش وتلهم الفطرة الصافية ، أما المحدثون وقد ترسموا آثار الأقدمين فى نوع الشعر وأغراضه كما قلنا فقد وجدوا المجال ضيقاً عليهم ، والأبواب موصدة فى وجوههم .
وأينما ولوا وجوههم نحو الابتكار والإبداع وجدوا القدماء قد عبدوا الطرق وأوضحوا المعالم وأتوا على كل مناحى القول ، فالعبارات الجزلة والأساليب القوية استأثر بها القدماء ، ومعانى المديح والهجاء والرثاء قد طرقت منذ قرون ، فساورهم أوساور كثيراً منهم الاعتقاد بأن المعانى قد نفدت ، وأن لا ملكية فيها ولا فضل لواحد منهم ، وأن أهم شىء ينبغى أن تتسامى إليه نفوسهم ، وتعقد عليه آمالهم فى التجديد حتى يبين سبقهم ويظهر تفوقهم إنما هو الصياغة ، فليس هم المحدثين أن يقولوا أى قول ، بل همهم أن يبرزوا أقوالهم محلاة بأبهى حلل البيان ، موشاة بأروع سمات الكلام ، وذلك لا يتأتى إلا بالزخرف فى العبارة والتنميق فى الصياغة ، والتوليد فى المعنى ، والمبالغة فيه والإحالة إلى حد قد يخرجه عن حدود المعروف ، ويبعده عن آفاق المعقول ، وافتراض العلل الخيالية التى نبت عنها عقول الأقدمين ، وتجافت عنها نفوسهم لإيلافها الصدق فى القول ورغبتها فى تصوير الواقع الملموس على ما هو عليه من صور القوة أو صور الضعف ومع هذا لم يستمدوا نواة تجديدهم من مقومات حياتهم ، وما تمليه عليهم مشاهداتهم ، بل هرعوا إلى الأدب القديم يستنجدونه ، ونقبوا فى نصوصه عما يكون رائعاً جميلا ، وخلاباً أخاذاً ، وتعقبوه ، وحفلوا به ، ووشحوا به شعرهم وأكثروا منه فاجتمع لهم من ذلك ما سردناه فى

الفصل السابق من طباق وجناس وما إليهما مما جاء به الجاهليون والإسلاميون عفوا من غير تلمّس أو تكلف ومن غير أن يعرفوا له اسما سوى أنه لون من ألوان البيان ، فأخذه المحدثون وتوفروا عليه ، وحلّوا به قريضهم ، وأطلقوا عليه اسم « البديع » .

وكلما تقدّم الزمن بالمحدثين وجاءت منهم طبقة أربت على سابقتها فى هذه الأصباغ وتفننت فى هذا البديع ، وأحدثت فيه فنوناً وابتكرت فيه أنواعاً أو عقدت فيه وفى أدواته ، حتى أضحى الشعر فناً وصنعة تعلوها الكلفة ، وأصبحت الألفاظ تبدل والعبارات تغير لا لأن المعنى يكمل بذلك أو يزداد وضوحاً أو يكتسب تحدداً — بل ليحدث اللفظ طرباً فى السمع وليتأتى به للشاعر صبغ من أصباغ البديع ، ولهذا كان التكلف أول ظاهرة فى شعر المحدثين .

قال ابن رشيق(١) : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين . ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن» وقال الجرجانى(٢): « فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط » .

برز الشعر فى ثوب جديد يغاير ما لبسه فى القديم وأصبح بعد حين من الزمان صنعة بالمعنى الصحيح يهيم الشاعر فيه وراء الأصباغ البديعية التى اتسمت بسمات الحضارة والترف ، واتشحت بوشاح العقل المفكر والعلم الغزير ، والمزاج الرقيق والبيئة الاجتماعية المنظمة ، وفاضت بالمذاهب الدينية والفلسفية التى تنزع إلى العمق وإلى التنسيق ، فابتعدت عن أصولها فى القديم ، وباينت ما كان يجرى منها على ألسن الأقدمين ، وما ذاك إلاّ لأن الأقدمين

---

(١) العمدة ج ١ — ٧٤

(٢) الوساطة — ٣٨

لم يكونوا أصحاب ثقافة أو صنعة أو فن ، بل كان الطبع فيهم جياشاً قوياً ، وكانت عباراتهم إفصاحاً واضحاً عن خواطرهم وما يجول بأنفسهم فلا يحذفون ولا يبدلون إلا إذا كان المعنى هو الذى يستدعى هذا الحذف أو يحتم هذا التبديل ولا يغيرون شيئاً بشيء إلا إذا كانت المعانى تكتسب قوة وروعة بذاك التغيير فالمعانى هى التى تستولى عليهم وهى التى تقودهم وهى التى تحركهم .

وما قيل عن طفيل الغنوى ، وزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، والحطيئة وعدى بن الرقاع ومن تأشبهم ولف لفهم ، من أنهم كانوا أصحاب أناة وروية فى الشعر وأنهم كانوا عبيداً له ، وأنهم خدموه فشقوا به وجهدوا فى سبيله ، فليس معناه التكلف أو الصنعة التى سنعرفها عند المحدثين ، بل كانوا حريصين على ألا تبرز أشعارهم للرأى العام إلا بعد تهذيبها ، ولم يكن هذا التهذيب إلا طرح مالا يحتاج إليه المعنى ، أو إبعاد معنى لا روعة له ولا قوة ، ولا جمال ولا بهاء ، أو استبدال عبارة بأختها أو لفظة بغيرها أتم منها وأكمل ، وما جاءهم من صبغ بديعى فقد كان من غير عمد أو سبق إصرار ومن غير أن يكون للشاعر محيص عنه ، وقد اطرد هذا الحكم العام للأقدمين فى سائر أنواع كلامهم ، قال عبد القاهر الجرجانى(١) بعد أن ساق أمثلة للسجع المقبول المستحسن من كلام القدماء : « فأنت لا تجد فى جميع ماذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبر به ، وأهدى إلى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء بقوله : « حلأت(٢) ركابى ، وشققت ثيابى ، وضربت صحابى . فقال له العامل : وتسجع(٣) إنكار العامل السجع ، حتى قال فكيف أقول ؟ وذلك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلاً بمعنى ، أو محدثاً فى الكلام استكراها ، أو خارجاً إلى تكلف واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه ، وقال الجاحظ لأنه لو قال حلأت إبلى ، أو جمالى ، أو نوقى ، أو بعرانى ، أو صرمتى(٤) ، لكان لم يعبر عن خفى معنا ، وإنما حلئت

(١) أسرار البلاغة — ٩ .

(٢) حلأه عن الماء تحليئا وتحلئة : طرده ومنعه .

(٣) رواية البيان والتبيين ج ١ — ٩٩٤ « أوسجع أيضا » .

(٤) الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين وقيل غير ذلك .

ركابه فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب. وكذلك قوله: « وشققت ثيابى، وضربت صحابى » .

أما المتكلفون من المحدثين فقد عمدوا إلى هذه الأصباغ عمداً ، ولم يرسلوا المعانى على سجيتها ويدعوها تطلب الألفاظ لأنفسها ، بل وضعوا فى أنفسهم أنه لابد من تجنيس أو تطبيق أوما إليهما بلفظين أو معنيين مخصوصين ، فوقع كثير منهم فى الخطأ الفاحش وأطلقوا ألسن العيب والقدح عليهم من عقلها ، وذهب رواء شعرهم وقوة طبعهم ضحية هذه الأصباغ التى آثروها بالاختيار والتقديم .

وأياً ما كان . فقد صار الشعراء المحدثون طائفتين تتّسم كل طائفة منهما بسمات تغاير الأخرى ، وصار الشعر مذهبين تبعاً لذلك . مذهب طائفة تترسم خطا الأقدمين ولا تحدث فى الشعر ألواناً جديدة إلا بالقدر الذى يتفق مع الروح العربية فبقوا على المنهج القديم والصياغة القديمة ، فكان شعرهم امتداداً للشعر القديم ، فهم يتأثرون خطا القدماء دون أن ينفصلوا عن عمود الشعر العربى ومناهجه القديمة إلا من حيث صفاتهم العقلية الجديدة التى ألمعنا إليها ، ومن هؤلاء مروان بن أبى حفصة ، وأشجع السلمى ، وعلى بن الجهم ، ودعبل الخزاعى ، وابن الرومى ، والمتنبى .

وطائفة أخرى ، جارت روح العصر ، وتمشت مع الحياة الجديدة ، فجنحت إلى التجديد الذى حدثناك عنه منذ قريب ، ومن هؤلاء . بشار بن برد ، وابن هرمة ، والعتابى ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، وابن المعتز ، والبحترى ، على اختلاف ما بينهم فى مقدار عنايتهم بهذه الأصباغ ، وأجلى ما كانت تلك العناية فى القرن الثالث الهجرى ، فالذين سبقوا من رجال البديع كانوا قريبين من القدماء وإن لم يتحدوا معهم ، وأما الذين جاءوا بعدهم كأبى تمام وابن المعتز فقد جروا بهذه الأصباغ أشواطاً ، وابتعدوا بها عن مألوف الشعراء الأقدمين .

وأقدم النصوص التى تعرف بهذا المذهب البديعى وتشير إلى رجاله الذين اعتنقوه قول الجاحظ(١) : « من الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة

---

(١) البيان والتبيين ج ١ — ٥٩

والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى وكنيتة أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع بقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة . » وقول عبد الله بن المعتز(١): «قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن الكريم واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون « البديع » ليعلم أن بشارا ، ومسلما ، وأبا نواس ، ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه » وقول الآمدى (٢) : « ليس الأمر لاختراعه « أبى تمام » لهذا المذهب على ما وصفته ولا هو أول فيه ، ولا سابق إليه بل سلك فى ذلك سبيل مسلم ، واحتذى حذوه . ثم قال على أن مسلما أيضاً غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو أوّل فيه ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها ، وقول الجرجانى(٣) فى أثناء حديثه عن أبى تمام وإيجاعه له : « وأنا أدين بتفضيله وتقديمه وأنتحل موالاته وتعظيمه وأراه قبلة أصحاب المعانى وقدوة أهل البديع » وقوله(٤): « فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط » وقول ابن رشيق(٥) : « على أن مسلماً أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغوانى إلا النبذ

(١) مقدمة كتاب البديع .
(٢) الموازنة — ٦ .
(٣) الوساطة — ٢٥ — .
(٤) ص ٣٨ .
(٥) العمدة — ١ — ١١٩ .

اليسيرة ، وهو زهير المولدين كان يبطئ في صنعته ويجيدها ، ثم قال : وقالوا .. أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هرمة ثم اتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابى ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحترى ، وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة إليه » .

فإذا ذهبنا نتحسس زعيم الصنعة البديعية فى عصر المحدثين على ضوء هذه النصوص طالعنا منها اضطراب ، وبادأنا تحير ، فالجاحظ وابن المعتز يريان أن زعيم هذه الحلبة وممهد ذلك الطريق هو بشار بن برد ، وإن كانا يختلفان فى التصريح بأسماء رجالها ، فيعد الجاحظ العتابى والنمرى ومسلم ابن الوليد وابن هرمة ويذكر ابن المعتز مسلما وأبا نواس ، ولكن إذا تأملنا نصيهما فقرأنا فى نص الجاحظ قوله: « كنحو منصور النمرى ومسلم ابن الوليد الأنصارى وأشباههما وقرأنا فى نص ابن المعتز قوله : « ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم » تلاقى النصّان وذهب ما بينهما من اختلاف لقبولهما كل من جنح إلى هذا المذهب وورد ورده .

وأما الآمدى وابن رشيق فيتفقان على أن زعيم هذه الصنعة هو مسلم ابن الوليد وإن كانا يختلفان اختلافا هينا يسيرا ، فالآمدى يحكم على مسلم بأنه أول من قصد هذه الأصباغ من المحدثين وأكثر فى شعره منها وهو متبع للقدماء وليس بالمبتدع المبتكر ، وابن رشيق يحكم عليه . بأنه أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولكنه لم يخل الأشعار المحدثة قبل مسلم من البديع وإن كان خفيفا يسيراً حيث قال: « ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغوانى إلاّ النبذ اليسير » ومن هذا يمكن أن نقول إنه يتفق مع الجاحظ وابن المعتز على أن البديع كان معروفا فى شعر المحدثين قبل مسلم ولكن أول من تكلفه هو مسلم . وقد قال بعد هذا . أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ... ولا شك أن هناك فرقا ملموسا بين التكلف الذى أسنده إلى مسلم ، وبين الفتق الذى أسنده إلى بشار ، ومن هنا يتلاقى مع الجاحظ وابن المعتز ولا يتباين عنهما ، ولعل

وجهة الآمدى فى إصراره على أن مسلما زعيم البديعيين فى عصر المحدثين مبنية على مانسلمه له من أن مسلما أول من أسرف فى الإكثار من البديع إسرافا لم يعهد من قبله ، وذلك لا يمنع أن يكون مسبوقا ببشار ومن تبعه ، فيتلاقى مع الجاحظ وابن المعتز وابن رشيق ، وأما الجرجانى فيحكم بأن أبا تمام عنده قدوة أهل البديع ، ولعل ذلك راجع إلى أن هذه الصنعة قد بلغت غايتها من النضج والاكتمال على يد أبى تمام ، وليس يعنى أنه أسبق المحدثين إلى هذا اللون من الكلام، يؤكد ذلك قوله بعد: « فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة .. تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع والمعروف أن أول من سماه بالبديع هو مسلم بن الوليد جاء فى معاهد التنصيص(١) فى ترجمة مسلم « وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقّب هذا الجنس بالبديع واللطيف » فيكون أول المتكلفين للبديع عند الجرجانى هو مسلم بن الوليد وذلك لا يمنع أن يكون مسبوقا إلى هذا البديع من المحدثين وإن لم يتكلفوه .

ولعل لكلمة « البديع » وما صحب معناها من تطور وتدرج دخلا فيما ظنّ من اضطراب بين هذه النصوص ، فقد كانت عند الجاحظ تعنى الاستعارة والتشبيه ولم نر للجناس والطباق ذكرا فى كتابيه البيان والتبيين ، والحيوان(٢) يرشح ذلك ويقويه قوله(٣) وقال الأشهب بن رميلة : —

وإن الألى حانت بفلج دماؤهم — هم القوم كل القوم يا أم خالد

همُ ساعد الدهر الذى يتقى به — وما خير كف لاتنوء بساعد

أسود شرىً لاقت أسود خفيّة — تساقوا على حرْدٍ دماء الأساود(٤)

قوله .. هم ساعد الدهر . إنما هو مثل . وهذا الذى تسميه الرواة البديع .

---

(١) معاهد التنصيص : جـ ٢ - ١٠

(٢) عدا أمورا سنذكرها فى الباب الثانى .

(٣) البيان والتبيين جـ ٣ — ٢٥٤ .

(٤) فلج : عين بين البصرة وضرية : ومن معانيه الظفر والفوز والشق نصفين ( قاموس) الشرى : طريق فى سلمى كثيرة الأسد . الخفية: الركية والغيضة الملتفة .

وقد قال الراعي :—

هم كاهل الدهر الذى يتقى به      ومنكبه إن كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث: « موسى الله أحدّ ، وساعد الله أشد » والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، والراعى كثير البديع فى شعره . وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع ، وكانت عند ابن المعتز تشمل هذين والجناس والطباق وما إليهما مما ضمنه كتابه ، وكذلك عند الآمدى والجرجانى ، ثم اتسعت فى عهد ابن رشيق فشملت هذه وغيرها .

وأيا ما كان فقد اتفقت كلمتهم على أن المحدثين لم يحدثوا البديع إحداثا ولم يبتكروه ابتكارا بل هم مقلدون للقدماء ، وكل ما كان لهم هو الإكثار من هذه الأصباغ وإطلاق اسم « البديع » عليها مع اختلاف مابينهم فى مقدار عنايتهم بهذه الصنعة فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعا لذلك ، كما اتفقوا تصريحا أو إلزاما على أن زعيم هذه الحلبة فى عصر المحدثين هو بشار بن برد .

قد ظهر إذن مذهب بديعى فى عصر المحدثين زعيمه بشار بن برد. ومن رجاله ابن هرمة ، والعتابى ، والنمرى ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبو تمام، والبحترى، وابن المعتز ، ولكنهم ليسوا سواء فى هذه الصنعة من حيث الإقلال والإكثار ، والتسهيل والتوعير ، والطابع والاتجاه .

لذلك رأينا تقسيمهم إلى أربع مدارس ، ولكل مدرسة طابعها الخاص بها ورجالها الذين انضووا تحت لوائها . فالمدرسة الأولى . عميدها بشار بن برد ومن تلامذتها . ابن هرمة ، والعتابى ، ومنصور النمرى ، وأبو نواس . والمدرسة الثانية . يمثلها مسلم بن الوليد ، والمدرسة الثالثة يمثلها أبو تمام ، والمدرسة الرابعة . عماداها . البحترى وابن المعتز ، وقد أخذنا أنفسنا حينما نعرض للحديث عن رجال هذه المدارس ، بذكر مايتعلق بالبديع بأوثق الأسباب وطرح مالا يمت إليه أو يمت من بعيد .

## ١ — المدرسة الأولى — عميدها بشار (١)

من المعروف أن عصور الانتقال لاتتكامل فيها الظواهر الجديدة فى الفن ولا تبرز فى حالة تامة مستوية الجوانب واضحة المعالم ، بل توجد المقدمات موزعة بين آخر العصر الذى سبقها وأوائل العصر الذى حدثت فيه ، وهذا هو معنى قول العلماء :

إن العصور الأدبية ليست بينها حواجز قوية بل يتدخل بعضها فى بعض وهذا أمر متعالم مشهور من الفضول أن يفصّل فى مثل هذا البحث .

فإذا أردنا تطبيق ذلك على مدرسة البديع الأولى ألفيناها برزخا بين القديم والحديث ، ومجازا عبر عليه البديع من مرابع (٢) البداوة إلى مقاصير الحضارة ، ومن ميدان القلّة إلى ميادين الكثرة ، وقد لمسنا ذلك بأنفسنا إذ كنا نبذل قصارى الجهد فى التنقيب عن بيت بديعى فى شعر أحد الأقدمين لننصبه شاهدا على الصبغ الذى نريد فإن وفقنا وجدنا النزر اليسير وإلاّ . علمنا أنهم لايعنون بهذه الأصباغ ولا يكثرون منها ولا يحفلون بها .

أما فى هذا العهد الذى يبدأ ببشار فيصبح من السهولة بمكان العثور على شواهد متعددة لأى صبغ من الأصباغ التى طرقها القدماء فأكثر منها المحدثون ، أو ابتدعها المحدثون ولم يعرفها القدماء . قال عبد الله بن المعتز (٣) بعد أن بين أن بشارا ومن تبعه لم يسبقوا إلى هذه الأصباغ : « ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم » ويقول عن القدماء : « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع » .

فقد اتسمت هذه المدرسة بالإكثار من ألوان البديع بالنسبة إلى القدماء ،

---

(١) هو أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ الفارسى أصلا العقيلى بالولاء ، الضرير الشاعر المشهور أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين من الشعراء وكان من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، توفى سنة ١٦٧ أوسنة ١٦٨ هـ عن نيف وتسعين سنة وكان الفاتح للشعراء باب التهتك على مصراعيه.

(٢) المرابع : جمع مربع الدار والمحلة والمنزل . مقاصير : جمع مقصورة : الدار الواسعة المحصنة .

(٣) فى مقدمة كتاب البديع .

وبالسذاجة والسهولة ، والقرب من صدق الفطرة ، وسلامة السليقة بالنسبة إلى متكلفى البديع من المحدثين ، كما امتازت عن العهد القديم بالسبق إلى بعض الأصباغ والمبالغة فى المعنى إلى حدّ يراه الأقدمون ممقوتا مذموما ، وإلى هذا ، فقد بدا الطابع الثقافى على ألوان البديع التى استخدمها رجال هذه المدرسة بدوًّا يعتبر حديثا بالنسبة إلى الأقدمين وإن كان قليلا خفيفا ومتعالما مشهورا بالنسبة إلى من جاء بعدهم من المحدثين .

وقد شهد الجاحظ لبشار بحسن البديع كما مر قريبا ، كما نعته بالطبع والتفوق فى سائر مناحى القول وضروب الكلام قال(١) : « كان بشار خطيبا صاحب منظوم ومنثور ، ومزدوج وسجع ورسائل وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفننين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه » وقال(٢) : فى أثناء حديثه عن المطبوعين من المحدثين : « وبشار أطبعهم » وقال أبو الفرج الأصبهانى(٣) : « وقال الأصمعى فى تفضيل بشار على مروان بن أبى حفصة : وبشار سلك طريقا لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به ، وهو أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعا » .

لهذا كان بشار أول من فتق البديع ، واستحلى مذاقه ، ووجه إليه أنظار الشعراء والكتاب والخطباء فى عهد المحدثين ، وأكثر منه فى شعره وسبق إلى بعض ألوانه إذ لدينا من الشواهد مايثبت أنه أول من سبق إلى حسن التعليل واستخدامه فى شعره على وجه لايحتمل غيره ، فقد كان له ندماء خمسة ، فماتوا كلهم فرثاهم بشار بقوله(٤) :

يابن موسى فقد الحبيب على العيـ ن قذاة وفى الفـؤاد سقام
كيف يصفو لى المقام وحيدا والأخلاء فى المقابر هام(٥)
نفستهم علىّ أمّ المنـــايا فأنا متهم بعنف فناموا(٦)

(١) البيان والتبيين ج ١ — ٥٩ .
(٢) ج ١ — ٥٨ من المصدر نفسه .
(٣) الأغانى ج ٣ — ٢٥ المطبعة الأميرية .
(٤) أخبار بشار للقرنى — ٨٦
(٥) هام : جمع هامة وهى طائر من طير الليل ، وهو الصدى ( قاموس ) .
(٦) نفستهم : نفس علية الشىء نفاسة : لم يره أهلا له .

فتراهُ يستلهم الخيال ولا ينزع إلى الواقع . فيعلل موت أصدقائه بعلّة خيالية غير واقعية حيث يقول : نفستهم علىّ أم المنايا .... (البيت) وذلك ما لم يكن يجنح إليه خيال العربى القديم المحدود بالبيئة كما أسلفنا ، وليذكر القارىء أننا قدّمنا شاهدا على حسن التعليل من الشعر القديم ، ولكنا لفتنا النظر إلى أنه ليس بالقاطع لاحتماله الحقيقة والخيال ، فيكون السابق إلى هذا اللون من الكلام فى الشعر العربى هو بشار بن برد غير مدافع .

ولعلّ الامتزاج الثقافة الفارسية بالعربية وتلاقيهما عند بشار دخلا فى إبراز هذا الصبغ البديعى على يديه ، يرشح هذا الظن بيت فارسى قديم نقل إلى العربية شاهدا على أن الصفة غير ممكنة هذا نصه :—

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته　　لما رأيت عليها عقد منتطق(١)

وليس معنى هذا أننا نؤمن بأن حسن التعليل فارسى بحت ، ولكنا نرجح أن الثقافة الفارسية والعربية تضافرتا على إحداثه فبرز على يد بشار فى أكمل معانيه وأخصّها ، واقتفاهُ الشعراء من بعده فذاع وكثر فى الشعر العربى إلى اليوم ولو لم يكن لبشار سوى هذا النوع الذى سبق إليه لاستحق زعامة هذه المدرسة عن جدارة ، فكيف وقد أكثر من سائر الألوان التى طرقها القدماء وأربى عليهم فيها فمن طباقه قوله :—

حتـــام قلبى مشغول بذكركم　　يهذى وقلبك مربوط بنسيانى
لهفى عليها ولهفى من تذكرها　　يدنو تذكرها منى وتنـــآنى
إنى لمنتظر أقصى الزمان بها　　إن كان أدناه لايصفو لحرّان

فتلك ثلاثة أبيات متوالية لم يخل بيت منها من طباق ، فتراه فى الأول يطابق بين الذكر والنسيان ، وفى الثانى يطابق بين الدنوّ والنأى ، وفى الثالث يطابق بين الأقصى والأدنى ، وهذه الكثرة لم نشهدها فى الأدب القديم ، وإن كانت أقرب إلى الفطرة منها إلى التكلف .

ومن طباقه الذى جرى هذا المجرى قوله مادحا . عمر بن العلاء .

إذا أيقظتك حروب العدى　　فنبه لها عمـــرا ثم نم

(١) أسرار البلاغة — ٢٤١

طابق بين اليقظة والنوم ، وقوله :

وما نلقاهم إلا صدرنا ... بريّ منهم وهم حرار

ونلمح فى هذا الطباق بين الريّ والحرارة ظاهرة لم نشهدها فى البديع القديم وهى المزج بين الطباق والاستعارة حيث استعمل الرى والحرارة استعمالا مجازيا ، ومن تقسيم بشار قوله يفتخر :

فرحوا فريق فى الإسار ومثله ... قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه

ومن هذه القصيدة بيته المشهور فى التشبيه :—

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن الرجوع قوله : —

نبئت فاضح أمه يغتابنى ... عند الأمير وهل علىّ أمير

ومن التوجيه قوله :—

خاط لى عمرو قبـــاء ... ليت عينيه ســـــواء

قلت شعراً ليس يدرى ... أمديح أم هجــــاء

ومن مبالغاته قوله :—

سلبت عظامى لحمهـــا فتركتها ... عوارى فى أجلادها تتكسر

وأخليت منها مخها فجعلتهـــا ... أنابيب فى أجوافها الريح تصفر

خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى ... ضنى جسدى لكننى أتستر

وليس الذى يجرى من العين ماؤها ... ولكنها نفس تذوب فتقطـــــر

وليس يخاف أن هذه المبالغة أعمق من مبالغة القدماء فى البعد عن المعقول ومن جناسه قوله :—

وقد كانت بتدمر خيل قيس ... فكان لتدمر منها دمـــار

جانس بين تدمر ودمار ، وقوله مجانسا ومقابلا .

ربما سرّك البعيـــد وأصلا ... ك القريب النسيب نارا وعارا

جانس بين «نار وعار» وقابل بين « سرّك والبعيد ، وأصلاك القريب» ومن رد العجز على الصدر قوله :

طلوب ومطلوب إليه إذا غـدا     وخير خليليك الطلوب المطلب[1]

وهكذا إذا فريت عن أصباغ البديع في شعره ، وجدته أكثر من استعمالها بالنسبة إلى الأقدمين ، ومزجها بالمجاز فى بعض الأحايين ، كما تلفيها وسطا بين الأقدمين والمتكلفين من المحدثين ، وكل ذلك من غير تلمس أو تكلف ، ومن غير عمد أو سبق إصرار ، لذلك نستطيع أن نحكم بأن بشارا لم يتخذ البديع مذهبا يجهد نفسه فى تحصيله والاحتفال به وإلا لما تفاوتت أشعاره هذا التفاوت البعيد المدى قال أبوالفرج[2] : « كان إسحاق الموصلى لايعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط فى شعره وأشعاره مختلفة لايشبه بعضها بعضا ) وروى أيضا عن ابن خلاد أنه قال :[3] «قلت لبشار إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت . قال وما ذاك . قلت بينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ماغضبنـا غضبـة مضرية     هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

إذا ما أعـرنا سيدا من قبيلة     ذرى منبر صلى علينـا وسلمـا

تقول :

ربابة ربـة البيت     تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات     وديك حسن الصوت

فقال : لكلٍّ وجه وموضع . فالقول الأول جد . وهذا قلته فى ربابة جاريتى وأنا لاآكل البيض من السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك فهى تجمع البيض فهذا عندها من قولى أحسن من ( قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ) عندك » وقال :[4] « كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التى لاحقيقة لها ... ثم مثّل بأمثلة كثيرة :

فلو أنه اتخذ البديع مذهبا يحرص عليه ويجهد فى سبيله لما تباينت أشعاره

(١) طلوب : راغب إلى

(٢) الأغانى ج ٣ – ٢٨

(٣) ج ٣ – ٣١

(٤) ج ٣ – ٣٢

هذا التباين . وعلى الجملة فقد كان بديع المدرسة الأولى برزخا بين القديم والحديث من حيث الكم ومن حيث الطابع ، وقد اطرد ذلك فى جميع الأصباغ البديعية التى جاءت فى أشعار رجال هذه المدرسة . فها هو ذا ابن هرمة[1] الذى شهد له الجاحظ بإصابة البديع حيث قال :[2] « ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة » تقرأ له :

وأنى لميمون جوارا وإننى إذا زجر الطير العدا لمشوم

تجده يطابق بين اليمن والشؤم طباقا سهل المأخذ قريب التناول ، وهكذا تجده فى جناسه حيث يقول :

فخذ الغنيمة واغتنمنى إننى غنم لمثلك والمكارم تشترى

وقد روى له صاحب الأغانى[3] أشعارا كثيرة جاء فى أثنائها كثير من المجازات والتشبيهات . وأما العتابى الذى قال فيه الجاحظ[4] : « والعتابى يذهب شعره فى البديع » فقد كان أكثر هذه الفئة بديعا ، فمن طباقه قوله :

تلوم على ترك الغنى باهليـــة زوى الفقر عنها كلّ طرف وتالد

طابق بين الغنى والفقر ، وبين الحديث والقديم فى بيت واحد .

ومن مبالغاته قوله :

مازلت فى غمرات الموت مطّرحا يضيق عنى فسيح الرأى من حيلى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

وقوله :

إن الصبابة لم تدع منى سوى عظم مبرّى

---

( ١ ) هو ابراهيم بن هرمة بن هذيل وقد روى صاحب الأغانى ج ٤ — ١١٤ عن ابن الأعرابى أنه كان يقول ختم الشعراء بابن هرمة ، وجاء فى شرح شوا هد الرضى وكان مولدا بن هرمة سنة سبعين وو فاته . فى خلافة الرشيد بعد الخمسين تقريبا أ . ه هامش الأغانى .

( ٢ ) البيان والتبيين ج ١ — ٥٩

( ٣ ) الأغانى ج ٤ — ١٠٢ — ١١٤

( ٤ ) البيان والتبيين ج ٣ — ٢٥٤

ومن جناسه قوله :

فإذا ماهبت ذا أمـــل  مات ما أملت من سببه

جانس بين أمل وأملت :

ومن جناسه قوله – وقد قال له طوق بن مالك : أما ترى عشيرتك – يعنى بنى تغلب – كيف تدل علىّ ، وتتمرغ وتستطيل وأنا أصبر عليهم –: « أيها الأمير . إن عشيرتك من أحسن عشرتك ، وإن عمّك من عمّك خيره ، وإن قريبك من قرب منك نفعه ، وإن أخف الناس عندك أخفهم ثقلا عليك ، وأنا الذى يقول :

إنى بلوت الناس فى حالاتهم  وخبرت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لاتقرب قاطعـــا  وإذا المودة أقرب الأنساب(١)

فانظر إلى هذه الكلمة التى فاضت بلون الجناس حتى لم تخل فقرة من فقراتها من هذا الصبغ كما لم يخل البيت الثانى منه أيضا ، وذلك مايجعلنا نحكم بأن العتابى أكثر رجال هذه المدرسة جنوحا إلى البديع وغراما به ، وقد روى له صاحب(٢) الأغانى أشعارا كثيرة جاء فى ثناياها كثير من المجازات والتشبيهات ، لذلك قال الجاحظ : « والعتابى يذهب شعره فى البديع » ، ولعل ذلك هو السر فى رميه دون أصحابه بالتكلف . روى أبو الفرج الأصبهانى قال(٣) : « إن أبا بكر أحمد بن سهل قال : تذاكرنا شعر العتابى فقال بعضنا . فيه تكلف ، ونصره بعضنا ، فقال شيخ حاضر ويحكم أيقال إن فى شعره تكلفا وهو القائل :

رسل الضمير إليك تترى م  بالشوق طالعة وحسرى

متزجيـــــات مابينيـــن م  على الوجى من بعد مسرى

ما جفّ للعينين بعـــدك م  ياقرير العين مجـــــرى

إن الصبـــابة لم تـــدع  منى سوى عظم مـــبرى

---

(١) الأغانى ج ١٢ – ٣

(٢) ج ١٢ –٢ وما بعدها .

(٣) الأغانى ج ١٢ – ٣

ومــدامع عــبرى على كبد عليك الدهــر حرّى[1]

أو يقال إنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظــــر
لمثلته لك حتى تـــــراه لتعلم أنى امرؤ شاكــر

فهذا الاختلاف فى شعر العتابى يؤكد ما تراه ويراه الجاحظ من أن شعره يذهب فى البديع ، وهذه الأبيات التى استند إليها الشيخ فى إبعاد التكلف عن العتابى تؤكد ولوعه بالبديع لما فيها من مجاز ومبالغة كما ترى .

وأما منصور النمرى فقد استقى من بديع العتابى ، وذهب مذهبه ، وأربى عليه فى المبالغة . قال أبو الفرج الأصبهانى[2]: «وكان منصور شاعرا من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته ، وعنه أخذ ومن بحره استقى وبمذهبه تشبه» فمن طباقه ومبالغاته قوله يمدح الرشيد :

إذا رفعت امرأ فالله يرفعـــه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصمـــا فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله أو ضاق أمر ذكرناه فيتســـع

طابق فى الأول بين الرفع والوضع ، وفى الثالث بين الضيق والاتساع ، والإخلاف وعدمه فى أسلوب مسرف فى المبالغة إسرافاً شديداً لا يجاوزه سوى قول أبى نواس[3] : يمدح الرشيد ويطابق :

لقد اتقيت الله حـــق تقـــاته وجهدت فيه فوق جهد المتـــقى

---

(١) حسرى : حسر كضرب وفرح : أعيا كاستحسر فهو حسير جمعه حسرى، متزجيات : سائقات دافعات . ينين : يتعبن . الوجى : الحفا . مبرّى : مبرى فى القاموس برى السهم يبريه بريا : وابتراه : نحته وعلى مذهب من يقول إن التضميف قياس . فهذا الاشتقاق سائغ .

(٢) الأغانى جـ ١٢ — ١٦

(٣) هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح الحكمى ( بفتحتين . نسبة إلى الجراح ابن عبدالله الحكمى والى خراسان لأن جده كان مولاه ) الشاعر المشهور كان من أجود الناس بديهة وأرقهم حاشية قال فيه الجاحظ لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبى نواس ولد سنة ١٤١ وقبل سنة ١٤٥ وتوفى ببغداد سنة ١٩٥ أوسنة ١٩٦ .

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التى لم تخلق
وبضاعة الشعراء إن أنفقتها نفقت وإن أكسدتها لم تنفق

طابق بين الإنفاق والإكساد فى أسلوب غال ، ونظيره قوله يمدح الرشيد :—

ملك تصوّر فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
ماتنطوى عنه القلوب بنجوة إلا يحدثه بها اللحظان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

ومن طباقه قوله :

كم موسر أعسر فى برهة ومعسر فى مثلها أيسرا

طابق بين الإيسار والإعسار مرتين فى بيت واحد ، وقوله يمدح الرشيد :

حذر امرىء نصرت يداه على العدى كالدهر فيه شراسة وليان

طابق بين الشراسة واللين :

ومن رد العجز على الصدر قوله يمدح الأمين : —

تساس من السماء بكل صنع وأنت به تسوس كما تساس

ومن جناسه وطباقه قوله :

خلّ جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربّ لفظ ساق آجا ل نيام وقيام
إنما السالم من ألـ جم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحة م منهم والسقام
والمنايا آكلات شاربات للأنام
شبت ياهذا وما تترك أخلاق الغلام

جانس بين قيام ونيام . وبين ألجم ولجام ، واستعار اللبس لمعاشرة الناس واستعار السبع للمنايا ، وطابق بين الصحة والسقام ، وبين الصمت والكلام ، وبين ذى الشيب والغلام .

وهكذا إذا فتشت عن أصباغ البديع فى شعر أبى نواس ألفيتها وافرة كثيرة وإن من يقرأ قصيدته التى وصف فيها الخمر(١) والتى مطلعها :

لايصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء(٢)

يلفيها من أول بيت إلى آخر بيت تفيض بألوان البديع من طباق وجناس ومجاز وتشبيه وغيرها ، مما جعلنا نسلكه فى عقد هذه المدرسة ، ونخلع عليه طابعها من حيث الكثرة بالنسبة للأقدمين وعدم التكلف والتعمل بالنسبة إلى من جاء بعدهم من المحدثين لذلك يقول ابن رشيق(٣) : « سئل ابن مناذر من أشعر الناس فقال . الذى يقول :

يا قمرا أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

هذا أشعر الجن والإنس . وقد جاء بالشعر على سجيته — أعنى أبا نواس وشاهد ذلك ظاهر فى لفظه ، وإلا فهو قادر أن يجعل مكان الدر الطل حتى يتناسب الكلام لكنه لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة » فأبو نواس كما قلنا أكثر من البديع ولكن من غير عمد أو سبق إصرار كما قلنا ذلك فى أقرانه من رجال هذه المدرسة .

وقد امتاز أبو نواس من بين رجال هذه المدرسة بالثورة العنيفة على المطالع التى تواضع عليها رجال العهد القديم وتناقلها عنهم رجال العهد الحديث ، وكأنه بهذا يريد الشعراء على أن يكون شعرهم مظهرا لحياتهم ، وصورة صادقة لمجتمعهم ، وأنه ينبغى أن يعيشوا فى العصر الحاضر لا فى العصور الخوالى ، وفى الواقع لا فى الذكريات ، وأن يصوروا ما هم فيه لا ما يمدهم به الخيال ، فلا ليلى ولا هند ، ولا نجد ولا الأراك . ولا الدخول

(١) مختارات البارود ج ٤ — ٢ .

(٢) القصوف : الإقامة فى الأكل والشرب ، وأما القصف من اللهو فغير عربى . الإصباء مصدر أصبته المرأة : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) العمدة : ج ١ — ١٦٣

ولا حومل ، ولا تلك الأسماء ولا هاتيك البقاع التى تواضع عليها الأقدمون بمغنية فى ذلك العصر الحديث ، وقد استمد أبو نواس فى هذه الثورة نواة تجديده ، من أظهر الأشياء فى حياته ، استمدها من الخمر والندامى ومجالس الطرب والشراب .

استمع إليه يقول متهكما بمن ينزعون إلى القديم طالبا أن يكون البديل صفة الخمر :

صفة الطلول بلاغة القدم     فاجعل صفاتك لابنة الكرم
لاتخدعن عن التى جعلت     سقم الصحيح وصحة السقم
تصف الطلول على السماع بها     أفذو العيان كأنت فى الحكم
وإذا وصفت الشىء متبعا     لم تخل من غلط ومن وهم

أو يقول ساخرا :

قل لمن يبكى على رسم درس     واقفا ماضرّ لو كان جلس

أو يقول مجبها لمن يقف على الطول :

تبكى على طلل الماضين من أسد     لا درّ درّك قل لى من بنو أسد
لاجفّ دمع الذى يبكى على حجر     ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وكثيرا ما كان يقصد الى الخمر قصدا كأن يقول :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء     وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها     لو مسّها حجر مسته سرّاء

ولما حبسه الخليفة لذلك عاد مرغما إلى الأطلال ولكن على هذا النحو الساخر :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا     فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلّط     تضيق ذراعى أن أردّ له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة     وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

ولكن هذه الثورة التى رمت إلى التجديد فى المطالع لم تلق رواجا كما لقى

البديع ، لذلك قبرت بموت أبي نواس وطار البديع طيرانا إلى أعناء السماء .

والخلاصة أن هذه المدرسة امتازت بالإكثار من أصباغ البديع التى طرقها القدماء وأربت عليهم فى المبالغات ، وباختراع حسن التعليل الذى نبت عنه ذهنية القدماء ، فى ألفاظ رقيقة وأساليب مهذبة ، ومعان حضرية منظمة ، لذلك رأينا أن نفردها بطابع خاص . وإن كانت وسطا بين القديم والحديث وتمهيدا لمدرسة مسلم بن الوليد .

## ٢ — المدرسة الثانية — يمثلها مسلم بن الوليد(١)

كانت مدرسة بشار والعتابى ومن لفّ لفّهما ممن فتقوا البديع ، واستحلوا مذاقه وأكثروا منه بالنسبة إلى القدماء ووجهوا إليه أنظار المحدثين ، مقدمّة وتمهيدا لتلك المدرسة البديعية التى حمل لواءها ومثّلها أصدق تمثيل مسلم بن الوليد الأنصارى فقد قصد إلى أصباغ البديع قصدا . وتفرع فيها وأكثر فى شعره منها كثرة مفرطة بالنسبة إلى من تقدمه ، واتخذها مذهبا له جهد فى سبيله وكدّ فى طريقه ، حتى استوت جوانبها ، ووضحت معالمها واقترح لها اسم البديع أو اللطيف(٢) ، وأخذ يطبقها على صناعته ، فما من قصيدة من قصائد ديوانه إلا قد حشاها بهذه الأصباغ من جناس وطباق ومشاكلة ومبالغة واستعارة وما إليها حتى امتازت طريقته بالجمع بين الصنعة المعتدلة وتنقيح الشعر والبطء فى صنعته حتى أطلقوا عليه زهير المولدين كما قال ابن رشيق(٣) : « وهو زهير المولدين كان يبطىء فى صنعته ويجيدها » . وأمكنه بذلك أن يباين أبا تمام بقرب المعانى ، وسلامة العبارة من الغريب والتكلف الممقوت ، وقد سلك فى صنعته طريقا لاءم بها بين اللفظ والمعنى فكان لشعره من شدة إحكامه وإتقانه موسيقى قويّة رائعة كقوله يهجو دعبلا الخزاعى :

---

(١) كان يلقب بصريع الغوانى ، وكان شاعراً متقنا متصرفا فى شعره حسن النمط ، جيد القول وخاصة فى وصف الحروب والوقائع وفى الشراب ، وجمهور الرواة يلحقه بأبى نواس فى هذا المعنى وكانت وفاته سنة ٢٠٨ هجرية .

(٢) معاهد التنصيص جـ ٢/١٠

(٣) العمدة جـ ١ — ١١٠

أما الهجاء فدقّ عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

فتراه يطابق بين المدح والهجاء ، وبين الدقة والجلالة ، وبين العزة والذلة ، وتلمح احتفاله بالبديع وحرصه عليه لكن مع جدة المعنى وإحكام التراكيب واقرأ قوله من حسن التعليل :

إن يقعدوا فوقى بغير نزاهة وعلوّ مرتبــة وعزّ مكان
فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبار عمائم الفرســـان

تحس روعة وإحكاما .

كان مسلم أول من بالغ فى الإكثار من أصباغ البديع حتى أنكر عليه بعض العلماء هذا التصنيع ورموه بالتكلف ، وعدوا إسرافه فى الاحتفال بهذه الأصباغ إفساداً للشعر وإجحافا باللغة لما فى الإكثار منها من التكلف الذى يجر إلى المقت والمباينة لمذاهب العرب المألوفة ، قال الباقلانى(١) « ذكر الحسن بن عبد الله أنه أخبره بعض الكتاب عن على بن العباس . قال : حضرت مع البحترى مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد سأله البحترى عن أبى نواس ومسلم بن الوليد . أيهما أشعر . فقال البحترى : أبو نواس أشعر . فقال عبيد الله : إن أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما ، فقال البحترى ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من وقع فى سلك الشعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته ، فقال عبيد الله . ووريت بك زنادى يا أبا عبادة .. » فلعل البحترى يحكم لأبى نواس على مسلم — وكلاهما من رجال البديع — لعدم إسراف الأول فى الصنعة واحتفاله بأصباغ البديع كما أغرق فيها الثانى . يقوى هذا الرجاء قول ابن رشيق(٢) : « واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين فى القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد

---

( ١ ) إعجاز القرآن على هامش الإتقان : جـ ١ — ١٥٦
( ٢ ) العمدة جـ ١ — ١٠٩

بخلاف الطبع وإيثار الكلفة ، وليس يتجه البتة أن يأتى من الشاعر قصيدة كلها أوأكثرها متصنع من غير قصد » ونحن إذا استعرضنا شعر مسلم على ضوء هذا الحكم ألفينا فيه شيئا من هذا النوع الذى يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة كما قال ابن رشيق ، إذ قلما تخلو قصيدة من قصائد ديوانه من كثير من أصباغ البديع ، واقرأ له فاتحة ديوانه من قصيدة يمدح بها يزيد ابن مزيد الشيبانى مطلعها :

(١) أجررت حبل خليع فى الصبا غزل
وشمرت همم العذال فى العذل
(٢) يغشى الوغى وشهاب الموت فى يده
يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
(٣) يفتر عند افترار الحرب مبتسما
إذا تغير وجه الفارس البطل
(٤) موف على مهج ، فى يوم ذى رهج
كأنه أجل يسعى إلى أمل
(٥) ينال بالرفق مايعيا الرجال به
كالموت مستعجلا يأتى على مهل
(٦) لا يلقح الحرب إلا ريث ينتجها
من هالك وأسير غير مختتل
(٧) إن شيم بارقه حالت خلائقه
بين العطية والإمساك والعلل
(٨) لا يرحل الناس إلا نحو حجرته
كالبيت يضحى إليه ملتقى السبل
(٩) يقرى المنية أرواح الكماة كما
يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل(١)

(١) موف : مشرف . رهج : غبار . مختتل متسمع لسر القوم . الكوم : القطعة من الإبل والكوماء الناقة العظيمة السنام . البزل جمع بازل وهو الجمل أو الناقة فى السنة التاسعة شيم : شام البرق نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .

فتلك أبيات متلاحقة متتابعة فى قصيدة واحدة لمسلم ، لم يخل بيت منها من صبغ بديعى ، وهذه الكثرة المسرفة لم نألفها عند شعراء المدرسة الأولى إذ تجد مسلما فى هذه كما تجده فى غيرها يزجى ألوان البديع إزجاء ، ويسوقها عن عمد وقصد وإن كانت مستحسنة مستعذبة لم تبلغ حدّ المقت والاسترذال ، فقد جانس فى المطلع بين العذال والعذل ، وأسند التشمير إلى الهمم ، واستعار الشهاب والشعل للسيوف فى البيت الثانى ، وجانس بين يفتر وافترار فى البيت الثالث ، ولم يكتف فيه بلون الجناس بل أضاف إليه الطباق بين الابتسام والتغير ، ثم جانس مرتين فى البيت الرابع بين نهج ورهج ، وأجل وأمل ، وأضاف إلى ذلك لون التشبيه ، وطابق فى الخامس بين التعجل والتمهل ، فى أسلوب تشبيهى رائع ، ويستمر كذلك فيتجوز فى البيت السادس ، إذ يستعمل الإلقاح فى تهييج الحرب ، والإنتاج فى إسفارها عن القتلى ، ثم يطابق فى البيت السابع بين العطية والإمساك ، ثم ينزع إلى أسلوب التشبيه التمثيلى فى البيت الثامن ، ثم يجنح إلى المشاكلة فى البيت التاسع بجعله للحرب قرى كقرى الضيفان ، ثم فرع على وصفه بالشجاعة وصفه بالكرم فيه أيضا .

وعلى هذا النحو من الاحتفال بأصباغ البديع يسير فى هذه القصيدة كما يسير فى غيرها من قصائد ديوانه ، وذلك يؤكد صدق ما قلناه من أنه أول من بالغ فى الإكثار من هذه الألوان ، وقصد إليها عن عمد وإصرار ، ولم تقع فى كلامه من غير طلب وتلمس. يقوى ذلك ماروواه أبو الفرج الأصبهانى قال : « إنه — مسلما — اجتمع بأبى العتاهية فقال له : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

لبيك إن الملك لك ... والملك لا شريك لك ... الحمد والنعمة لك

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكنى أقول :

موف على مهج فى يوم ذى رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

ينال بالرفق مايعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتى على مهل(١)

(١) قال أبو الفرج — بعد أن ساق بعد هذا بيتين — فقال له أبو العتاهية قل مثل قولى : الحمد والنعمة لك ، أقل مثل قولك : كأنه أجل يسعى إلى أمل ( الأغانى ج ٣ — ١٣٤ ط ساسى) .

إحساسا فمسلم . يحس عميقا بأنه يطرق باب صنعته من ناحية تباين مألوف شعراء عصره ، وهي جهة الصنعة البديعية والاحتفال بها ، والتعب في سبيلها والبطء في إخراجها ، حتى تبرز في ثوب الإحكام والجودة ، والإتقان والإبداع مما يجعلنا نقول : إن صاحب البديع يجهد جهدين ، جهداً في تحديد الفكرة ، وجهداً في التحايل عليها والفتل لها بين الذروة والغارب حتى تخضع وتنقاد للبديع ؛ فالبديع المسرف يقضي على الطبيعة ويحدّ من قوة الشاعرية ، فكلما همّ فكر الشاعر بالاطراد والاسترسال حال بينه وبين الجيشان غرامه بتلك الأصباغ وتلمسه لها ، ولذلك كان بديع مسلم مهما وصفناه بالاعتدال وحكمنا له بالجودة والإحكام ، مغطيا على قوة طبعه وسلامة فطرته . فلو أنه لم يولع هذا الولوع الغالي بتلك الأصباغ البديعية لرأينا منه إدهاشا وإعجابا تترامى في تضامينه مواطن سجود الشعراء .

كانت مبالغة مسلم وإسرافه في أصباغ البديع وحشده لكثير منها في القصيدة الواحدة بل في البيت الواحد مع إحكام المعنى ودقة الصنع سببا في استقلاله بمدرسة وحده واضحة المعالم مستوية الجوانب ، يردها الورّاد فيستفيدون منها فائدة قريبة عاجلة من غير تعب وبدون مشقة ، قال ابن رشيق (١) بعد أن أطرى صنعة ابن المعتز : « غير أنا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب ، وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وأكثرا منها في أشعارهما تكثيراً سهّلها عند الناس وجسرهم عليها ، على أن مسلما أسهل شعراً من حبيب وأقل تكلفا ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغواني إلا النبذ اليسيرة ، وهو زهير المولدين كان يبطئ في صنعته ويجيدها » وقال(٢) : « وسمعت جماعة من العلماء يقولون « كان مسلم بن الوليد نظير أبي نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه في أشياء إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبض كان في مسلم ، وإظهار

(١) العمدة ج ١ – ١١٠ .
(٢) العمدة ج ١ – ١٦٦ .

توقر وتصنع ، وكان صاحب روية وفكرة لا يبتدئ ولا يرتجل فى الأعم الأغلب ، وقال الآمدى(١) فى أثناء حديثه عن تكلف أبى تمام وأن شعره لايشبه شعر الأوائل: «وعلى أنى لاأجد من أقرنه به لأنه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه » وهكذا يتفق ابن رشيق والآمدى على أن مسلماً مصنع صاحب بديع متكلف إلا أن تكلفه من النوع المقبول إذ لم يصل إلى حدّ المقت والاستكراه كما انتهى أبو تمام ، فمهما بالغ مسلم فى الإكثار من أصباغ البديع ومهما قصدها وتلمسها ، فشعره سليم حسن السبك ، صحيح المعانى ، سهل المأخذ ، مما يجعلنا ننكر على من ذهب إلى أن مسلما أول من أفسد الشعر ونرميه بالتحامل والتعنت عليه . قال الآمدى : (٢) «فتتبع مسلم بن الوليد هذه الأنواع ، واعتدها ووشح شعره بها ، ووضعها فى موضعها ، ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن. حتى قيل. إنه أول من أفسد الشعر . روى ذلك أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح . قال وحدثنى محمد بن القاسم بن مهرويه . قال سمعت أبى يقول . أول من من أفسد الشعر مسلم بن الوليد » وهذه الحكومة من ابن مهرويه تعسف ظالم . وتحامل جائر ، فإننا وقد تصفحنا ديوانه — لم نجد مايؤيد هذه الحكومة ويؤازرها سوى أبيات قليلة لم يشنها التكلف إلى حدّ العيب الممقوت. كقوله متجوزاً .

أعشب خـــدى من البـــكاء وقد
أورق غصن الهوى على كبدى «استعارة »

وكقوله يرثى : مصيبة نزلت كأنها قذفت
لا . وقد فعلت فى القلب بالنار « رجوع »

ومن استعاراته القبيحة قوله(٣)

وليلة خلست للعين من ســـنة هتكت فيها الصباعن بيضة الحجل(٤)

---

(١) الموازنة — ٣

(٢) الموازنة — ٧

(٣) الصناعتين — ٣٢٦

(٤) الحجل : الذكر من القبج ، الواحدة حجلة ، وجمع حجلة وهى الكلة . وسر القبح آت من سوء الاشتراك لأن بيضة الحجل من الطير تشاركها .

فاستعار للحجل يعنى الكلل بيضة

وقوله :

رمت السلو وناجانى الضمير به ... فاستعطفتنى على بيضاتها الحجل

قال ابن رشيق : فما الذى أعجبه من هذه الاستعارة قبحها الله . ولو قال الكلل لتخلص وأبدع » أى لأنه حينذاك لا يشترك مع الطير .

ومن جناسه الثقيل المعيب قوله فى وصف الخمر :(١)

سُلَّت وسَلَّت ثم سل سليلها ... فأتى سليل سليلها مسلولا

ومن تهافته قوله فى الوصف والغزل :

ويحى أنا الطريد ... ويحى أنا الشريد

« جناس »

ويحى أنا المعنى ... ويحى أنا الفريد

ويحى أنا المبتلى ... ويحى أنا الفقيد

والحب يا منـاى ... أهونه شـــديد

« طباق »

والحب لى قديم ... والحب لى قعيد

والحبّ لى طريف ... والحب لى تليد

« طباق »

وهذا أمر لم يسلم منه شاعر . قديم أومحدث . وتقرأ بعد ذلك من صنعة مسلم ما يروقك ويعجبك ، دقة صنع ، وإحكام بناء ، وجدة معنى .

هذا ولم يكن مسلم فى الأصباغ التى استخدمها فى شعره بمنزلة سواء بل ازداد إعجابه واحتفاله بلون الجناس والطباق وبدا ذلك واضحا فى نماذجه [ وضوحا قويا . قال ابن سنان(٢) أثناء حديثه عن الجناس ووروده فى كلام

---

(١) الصناعتين – ٣٢٦والسل : انتزاع الشيء وإخراجه ، والسليل الولد .

(٢) سر الفصاحة – ١٨٣

المتقدمين : « ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الأنصارى وأكثر منه ومن استعمال المطابق والمخالف(١) وهذه الفنون المذكورة فى صناعة الشعر حتى قيل عنه إنه أول من أفسد الشعر » .

وقد عمت موجة هذا المذهب البديعى الذى تحدد ، واستوت جوانبه ، ووضحت معالمه وعرف بهذا الاسم على يد مسلم بن الوليد زعيم هذه الصنعة فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث ، حتى أصبحت القصائد فى القرن الثالث كأنها وشى خالص ، وأصباغ من البديع اتشح الشعر بها حتى استحالت هيئاتها وصورها فى القرن الثالث فبعد أن كنا نرى جمهور الشعراء فى القرن الثانى من المحافظين الذين يحاكون القدماء ويتعقبون خطاهم وينهجون نهجهم وينأون عن البديع أصبح جمهورهم فى القرن الثالث موجهاً همه إلى أصباغ البديع حتى استبدت به وملكت عليه حسه وهيمنت على شعوره ووجدانه ، وحالت بين طبعه والاسترسال والحيشان ، وليس معنى هذا ، أن المحافظين قد انقرضوا وزالوا ، بل معناه أنهم خفوا وقلوا ، فقد مثل مذهبهم فى فى القرن الثالث كما قلنا ابن الرومى وإن كان قد عقد فى هذا النهج وفى أدواته بحكم الخضوع لثقافات العصر وألوانه الفكرية . قال ابن رشيق . وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه(٢) وقد تمخضت مدرسة مسلم عن حبيب بن أوس الطائى فخب فيها ووضع حتى بلغ الغاية واستولى على الأمد . ذلك ما سنكشف عنه بمشيئة الله .

---

(١) فسر ابن سنان المخالف ص ١٩٢ بقوله ( فأما المخالف فهو الذى يقرب من التضاد كقول أبى تمام : تردى ثياب الموت حمرا فما أتى – لها الليل إلا وهى من سندس خضر ، فإن الحمر والخضر من المخالف . وبعض الناس يجعل هذا من المطابق ) . أقول وهذا هو الذى سمى فيما بعد بالتدبيج .

(٢) العمدة ج ١ – ٢٥٥

## ٣ — المدرسة الثالثة — يمثلها أبو تمام[1]

أثرت طريقة مسلم بن الوليد فى أبى تمام تأثيراً بعيد المدى عميق الغور « فقد حلف لا يصلى حتى يحفظ ديوان مسلم بن الوليد(٢) » فبلغ الصبغ البديعى على يديه من التأنق والزينة ، والزخرف والتنميق ، والتكلف والتعقيد ، والمزج بألوان الثقافات الواسعة والخوض فى بحار الفلسفة المتعمقة ، مبلغا لم يبلغه على يد شاعر كان قبله أو بعده ، فقد بزغ نجم أبى تمام وقد فاضت الدنيا بترجمة علوم الأوائل وحكمها من اليونان ، والفرس ، والهند ، فنهل من تلك الألوان التى فاض بها عصره . وعلّ من هذه الثقافات التى أفعم بها زمانه ، فحصف عقله ، ودق فكره ولطف خياله لأخذه من كل فنّ بأوفر حظ وأضخم نصيب فنضح كل أولئك على صنعته ، فهو فيلسوف إذا عرض للفلسفة ، نحوى إذا خاض فى النحو ، متكلم إذا جنح لعلم الكلام ، فقيه إذا نحا نحو الفقهاء ، تاريخى إذا عرّج على التاريخ حتى سلكوه ضمن العلماء. قال الآمدى(٣) » قال صاحب أبى تمام . فقد أقررتم لأبى تمام بالعلم والشعر والرواية ولامحالة أن العلم فى شعره أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم » وبهذا أصبح شعر أبى تمام لايروق ولايحوز الإعجاب إلا فى موازين العلم ومقاييس الفلسفة ، قال الآمدى(٤) : «وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام أشعر عندك لامحالة » وقال(٥) : « ومثل من فضل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها وكثرة مايورده مما يحتاج

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المتعالم المشهور كان مولده بقرية (جاسم) من أعمال دمشق سنة ١٩٠ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٧٢ كان فريد عصره فى ديباجة اللفظ وفصاحة الشعر وغزارة العلم وكثرة المحفوظات حتى قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطوعات وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ ﻫ وقيل سنة ٢٢٨ .

(٢) هامش دائرة المعارف الإسلامية . ترجمة أبى تمام .

(٣) الموازنة — ١١ .

(٤) الموازنة — ٣ .

(٥) صفحة ٢ .

إلى استنباط وشرح ، وهؤلاء أهل المعانى ، والشعراء أصحاب الصنعة ، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام » .

وقد كان أبو تمام مع هذه الثقافة الغزيرة قوى الفطنة حاد الذكاء سريع البديهة . قال الشيخ يوسف البديعى(١) : « إن أبا تمام لما خرج من عند ابن المعتصم بعد إنشاد القصيدة(٢) قال الفيلسوف الكندى . هذا الفتى يموت قريبا لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده » وقد جاءت برواية أخرى فى مكان آخر(٣) : « إن هذا الفتى يموت شابا . فقيل له ومن أين حكمت عليه بذلك . فقال : رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحسّ وجودة الخاطر ، ماعلمت أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهنّد غمده » . وقال ابن رشيق(٤) : « ومن عجيب ماروى فى البديهة حكاية أبى تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم بحضرة أبى يوسف يعقوب ابن اسحاق بن الصباح الكندى وهو فيلسوف العرب :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم     فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس(٥)

فقال له الكندى . ما صنعت شيئا شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين ذكرت . وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً وقال :

لا تنكروا ضربى له من دونه     مثلا شرودا فى الندى والبـاس
فالله قد ضرب الأقل لنوره     مثلا من المشكاة والنـبراس

فهذا أيضاً وما شاكله هو البديهة ، وإن أعجب ماكان البديهة من أبى تمام لأنه رجل متصنع ، لا يجب أن يكون هذا فى طبعه ،وقد قيل إن الكندى لما خرج أبو تمام قال :

هذا الفتى قليل العمر لأنه ينحت من قلبه وسيموت قريبا فكان كذلك

---

( ١ ) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام – ٢٦ .

( ٢ ) التى مطلعها :

ما فى وقوفك ساعة من باس     نقضى ذمام الأربع الادراس

( ٣ ) هبة الأيام – ٤٠ .

( ٤ ) العمدة – ١ – ١٦٧ .

( ٥ ) فى هذا البيت مراعاة النظير .

ولكنه مع هذا الذكاء المتوقد الحاد ، وتلك البديهة القوية الحاضرة : كان يبذل جهداً شاقا فى سبيل صنعته حتى يلين جانبها وتسلس له وتنقاد ، قال ابن رشيق(١) : « وكان أبو تمام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره حكى ذلك عنه بعض أصحابه . قال : استأذنت عليه — وكان لا يستتر عنى — فأذن لى فدخلت فإذا هو فى بيت مصهرج(٢) قد غسل بالماء يتقلب يمينا وشمالا ، فقلت لقد بلغ بك الحر مبلغا شديداً ، قال : لا ، ولكن غيره ، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال ، فقال : الآن أردت ، ثم استمد وكتب شيئا لا أعرفه ، ثم قال : أتدرى ماكنت فيه منذ الآن . قلت : كلا ، قال : قول أبى نواس :

كالدهر فيه شراسةٌ وليَان .

أردت معناه فشمس علىّ حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرَست ، بل لنت ، بل قانيت ذاك بذا

فأنت لا شك فيك السهل والجبـــل(٣)

ولعمرى لو سكت هذا الحاكى لنم هذا البيت بما كان داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل بين » ثم قال(٤) : وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصدور وذلك هو التصدير فى الشعر ، ولا يأتى به كثيراً إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه ، والصواب ألا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته » ويقول الصولى(٥) : « ان اسحاق الموصلى سمعه ينشد بعض أشعاره فقال له : انك تتكىء على نفسك » فلو أن أبا تمام أطلق لشاعريته القوية العنان وجرى مع طبعه السمح وذكائه الحاد ، واستعداده النادر ، وجانب التكلف والتصنيع ولم يسرف فيهما هذا الإسراف الذى

---

(١) العمدة ج ١ — ١٨٢ .

(٢) المعمول بالصاروج وهو النورة وأخلاطها ( معرب ) .

(٣) قانيت : خالطت .

(٤) العمدة ج ١ — ١٨٣ .

(٥) أخبار أبى تمام — ٢٢١ .

أسلمه إلى المقت فى كثير من الأحايين مع معانيه المبتكرة وأخيلته الجميلة لكان إمام الشعراء غير مدافع ، فإنك حين تقرأ له قوله(١) :

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلا الفراق على النفوس دليلا
قالوا الرحيل فما شككت بأنها نفس من الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجمل غير أن تلدّدا فى الحبّ أحرى أن يكون جميلا
أتظننى أجد السبيل إلى العزا وجد الحمام إذن إلىّ سبيلا
ردّ الجموح الصعب أسهل مطلبا من ردّ دمع قد أصاب سبيلا
ذكرتكم الأنواء ذكرى بعضكم فبكت عليكم بكرة وأصيلا
إنى تأملت النوى فوجدتّها سيفا على أهل النوى مسلولا
لاتأخذنى بالزمان فليس لى تبعا ولست على الزمان كفيلا(٢)

إنك حينما تقرأ له هذا الشعر القوى الرائع وتقرأ له غيره مما أخذ هذا الوصف تعجب كيف يحيد عنه جريا وراء البديع الذى وهب نفسه له وتحمله من كل وجه وتوصل إليه بكل سبب ، وسلك له طرقا وعرة صعبة ، وأبرزه فى ألفاظ غريبة ، ومعان غامضة ، وأغراض خفية حتى صار أبو تمام علامة التكلف الثقيل والصنعة الفاسدة فى قسم من شعره ليس بالقليل .

أغرم أبو تمام بأصباغ البديع فانتحى نحو مسلم ، وهام بمذهبه حتى حلف لا يصلى قبل أن يحفظ ديوان مسلم ، فتأثر بهذه الطريقة واستخدم فى شعره تلك الأصباغ التى استخدمها أستاذه ولاسيما الجناس والطباق والتقسيم ولكنه أربى على أستاذه فى هذه الصنعة بما جعله يمثل مدرسة وحده .

فقد امتازت طريقة مسلم باستخدام هذه الأصباغ استخداما ساذجا عماده سرد تلك الألوان متجاورة غير متداخلة فى الأعم الأغلب ، فيبقى اللون البديعى مستقلا غير ممتزج بلون آخر ، واضحا غير معقد ، محتفظا

---

(١) من قصيدة يمدح بها نوح بن عمرو السكسكى من كندة : الديوان — ١٢١

(٢) تلدد : تلفت يمينا وشمالا وتحير متبلدا وتلبث . الأنواء : جمع نوء وهو النجم مال للغروب .

بهيئته وصورته العربية من غير أن يستحيل إلى صورة معقدة غريبة تخرجه عن مألوف الشعر العربى ، ومن وراء ذلك سبك حسن ، ومعنى صحيح .

أما طريقة أبى تمام فقد امتازت ( ا ) بالمبالغة المسرفة فى الإكثار من هذه الأصباغ مع التعمل الظاهر والتكلف الواضح الذى ينتهى إلى أعمق غايات القبح والاستكراه فى كثير من صنعته .(ب) كما امتازت بالتعقيد فى هذه الأصباغ بمزجها بالمجازات والتشبيهات مزجا يتضاءل أمامه مارأيناه عند مسلم حتى استحالت بذلك عن مألوف هيئتها ومعروف صورتها عند أستاذه . ( ج ) كما امتازت طريقة أبى تمام بغمس أصباغ البديع فى ألوان الثقافات الواسعة والفلسفة المتعمقة حتى كانت إلى الغموض والالتواء والصعوبة والاستبهام أقرب منها إلى الوضوح والاستقامة . والسهولة والجلاء .

فهذه ثلاث مميزات ، أو ثلاث دعائم قامت عليها مدرسة أبى تمام ، لانحب أن نزجيها على هذا الوضع إزجاء ونرسلها إرسالا من غير دليل يوضحها أوبرهان يدعمها ذلك ما سنحاوله فى هذه الكلمات.

أما أولا : —

فإن من يقرأ شعر أبى تمام يحسّ فيه إحساسا قويا بتلك الظاهرة التى امتاز بها عن أستاذه ، يحسّ فيه احتفالا واضحا وإكثاراً مسرفا من هذه الأصباغ مع العمد المسبوق بالإصرار ، والتكلف الموسوم بالقبح والاستكراه ، ولاسيما لون الجناس الذى أولع به وأغرم فاستبد بقسم كبير من شعره(١) : فسلم له منه شىء واعتلت عليه أشياء انظر إلى مطلع القصيدة الأولى من ديوانه التى مدح بها خالد بن يزيد الشيبانى لما أراد المعتصم نفيه فرغب خالد

---

( ١ ) قال أبو هلال فى الصناعتين – ٣١٩ . وجنس أبوتمام . أربع تجنيسات فى بيت واحد ولعله لم يسبق إليه وهو قوله : ( بحوافر حفر وصلب صلب – وأشاعر شعر وخلق أخلق ) وقوله :

لسلمى سلامان ، وعمرة عامر        وهند بنى هند وسعدى بنى سعد

وقال عبد القاهر فى أسرار البلاغة – ١١ ( وذلك كما تجده لأبى تمام إذا أسلم نفسه للتكلف ويرى أنه إن مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره أويتصل بقصة يذكرها فى شعره دون أن يشتق منه تجنيساً أويعمل فيه بديعا فقد باء بإثم وأخل بفرض حتم ) ثم ساق أمثلة .

أن يكون خروجه إلى مكة فأجيب إلى ذلك ، ثم شفع فيه أحمد بن أبي دؤاد فشفعه وأعفاه من الخروج واستقرّ على حاله ، قال :

(١) يا موضعَ الشّدنيّة الوجناء
ومصارع الإدلاج والإسراء
(٢) اقر السلام معرّفا ومحصّبا
من خالد المعروف والهيجاء
(٣) سيل طمى لولم يذده ذائد
لتبطّحت أولاه بالبطحاء
(٤) وغدت بطون منى منًى من سيبه
وغدت حرَى منه ظهور حراء
(٥) وتعرّفت عرفات زاخره ولم
يخصص كداء منه بالأكداء
(٦) ولطاب مرتبع بطيبة واكتست
بردين ، بردَ ثرى وبرد ثراء
(٧) لايحرم الحرمان خيراً أنهم
حرموا به نَوءاً من الأنواء(١)

فإنك حينما تقرأ هذه القطعة وما شاكلها تلحظ صبغ الجناس كثيراً وافراً ، وتدرك حرص أبي تمام عليه ، واحتفاله به ، وتلمسه له طوعا وكرها حتى بدت عليه الكلفة وظهر التعمل ، ولم يقتصر في مثل هذه القطعة على الإكثار من لون الجناس بل ضمّ إليه ألوانا من المجاز متعددة ، ألا تراه في البيت الأول يشبه الإدلاج والإسراء برجل مصارع ، وفي البيت الثالث يجانس بين يذود وذائد ، وبين تبطحت والبطحاء وفي الرابع بين منى ومنى ،

(١) موضع : حاملها على العدو السريع . الشدنية : مفرد شدنيات من الإبل منسوبة إلى موضع باليمن أوفحل . الوجناء الناقة الشديدة . الإدلاج : السير أول الليل . والإسراء : السير ليلا . تبطحت : اتسعت في البطحاء وهي مسيل واسع فيه دقاق الحصى . حرى وحراء : جبل بمكة فيه غار تحنث فيه النبي صلى الله عليه وسلم . والحرا : الناحية وصوت الطير . الزاخر : الشرف العالي . كداء : عرفات أوجبل بأعلى مكة . الإكداء : البخل أوقلة الخير أوقلة العطاء. الثرى : الندى. النوء : النجم مال للغروب .

وبين حرى وحراء ، وفى الخامس بين تعرفت وعرفات مع مزجه بالمجاز حيث أسند التعرف إلى عرفات ، وبين كداء والأكداء ، وفى السادس بين طاب وطيبة مع المزج أيضا ، وبين ثرى وثراء ، وفى السابع بين يحرم والحرمان مع المزج أيضا، مع ماتراه من عدم الاقتصار على جناس واحد فى البيت ، مما جعل هذه القطعة وأمثالها كثير — كأنها حلى مترّاصة استأثرت بكل همّة الشاعر واستحوذت على كل جهده فلم ينظر إلا إليها ولم يحفل إلا بها ، قال ابن سنان(١) فى أثناء حديثه عن الجناس واستخدام مسلم ابن الوليد له : « وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم فى استعماله والإكثار منه حتّى وقع له الجيد والردىء ، الذى لا غاية وراءه فى القبح ، ثم قال(٢) ومن مجانس أبى تمام المختار قوله :

يمدّون من أيد عواص(٣) عواصم    تطول بأسياف قواض قواضب

وقوله :

أرامة كنت مألف كل ريم    لو استمتعت بالأنس المقيم(٤)

وقوله :

فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد(٥) .

ومن قبيح تجنيسه قوله : —

قرّت بقران عين الدين واشتـــترت    بالأشترين عيون الشرك فاصطلما(٦)

وقوله : —

خَشُنْتِ عليه أختَ بنى خُشَيْنِ(٧)

---

( ١ ) سر الفصاحة — ١٨٤ .

( ٢ ) المصدر نفسه — ١٨٥ .

( ٣ ) العواصى : جمع عاص وهو العرق لا يرقأ . عواصم : جمع عاصمة بمعنى مانعة أو واقية أوكاسبة . قواضب : قواطع .

( ٤ ) رامة : عين بالبادية .

( ٥ ) الشطر الأول من البيت : وأنجدتم من بعد اتهام داركم .

( ٦ ) قران كرمان: بلدة باليمامة واسم. الأشتران : الأشتر مالك بن الحارث النخعى الشاعر التابعى وابنه ابراهيم . اصطلم : استؤصل .

( ٧ ) رواية الوساطة — ٢٦ :

خشنت عليه أخت بنى الخشين    وأنجح فيك قول العاذلينـــا

وقوله : —

فأسلم سلمت من الآفات ما سلمت     سلام سلمى ومهما أورق السّلم(١)

وقوله : —

سلّم على الربع من سلمى بذى سلم .

وقوله : —

تجرّع أسى قد أقفر الأجرع الفرد(٢) .

ثم قال ابن سنان وله من هذا الجنس أبيات كثيرة والسبب فى ذلك أنه أحبّ الإكثار ولم يقنع باليسير الذى يسمح به خاطره ويقع بغير تكلّف ولا تعمّل »

وقال الباقلانى(٣) « إن كثيراً من المحدثين قد تصنّع لأبواب الصنعة حتى حشا جميع شعره منها ، واجتهد ألا يفوته بيت إلاّ وهو يملؤه من الصنعة كما صنع أبو تمام فى لاميته (٤) .

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل     وصدرك منها مدة الدهر آهل
تطلّ الطلول الدمع فى كلّ موقف     وتَمْثُل بالصبر الديار المواثل (٥)

ثم ساق منها عدة أبيات ثم علق عليها قائلا : « ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها على ما قد تكلّف فيها من البديع ، وتعمّل من الصنعة فقال : قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه ، وقد تعصب عليه أحمد بن عبد الله بن عمار وأسرف حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه ، ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع فى القبيح وهو يريد أن يبدع فى الحسن . كقوله فى قصيدة له أولها : —

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد     وعاد قتادا عندها كل مرقد

(١) سلام : جمع سلمة وهى الحجارة .
(٢) الأجرع : الرملة الطيبة المنبت .
(٣) إعجاز القرآن على هامش الإتقان جـ ١ — ١٤٤ .
(٤) الديوان — ١٢٧ .
(٥) تمثل : مثل قام منتصبا .

فقال فيها : —

لعمرى لقد حرّرت يوم لقيتــه  لو ان القضاءِ وحده لم يبرد(١)

وكقوله : —

لو لم تدارك مُسنّ المجـــد مذ زمن  بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت، ثم ساق أبياتاً على هذا النحو ثم علق عليها قال : « فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوه فى محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما أسرف فى المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه وكان التكلف بارداً ، والتصرف جامداً ، وربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح كما يتفق البارد القبيح » .

وقال الجرجانى(٢) فى أثناء حديثه عن المحدثين : « فإن رام أحدهم الإغْراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف وأتم تصنع ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن كالذى نجده كثيراً فى شعر أبى تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ ، وتبجح فى غير موضع من شعره فقال : —

فكأنما هى فى السماع جنـــــادل  وكأنما هى فى القلوب كواكب

فتعسّف ما أمكن ، وتغلغل فى التعصب كيف قدّر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية فاحتمل فيها كل غثّ ثقيل وأرصد لها الأفكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة . فإن ظفر به فمن(٣) بعد العناء والمشقة ،

(١) برده وأبرده : أضعفه .

(٢) الوساطة — ٢٤

(٣) فى الأصل (من) وقد رأينا أن المعنى لا يستقيم بدون زيادة الفاء .

وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته الكلال ، وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستمتاع بحسن ، أو الالتذاذ بمستظرف وهذه جريرة التكلف » وقال الصولى : (١) ويروى الرواة أن أعرابياً سمع قصيدته : طلل الجميع لقد عفوت حميداً . فقال : إن فى هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها . فإما أن يكون قائلها أشعر الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه » وهذه القصيدة موجودة فى ديوان أبى تمام(٢) وقد أنكر عليه الأعرابى إكثاره فيها من الجناس وغيره من أصباغ البديع مع الإبعاد فى المعانى والغموض فى الأغراض وتلك حال لم يألفها العربى صاحب الفطرة السليمة والسجية الخالصة لأنها تجر إلى التكلف والبعد عن مألوف الشعر العربى الذى يخاطب العاطفة والشعور لا العقل والعلم ، قال الآمدى(٣) : «ولأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعانى المولدة فهو بأن يكون فى حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه ، وعلى أنى لا أجد من أقرنه به لأنه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه» وقال عبد الله بن المعتز (٤) : «ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به «بالبديع» حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف » فقد رأيت كيف بلغ أبو تمام فى قسم كبير من شعره غاية بعيدة من التكلف الممقوت حتى ليخيل إليك إذا قرأت هذا القسم الضخم من شعره أنه لم يرد به حسن المعنى وسلامة اللفظ بل الصبغ البديعى يريد وإليه يقصد ومن أجله يقرض . وإلاّ فما هذا الجناس المستكره حيث يقول .

إن من عقّ والديه لملعـــــو ن ومن عقّ منزلا بالعقيـــــق

فيأتى بعقوق الوالدين فى باب النسيب من غير مناسبة ليجانس بينه وبين العقيق . » .

---

( ١ ) أخبار أبى تمام — ٢٤٥ .

( ٢ ) — ٤٤ وبقية المطلع : وكفى على رزئى بذاك شهيداً .

( ٣ ) الموازنة — ٢ .

( ٤ ) مقدمة كتابه البديع .

وما هذا الطباق المتكلف حيث يقول : —

لعمرى لقد حرّرت يوم لقيتــه     لو ان القضاء وحده لم يبرد

وهكذا إذا فريت عن هذا النوع فإنك تقف منه على أن أبا تمام فى هذا القسم لم يرد حسن المعنى واستقامته وسلامة اللفظ وصحته وإنما يريد أن يكون فى شعره جناس أو طباق أو استعارة أو غير ذلك من أصباغ البديع ، ولا عليه بعد ذلك سلم الشعر أم اعتل ، استقام المعنى أم اختلّ ، وما عليه لو حذف نصف شعره فقطع ألسن العيب عنه ولم يشرع للعدو بابا فى ذمّه . كما يقول الجرجانى(١) وشر من ذلك كلّه هذه المعاظلة بتداخل الكلمات وركوب بعضها بعضاً فى قوله : —

خان الصفاء أخ، خان الزمان أخــا     عنه فلم يتخوّن جسمه الكمد(٢)

هذا وقد تعقبه ابن المعتز فى رسالته ، والآمدى فى الموازنة ، والجرجانى فى الوساطة ، والباقلانى فى إعجاز القرآن ، وابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه ، وأحصوا عليه استعارات كثيرة زلت فيها قدمه ، وغرب عنه توفيقه فتكلف وأبعد عن مألوف العرب ومعروفهم ، ولولا خوف الإطالة ، وأنا أخذنا أنفسنا بالتمثيل لما عرف فى عصر المتأخرين بالبديع فقط لعرضت لما قالوه فأقررتهم على غالبه وخالفتهم فى يسيره ، ولكن ذلك يستوعب بحثاً فضفاضاً على حدة ، ويكفى فى مثل هذا الإشارة الدالة ، واللمحة المشيرة .

وأما ثانياً : —

فإنك إذا استعرضت صنعة أبى تمام فى ديوانه ألفيته قد أسرف وبالغ فى تعقيد أصباغ البديع بمزج بعضها ببعض من استعارة وتشبيه حتى برزت فى ثوب آخر أحالها عما كانت عليه فى مدرسة مسلم .

اقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات يقول(٣)

---

(١) الوساطة — ٢٧

(٢) لم يتخون : لم ينقصه .

(٣) ديوان أبى تمام — ١٢٧

(١) متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ... وقلبك منها مدة الدهر آهل
(٢) تطل الطلول الدمع فى كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل
(٣) دوراس لم يجف الربيع ربوعها ... ولا مرّ فى أغفالها وهو غافل
(٤) فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ... وقد أخملت بالنور منها الخمائل
(٥) تعفين من زاد العفاة إذا انتحى ... على الحىّ صرف الأزمة المتحامل
(٦) لهم سلف سمر العوالى وسامر ... وفيهم جمال لايفيض وجامل(١)

ومنها قوله فى وصف القلم : —

(٧) له ريقة طلّ ولكن وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابل
(٨) فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل

تجد أبا تمام لايقف عند إزجاء الأصباغ البديعية التى قصد إليها فى هذه الأبيات وما ماثلها إزجاء سهلا ساذجاً كما رأينا ذلك عند مسلم فى أغلب أحواله ، بل يعقدها بمزجها بالمجاز تارة ، وبالتشبيه أخرى حتى ليخيل إليك أن هذه الأصباغ لبست ثوباً جديداً لاعهد لها به من قبل .

فتراه فى البيت الأول يجانس بين ذهلية وذاهل ، ثم يعود فيجانس بين ذاهل وآهل ثم يعقد ذلك بإسناد الأهوال إلى القلب على سبيل المجاز ، وفى البيت الثانى يجانس بين تطل والطلول ، وبين تمثل والمواثل معقداً ذلك بمزجه بالمجاز حيث يسند إطلال الدمع إلى الطلول ، والمثول بالصبر إلى الديار ، وفى الثالث يجانس بين الربيع والربوع ، وبين الأغفال وغافل ولكنه ليس جناساً مجرداً بل مشوباً بالمجاز حيث أسند عدم جفوة الربوع إلى الربيع وعدم الغفلة حين مروره فى أغفالها إليه أيضاً وفى الرابع يجانس بين سحبت والسحائب

---

(١) أغفالها : جمع غفل وهو الكثير الرفيع أى ذو الأرض السهلة. أخملت بالنور : صارت ذات خمل أى هدب . والخمائل جمع خميلة وهى الشجر المجتمع الكثيف ، أو الرملة تنبت الشجر. سحبت : جرته على وجه الأرض . صرف الأزمة . نوائبها . تعفين : أى تناولين من زاد العفاة أى الوراد . سلف : هوكل ماتقدم من آباء الشخص وقرابته . العوالى : جمع عالية وهى أعلى القناة ، أورأسه ، أو النصف الذى يلى السنان . سامر : مجلس السمار . جامل : جمع جمل ، أو القطيع من الجمال برعاته وأربابه ، أو الحى العظيم .

وبين أخملت والحمائل ، جناساً معقداً لمزجه بالمجاز إذ جعل السحائب كالإنسان يسحب ذيله ، وأسند الإخمال بالنور إلى الحمائل، وفى الخامس يجانس بين تعفّين والعفاه ، ولكنه جناس ممزوج بالمجاز حيث أسند التعفى إلى السحائب ، وفى السادس يجانس بين سمر وسامر ، وجمال وجامل ، وعقد ذلك إذ أسند الفيض إلى الجمال .

وهكذا فيما عقده من صنعته غير الجناس كالطباق فى البيت السابع بين طل ووابل والشرق والغرب ، فقد أخبر بالوابل عن وقعها ووصف الريقة بالطل وذلك كله من باب التشبيه البليغ وقد مزج الطباق به ، وفى البيت الثامن يطابق بين فصيح وأعجم، وراكب وراجل طباقاً معقداً لمزجه بالتشبيه فى الأول وبالمجاز فى الثانى .

وانظر إلى قوله من قصيدة أخرى : —

كلّ يوم له وكل أوان خلق ضاحك ومال كئيب

فإنك تراه يطابق بين الضحك والكآبة ولكنه ليس طباقاً مجرداً بل ممزوجا بالمجاز حيث أسند الضحك للخلق ، والكآبة للمال وإن كان مجازا غير مستحسن.

هذا وقد مرّ بنا شىء من هذا المزج (١) عند أستاذه مسلم ولكنه بالإضافة إلى ما نراه عند أبى تمام كقطرة من بحر ، يتضاءل أمام هذه الكثرة المسرفة فى صنعة أبى تمام مما جعلنا نحكم بأن هذة ثانية الدعائم أو ثانية المميزات التى امتاز بها بديع أبى تمام عن بديع أستاذه مسلم .

وأمّا ثالثاً : —

فإنك إذا تلمست صنعة أبى تمام فى شعره ، وجدتها لم يقف بها عند الكثرة المفضية إلى التكلف ، والمزج الذى انتهى بها إلى التعقيد ، بل أربى على هاتين بثالثة حيث طاف بها فى أودية الثقافات الواسعة التى اتسع لها عصره ، وغاص بها إلى قيعان الفلسفة التى لا تلتئم مع الشعر ولا تنسجم مع الخيال العربى ، ولعل ذلك من أبرز الأسباب التى من أجلها رمى بالغموض والالتواء

(١) من أبرزه قوله — مستعبر يبكى على دمنة — ورأسه يضحك فيه المشيب .

والصعوبة والاستبهام فى بديعه بخاصة وشعره بعامة ، قال الجرجانى(١) : « فخبرنى هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس من قوله : —

جهميــة الأوصــاف إلا أنهــم قد لقبوها جوهر الأشيــاء(٢)

وقوله يمدح المأمون أو المعتصم :

يوم أفاض جوى أغاض تعزّيــا خاض الهوى بَحرْىْ حجاه المزبد(٣)

وقال ابن رشيق(٤): « إن رجلا قال للطائى فى مجلس حفل وأراد تبكيته لما أنشد : — لم لا تقول من الشعر ما يفهم . فقال له . وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ... » . وقال الآمدى(٥) « وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل » ونحن إذا أردنا أن نحقق ذلك فى صنعة أبى تمام ألفيناه فى ذلك القسم الذى جنح به إلى ألوان الثقافات المختلفة فغمسه فيها غمساً شديداً حتى استبهمت واستغلقت على كثير من الأذهان ، انظر إلى قوله : —

فلو صح قول الجعفرية فى الــذى تنصّ من الألهام خلناك ملهما

كيف جانس بين الإلهام وملهم ولكنه ليس بالجناس الذى يفهم بالرجوع إلى قواميس اللغة ، بل إلى كتب العقائد والنحل حتى يتضح ويستبين . قال التبريزى (٦): «الجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام » .

واقرأ قوله يطابق : —

كم فى الندى لك والمعروف من بدع إذا تصفحت اختيرت عــلى السنن

(١) الوساطة — ٢٥

(٢) جهمية : منسوبة إلى الجهمة وهى أول مآخير الليل أو بقية سواد من آخره أو الوجه السمج أو القدر الضخمة .

(٣) الديوان — ٥٦ .

(٤) العمدة جـ ١ — ١١٠ .

(٥) الموازنة — ٩ .

(٦) شرح التبريزى على أبى تمام جـ ١ — ٢٧٩ .

تجده يطابق بين البدع والسنن وهو طباق يحتاج فى فهمه إلى مراجعة كتب الأصول لتحديد معني البدعة والسنة حتى يستقيم تقابلهما ، واستمع إليه يطابق : —

لن ينال العلا خصوصاً من الفتيان من لم يكن نداه عموما

طابق بين الخصوص والعموم وهو طباق يحتاج فى تعقله إلى استنجاد عرف المناطقة لتحديد الخصوص والعموم حتى يستساغ تقابلهما .

وانظر إليه يطابق أيضاً : —

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لا شيء عليه حجاب

طابق بين الوجود والعدم حيث عبر عن الأول بشيء وعن الثانى بلا شيء وذلك يحتاج إلى الإلمام بعرف الفلاسفة .

واقرأ قوله : —

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء(١)

فقد جمع بين أمرين متناسبين « مراعاة النظير » وهما الأفعال والأسماء ولكن ذلك فى عرف النحاة ، وأربى على ذلك بأن شبه أثر الخمر فى العقول بتلاعب الأفعال بالأسماء : —

واقرأ قوله من الطباق أيضاً : —

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجد م وصاغ الأنام من عرضه

فقد قابل بين الجوهر والعرض فى اصطلاح علماء الكلام . قال التبريزى(٢) « هذا مأخوذ من الجوهر والعرض اللذين وضعهما المتكلمون لأن الجوهر عندهم أثبت من العرض . »

واستمع إلى قوله يطلب إلى بعض ممدوحيه أن يصفح عن قوم تألبوا عليه : —

لك فى رسول الله أعظم أسوة وأجلها فى سنة وكتاب

(١) الخرقاء : الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . ومن الريح : الشديدة . وامرأة سوداء .

(٢) شرح أبى تمام جـ ١ — ١ — ٢٠ النسخة . السابقة .

أعطى المؤلفة القلوب رضاهـم كملا ورد أخائذ الأحـزاب(١)

فهو فى الأول يجمع بين أمرين متناسبين فى عرف الأصوليين حيث جمع السنة والكتاب معاً ، وفى البيت الثانى يلمح إلى ما وقع بعد موقعة حنين وذلك يحتاج إلى مراجعة كتب السير والمغازى .

وهكذا يسبح أبو تمام بتلك الأصباغ فى بحار الثقافات ويغوص بها إلى قيعان الفلسفة ثم يطفو بها فإذا هى مستحيلة إلى صور وهيئات أخر تباين ما كانت عليه عند أستاذه مسلم اقرأ له : —

هى البدر يغنيها تودّد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد

تجده يطابق بين التودد وعدمه ولكنه طباق عميق غير طباق السليقة والفطرة طباق جنح إلى التفلسف حتى بدا غريباً ، وإلاّ فما هذه المرأة التى تودّ من لا تودّ وما هذه المودة الغريبة . يقول أبو تمام : إن وجهها يتودّد ببهائه وروائه وهى تدفع هذا التودد فى جموح ، وتصرّ على الإباء والامتناع ، وقد جرى أبو تمام شوطاً بعيداً فى هذا اللون واستخدمه عامداً له مصراً عليه وأطلق عليه «نوافر الأضداد» وقد صرح بذلك فى شعره . استمع إليه يقول فى مدح ابن أبى دؤاد : —

قد غرستم غرس المودة والشحنـاء م فى قلب كل قار وبـاد

أبغضوا عزمكم وودوا نـداكم فقروكم من بغضة ووداد

لاعدمتم غـريب مجد ربقـتم فى عراه نوافر الأضـداد(٢)

قال التبريزى(٣) : « قال المرزوقى : يعنى بنوافر الأضداد ما قاله فى البيت الثانى من أن الناس يحسدونهم لشرفهم ويحبونهم لجودهم » وقد استولت هذه النوافر على مقدار فسيح من عقل أبى تمام وسيطرت على جانب ليس باليسير من ديوانه اقرأ قوله : —

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

(١) كملا : أعطاه المال كاملا . الأخائذ : جمع أخيذ وهو الأسير .

(٢) بغضة : أشد البغض .

(٣) على أبى تمام جـ ١ — ٧٨

فإنك تدهش من ضياء هذه المحبوبة المظلم ، وهكذا إذا ذهبت تتبع هذه النوافر وجدتها لا تحصى فى شعره .

طغت الثقافات على فكر أبى تمام فظهر أثرها فى جميع ما طرق من أصباغ البديع . اقرأ قوله يشاكل فى وصف صواحبه :

لآلئ كالنجوم الزهـــر قد لبست أبشارها صدف الإحصان لا الصدفا

تراه يجعل للعفاف والطهر صدفا .

وانظر إليه يستعمل القياس المنطقى فى التدليل على ما يريد حيث يقول لمحبوبته : —

لا تنكرى منه تخديدا تجللـــــــه فالسيف لا يزدرى إن كان ذا شطب

وحيث يقول :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـــدى م الرزايا إلى ذوى الأحســـاب

فلهـــذا يجــف بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الروابى

فهذان المثلان من حسن التعليل الذى اتسم بسمة الثقافة والعمق ، فهو فى المثال الأول ينزع إلى تحسين القبيح بقياسه على أمر مستحسن محمود يقول لصاحبته لا تصدى عنى لما بوجهى من تخديد فالسيف يروق ويعجب إذا كان ذا شطب بادية ظاهرة على صفحته ، وفى الثانى يصف حال الزمان متبرماً به ساخطاً لإنزاله رزاياه وكروبه بذوى الجاه والحسب ويعلل ذلك بعلة تنبىء عن بصر بأحوال النبات فى مواطن الأرض المختلفة . علواً ودنوا . حيث يسرع الجفاف إلى روض الروابى قبل روض الوهاد .

وإن من يقرأ قصيدته فى مدح المعتصم بالله وفتح عمّورية(١) ليقف منها على مقدار ثقافة أبى تمام فى علم النجوم والتاريخ وما إليهما ، فهى مثل حى من أمثلة ثقافته ، وقد استخدم فيها كثيراً من أصباغ البديع التى مزجها

---

(١) بالديوان ص ٥ مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وقد تجلت فيها نزعته إلى الجناس ظاهرة وإن كان شىء من ذلك لم يبلغ بها حد العيب المستكره المقيت .

بهذه الثقافات الفارعة ، وكما برع أبو تمام فى مزج ألوان البديع بالثقافات المختلفة برع فى إحكام الألوان الحسية ومزجها بالبديع . انظر إليه فى قوله من قصيدة يرثى بها محمد بن حميد الطوسى وقد قتل فى حرب : —

تردّى ثياب الموت حمرا فمادجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر

وقوله فى فتح عمورية : —

إن الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

وقوله فى انتصار أبى سعيد محمد بن يوسف الطائى على بابك بأذربيحان(١) .

جلوت الدّجى عن أذربيجان بعدما تردّت بلون كالغمامة أربد

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض فأمست وليس الليل فيها بأسود

فإنك تراه يعتمد فى هذا الصبغ(٢) على إحكام الألوان إحكام البصير العالم بدقائق ما بينها من فروق . فأنت تراه فى الأول يذكر لون الحمرة والخضرة والقصد من الأول إلى الكناية عن القتل ومن الثانى إلى الكناية عن دخول الجنة ، وفى الثانى يجعل للحمام لونين أبيض وأسمر والأول كناية عن السيوف والثانى كناية عن القنا وهما كنايتان عن أسباب الهلاك . ثم يجعل للحياة لونين لون الماء ولون العشب وهما كنايتان عن أسباب الحياة . وفى الثالث يكنى عن الكآبة التى عمت أذربيحان قبل الفتح بنفى البياض عن الصبح ثم يكنى عن الهناءة والسعادة التى عمتها بعد الفتح بنفى السواد عن الليل . وعلى هذا النمط يجرى فى كثير من شعره ، وبذلك البيان تستبين مدرسة أبى تمام وتتحدد فى ظل الطابع الذى فصلناه . فلا عجب إذا كان أبو تمام زعيم البديعيين فى عصره بل فى عصور الشعر جميعاً ، إذ بلغ الصبغ البديعى على يديه من الزخرف والتنميق مالم يبلغه على يد شاعر آخر ، فمدرسته مورد قريب يستطيع أن يغترف منها كل محبّ لهذه الصنعة مفتون بها . قال ابن رشيق(٣)

---

(١) الديوان ص ٥٢ .

(٢) سماه ابن سنان فى سر الفصاحة — ١٩٢ المخالف وسماه المتأخرون بالتدبيج وعلى كلا التسميتين فهو نوع من الطباق .

(٣) العمدة ج ١ — ١١٠ .

بعد إطرائه صنعة ابن المعتز « غير أنا لا نجد المبتدئ فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعاً منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقاً سابلة وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيراً سهلها عند الناس وجسرهم عليها » .

فمهما كثر المتعقبون لشعر أبى تمام ومهما اختلفت كلمة النقاد فيه ، ومهما اعتل عليه كثير من أصباغ البديع ولا سيما صبغ الجناس فقد سلم له من شعره عامة ومن بديعه خاصة ما احلولى وراق ، وأعجب وأدهش ، وقد مرّ بك شيء كثير من ذلك واقرأ قوله يتغزل : —

دعنى وشرب الهوى ياشارب الكاس ... فإننى للذى حُسّيتُه حاسى
لا يوحشنك ما استسمجت من سقمى ... فإن منزله من أحسن الناس
من قطع أوصاله توصيل مهلكتى ... ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ... ما كان قطع رجائى فى يدى ياسى

اختار الجرجانى(١) هذه القطعة من غرر أبى تمام فى صنعته ثم علق عليها قائلا . « فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة طابق وجانس واستعار فأحسن ، وهى معدودة فى المختار من غزله وحق لها فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن وأصنافاً من البديع ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ما تراه » وهكذا تجد كثيراً من صنعة أبى تمام يبلغ الغاية من الجودة ويستولى على أمد الإحكام والإتقان وقد أحس ذلك أبو تمام فى صنعته فعبر عنه أصدق تعبير حيث يقول من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد(٢) :

خذها مثقفة القوافى ربها ... لسوابغ النعماء غير كنود
حذّاء تملأ كل أذن حكمة ... وبلاغة وتدر كل وريد(٣)

---

(١) الوساطة — ٣٧ .

(٢) الديوان — ٤٣ .

(٣) الحذاء : القصيدة السائرة التى لا عيب فيها . الوريدان عرقان فى العنق . الشذر : خرز يفصل بها النظم . كعاب : بارزة النهدين . الرود : الماشية على مهل. شقيقة البرد : نصفه . المنمم : المزين . مهرة بن حيدان : حى. تزيد بن حلوان : أبو قبيله ومنه البرود التزيدية وبها خطوط حمر .

كالدر والمرجان ألف نظمـــه بالشذر فى عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيــــه فى أرض مهرة أو بلاد تزيد

## ٤ — المدرسة الرابعة — عميدها . البحترى(١) وابن المعتز(٢)

إذا جاوزنا أبا تمام إلى غيره من رجال البديع فى القرن الثالث الهجرى ألفينا البديع يتحلّل من تلك الأعباء الثقال التى أرهقه بها أبو تمام ويراجع عهدا فطرياً يسيل عذوبة ويفيض حلاوة ، وكان قائدا هذه الحلبة ، وممثلا تلك الطريقة : البحترى وابن المعتز ، فقد رجعا بالصبغ البديعى إلى الطريقة التى سلكها مسلم بن الوليد ، لكن فى رفق ولين ، وقصد واعتدال ، فجنحا إلى الزخرف الحسى ، والبديع السطحى السهل الفطرى الذى لم يسبح فى بحار الثقافة ولم ينزع إلى العمق والتعقيد ، فقد غلب عليهما سماحة الطبع وسهولة الأسلوب ، وعدم الغوص وراء المعانى البعيدة الغور والجرى وراء الألفاظ الوعرة الغريبة ، وعدم الولوع بالصبغ البديعى إلا ما جاء طبعاً أو خفياً لا يكاد يظهر ، أو جاء مقصوداً مصنوعاً بهذه المثابة ، فكانا بهذا مدرسة تقابل مدرسة أبى تمام وتنحاز عن طريقه الوعر الذى أفضنا فيه القول فيما تقدم ، غير أن بين هذين العمادين فرقاً فى اعتناق البديع والاحتفال ببعض ألوانه نكشف عنه فى هذه الكلمات : —

---

(١) البحترى . هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى ينتهى نسبه إلى يعرب بن قحطان . كان شاعراً فصيحا فاضلا حسن المشرب والمذهب نقى الكلام مطبوعا ، وله تصرف فى ضروب الشعر سوى الهجاء . سئل أبو العلاء المعرى من أشعر الثلاثة . أبو تمام أم البحترى أم المتنبى؟ فقال . أبو تمام والمتنبى حكيمان وإنما الشاعر البحترى ، وولد بمنبج « بين حلب والفرات » سنة ٢٠٥ وقيل سنة ٢٠٦ وتوفى بها سنة ٢٨٤ .

(٢) ابن المعتز — هو أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون ، كان عالما أديبا بليغا مطبوعا مقتدراً على الشعر مع سهولة اللفظ جادت قريحته فى التشبيه الحسى حتى أتى منه بالمعجز ، ولد سنة ٢٤٦ وقيل سنة ٢٤٧ وقتل سنة ٢٩٦ هـ وكان ذاروية يدل على ذلك قوله :

والقول بعد الفكر يؤمن زيغه شتان بين روية وبديـــه

عمدة — ١ — ١٦٨ .

البحترى : —

أما البحترى فقد نشأ بالبادية وهو من أجل ذلك يحافظ على التراث القديم فى منهجه وصورته ، فلم يدفعه دافع من الثقافات المختلفة إلى تنكب هذا الطريق الذى ألفه الشعر العربى فى قديم عهده ، قال الآمدى(١) فى أثناء حديثه عن أبى تمام والبحترى « وذهب قوم إلى المساواة بينهما فإنهما لمختلفان . لأن البحترى أعرابى الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام فهو بأن يقاس بأشجع السلمى، ومنصور، وأبى يعقوب (الحريمى) المكفوف . وأمثالهم من المطبوعين أولى » .

ويقول(٢) « وإن شعر الوليد بن عبيد البحترى صحيح السبك حسن الديباج ليس فيه سفساف ولا ردىء ولا مطروح ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضاً » ويقول(٣) : « فإن كنت — أدام الله سلامتك — ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحترى أشعر عندك ضرورة » .

حافظ البحترى على عمود الشعر العربى فى صناعته ، ونزع إلى أصباغ البديع فى رفق وخفة ، واستخدمها من غير تكلف أو تصنع فبدت فى ثوب معجب رائق وصورة أخاذة خلاّبة ، تمثل صدق الشاعرية العربية ، وطلاوة السليقة البدوية ، فلم تصطبغ بألوان الثقافات التى تذهب بهجتها وتقلّل من قيمتها وقد أحس البحترى هذا الجمال المترقرق فى صنعته فشدا به حيث يقول : —

فى نظام من البلاغة ماشـــك امرؤ أنه نظام فريـــد
وبديـــع كأنــه الزهر الضـــاحك فى رونق الربيع الجديـــد
ومعان لو فصلتها القـــوافى هجّنت شعر جرول ولبيـــد

(١) الموازنة ص ٢ .
(٢) الموازنة — ٢ .
(٣) الموازنة — ٣ .

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـن به غاية المرام البعيد(١)

وقد أنصف صنعته بهذا الوصف الذى ينطبق على كل نماذجه تمام الانطباق فإذا أنت استعرضت الأصباغ البديعية التى جاءت فى أشعار البحترى وجدته قد استخدمها من غير أن يسرف فيها كما فعل أبو تمام فلم يجهد نفسه إجهاده ، ولم يشق فى سبيل بديعه شقاءه ، ولم يعقد تعقيده ، لأنه بدوى أعرابى ، ولم يكن تحضره حيث رحل إلى المدن لينتزع من نفسه سذاجة البداوة ، وصفاء الصحراء ، ويحل محلها ذهناً معقداً بألوان الثقافات التى استبدت بأبى تمام وطغت على طبعه وشاعريته فبلغت بألوانه البديعية غاية لم يحمدها له نقدة الشعر العربى ، قال ابن رشيق(٢) فى أثناء كلامه عن البحترى وأبى تمام « وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها . فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً ، يأتى للأشياء من بعد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام ، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة » .

استخدم البحترى البديع من غير كلفة ولا مشقة وهام بلون الطباق حتى عرف به كما عرف أبو تمام بالجناس ، وإن ولوع البحترى بالطباق ليؤكد صدق ما نقول من أنه رجع بأصباغ البديع إلى عهود الفطرة السليمة وذلك لأن الطباق — من بين أنواع البديع — من الأمور الفطرية التى لا تحتاج إلى مجهود شاق إذ الضد أقرب خطوراً بالبال إذا ذكر ضده كما يقولون ، ومن هذه الجهة يفارق زميله ابن المعتز حيث أغرم بلون التشبيه حتى عرف به ، والتشبيه عمل شاق يحتاج إلى مجهود جبار قال ابن رشيق(٣) : « وأشد ما تكلفه الشاعر صعوبة التشبيه لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان » وقد كان ابن المعتز حضرياً مترفاً عالماً رأى من صور الحضارة ومشاهدها ما لم يره البحترى

(١) ذكرها عبد القاهر فى دلائل الإعجاز — ٣٩٧ . وعلق تعليقا لطيفا .
(٢) العمدة جـ ١ — ١٠٩
(٣) العمدة جـ ١ — ٢٥٥

لذلك أجاد فى التشبيه وانصرف إليه . أما البحترى فقد كان بدوياً فطرياً لذلك يجنح إلى الطباق ويكثر منه فى شعره . قال الباقلانى(١) بعد كلامه عن أبى تمام « فأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسناً رشيقاً وظريفاً جميلا ، وتصنعه للمطابق كثير حسن ، وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلاسة ، فلذلك يخرج سليما من العيب فى الأكثر ، وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى ، وقعود العبارات عن الغاية القصوى فشيء لابد منه ، وأمر لامحيص عنه ، وكيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدراً فى هذه الصنعة ، وأكبر فى الطبقة كامرئ القيس وزهير والنابغة » . وقد امتازت صنعته عن صنعة أبى تمام بخلوها من الألفاظ الوعرة الوحشية المستكرهة فى عصور الحضارة والرقة قال ابن الأثير(٢) « اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج . ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين أصناف الحلى » .

لهذا كان بديع البحترى عذباً سائغاً تشيع فى أطرافه الرقة والسهولة اقرأ هذه القطعة : —

منىّ وصـــل ومنـــك هجر ... وفىّ ذلّ وفيـــك كـبر
وما ســواء إذا التقينـــا ... سهلٌ على خُلّـة ووعـــر
قد كنت حراً وأنت عبـــد ... فصرت عبدا وأنت حـــر
بـــرّح بى حبّـــك المعنى ... وغرّنى منـــك ما يغـــر
أنت نعيمى وأنـــت بـؤسى ... وقد يسوء الـــذى يســر

---

(١) إعجاز القرآن هامش الاتقان — ١٤٤

(٢) المثل السائر — ٦٩

فإنك تجد طباقاً فطرياً سهلا قريب التناول ليس فيه ما يشينه من ألفاظ وعرة ومعان غامضة وثقافات مبعدة ، بل تراه يطابق بين الوصل والهجر ، والذل والكبر ، والسهل والوعر ، والعبد والحرّ ، والنعيم والبؤس ، والإساءة والسرور ، من غير تكلف أو تصنع .

واقرأ قوله من وصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً     مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها     وريق الغيث أحيانا يباكيها(١)

تجده يطابق بين المضاحكة والمباكاة طباقا عذبا سائغا فيه جمال الفطرة وسلامة السليقة ، وهكذا تراه فى جميع طباقه الذى استخدمه فى صناعته يذوب سلاسة ويفيض عذوبة من غير نزوع إلى الثقافة التى تطمس روعة الشعر وتذهب جماله ، فإذا تركت الطباق إلى الجناس وجدته كذلك اقرأ قوله :

لولا علىّ ابن مرّ لاستمرّ بنا     خلق من العيش فيه الصاب والصبر
برْد الحشا – وهجير الروع محتَفل     ومسْعرٌ – وشهاب الحرب مستعر
ألوى إذا شابك الأعداء كدهم     حتى يروح وفى أظفاره ظفـــر
جافى المضاجع ماينفك فى لجبٍ     يكاد يقمر من لألائه القمر(٢)

تجده يجانس بين مرّ واستمرّ ، ومسعر ومستعر ، وأظفار وظفر ، ويقمر والقمر جناسا ليس بالمتكلف ولا بالمرذول .

واقرأ قوله :

إذا ما نهى الناهى فلجّ بى الهوى     أصاخت إلى الواشى فلجّ بها الهجر

---

(١) الحبك والحبك جمع حباك : وهو من الماء والشعر الجعد المتكسر منهما . الجواشن : جمع حوشن ومن معانيه الدرع . الحاجب : ناحية من الشمس أو ضوؤها . الريق : أن يصيبك من المطر يسير .

(٢) الصاب : جمع صابة وهو شجر مر . الصبر : عصارة شجر مر . هجير الروع : شدته . محتفل : مجتمع . المسعر ، موقد نارالحرب . ألوى الرجل : أكثر التمنى .

وقوله :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها      تذكرت القربى ففاضت دموعها

تجده يزاوج فى الأول بين نهى الناهى ، وإصاختها الواقعين فى الشرط والجزاء فيرتب عليهما مطلق لجاج ، وفى الثانى يزاوج بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين فى الشرط والجزاء فى ترتيب فيضان شىء عليهما . وهى مزاوجة سمحة ليس فيها مايشينها من تكلف أو تصنع .

واقرأ قوله :

ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا      مقصرا من صبابة أو مطيلا

قف مشوقا أو مسعدا ، أو حزينا      أو معينا ، أو عاذرا ، أو عذولا

تجده فى الأول يطابق بين الإقصار والإطالة طباقا سمحا ، وفى الثانى يقسم حال مخاطبه قسمة ساذجة ليس بين أقسامها حاجز حصين يمنعها الاختلاط والتدخل إذ تجد المسعد والمعين لايتباينان ولا ينفصلان ، مما يجعلنا نكرر القول بأن البحترى لم يعتمد فى أصباغه البديعية على الثقافة المنظمة ولم ينزع إلى المنطق والفلسفة فالشعر وهو فن جميل — شىء — وهذه الألوان المنطقية — وهى شىء للشعر شائن — شىء آخر ، وقد عبر عن ذلك البحترى فى قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم      والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق      م مانوعه وما سببه

والشعر لمح تكفى إشارته      وليس بالهذر طوّلت خطبه

وكأنى بالبحترى يدافع عن خطته التى اختطتها فطرته ، ويعيب على من سلك المسالك الوعرة فأثقل شعره بالمنطق ، وأفرغه فى قالب الثقافات . لذلك سلم بديع البحترى من الهجنة والتنقيص ، وكان شعره كلّه كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، أو كالزهرة العبقة العرف الشذية الأريج تبعث

أطيب الروائح من جميع نواحيها ، قال ابن رشيق[1] « وقيل إذا كان الشاعر مصنعا بان جيده من سائر شعره كأبي تمام فصار محصورا معروفا بأعيانه ، وإذا كان غالبا عليه الطبع لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحترى ومن شاكله » .

## ابن المعتز

أما ابن المعتز الأمير العباسى الشاعر العالم الحضرى المترف الذى قال فيه أبو الفرج الأصْبهانى[2] « وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن، وتقدّم جميع أهل عصره فضلا وشرفا، وأدبا وشعرا ، وظرفا وتصرفا فى سائر الآداب : أبو العباس عبدالله بن المعتز بالله، وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرة يشرك فى أكثر فضائله الخاصّ والعامّ ، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية . وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجتهدين ولاتقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفا لصبوح فى مجلس شكل[3] ظريف بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ، ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبي والظليم، والناقة والجمل، والديار والقفار ، والمنازل الخالية المهجورة » .

فقد باين البحترى فى النشأة إذ درج على ميادين من النور والبنفسج والنرجس ، وتقلب بين طيّات الفراش الوثير ، تحوطه الخدم والندامى ، ويحفّ به السرور والطرب ، وقد كانت هذه الحياة ذات أثر بالغ فى

---

(١) العمدة ج ١ — ١١١ .
(٢) الأغانى ج ٩ — ١٣٣ ساسى .
(٣) الشكل : غنج المرأة ودلالها وغزلها .

صنعته ولا سيما لون التشبيه الذى أغرم به . وشارك البحترى فى رقة الصنعة وسهولتها وحسن استخدامها والجنوح بها عن مضايق العلم والفلسفة مع المحافظة على عمود الشعر العربى .

فقد مال ابن المعتز إلى الزخرف الحسى كما مال زميله البحترى ، وحاد عن الزخرف العقلى الذى استبد بأبى تمام وطغى على بديعه ، ولم يرقه صنيعه ، لذلك تراه أول من يعيب طريقته ، ويهجن مذهبه ، فيؤلف رسالة يحصى فيها محاسن أبى تمام ومساوئه فى صنعته ، وهذه الرسالة — وإن لم نرها — قد قرأنا منها بضع عشرة صفحة نقلها صاحب الموشح[1] يعيب فيها أشياء من جناس أبى تمام وطباقه واستعاراته وجملة المعايب تدور حول الإبعاد فى الفكرة والتعسف فى الصنعة ، والبعد عن مألوف العربية السمحة ، والإشاحة عن مواردها العذبة ، وقد كانت هذه الرسالة أولى الدعائم — فيما نعلم — التى اعتمد عليها خصوم أبى تمام وحاملوا لواء التنقيص والغض من شأنه كالآمدى وغيره .

وإن من يتتبع صنعة ابن المعتز ليجدها قد فاضت بأصباغ الزخرف الحسى الذى لم يغص فى بحار الفلسفة والثقافة ، ولم يعقد بمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض آخر على نحو ما رأينا عند أبى تمام ، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج ، وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة فى أروع صورها وأجلها ، اقرأ قوله يجانس :

يا دار أين ظباؤك اللعس قد كان لى فى إنسها أنس

وقوله يمدح المكتفى بالله :

بالمكتفى كفى الأنام همومهم وغدا عليهم طالع مسعود

وقوله :

وكم نعمة لله فى صرف نقمة ترجى ، ومكروه حلا بعد إمرار

تجده فى الأول يجانس بين الإنس والأنس ، وفى الثانى بين المكتفى وكفى وفى الثالث بين نعمة ونقمة ، جناسا عذبا ليس بالمتكلف أو المتصنع .

(١) الموشح ص ٣٠٧ — ٣٢٠ .

واقرأ قوله يقسم بعد الجمع :

ألا إنما الدنيا بلاغ لغاية فإما إلى غيّ وإما إلى رشد

واقرأ قوله مطابقا ومقابلا :

ربّ أمر تتقيــــه جرّ أمرا ترتجيــــه
خفى المحبــوب منه وبدا المكروه فيــه

تجده يطابق فى الأول بين الاتقاء والارتجاء ، وفى الثانى يقابل بين خفى والمحبوب ، وبين بدا والمكروه ، طباقا ومقابلة لايشوبهما التكلف ولا يشينهما التصنع. قال ابن رشيق(١) « وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبد الله بن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لاتكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعرا ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم قوافى وأوزانا ، ولا أدرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب » .

وإذا كان صبغ الطباق أبرز ألوان البديع عند البحترى فقد كان صبغ التشبيه الحسى أبرز أنواع البديع فى صنعة ابن المعتز ، فقد صرف إليه همّه ، وعقد عليه عزمه وتفرغ فيه فلوّنه تلوينا فسيحا ذا نواح متعددة حتى عرف به ، وظهر فيه سبقه وتبريزه على شعراء عصره ، وقد أمدته حياته وما فيها من ترف ومرافق ومشاهد ، بصور لم يألفها أحد من معاصريه سوى الخلفاء وأبناء الخلفاء كابن المعتز ، ومن هنا سرّ تفوقه فى التشبيه الحسى وإعجازه ، وقد دان له النقاد القدامى بهذا السبق الذى بلغ فيه الغاية واستولى على الأمد ، وقد قرأت قريبا مانقلناه عن الأصبهانى فى أغانيه ، ويقول الباقلانى(٢) « وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر وقد تتبع فى هذا مالم يتتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء » . ويقول ابن رشيق(٣) « مع أنه لابد لكل شاعر من طريقة

---

(١) العمدة ج ١ — ١٠٩ .
(٢) إعجاز القرآن ١ — ١٥٦ .
(٣) العمدة ج ١ — ٢٥٥ .

تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ويسهل عليه تناولها كأبى نواس فى الخمر ، وأبى تمام فى التصنيع .. وابن المعتز فى التشبيه » . وقد أطراه عبد القاهر الجرجانى فى غير موطن من أسرار البلاغة جاء منها(١) « ولذلك تقول .. ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكلّ مالايوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولها     مداهن درّ حشوهن عقيق(٢)

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها     قدم تبدت من ثياب حـــداد

وقوله :

قد انقضت دولة الصيام وقد     بشر سقم الهلال بالعيـــد

يتلو الثريا كفاغـــر شره     يفتح فاه لأكل عنقـــود

ثم ساق أمثلة أخرى من روائع تشبيهاته ، ثم قال : وما كان من هذا الجنس ، ولا تريد نحو قوله :

اصبر على مضض الحســو     د فإن صبرك قاتلـــــه

فالنـــار تأكل نفسهـــا     إن لم تجـــد ما تأكلـــه

وذلك أن إحسانه فى النوع الأول أكثر وهوبه أشهر .

وجاء فى معاهد التنصيص(٣) فى ترجمة ابن المعتز « هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات » .

وعلى رغم صعوبة التشبيه واحتياجه إلى مجهود شاق وتعب مضن كما قال ابن رشيق « وأشد ماتكلفه الشاعر صعوبة التشبيه لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان » فقد عكف ابن المعتز عليه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ويطرز به قصائده مستمدا مقوماته من حياته التى لم تتح

---

(١) أسرار البلاغة — ٧٥ .

(٢) مداهن : جمع مدهن وهو آلة الدهن .

(٣) معاهد التنصيص ج ١ — ١٤٦ .

لشاعر فأظهر فيه براعة معدومة النظير مما استنبطه من ألوان رائعة وصور خلابة، وإن ديوانه ليفيض بذلك اللون الذى إذا طالعته ملأ نفسك روعة وفؤادك بهجة وطار بك إلى حياة مترفة نسمعها ولا نكاد نراها ، اقرأ قوله فى النرجس :

كأن أحداقها فى حسن صورتها مداهن التبر فى أوراق كافور

وقوله فى النارنج :

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقاق عقيق قد ملئن من الدر

وقوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله فيه أيضا :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

وهكذا إذا قرأت غير هذه التشبيهات من ديوانه فإنك تقف على صور جديدة للتشبيه ذات ألوان متعددة تفيض بالخيال الرائع ، وتبرز مكامن هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ابن المعتز وما فيها من مداهن التبر وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاّة بأنواع الجواهر الكريمة واللآلىء النادرة حتى ليخيل إلى القارئ أن هذا الصبغ مع سماحته وعذوبته وعدم بلوغه حدّ التكلف الشائن قد استحال على يد ابن المعتز إلى صبغ آخر جديد ، وذلك هو سر تفرده فى هذا اللون وبلوغه أعلى القمم، وهل رأيت أروع من هذا التشبيه الذى دبجته براعة ابن المعتز :

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفؤاد بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته

حيث يصوغه ابن المعتز هذه الصياغة السلسة فيشع فيه جلالا وندرة ويذكى فى طياته لهيبا ونارا من جنس غريب إذ ليس وقودها الحطب والخشب وإنما مبعثها الوجوه والخدود . واقرأ قوله يصف الساقى :

وكأن كفيه تقسم فى أقداحنا قطعا من الشمس

تجد غرابة فى هذا المقسم ، وسبقا فى هذا التصوير ، وتبريزا فى هذا التشبيه ، فتقرّ له بالسبق فى هذا اللون والتفوق المنقطع النظير .

كان ابن المعتز شاعراً ذا صنعة بديعية فارعة دقيقة رائعة ، وقد كان يعجب بهذا المذهب كما رأيت إعجابا شديدا فى دقة صنعة وروعة بيان فتضافرت صنعته مع عقله ، فأفرغها فى كتاب سماه « البديع » وكان ذلك الكتاب أوّل لبنات هذا البناء ، فانتهى علم البديع والصنعة إليه، وختم به كما قال ابن رشيق(١) .

## الحكم على هذه الصنعة بوجه عام فيما بعد القرن الثالث :

على أن هذه الصنعة التى بلغت غايتها فى القرن الثالث الهجرى وانتهت بابن المعتز واستقبلت على يديه عهداً علميا جديدا أخذت بعده فى التدهور والاضمحلال ، وأصبح لايحسنها إلا النزر اليسير من شعراء العربية. وأما الجمهور الأعظم الذين استهوتهم هذه الصنعة وسيطرت على شعرهم — وهم لايجيدون تمثيلها — فقد مشوا بالشعر فى طريق التكلف البارد والتعقيد الشائن ، وهووا به إلى جمود الطبع وانحباس النفس ، فصارت المعانى تخضع للألفاظ ، والأفكار حبيسة الجناس والطباق والألغاز وما إليها من تلك الأصباغ ، وأصبحنا لانرى بين نماذجهم إلا أساليب معقدة وأنفاسا واهنة فاترة ، وطباعا سقيمة جامدة كلما همت بالاندفاع فى مسايل الفكر انقطع بها الولوع بالزخرف والحرص على البديع ، وحال بينها وبين الاطراد تكلف تلك الحلى وتصنعها ، هذا فى الشعر ، وقد قلنا فيه من قبل : إنه كان أسرع أنواع الكلام قبولا لتلك الزخارف . وأطوع تمثيلا لهاتيك الحلى ، لذلك سارت الأصباغ فيه سيرا حثيثا — حسنا أو قبيحا — حتى استوت جوانبها ووضحت معالمها فى القرن الثالث ، ثم أخذت تنحدر وتدنو ، ودب خلفه النثر دبيبا خفيفا حتى استوت هذه الصنعة وبلغت غايتها من النضج والاكتمال على يد كتاب القرن الرابع الهجرى من أمثال بديع الزمان الهمذانى ، والخوارزمى ، والصاحب ابن عباد وابن العميد ومن لف لفهم وحذا

---

(١) العمدة ج ١ — ١١٠ .

حذوهم ممن أحاطوا باللغة ، وبرزوا فى الآداب ،فاستطاعوا أن يصوغوا أساليبهم فى ثوب مقبول من السجع والجناس والطباق والاقتباس من لغة الشعر أو التضمين لمعانيه ،ثم خلف من بعدهم على هذه الصنعة خلف — ولا سيما بعد سقوط بغداد وفى عهد المماليك — لم يكن لهم مالسابقيهم من إحاطة باللغة ،ودراية بالأدب ،فأوغلوا فى أصباغ البديع من غير رفق ، وضموا إلىماسبق الإفراط : فىالتورية ،والاستخدام ،وما لايستحيل بالانعكاس والتلميح للحوادث المتعالمة ، ثم التصحيف الذى أصبح مجال البراعة ، وميدان السبق ، فأعقب ذلك سقما فى الأساليب ، وفسادا فى التراكيب ، وتضحية بجليل المعانى فى سبيل تافه الألفاظ ، وذلك ماسترى بسطه فى الباب الثالث بمشيئة الله تعالى ..

أما بعد : فقبل أن نودّع هذا اللون من البحث إلى لون آخر . نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نحكم حكما عاماً على هذه الصنعة البديعية ينتظمها فى جميع عصورها ، وينطبق على فنون القول التى أشرقت بنورها أو اصطلت بنارها فنقول :

هذه الصنعة تخلع على النظم ثوب الرونق ، وتكسبه الروعة إذا كانت سهلة سمحة متسمة بسيمى الطبع القوى ، والفطرة الجياشة التى تحرص على المعنى فتوفر له كل مايكسبه القوة والإبانة والوضوح وتجاب له من الألفاظ مايلائمه ويتفق معه ، فالصبغ البديعى بهذا الوصف إن بدا فى رسالة كان عينها ،أوفى خطبة كان وجهها ، أوفى قصيدة كان بيتها ، وأما إذا كانت متكلفة متعلمة يقصدها الشاعر أو الخطيب أو الكاتب وحدها مضحيا بالمعنى فى سبيلها ، محولا له بتحولها فإنها تذهب رونق الكلام ، وتخلق ديباجته وتطمس محاسنه .

قال أبو هلال العسكرى (١) بعد أن سرد أنواع البديع التى سطرها فى كتابه ، وبين أنها ليست من اختراع المحدثين « لأن هذا النوع من الكلام

---

(١) كتاب الصناعتين — ٢٥٨ .

إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة».

ولا ريب فى أنها إنما تستحسن إذا انبعثت عن طبع سمح وسجية صافية، وتستهجن إذا صدرت عن تكلف ممقوت وتصنع قبيح، قال ابن رشيق(١) «وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن، ونكت تستظرف مع القلة وفى الندرة. فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلفة فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم فى الصناعة لإكثاره من ذلك ...

ثم قال: وكذلك لا يجب أن يكون استعارة وبديعاً كشعر أبى تمام فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز، وكيف قال فيه ابن قتيبة، وما ألف عليه المتعقبون، كالجرجانى، وأبى القاسم بن بشر الآمدى وغيرهما، وإنما هرب الحذاق عن هذه الأشياء لما تدعو إليه من التكلف ولا سيما إن كان فى الطبع أيسر شىء من الضعف والتخلف ثم قال. ولا ينبغى للشعر أن يكون أيضا خاليا مغسولا من هذه الحلى فارغا ككثير من شعر أشجع وأشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة» فأنت تراه فى الفقرة الأخيرة من كلامه يقرر أنه لا ينبغى أن يكون الشعر مغسولا من هذه الحلى دون أن تطيف به فتخلع عليه إشراقا، وتكسوه جمالا، فالصنعة فى نظره أروع وأعذب من الطبع المجرد ولكن فى الحدود التى رسمها من عدم الإسراف فيها حتى تبلغ غايات التكلف الذى يجرها إلى المقت والاستكراه. وذلك هو الرأى عندنا لأنه إذا تلاقت الصنعة والطبع كان التفوق المعجب والإعجاز الرائع، يؤكد ذلك قول ابن رشيق (٢) أيضا «ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما إلا أنه إذا توالى وكثر لم يجز ألبتة أن يكون طبعا واتفاقا، إذ ليس ذلك فى طباع البشر، وسبيل الحاذق بهذه الصناعة إذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه، وقيل إذا كان الشاعر مصنعا بان جيده من سائر شعره كأبى تمام فصار محصوراً معروفا

(١) العمدة جـ ١ – ٢٥٥ فى باب المثل السائر.

(٢) العمدة جـ ١ – ١١٠.

بأعيانه ، وإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جهده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحترى ومن شاكله » ويقول عبد القاهر (١) « فقد تبين لك أن مايعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى . إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن ولما وجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذمّ الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف عن الأغراض وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق والرضا بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشى قياس الحلى على السيف الددان (٢) والتوسع فى الدعوى بغير برهان كقول المتنبى :(٣)

إذا لم تشاهد غير حسن شياتهـا وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ماعناه فى عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها » . ثم قال : « وعلى الجملة فإنك لاتجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه

---

(١) أسرار البلاغة – ٥ .

(٢) الدادان : الكهام والقطاع ضد .

(٣) أسرار البلاغة – ٧ .

وساق نحوه ، وحتى تجده لايبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته — وإن كان مطاوبا — بهذه المنزلة وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبدا من قول الشافعى رحمه الله تعالى وقد سئل عن النبيذ « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » .

وإذا كان هذا الحكم لازما للسجع والجناس وهما عمادا المحسنات اللفظية فهو بغيرهما من المحسنات المعنوية أوجب وألزم .

وإلى هنا نسدل الستار على هذا اللون من البحث إلى حين ، ونرافق البديع منذ صار فنا وعلما إلى يومنا هذا بمشيئة الله تعالى ...

# الباب الثاني

# استواء البديع فناً وعلماً

# الفصل الأول

# علم البديع من عصر ابن المعتز إلى عصر السكاكى

أبرز عناصر هذا الفصل :

الحافز على التأليف فى البديع ــ مبدأ الخصومة بين الشعراء والعلماء وإلى أى حد وصلت ــ الباعث على هذه الخصومة ــ نتيجتها على علم البديع ــ بدء التأليف فى البديع .

١ ــ « كتاب البديع لابن المعتز » ــ ما هو . ــ ومتى ألف ــ وما الباعث عليه ــ وما منهجه فى البحث ــ وما محتوياته ــ ماالبديع فى نظره ــ مامبلغ سبقه ــ ما منزلته من حيث التمام أو النقصان ــ سبق الجاحظ إلى ألوان من البديع ــ سبق المبرد إلى بعض الألوان .

٢ ــ «البديع فى نقد الشعر» ــ ثقافة قدامة ــ إسهامه فى إقامة صرح البديع الأول ــ قدامة أول من غمس البديع فى بحار الفلسفة ــ منزلة الكتاب فى النقد ــ محتوياته ــ أثر الفلسفة فيه ــ توزيعه المباحث بين اللفظ والمعنى ــ مصطلحات البديع التى عرض لها عربية فى روحها ومادتها ــ توارده مع ابن المعتز ــ مبلغ سبقه ــ الطعون على كتابه وإلى أى حد أثرت فى قيمته ــ نقد النثر ــ سر إغفالنا له .

٣ ــ البديع « فى الصناعتين » ــ الجديد فى عهد التأليف منذ البداءة فيه إلى أبى هلال ــ الحافز على تأليف الكتاب ــ محتوياته ــ أهمية الصناعتين فى علوم البلاغة ــ نظرته إلى البديع ــ تجريده من بعض ألوانه ــ موقفه من الألوان التى طرقت من قبله ومبلغ تجديده فيها ــ جمعه بين طريقى بن المعتز وقدامه ــ الألوان التى اخترعها ــ مبلغ سبقه فيها ــ سبقه إلى بحث نواة حسن التعليل .

٤ — « البديع فى العمدة » ثقافة ابن رشيق — موقفه من سلفه — الباعث على تأليف الكتاب — موقف معاصريه من كتابه — محتويات الكتاب — ميزته فى البديع — إطلاقه عليه اسم الحلى والمراد منه — اغترار المتأخرين بهذا الإطلاق — إرباؤه على أبى هلال فى التهذيب وضم الأشياء إلى الأشياء — سبقه إلى بعض ألوان — شمول المجاز للتشبيه والاستعارة وغيرهما .

٥ — البديع فى سر الفصاحة — ثقافة ابن سنان — موقفه من سلفه — حريّة رأيه — سبقه إلى مقدمة البلاغة — رأيه فى الإعجاز — منزلة كتابه — الباعث على تاليفه والغرض منه — محتوياته — تأثره بقدامة فى التفرقة بين مباحث اللفظ والمعنى . ألوان البديع فى كتابه — مبلغ تجديده فيها — رفضه لبعض الألوان — ميزة كتابه .

٦ — البديع فى كتابى عبد القاهر — الباعث على تأليف أسرار البلاغة — حالة الأدب فى عصره — السر فى إيثارة بعض ألوان البديع على بعضها الآخر — البديع موضوع أسرار البلاغة — تساهل الناشر فى إطلاقه عليها اسم البيان — نظرته إلى المحسنات البديعية — أسلوبه — منهجه فى البحث — السر فى تقديمه الاستعارة على التشبيه—غير المفيد من الاستعارة ليس من البديع — « المجاز العقلى » من ابتكار عبد القاهر —كل اختصار لكلامه تشويه — انتصاره لطريقة التتبع — صدق نبوءته فى المتأخرين التخييل التعليلى وغير التعليلى — الفرق بين الاستعارة والتخييل — أسلوب التجريد ورأيه فيه — أسبقية أسرار البلاغة على دلائل الإعجاز — الباعث على تأليف دلائل الإعجاز — نظريتا اللفظ والمعنى — قضاؤه عليهما — بلاغة الكلام فى النظم — وضعه أسس علم المعانى — موضوع دلائل الإعجاز علم البيان أو الفصاحة — المزاوجة والتقسيم وغيرهما من أعلى مراتب النظم — سر آخر لجنوحه عن استيعاب البديع — بعبد القاهر ينتهى العصر الذهبى للبديع — كتاب البديع لابن منقذ — الطابع العام للمدرسة الأولى .

الحافز على التأليف فى البديع :

منذ أوائل القرن الأول الهجرى اتجهت عناية المسلمين إلى دراسة الشعر العربى ، وانصرفت همتهم إلى استقائه من منابعه الصحيحة بمراجعة محفوظاتهم

من أشعار الجاهليين ، تحقيقا للشاهد ، واستحضارا للحجة ،واستعانة على إدراك مرامى القرآن والسنة ، فقد أثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم (١) ، وكان عماد المدرسة الأولى الإمام عبد الله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ ه فقد أسهمت هذه المدرسة بنصيب وافر فى هذه الثقافة التى تنتظم القرآن والحديث والشعر ، ومضى العرب على ذلك زمنا والسلائق صحيحة والفطر سليمة ، والألسن خالصة فصيحة ، ثم اتسعت رقعة الملك وانتشر العرب فى الأرض ، وبعدوا عن منبع العربية الصحيحة ، فأخذ اللحن يفشو رويدا رويدا . فازداد العلماء حرصا على تتبع كلام العرب والنظر فى أساليبهم ،وظهرت الطبقة الأولى من الرواة بأبى الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٨٥ ه ، ومن لفوا لفه ممن قاموا بأول محاولة نافعة لضبط القراءة ، وسلامة الإعراب ، وصيانة اللسان العربى من آفات العجمة والخطأ ، فوضعت نواة النحو ، فاتجه البحث عندئذ اتجاها جديدا ثم اتسع نطاقه ، وتعددت مواطنه ، وعمرت المجالس بالبحث والجدل ، والحجاج والمناظرة ، وظهر كثير ممن أبرزتهم الخلافة الإسلامية من العلماء والرواة بالبصرة والكوفة . فقد كان علماء المصرين يستشهدون على تفسير الغريب ومسائل النحو بأشعار الجاهليين والمخضرمين ، ثم اختلفوا فى الإسلاميين كجرير والفرزدق ، فانحاز بعضهم عن الاحتجاج بشعرهم واعتبروهم مولدين ، وقد كان ذلك الخلاف مبدأ الخصومة والاصطدام بين العلماء والشعراء . قال ابن رشيق(٢) « كل قديم من الشعراء فهو محدث بالإضافة إلى من كان قبله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول . لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا براويته (يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ) فجعله مولدا بالإضافة إلى شعر الجاهليين والمخضرمين ،وكان لايعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين . قال الأصمعى . جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى ،وسئل عن المولدين فقال : ما كان منحسن فقد سبقوا إليه وما كان

(١) الموافقات ج ٢ — ٨٧ .
(٢) العمدة ج ١ — ٧٣ .

من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح وقطعة نطع .(١)

وهذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي — أعني أن كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلاّ لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون . ثم صارت لجاجة .

فقد كان العلماء حريصين على اللغة ، وكانت همتهم متجهة إلى استقائها من منابعها الخالصة التى لم تكدر بلحن ، ولم تشب بخطأ ، حتى تتربى الملكات على الأساليب الصحيحة ، وقد كان يقع من هؤلاء الإسلاميين خطأ يتفاوت قلة وكثرة بتفاوت أزمانهم وقربهم من منابع العربية الصحيحة أو بعدهم منها . وقد روت كتب النقد شيئا وافرا من هذا الباب ، فإذا رويت كل أقوالهم بما فيها من أخطاء فسدت اللغة واستعجم العرب ، واستبهم عليهم كتاب الله وسنة رسوله وهما أعز وأغلى ماعند المسلمين من تراث به يفخرون ، وبالانضواء تحت لوائه يسودون ، وبالإصابة فى فهم أساليبه وإدراك أغراضه ومراميه يتفاوتون ، وقد حفظوا عن عمر بن الخطاب قوله الذى أسلفناه ،ووعوا عن ابن عباس قوله« إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب . وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا »(٢) فاستمد العلماء نواة هذه العصبية من أمثال هذه النصوص ومن غيرتهم على لغة القرآن والحديث ، وحفاظهم على أساليبها الصحيحة وكلماتها الفصيحة .

وقد نمّى هذه العصبية ، وأفسح لها مجال الظهور ، جنوح كثير من الشعراء المحدثين ، عن طوابع الشعر القديم ، وانحرافهم عن عموده ، ومجانبتهم لكثير من طرقه ،وخطؤهم فى المعانى ،وإكثارهم من الساقط المرذول ، والغث المستكره ، وإسرافهم فى التعسف والتناقض ، والإحالة

---

(١) المسيح : المنديل الأخشن . النطع وبالتحريك وكعنب : بساط من الأديم جمعه أنطاع ونطوع .

(٢) العمدة ج ١ — ١٧ .

والتقصير عن الغرض ، والتعقيد المفرط ، والعمد إلى الألفاظ الطنانة التي ليس تحتها طائل ، والغرام بأصباغ البديع ، وإيثار الزخرف والتنميق في العبارة على جودة المعنى وسلامة الغرض ، مما يؤدى إلى التكلف بالإبعاد في الاستعارات والتشبيهات وتعقيدهم في أصباغ البديع والخروج بها عن مذاهب العرب ومألوفهم في طرق أدائهم « وقد كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ،ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد . فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ،فمن محسن ومسيء ،ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط » (١) .

وقد ظهر أثر ذلك الاحتدام بين اللغويين والمحدثين عند بشار بن برد زعيم هذه الحلبة وممهد طريقها ، فقد عاب عليه سيبويه كلمات ونسبه فيها إلى الغلط فهجاه بشار ، قال أبوحاتم ، فتوقاه سيبويه بعد ذلك وكان إذاسئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به استكفافا لشره (٢) وكذلك فعل بالأخفش (٣) وقد عيب على أبي نواس صفته لعين الأسد بالجحوظ في قوله :

كأن عينيه إن هي التهبت ... بارزة الجفن عين مخنـوق

وهم يصفون عينه بالغؤور كقول زهير :

وعينان كالوقبين في ملء صخرة ... ترى فيهما كالجمرتين تسعر(٤)

(١) الوساطة – ٣٧ – ٣٨ .

(٢) تاريخ الأدب للرافعي ج ٣ – ٣٦٨ .

(٣) الموشح – ٢٤٦ .

(٤) الوقبين : تثنية وقب وهو نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء كالوقبة . الملء : اسم ما يأخذه الإناء إذا امتلأ .

وكان الأصمعى يخطىء قوما من المخضرمين والمحدثين فى تعسفهم مثل هذه الطرقات المجهولة مما لا يعرفونه عيانا ولا يخالطون صفته بالحقيقة التى تعرفها المشاهدة (١) .

غلا بعض العلماء فى العصبية للقديم ، والانحياز عن الحديث ، والغض من شأنه حتى بلغت بهم غاية مذمومة لم يحمدوا عليها ، ذلك أنه قد يستحسن بعضهم الشعر ينشد له ، فإذا كشف عنه القناع ، وظهر أنه لأحد المحدثين ، نقض حكومته ،وانقلب استحسانه إلى استرذال ، قال الجرجانى(٢) « وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين . أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره. فإذا نسب إلى بعض أهل عصره ، وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملا وأقل مرزئة من تسليم فضيلة لمحدث ، والإقرار بالإحسان لمولد ، حكى عن إسحاق ابن ابراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمعى .

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحبّ القليل

فقال : والله هذا الديباج الخسروانى(٣). لمن تنشدنى ؟ فقلت إنهما لليلتهما . فقال : لا جرم . والله إن أثر التكلف فيهماظاهر . وعن ابن الأعرابى فى أبيات أبى تمام فى الروض نحو من هذا ، وله نظائر مشهورة تحكى عن الأصمعى ومن بعده » فذلك نوع من العصبية مسرف ، ظل يلهبه الحقد ، ويمده غمط الفضل وعدم الاعتراف لمعاصر بسبق أوتبريز ،وكثيراً ماقضت هذه العصبية الشائنة على نماذج من الشعر المحدث لو أنصفت لكانت غرة الشعر ودرة البيان ، ولم يقف أمر متعصبى العلماء عند المحدثين بل امتد لهيبه إلى المتقدمين . قال الجرجانى (٤) وقد بعدت بهم العصبية فى ذلك إلى تناول

---

( ١ ) أدب الرافعى ج ٣ — ٢٥٨ .
( ٢ ) الوساطة — ٥٠ .
( ٣ ) الخسروانى : نوع من الثياب . وخسراوية-بلدة بواسط .
( ٤ ) الوساطة — ٥٠ .

بعض المتقدمين . زعم الأصمعى . أن العرب لا تروى شعر أبى دواد(١) ، وعدى بن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، وكيف يكون ذلك ؟ وهذا معاوية يفضل عديا على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيئة يسئل من شعرالناس؟ فيقول : الذى يقول . وينشد لأبى دواد (٢) :

لا أعد الإقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الإعدام
من رجال من الأقارب ماتوا من حذاق هم الرءوس الكرام
فيهم للملاينين أناة وعرام إذا يراد عُرام (٣)

ولم تكن العصبية مقصورة على رجال اللغة وحدهم بل حمل لواءها وجاهر بها نفر من الأدباء . روى المرزبانى عن على بن يحيى قال (٤)« كان إسحاق بن إبراهيم الموصلى يتعصب على أبى نواس ويقول هو يخطىء . وكان إسحاق فى كل أحواله ينصر الأوائل فكنت أنشده جيد قوله فلا يحفل به لما فى نفسه . فأنشدته :

وخيمة ناطور برأس مُنيفةٍ تهُم يدًا من رامها بزليل(٥)

فكان على أمره . فقلت والله . لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل شىء سمعته قط » . وكذلك كان الموصلى مع أبى العتاهية(٦) .

وكان يقابل هذه الفئة من غلاة المتعصبين فئة أخرى من المعتدلين الذين يؤمنون بأن البلاغة والبيان فضل الله يؤتيه من يشاء فى أى عصر شاء سبق الزمان أو تأخر ، فالقدماء والمحدثون سواسية فى ميزان النقد ، ومقياس

(١) أبو دواد شاعر من إياد ، والدواد صغار الدود .
(٢) فى الأصل داود ولا أراه إلا تحريفاً .
(٣) العرام من الرجل شراسته وأذاه وهو من باب نصر وضرب وكرم وعلم .
(٤) الموشح — ٢٦٣
(٥) والأليق أن تكون منيفة صفة لمحذوف أى أكمة أو غيرها منيفة . الناطور والناطر : حافظ الكرم والنخل أعجمى وقيل عربى . منيفة : ماءة لتميم بين نجد واليمامة . زليل : الماء الزلال ومصدر زل فلان إذا مر سريعا . وذا هو المراد ، ومن معانيه الفالوذ وفى اللسان الزليل انتقال الجسم من مكان إلى مكان . والزليل مشى خفيف . ويقال زل السهم عن الدرع والإنسان عن الصخرة يزل وتزل ( بكسر الزاى وفتحها ) زلا وزليلا ومزلة . زلق .
(٦) الموشح — ٢٥٨ .

الجمال البيانى ، ومن هؤلاء ابن قتيبة فقد لام أشياخه وندد بهم ، ونعى عليهم انحيازهم للقديم لمجرد قدمه وجنوحهم عن المحدث لمحض حدوثه قال(١) « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد ، أواستحسن باستحسان غيره ، ولانظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولاالمتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصن ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل وكل شريف خارجيا فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم » ومن هؤلاء أبو العباس المبرد قال (٢) ، وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب . ولكن يعطى كل ما يستحق » .

وكانت فئة بين الفئتين تنزع تارة إلى العصبية فتقبح الحسن وتحسن القبيح وطوراً آخر إلى الاعتدال فتصوب الحسن ، وتستهجن المرذول . قال الجرجانى (٣) « ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الإنصاف على قلبه فى الوقت بعد الوقت فيخلع رداء العصبية ويصغى ويميز فيرجع . حدثنى جماعةمن أصحاب رياش القيسى — ولا نعرف فى زماننا راوية تقدمه ، وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء والغض من أبى تمام والبحترى خاصة حتى إن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة لقلة الرغبة فيها — أنه أنشد ذات يوم قول البحترى (٤) :

---

(١) الشعر والشعراء .

(٢) الكامل جـ ١ — ١٥ .

(٣) الوساطة — ٥١ .

(٤) الأبيات فى الديوان جـ ٢—٢٨١ بمغايرة يسيرة .

نظرت إلى ظران فقلت ليلى هناك وأين ليلى من ظران
ودون مزارها إيجاف شهر وسبع للمطـــايا أوثمـــان
ولما غربت أعراف ســـلمى لهن وشرقت قنن القنـــان
تصوبت البلاد بنـــا إليكم وغنى بالإياب الحاديان (١)

فقال : أحسن والله . من هذا البدوى المطبوع . فقيل إنها للوليد بن عبيد. فقال . أعد ، فأعيدت فرجع عن رأيه فيه . وحض الناس على رواية شعره :

وقد قوبلت هذه الحملة التى شنها المتعصبون من العلماء على الشعراء بحملة أعنف منها وأوجع . إذهب الشعراء يحملون على العلماء حملات قاسية موجعة يتضاءل أمامها نقد العلماء وتنقيصهم للشعراء ، والشعر أمضى سلاح وأحد سنان يقتل المكارم ويطعن الفضائل فى الصميم ، فأوجع الفرزدق عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى إذ كثيراً ما كان ينتقده بمخالفة قياس النحو (٢) وهجاه فقال مخالفا للقياس إمعانا فى إيجاعه .

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليـــا

ونال بشار من سيبويه حين بلغه أنه يخطئه فقال :

أسيبوه يا بن الفارسية ما الذى تحدثت من شتمى وما كنت تنبذ
أظلت تغنى سادرا بمساءتى وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ

فقيل لبشار . تنسبه إلى الفارسية . قال نسبته إلى أعرف أبويه ، وكذلك فعل بالأخفش حينما بلغه أنه طعن عليه فى أشياء خالف فيها اللغة قال (٣) ويلى على القصار بن القصارين (٤) ، متى كانت اللغة والفصاحة

---

(١) ظران ككتاب ، موضع كما القاموس وفى هامشه كسحاب . الوجف والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل وجف يجف وأوجفته . الأعراف ـ ضرب من النخل ومن الرياح أعاليها . وأعراف لبنى ، وأعراف غمرة : موضعان ، ويحتمل أن يكون جمع عرف وهو ريح طيبة أو منتنة أو عرف اسم لنبات. التصوب : المجىء من عل .

(٢) الموشح .

(٣) الموشح — ٢٤٧ .

(٤) القصار : محور الثياب وحرفته القصارة وخشبته المقصرة .

فى بيوت القصارين . دعونى وإياه . فبلغ ذلك الأخفش فبكى فقيل له . ما يبكيك . قال وقعت فى لسان الأعمى . فذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه . وسألوه ألا يهجوه . فقال . وهبته للؤم عرضه ، فكان الأخفش بعد ذلك يحتج فى كتبه بشعره ليبلغه ذلك فيكف عنه » . ومثل ذلك فعل أبو نواس بأبى عبيدة(١) ولم يكتف الشعراء بالإقذاع إلى العلماء بل تعدوا ذلك إلى نقض حكوماتهم ، ونسبتهم إلى الجهالة ، وعدم التمييز بين الحسن والقبيح من الكلام ، فترى أبا نواس يحكم لجرير على الفرزدق ، فلما قيل له . إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا قال « ليس هذا من عمل أبى عبيدة إنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه »(٢) ومثل هذا كثير قدمنا بعضه فى الباب السابق ، وندع الباقى قارا فى موطنه من كتب النقد فلا يفوت من يلتمسه ، وذلك هو السر فى أن كثيراً من الرواة كانوا لا يتكلمون فى شأن الشعراء إلا بعد موتهم . اتقاء لمعرة اللسان والوقوع فيه ، وقد جهدوا بأبى عبيدة أن يفضل بين مسلم وأبى نواس فكان يقول « أنا لا أحكم بين الأحياء (٣) .

وأيا ما كان . فقد حمى وطيس المعركة بين الطائفتين ، ونالت كل واحدة من الأخرى على تفاوت ما بينهما من أسلحة الإيجاع والإيلام ، وإذا كان لكل شىء ثمرة ، فقد أعقبت هذه المعركة أحمد النتائج وأطيبها على علم البديع ، وانتهى السبق فى ذلك إلى أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز . أحد هواة البديع ، فهو أول من ألف فى هذه الأصباغ ، وأول من سمى ما جمعه منها فى كتاب باسم « البديع » كما نبه على ذلك فى صدر كتابه ، وتبعه على هذه التسمية الذين خلفوه على هذا العلم من المؤلفين . قال ابن رشيق(٤) أثناء حديثه عن ابن المعتز « فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به » .

بدأ البديع بابن المعتز يستحيل من أصباغ تجول بالشعر ، وتطوف بخيال الشاعر إلى قواعد ثابتة مستقاة من الخبرة مشتقة من الدراية ، محدودة بحدود ، مؤزرة بشواهد تسهل تناولها على الشعراء والكتاب .

---

(١) الموشح — ٢٦٣
(٢) الكشف عن مساوىء المتنبى ٥ - ٥
(٣) أدب الرافعى ج ٣—٢٥٩
(٤) العمدة ج ١—١١٠

## ١ — كتاب البديع لابن المعتز

ما هو ، ومتى ألف . وما الباعث عليه . وما منهجه فى البحث . وما محتوياته . وما البديع فى نظره . وما مبلغ سبقه . وما منزلته من حيث التمام والنقصان .

ماهو ؟ كتاب البديع لابن المعتز أول كتاب أخرج للناس بهذا الاسم .

متى ألف . وقد ألفه سنة أربع وسبعين ومائتين للهجرة كما يقول(١) وظل مطموراً بين المخطوطات لا يعرف إلا فى بطون كتب المؤلفين على جلالته وخطورة شأنه فى علم البديع حتى كتب له الذيوع والانتشار على يد أحد أفاضل المستشرقين «أغناطيوس كراتشكوفسكى عضو أكاديمية العلوم فى لينينغراد » فقد قام بطبعه وقدم له مقدمة باللغة الإنجليزية ،وقد وقفت على ترجمتها فلم أر فيها ما يستحق الإثبات هنا .

الباعث على تأليفه والغرض منه :

والذى رمى إليه ابن المعتز من وراء هذا الكتاب هومايقوله(٢) « وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع وفى دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التى قصدنا إليها » .

وقد كان ابن المعتز علما من أعلام الصنعة البديعية كما أسلفنا ،أتى فيها بالمعجز ،واستولى على الأمد، وكان فى سلك الذين رماهم علماء اللغة بإفساد الشعر والخروج به عن مألوفه ومعتاده وإثقاله بالحلى التى تسلمه إلى التكلف والتعقيد وإن كان ألطفهم صنعة وأحلاهم بديعا — فنافح ابن المعتز عن المحدثين واحتج للبديعيين بهذا الكتاب الذى أثبت فيه أن البديع معروف فى العربية منذ العهد القديم ، وقد صرح بذلك فى صدر كتابه قال «ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن» ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه » .

---

(١) البديع — ٢ (٢) كتاب البديع — ٧

وقد أسلفنا فى الباب السابق أن ابن المعتز لم يرتض طريقة أبى تمام كلها فألف رسالة فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه، وكان مما عابه عليه استعارات ومطابقات وتجنيسات أبعد فيها أبو تمام عن الصواب ، وجانب طريق السداد وفى هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن ينعى عليه إسرافه فى هذه الأصباغ فيقول (١) « ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف» .

ثم يشير إلى طريقة المتقدمين فى البديع الذين لم يغلوا غلو أبى تمام ولم يسرفوا إسرافه يقول (٢) « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل » . وكأن ابن المعتز يرمى من وراء هذا الكلام إلى غرض آخر ، وهو لزوم القصد والأخذ بأسباب الاعتدال فى هذه الصنعة فإن ذلك يكسب الكلام روعة ، ويخلع عليه جمالا ورقة ، ومجانبة الإسراف والإفراط فى هذه الأصباغ ، وإلافالشاعر يفتح على نفسه أبواب العيب والطعن ويقضى على شعره بإذهاب رونقه وإخلاق ديباجته . وإذا تأملت نهج ابن المعتز وأنه يزجى الأمثلة الكثيرة والنماذج الوافرة من القرآن وهو المعجز فى فصاحته وبلاغته ثم من الحديث وهو نهاية ما تبلغه طاقة البشر ، ثم يختار من كلام الصحابة ما كان رائعا خلابا ، ثم من الكلام القديم والمحدث ما كان رقيقا عذبا ، ثم يوشح الباب بما عيب منه شعراً ونثراً . أدركت أن ابن المعتز يرمى إلى غرض ثالث ، ذلك هو أن يضع بين يدى الناشئين دستورا يمدهم بمقومات هذه الصنعة التى أباحها الذوق العربى ، ويعصمهم من الوقوع فى محرماتها التى تسلمهم إلى الاسترذال ، وتنزل بأشعارهم إلى الحضيض ، وتجده يشير إلى ذلك الغرض فى قوله بعد أن ساق أمثلة للمعيب المردود من الاستعارة « وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيجتنب »(٣) .

---

(١) مقدمة البديع . (٢) مقدمة البديع

(٣) صفحة ٢٣

وقد رجحت كفة الأدب على العلم فى ذهن ابن المعتز كما أسلفنا ذلك فى صنعته، وكما تراه هنا يعمد إلى سوق الأنواع وشواهدها بأسلوب سهل مجانب لتعمق العلماء وجنوحهم إلى التحليل والتفصيل ، وفى أحيان قليلة يوازن بين الكلام البديع وغيره كان يقول (١) « ومن الاستعارة قول القائل . الفكرة مخ العمل . فلو كان قال لب العمل لم يكن بديعا » وتراه قد يرشد إلى مكان الشاهد كأن يقول(٢) تعليقا على كلمة لعلى بن أبى طالب لبعض الخوارج والله ما عرفت حتى نعر الباطل فنجمت نجوم قرن الماعزة(٣) . أردنا قوله . نعر الباطل . وأحيانا يفسر ما غمض من الكلمات اللغوية كأن يقول(٤) تعليقاً على كلمة لخالد بن الوليد لمرازبة الفرس لما قدم العراق «الحمد لله الذى فض خدمتكم وفرق كلمتكم» الخدمة . الحلقة المستديرة ومنه قيل للخلاخيل خدام . قال الشاعر :

وتبدى لذاك العذارى الخداما

وفى مبحث الاستعارة تراه يشير إلى القرينة حيث يقول تعليقا على بيت امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

هذا كله من الاستعارة لأن الليل لاصلب له ولاعجز (٥) .

محتويات الكتاب ومبلغ سبقه :

اشتمل كتاب البديع على ثمانية عشر لونا من ألوان الكلام نوعها إلى نوعين .

القسم الأول خمسة أنواع أطلق عليها اسم البديع وهى :

( ١ ) الاستعارة — عرفها بقوله : هى استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف بها ومثل لها بما يشمل التصريحية . أصلية وتبعية ، والمكنية .

---

(١) صفحة ٥ .    (٢) صفحة ٥ .

(٣) هكذا فى الأصل والذى فى القاموس . الماعز واحد المعز .

(٤) ص ٥ .    (٥) ص ٧ .

ولم يكن ابن المعتز أول من استعمل هذا الاصطلاح بل سبق بأناس نعرض لكلامهم مجملا وندع التفصيل قارا فى مكانه من كتبهم وأقوالهم .

فأول من سبق إليها — فيما نعلم — أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ ﻫ قال ابن رشيق (١) : وكان أبوعمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى ولَفَّ الثريا فى ملاءته الفجر

ويقول . ألا ترى كيف صير له ملاءة ، ولا ملاءة له وإنما استعار له هذه اللفظة . وقال الباقلانى (٢) بعد أن ساق قول امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ذكر الأصمعى « المتوفى سنة ٢١٦ « وأبو عبيدة » المتوفى سنة ٢١٣ » وحماد «المتوفى سنة ١٥٥ » وقبلهم أبوعمرو أنه أحسن فى هذه، وأنه اتبع فيها فلم يلحق،وذكروه فى باب الاستعارة البليغة » :

وقد قال أبو عبيدة فى قول الفرزدق :

لا قوم أكرم من تميم إذا غدت عوذ النساء يسقن كالآجال

عوذ النساء . هن اللاتى معهن أولادهن . والأصل فى ذلك عوذ الإبل التى معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء . وهذا من المستعار ، وقد تفعل العرب ذلك كثيراً (٣) . ثم قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ فى التعليق على قول الشاعر(٤) :

يا دار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاها
أخْرَبَها عمران من بناها وكر ممساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

وعيناها هنا السحاب جعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه .

(١) العمدة جـ ١ — ٢٣٩ .
(٢) إعجاز القرآن — ٣٨ .
(٣) النقائض جـ ١ — ٢٧٥ .
(٤) البيان جـ ١ — ١٥ .

ثم عرض لها ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه مشكل القرآن بما يشمل المجاز المرسل ،والتشبيه البليغ ، والاستعارة : الأصلية والتبعية (١) .

ثم عرض لها المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ (٢) .

وظاهر أن كلمة « الاستعارة » كانت ترادف كلمة المجاز وتطلق إطلاقاتها

( ٢ ) التجنيس – عرفه ابن المعتز بقوله . هو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها ، وقال الخليل . الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ، فمنه ماتكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها مثل قول الشاعر

يوم خَلَجَتْ على الخليج نفوسهم (٣) .

أو يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر « مسلم ابن الوليد » :

« ياصاح إن أخاك الصبّ مهموم     فارفق به » إن لوم العاشق اللوم(٤)

فتراه يطلق التجنيس على ما اتحد فى المعنى ، أو اختلف من غير تفرقة بينهما

وليس ابن المعتز هو صاحب هذا المصطلح والسابق إليه ، بل هو نفسه يصرح بأن الأصمعى قد ألف كتابا فى الأجناس ،والأصمعى مسبوق بالخليل ابن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ ، وقد رأيت احتجاج ابن المعتز بقوله الذى نقله عنه.

( ٣ ) المطابقة – لم يزد على أن نقل تعريف الخليل لها قال . قال الخليل ( طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد ، وكذلك قال أبوسعيد) ثم قال فالقائل لصاحبه« أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان » قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب ، ثم وشح ذلك بالأمثلة على طريقته التى أسلفناها .

---

(١) كتاب القرطين جـ ١ – ٢٥٠ – ٢٥١ وجـ ١ ص ١٢١ – ١٢٦ .

(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل جـ ١ – ١٩٦ ، جـ ٣-١٤٩

(٣) خلجت : طعنت من باب ضرب .

(٤) اللوم : اللؤم .

وصنيعه يدل على أنه مسبوق إليها من الخليل ، قال ابن رشيق(١) : «تكلم الخليل والأصمعى عن الطباق وعليهما اعتمد العلماء » .

(٤) رد الأعجاز على ما تقدمها : قسمه إلى ثلاثة أقسام (ا) ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول كقول الشاعر :

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرما فى جيش رأى لايفل عرمرم(٢)

(ب) مايوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقوله :

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعى الندى بسريع

(ج) ما يوافق آخر كلمة فيه بعض مافيه كقول الشاعر :

عميد بنى سليم أقْصَدَتْه سهام الموت وهى له سهام

وهذا النوع لم يسبق إليه أحد فيما نعلم — قبل ابن المعتز فالفضل له فى هذا المصطلح وفى تقسمه وانتقاء أمثلته .

(٥) المذهب الكلامى : أسند تسميته إلى الجاحظ قال (٣) « وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن (٤) منه شيئا وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً » .

تلك هى الأصباغ الخمسة التى حظيت من ابن المعتز باسم « البديع » واستحوذت على معظم كتابه ، وندعه يعلق عليها يقول(٥) ( قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا ،وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا ، وقال البديع باب أوبابان من الفنون الخمسة التى قدّمنا . فيقل من يحكم عليه . لأن البديع اسم موضوع الفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلايعرفون هذا الاسم ولايدرون ماهو » .

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٥—٧

(٢) رواية العمدة . يلفى إذا ما الجيش كان عرمرما . وعرمرم الأول بمعنى شديد والثانى بمعنى كثير

(٣) ص ٥٣ .

(٤) وقد ذكر المتأخرون أمثلة كثيرة من القرآن لهذا اللون منها قوله تعالى ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا )

(٥) ص ٥٧ .

وهذا القول من ابن المعتز لا يتعاوض مع ما أسلفناه عن الجاحظ حيث قال «وهذا الذى تسميه الرواة « البديع » (١) فالرواة يسمونه البديع مجاراة للشعراء الذين أغرموا به وأطلقوا عليه البديع كما أسلفنا ، أما استخدامه والبصر به وحسن تطبيقه فمقصور على الشعراء دون الرواة الذين عابوه وذموا المولعين به .

وأما مابقى من محتويات كتاب البديع فقد سماه ابن المعتز « محاسن الكلام » وأباح لغيره أن يسميه بديعا إن شاء ، قال (٢) بعد أن بين سبقه إلى جمع فنون البديع : ونحن الآن نذكر بعض «محاسن الكلام » والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره .

وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولاضيق فى المعرفة فمن أحبّ أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أوغيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير (٣) رأينا فله اختياره ، ثم مضى يسرد هذه المحاسن قال :

( ١ ) الالتفات :

عرفه بقوله : هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر . فقد شمل التفاته شيئين : الأول ماعرف بالالتفات فى عرف المتأخرين ، والثانى نوعا من الاعتراض .

أما الأول فقد سبق إليه أبو عبيدة . قال فى مقدمة كتابه « مجاز القرآن » ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه الشاهد قول الله تعالى « ألم ذلك الكتاب »، مجازه : هذا القرآن ، ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » أى بكم . ومن مجاز ماجاء خبراً عن غائب ثم خوطب الشاهد قول الله تعالى « ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك

(١) البيان ج ٣-٢٥٤ . (٢) ص ٥٨ .
(٣) هكذا فى الأصل ولعل الصواب عند رأينا .

فأولى » فأنت ترى أن أباعبيدة قد سبق إلى هذا النوع وإن لم يسمه، ثم اتبعه المبرد إذ يقول تعليقا على قول الأعشى (١) :

وأمتعنى على العشا بوليدة فأبت بخير منك يا هوذ حامدا

فإنه كان يتحدث عنه ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المخاطبة ، والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب ثم ساق لذلك أمثلة من القرآن والشعر ، ثم قال : وهذا كثير جداً .

وأما النوع الثانى من الالتفاف فقد سبق إليه الأصمعى .قال ابن رشيق(٢) «وحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : قال لى الأصمعى . أتعرف التفات جرير ؟ قلت وماهو ؟ فأنشدنى :

أتنسى إذ تودعنـــا سليمى بعود بشامة سقى البشام(٣)

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره إذا التفت إلى البشام فدعا له فأنت ترى أن الأصمعى قد سبق إلى هذا النوع وإلى تسميته فأخذ ابن المعتز هذه التسمية ونوعها إلى النوعين السابقين .

( ٢ ) الاعتراض :

قال : ومن محاسن الكلام والشعر . اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد ومن أمثلته التى ساقها قول كثير .

لو ان الباخلين ــ وأنت منهم ــ رأوك تعلموا منك المطالا

وأنت ترى أن ابن المعتز لم يكن السابق إلى هذا اللون بل قد سبقه الأصمعى إلى مسماه كما أسلفنا ، فكان لابن المعتزفضل تسميته « بالاعتراض »

( ٣ ) الرجوع :

عرفه ابن المعتز بقوله : هو أن يقول شيئا ويرجع عنه ، وساق أمثلة وقد سبق إلى هذا المصطلح أبو عبيدة ، قال الباقلانى (٤) كان أبو عبيدة : يقول عن امرئ القيس فى بيته :

(١) رغبة الآمل جـ ٦ – ١٢٨ وهوذ مرخم هوذة .
(٢) العمدة جـ ٢ – ٤٤ .
(٣) البشام : شجر عطر الرائحة . والبشامة بن الغدير وابن حزن شاعران .
(٤) إعجاز القرآن – ٧٥ .

وإن شفائى عبرة مهـــراقة فهل عند رسم دارس من معول

أنه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير :

قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم

( ٤ ) حسن الخروج من معنى إلى معنى : وهذا هو الذى سماه أبو تمام بالاستطراد وقد مثل له بأمثلة كثيرة منها قول السموءل :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

روى ياقوت فى معجمه (١) أن البحترى قال : « أنشدنى أبو تمام يوما لنفسه » :

وسابح هطـــل بالشعر هتـــان على الجراء أمين غير خوان

فلو تراه مشـــيحا والحصى زِيَمٌ بين السنابك من مثنى ووحدان

أيقنت إن لم تَثَبَّتْ أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان (٢)

ثم قال لى : ما هذا الشعر ؟ قلت لا أدرى . قال هو الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك . قال يريك أنه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان قال ياقوت وهذا هو الذى ذكره علماء البديع فى تعريف الاستطراد ) .

وقد يقال لعل ابن المعتز قد استعار هذه التسمية ( حسن الخروج ) لهذا المسمى من ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ حيث قال فى كتابه قواعد الشعر ( وحسن الخروج والتلطف فى الانتقال من غرض إلى غرض ) .

ويبعد هذا أن ابن المعتز قد فرغ من كتابه سنة ٢٧٤ وإن تأخرت وفاته بضع سنوات عن ثعلب فالأقرب أن ابن المعتز هو السابق إلى هذه التسمية وإن سبق من أبى تمام بمسماها .

(٥) تأكيد المدح بما يشبه الذم :

وذلك فيما نعلم — من ابتكار ابن المعتز .

(٦) تجاهل العارف :

وهو الذى سماه المتأخرون الإعنات والتشكيك وذلك فيما نعلم من ابتكار ابن المعتز .

---

(١) معجم الأدباء — ج ١٩ — ٢٥٠ . (٢) زيم : متفرق .

(٧) هزل يراد به الجد :

وذلك فيما نعلم – من ابتكار ابن المعتز .

(٨) حسن التضمين :

ومن أمثلته التى ساقها قول الشاعر :

عوّذ لما بت ضيفا له أقراصَه بُخْلا بياسين

فبت والأرض فراشي وقد غنّت «قفانبك» مصاريني

وقد عرض الجاحظ فى البيان والتبيين (١) للاقتباس وبين قيمته فى نظر العرب واحتفالهم به حتى ليخطب عمران بن حطّان خطبة رائعة فيقول بعض الأعراب « هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن » غير أن العلماء قد خصوا الاقتباس بالقرآن ، والتضمين بالشعر ، وذلك لايضر فى كون ابن المعتز مسبوقا إليه على هذا الوجه الذى يثبت له الفضل فى تسميته والتمثيل له بأمثلة من الشعر .

(٩) التعريض والكناية :

وصنيعه يدل على أنهما كلمتان مترادفتان على معنى واحد، وقد سبق إلى الكناية أبو عبيدة فى مجاز القرآن . قال فى قوله تعالى « أو جاء أحدٌ منكم من الغائط (كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة فى البطن ، وكذلك قوله (أو لامستم النساء) كناية عن الغشيان ، وكذلك استعملها الجاحظ فى مقابلة التصريح حيث قال(٢) « ربّ كناية تربى على الإفصاح » وقال فى موطن آخر(٣)فإذا قالوا فلان مقتصد . فتلك كناية عن البخل ، وكذلك عرض لها ابن قتيبة فى مشكل القرآن ، ثم أربى على كل أولئك المبرد فى الكامل ، فقسم الكلام إلى حقيقة وإلى كناية ، وإلى مثل، وجعل المثل أبلغها .

ونوّع الكناية إلى ثلاثة أنواع وساق أمثلتها (٤)

(١٠) الإفراط فى الصفة :

وأمثلته التى ساقها تنطبق على المبالغة: معتد لها، ومسرفها . وهو مسبوق إليها

---

(١) جـ ٢-١٩ . (٢) البيان جـ ٢ – ٢٠

(٣) جـ ١ – ١٨٠ المصدر السابق

(٤) رغبة الآمل جـ ٦-٧١ وما بعدها ، جـ ٣-١٤٧ ، جـ ٨-١٨٧

من الأصمعى . قال ابن رشيق(١)« قيل للأصمعى . من أشعر الناس ؟ قال . الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كثيرا ، أويأتى إلى المعنى الكبير فيجعله خسيسا » .

ثم عرض لها ابن قتيبة فى مشكل القرآن فى مبحث الاستعارة فاستحسنها ورد على من عابوا الشعراء بها ونسبوهم إلى الإفراط وتجاوز المقدار ، وساق لذلك شواهد كثيرة من الشعر والنثر منها قول النمر بن تولب فى صفة سيف :

تظل تحفر عنه إن ضربت به بين الذراعين والساقين والهادى

ثم عرض لها المبرد فيما نقله ابن رشيق عنه(٢) . وأنشد المبرد قول الأعشى :

فلو أن ما أبقين منى معلق بعود ثمام ماتأود عودها (٣)

فقال . هذا متجاوز . وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه ، فابن المعتز مسبوق بها على هذا الوجه كما رأيت .

(١١) حسن التشبيه :

ساق له أمثلة كثيرة من القرآن والسنة ، وكلام الأقدمين والمحدثين وهو مسبوق بهذا المصطلح ، فقد سبق إليه سيبويه المتوفى سنة ١٩٤ حيث قال(٤). تقول . مررت برجل أسد أبوه إذا كنت تريد أن تجعله شديدا ، ومررت برجل مثل الأسد إذا كنت تشبهه ) ، ثم استعمل الجاحط كلمة« التشبيه » فى مقابلة « الحقيقة » قال موازناً بين قول النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كلهم سواء كأسنان المشط »

وبين قول الشاعر . (٥)

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذى شيبة منهم على ناشىء فضلا

---

(١) العمدة جـ ٢-٥٤ . (٢) العمدة جـ ٢-٥٧

(٣) هكذا نسبه المبرد إلى الأعشى، وقد علق أستاذى أحمد نجاتى بك على هذه النسبة قال. ليس هذا للأعشى بل هو من أبيات تنسب إلى عقبة بن العوام بن كعب بن زهير بن أبى سلمى .

(٤) الكتاب جـ ١-٢٣١ .

(٥) نسبه صاحب لسان العرب إلى كثير مع مغايرة يسيرة فى الشطر الأول ( سواس كأسنان الحمار فما ترى )

وقول الآخر :

شبابهم وشيبهم سـواء ... فهم فى اللون أسنان الحمـار

إذا حصّلت تشبيه الشاعر وحقيقته وتشبيه النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقته علمت فضل مابين الكلامين (١) ، ثم جاء المبرد فأربى على السابقين حيث يعقد بابا للتشبيه على حدة (٢) يعرض فيه أمثلة كثيرة تمثل التشبيهات الصائبة من شعر الأقدمين والمحدثين ثم يقول(٣) « والتشبيه جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » .

(١٢) إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ماليس له :

ثم يسوق الأمثلة التى تنطبق على لزوم مالايلزم ، وهذا مما سبق إليه ابن المعتز ، ولم نره – على مبلغ علمنا – لغيره ممن سبقوه ، والنسخة التى بين يدى الآن من كتاب ابن المعتز تسمى هذا النوع بذلك الاسم وتسوق شواهد كثيرة له .

أما المتأخرون وعلى رأسهم زكى الدين عبد العظم المعروف بابن أبى الأصبع فيذكرون هذا اللون تحت عنوان « عتاب المرء نفسه » ويجعلونه من مخترعات ابن المعتز ويمثلون له ببيتين من أبيات كثيرة ساقها ابن المعتز وهما :

عصانى قومى والرشاد الذى به ... أمرت ومن يعص المجرب ينـدم

فصبرا بنى بكر على الموت أننى ... أرى عارضا ينهل بالموت والدم

ثم يقول ابن أبى الإصبع . إن ذلك من إفراد ابن المعتز ، ولم يمثل له بغير هذين البيتين ، ثم يعترض عليه بأن هذين لايصلحان أن يكونا شاهدا على عتاب المرء نفسه ، ثم يسوق مايصلح لعتاب المرء نفسه من الأمثلة . ويظهر من ذلك أنهم حينما نقلوا ذلك من كتاب ابن المعتز حرفوه من « إعنات المرء نفسه » إلى « عتاب المرء نفسه » والتحريف هنا سهل ميسور ، أو أنهم وقعوا على نسخة محرفة ناقصة عن هذه النسخة ، ويدل على ذلك أنهم أجمعوا على أن ابن المعتز لم يمثل لهذا النوع إلا بهذين البيتين مع أن النسخة التى بين يدى

(١) البيان جـ ٢–٣٠ . (٢) رغبة الآمل جـ ٦–١٤٣ إلى آخر الجزء .

(٣) المصدر نفسه . – ٢٣٨ .

فيها أمثلة غير هذين البيتين كثيرة لاحاجة لسوقها وكلها ينطبق على ماعرف بلزوم مالا يلزم ، وعذر المتأخرين هو ما قدمناه .

(١٣) حسن الابتداءات :

سرد له أمثلة كثيرة ، وليس ذلك من اختراع ابن المعتز فقد نقل الجاحظ (١) عن شبيب بن شيبة قوله « والناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه » .

تلك ثمانية عشر لونا من ألوان البديع عرض لها ابن المعتز ، فكان السابق إلى جمعها على هذا الوجه فى كتاب سماه « البديع » وكان له من بينها خمسة ألوان سبق إلى اختراعها ولم نرها لأحد ممن تقدموه ، سوى أن المتأخرين وعلى رأسهم ابن أبى الأصبع قد حصروا الأنواع التى عرض لها ابن المعتز ونبهوا على أنها سبعة عشر لاثمانية عشر كما أسلفنا . وقد راجعت ما ذكروه على ما ذكرته فيما سبق فوجدت أن الذى فاتهم هو « الرجوع » ولعل النسخة التى وقعوا عليها لم تذكر هذا النوع .

منزلة الكتاب من حيث التمام أو النقصان :

أسلفنا فيما مضى أن ابن المعتز أشار إلى أن محاسن الكلام كثيرة لاتحصى ولا نستطيع بعد هذا أن نحكم على كتابه بالنقص وعدم الاستقصاء لكل هذه المحاسن ، غير أنى رأيت إتماما للغرض المروم أن أشير إلى ألوان من البديع لم يعرض لها ابن المعتز فى كتابه وعرض لها من تقدموه فمن تلك الألوان :

(١) السجع :

عرض له الجاحظ فى البيان والتبيين إذ عقد له بابا واحتج له (٢) .

(٢) الازدواج :

عرض له الجاحظ فى البيان والتبيين (٣) .

(٣) الاحتراس :

تحدث عنه الجاحظ أيضا وإن لم يسمه بهذا الاسم قال (٤) « ويذكرون

---

(١) البيان جـ ١ - ٨٩ .
(٢) البيان جـ ١ ص ١٩٢ - ٢٠١ .
(٣) البيان جـ ٢ صفحة ٩٦ - ٩٧ .
(٤) البيان جـ ١ ص ١٦١ - ٢١٢ .

الكلام الموزون ، ويمدحون به ، ويفضلون إصابة المقادير ، ويذمون الخروج)

ثم يسوق له أبياتا منها قول طرفة علم الاحتراس فى كتب البلاغة إلى يومنا هذا :

فسقى ديارك – غير مفسدها – صوب الربيع وديمة تهمى

ثم يعلق عليه قائلا . طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار... الخ .

(٤) حسن التقسيم :

أشار إليه الجاحظ قال(١) «كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعلم الناس بالشعر.. ولقد أنشدوه شعر الزهير – وكان لشعره مقدما . فلما انتهوا إلى قوله :

وأن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ، وإقامته أقسامها وأن الحق مقطعه .. البيت يردد البيت من التعجب .

(٥) أسلوب الحكيم :

عرض له الجاحظ وسماه «اللغز فى الجواب» وأفرده بباب ومثل له(٢).

(٦) الإرصاد :

يعرض له – وإن لم يسمه بهذا الاسم – فينقل كلام ابن المقفع «ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته» . وتلك هى حقيقة الإرصاد أو التسهيم .

(٧) التجريد :

عرض له المبرد فى الكامل وإن لم يسمه بهذا الاسم حيث قال فى قول أعشى باهلة (٣) .

أخُورَ غائب يعطيها ويسألها يأبى الظلامة منه النوفل(٤) الزفر

---

(١) البيان ج ١ صفحة ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) البيان ج ٢ – ١١٦ – ١١٧ .

(٣) رغبة الآمل ج ١ – ١٩٤ .

(٤) النوفل : البحر والعطية وبعض أولاد السباع والرجل المعطاء . زفر كصرد الأسد الشجاع والبحر والنهر الكثير الماء ومن العطية الكثير والقوى على حمل الأثقال .

« وإنما يريده بعينه كقولك لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد ، ثم يسوق بيت الأعشى :

ياخير من يركب المطى ولا  يشرب كأسا بكف من بخلا

ثم يقول . قال : انما تشرب بكفك ولست ببخيل .

(٨) اللف والنشر :

عرض له وسماه قال(١). وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة . « ما أحسن الحسنات فى آثار السيئات ، وأقبح السيئات فى آثار الحسنات ، وأقبح من ذا وأحسن من ذاك السيئات فى آثار السيئات ، والحسنات فى آثار الحسنات » .

ثم قال . والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره ، وقال الله عز وجل « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

فتلك ثمانية ألوان سردناها ونسبناها إلى أصحاب الفضل فيها، ولا نريد بذلك إحصاء هنوات على ابن المعتز فحسبه أنه أول مؤلف فى البديع ، وحسبه أنه لم يدع استنباط هذه المصطلحات جميعا ، وأنه يشير إلى أن محاسن الكلام أكثر من أن تحصى .

## ٢ — البديع فى نقد الشعر

لقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣٣٧(٢)

وكان قدامة بن جعفر الكاتب . ثانى اثنين أسهما فى إقامة صرح البديع الأول، فقد عاصر ابن المعتز — وإن تأخر به الزمن قليلا — وكان من أغزر أهل عصره علما ، وأوسعهم ثقافة ، أخذ بحظ وافر من علوم متنوعة ، فبرز فى اللغة ، والأدب، والفقه، والكلام ، والفلسفة ، ولاسيما المنطق ، قال ابن النديم (٣): « وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء، وممن يشار اليه فى علم المنطق » ويقول الحريرى فى مقدمة المقامات « ولو أوتى بلاغة قدامة » ويقول المطرزى (٤) فى أثناء حديثه عن قدامة : «المضروب به

---

(١) رغبة الآمل ج ٢ — ٩٣ .
(٢) معجم الأدباء ج ١٧—١٢ .
(٣) الفهرست — ١٣٠ .
(٤) الإيضاح — ٤٠ مخطوط .

المثل فى البلاغة » ويقول ياقوت (١) : « كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفى بالله .. وأنه أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبى سعيد السكرى وابن قتيبة وطبقتهم وقرأ صدرا صالحا من المنطق وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، وإن كان المنطق فى ذلك العصر لم يتحرر تحريره الآن واشتهر فى زمانه بالبلاغة ونقد الشعر وصنف فى ذلك كتبا » وقد خلف قدامة آثارا كثيرة أحصى بعضها ابن النديم وياقوت ، وكان من أبرز تلك الآثار التى تركها قدامة كتاب نقد الشعر . الذى يدل على بصر بالشعر العربى ،وينبىء عن حسن تذوقه مما يجعلنا نقول إن قارىء ذلك الكتاب يحس من أوله إلى آخره بأنه أمام عقلية جديدة ، وطريقة فذة لا عهد له بمثلها من قبل قدامة ، فهو يجمع إلى غزارة المادة وعمق التفكير ، حسن الترتيب والتفصيل وسهولة العبارة وإيجازها ، والأطافة بالفلسفة ولا سيما المنطق ، وإذا كان ابن المعتز أول من ألف فى البديع فقدامة أول من غمس علم البديع فى بحار الفلسفة ،واقتفاه واستعان بطريقته جمهور المؤلفين بعده .

الحافز على تأليف الكتاب :

قال فى المقدمة« ولم أجد أحدا وضع فى نقد الشعروتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلامعندىفىهذا القسم أولى بالشعرمن سائر الأقسامالمعدودة» .

منزلته :

ولهذا الكتاب منزلة فى النقد بعيدة المدى جليلة النفع إذ لم تشهد العربية قبله كتابا فى نقد الشعر يضاهيه فى دقته وعمق تفكيره ، وإحكامه وحسنتنسيقه

محتوياته :

رتبه على مقدمة وثلاثة فصول ، ذكر فى المقدمة أنواع العلم ،بالشعر والباعث له على تأليف هذا الكتاب ،وعرض فى الفصل الأول لحد الشعر ،وبيان مراتبه ، والمنهج الذى رسمه لنفسه فى هذا الكتاب ، والنواحى التى يتناولها كلامه ، وعرض فى الفصل الثانى للنعوت الحسنة للفظ ،والوزن ، والقافية وأغراض الشعر ، وفى الثالث للعيوب التى تعتور ما ذكر فى تحديد متقن وشرح محكم .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٧–١٢ وما بعدها .

## أثر الفلسفة فى الكتاب :

وللفلسفة — ولاسيما المنطق — أثر واضح فى طريقة بحثه . انظر إليه يعرف الشعر وكيف ينزع ذلك المنزع قال : (١)الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى ثم يذكر محترزات القيود يقول . فقولنا : « قول » دال على أصل الكلام الذى هو بمنزلة الجنس للشعر ، وقولنا « موزون » يفصله مما ليس بموزون ، إذ كان من القول موزون وغير موزون ، وقولنا « مقفى » فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف وبين مالا قوافى له ولا مقاطع ، وقولنا « يدل على معنى » يفصل ماجرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى . ثم يمضى قدامة فى الضبط والتحديد الذى أكسبه المنطق إياه . فيحكم على الشعر بأنه صناعة كبقية الصناعات ، وأن ماهذا سبيله له طرفان أعلى وهو نهاية الجودة ، وأدنى وهو غاية الرداءة ، وبين الطرفين مراتب ، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الردىء ، وقد اشتمل تعريف الشعر على أربعة عناصر : اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعنى ، وفى هذه العناصر مايأتلف بعضه مع بعض فيتولد عن ائتلافها أربعة أضرب ، فيكون الشعر موزعا بين هذه الأضرب الثمانية ، ولكل ضرب صفات يكون بها جيدا ، وصفات يكون بها رديئا ، وصفات تجمع بين الأمرين ، ثم يمضى فى شرح ذلك كله ، وينتهى من الكتاب ضمن هذه الحدود التى وضعها معرجا على الفلسفة كما عرج على المنطق ، اقرأ للوقوف على ذلك مبحث الاستحالة والتناقض من عيوب المعانى(٢)تجده فيلسوفا يعرض للتقابل فيبين جهاته الأربع . من تقابل الإضافة ، وتقابل التضاد ، وتقابل النفى والإثبات ، وتقابل العدم والقنية ، ثم يوضح ذلك أتم إيضاح .

وأيا ما كان ، فالذى يعنينا من هذا الكتاب هو ما عرض له من ألوان البديع ومقابلتها بما عرض له ابن المعتز ، لنرى إلى أى حد وصل من السبق ، أو المحاكاة ، وسآخذ نفسى برد كل مصطلح إلى صاحبه إن كان ، أو بتسليم السبق لقدامة ان لم يكن ، وقبل الخوض فى هذا أشير إلى أمرين لابد من الإشارة إليهما .

---

(١) صفحة ١٣ . (٢) ص ١٢٠ .

أما أولا : فقدامة كما أسلفت أول من شرع للبديع شرعة الامتزاج بالفلسفة — ولا سيما المنطق — وقد بدا ذلك على صفحات كتابه كما أسلفنا ، وقوله بعد تحديد نعت ائتلاف اللفظ والوزن (١) « وغير ذلك مما لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى إثبات كثير من صناعتى المنطق والنحو فى هذا الكتاب فكان يصعب النظر فيه على أكثر الناس ولكن فيما أجملته فى هذا القول وأشرت إليه من التنبيه على الطريق التى يعرف بها جودة هذا الكتاب ما كفى وأغنى عند ذوى القرائح السليمة ومن قد تعلق ببعض الآداب السهلة » ذلك القول لايخفيه لدى مؤرخ هذا العلم من أنه أول الجانين عليه بسلاح الفلسفة والمنطق .

كما أنه أول من لفت الأذهان إلى تقسيم ألوان البديع إلى لفظى وإلى معنوى .

وأما ثانيا : فكل مافى الكتاب من مصطلحات علم البديع عربى فى روحه عربى فى مادته ليس للثقافات الأجنبية أى يد فيه ، ولا يعكر على هذه الدعوى التى سنقيم عليها الدليل قوله فى الاحتجاج للغلو والذهاب إلى أنه أجود المذهبين « وكذا نرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم »(٢) فقد ترجم كثير من الكتب اليونانية إلى العربية وأصبح من السهولة بمكان معرفة الأمور العامة للغة اليونانية ، وذلك لايدل على اقتباس مصطلحات يونانية أو غير يونانية للانتفاع بها فى علم البديع العربى فى نشأته وتكوينه .

وبعد هذين نمضى فى تحسس ألوان البديع التى عرض لها قدامة فى نقد الشعر على ضوء الاستقراء والتتبع فنقول . اشتمل كتاب نقد الشعر على الألوان التالية :

(١) الترصيع :

جعله قدامة من نعت الوزن وعرفه بقوله . هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أوشبيه به أومن جنس واحد فى التصريف

---

(١) ص ٩٨ . (٢) ص ٣٧ .

ثم ساق أمثلة لذلك ووشحها بشرحه العميق ، ثم خلص من ذلك إلى أن الترصيع إنما يحسن إذا اتفق فى البيت موضع يليق به فإنه ليس فى كل موضع يحسن ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضا إذا اتصل فى الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا كان دل على تعمد وأبان عن تكلف ، ثم ساق لذلك اللون أمثلة من الحديث .

ولئن أربى قدامة على ابن المعتز بهذا اللون لقد أسلفنا أن الجاحظ سبق إلى هذا وإن سماه السجع والازدواج ، وسماه قدامة الترصيع .

(٢) التشبيه :(١)

جعله من المعانى الدال عليها الشعر وعرفه بقوله . التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها » ثم أشار إلى أن أحسن التشبيهات ما وقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيهما حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، ثم ساق أمثلة للتشبيهات الحسان ، ثم أشار إلى أن التشبيه على أضرب (ا) فمنها أن تجمع تشبيهات كثيرة فى بيت واحد وألفاظ يسيرة . (ب) ومنها أن يشبه شيء بأشياء فى بيت أو لفظ قصير . (ج) ومنها أن يشبه شيء فى تصرف أحواله بأشياء تشبهه فى تلك الأحوال . (د) ثم اعتبر من التصرف فى التشبيه تجديد الشاعر وخروجه على مألوف الشعراء فى تشبيهاتهم ، وهو فيما بين ذلك يسوق الأمثلة ويتبعها بشرحه ، وقد سبقه إلى مصطلح التشبيه ابن المعتز ومن تقدمه كما قلنا ، والفضل لقدامة فى هذا التحديد والتنويع ، سوى أن ثعلبا فى كتاب ( قواعد الشعر ) قد شرط فى التشبيه ألا يخرج إلى التعدى ولا إلى التقصير ، وأخبر أن الرواة يستحسنون قول امرئ القيس فى وصف العقاب .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا　　لدى وكرها العناب والحشف البالى

لأنه شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد ، وما عدا ذلك فقدامة سابق إليه غير منازع .

(٣) صحة التقسيم :(٢)

جعلها من نعت مايعم جميع المعانى الشعرية ثم عرفها بقوله : « وهى

(١) ص ٦٥ .　　(٢) ص ٧٨ .

أن يبتدىء الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولا يغادر قسما منها » . ثم يزجى الأمثلة ويشفعها بتعليقه ، ولئن أربى قدامة على ابن المعتز بهذا اللون لقد سبق إليه الجاحظ كما أسلفنا ، فاقتبس قدامة التسمية من هذا ومما نقله نفسه فى فساد الأقسام (١) فى بيت جرير فى بنى حنيفة :

صارت حنيفة اثلاثا فثلثهم  من العبيد وثلث من مواليها

إذ قال . فبلغنى أن هذا الشعر انشد فى مجلس ورجل من بنى حنيفة حاضر فقيل له من أيهم أنت ؟ فقال من الثلث الملغى ذكره » . وليس معنى ذلك أننا نحاول تجريد قدامة من الفضل ، بل أمانة التأريخ لهذا الفن تقتضينا الرجوع بكل مصطلح إلى أصله الذى منه درج .

(٤) صحة المقابلة :(٢)

جعلها من أنواع المعانى وأجناسها ، ثم عرفها بقوله : وهو أن يصنع الشاعر معانى يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة ، فيأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة ، أويشرط شروطا ويعدل أحوالاً فى أحدالمعنيين ، فيجب أن يأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده وفيما يخالف بضد ذلك . فأنت ترى أن هذا الصبغ يشتمل على لونين من ألوان البديع : أولهما . مراعاة النظير ،وثانيهما نوع من الطباق خص باسم المقابلة ، وقدامة — وإن أربى على ابن المعتز بهذه التسمية — مسبوق بمادتها فى الأصول العربية ، وقد قدمت فى الباب الأول قصة نصيب مع الكميت ونقده له فى هذا البيت :

وقد رأينا بها حورا منعمة  بيضا تكامل فيها الدل والشنب

وقد انتصر المبرد فى الكامل لنصيب وبين وجهة نقده ، فاستمد قدامة من ذلك هذا اللون ، وأما المقابلة فهى نوع من الطباق كما مضى وهو مسبوق إليه كما أسلفت .

وقد نقل قدامة نفسه فى فساد المقابلات (٣) بيت امرئ القيس .

فلو أنها نفس تموت سوية  ولكنها نفس تَسَاقَطُ أنفسا (٤)

---

(١) ص ١١٨ .  (٢) ص ٧٩ .  (٣) ص ١١٨ .

(٤) المراد لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر ولكنها نفس تموت موتات . سوية : استواء ، يقال هم على سوية أى استواء أوجميعة وقد ضبطه فى اللسان . تساقط بضم التاء وكسر القاف وهو غير ظاهر إذ أنه لايفهم إلا بتأويل وماضبطته به أشبه بالصواب وأعون على المراد .

ثم قال : وللعدول عن هذا العيب غير الرواة هذا البيت فأبدلوا فى مكان سوية – جميعة – لأنه فى مقابلة تساقط أنفسا أليق من سوية :

هذا وقد استمد السكاكى ماشرطه فى المقابلة من كلام قدامة هنا .

(٥) صحة التفسير :(١)

جعله قدامة من أنواع المعانى ثم حده بقوله : هو أن يضع الشاعر معانى يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذى يصنعه . فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ماأتى به منها ولايزيد أو ينقص ثم ساق أمثلة لهذا منها قول الفرزدق:

لقد جئت قوما لو لجأت إليهم ... ط يد دم أو حاملا ثقل مغرم

فلما كان هذا البيت محتاجا إلى تفسير قال :

لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا ... وراءك شزرا بالوشيج المقوم

ثم قال . ففسر قوله حاملا ثقل مغرم بقوله « أنه يلفى فيهم ما يطاعن دونه ويحميه » . وقد أربى قدامة بهذا اللون على ابن المعتز وكان له الفضل فيه تسمية وبحثا وإن كنا نستدل مما يسوقه هو فى فساد التفسير (٢) أن من النقاد فى عصر قدامة من يعرف هذا اللون ، قال . مثال ذلك إذ جاءنى بعض الشعراء فى هذا الوقت وأنا أطاب أمثلة فى هذا الباب ليستفتينى فيه وهو :

فيأيها الحيران فى ظلم الدجى ... ومن خاف أن يلقاه بغى من العدى

تعال إليه تلق من نور وجهه ... ضياء ومن كفيه بحرا من الندى

وذكر قدامة أن هذا الشاعر كان كثير التردد عليه والإعجاب به ، وأنه عرضهما على جماعة من الشعراء وغيرهم ممن ظن أن عنده مفتاحا ، فبعضهم جوزهما ، وبعضهم شعر بالعيب فذكرت له الحال فيهما ، ثم مضى قدامة يكشف عن وجه العيب فى هذين البيتين قال :

إن هذا الشاعر لما قدم فى البيت الأول الحيرة فى الظلم ، وبغى العدى ، كان الجيد أن يفسر هذين المعنيين فى البيت الثانى بما يليق بهما . فأتى بالظلام بإزاء الضياء وذلك صواب ، وكان الواجب أن يأتى بإزاء العدى بالنصرة

---

(١) ص ٨١ . (٢) ص ١١٩ .

أو بالعصمة . . أو بما جانس ذلك مما يحتمى به الإنسان من أعدائه فلم يأت بذلك ، وجعل مكانه ذكر « الندى » ولو كان ذكر الفقر أو العدم لكان ما أتى به صوابا » ومن هنا تلمح قوة قدامة فى النقد، وتقف على قوة عارضته فى التوجيه ، وتقر له بالسبق والتبريز فى تلك الطريقة التى استنها فكان فيها إماما غير مدافع .

(٦) التتميم :(١)

هكذا اسمه فى النسخة التى بين يدى – وقد ذكر ابن أبى الإصبع فى كتابه البديع فى صناعة الشعر الذى عرف « بتحرير التحبير » أن قدامة سماه التمام . والذى يسميه التتميم هو الحاتمى والخطب فى ذلك سهل إلا أن التنبيه على مثل هذا واجب.

ثم عرفه بقوله « هو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التى تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به » ، ثم ساق له أمثلة منها قول طرفة .

فسقى ديارك – غير مفسدها – صوب الربيع وديمة تهمى

فقوله « غير مفسدها » إتمام لجودة ماقاله لأنه لو لم يقل غير مفسدها لعيب .

وقد توارد فى هذا اللون مع ابن المعتز وإن سماه ابن المعتز ( الاعتراض ) وقد نقلت لك عن الجاحظ فيما سلف تمثيله بهذا البيت لما سماه « إصابة المقدار » وسمى الكلام المشتمل عليه « الموزون » فالسبق لقدامة فى التسمية بالتتميم أو التمام ، وقد سماه المتأخرون : التكميل أو الاحتراس .

(٧) المبالغة :(٢)

وهى التى سماها ابن المعتز الإفراط فى الصفة ، وأكثر الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف كما يقول ابن أبى الإصبع .

وقد جعلها قدامة من أنواع نعوت المعانى وعرفها بقوله : هو أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال فى شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك فى الغرض الذى قصده فلا يقف حتى يزيد فى معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون

---

(١) ص ٨٢ – ٨٤ . (٢) ص ٨٤ .

أبلغ فيما قصد » وقد عرض لهذا اللون ابن قتيبة فى كتابه مشكل القرآن واحتج لها كما أسلفت قريبا .

(٨) التكافؤ :(١)

جعله قدامة من نعوت المعانى ثم حده بقوله هو أن يصف الشاعر شيئا أو يذمه ويتكلم فيه أى معنى كان فيأتى بمعنيين متكافئين ، والذى أريد بقولى متكافئين فى هذا الموضع أى متقاومين . أما من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل » وتعريفه للتكافؤ على هذا الوجه وتمثيله له بأمثلة على حذو هذا البيت :

حاو الشمائل . وهو مر باسل يحمى الذمار صبيحة الإرهان(٢)

يدل على أنه هو لون الطباق الذى عرض له ابن المعتز كما أسلفنا ، فغير قدامة اسمه وجعل المطابقة خاصة بنوع من الجناس اتفقت فيه حروف الكلمتين دون أن تشتركا فى الاشتقاق كما سيأتى ، وقد عابه الآمدى على هذه المخالفة وبين له أن الخلاف فى التسمية ليس من دأب المحصلين ، فهذا اللون مما تداخل على قدامة .

(٩) الالتفات :(٣)

جعله من نعوت المعانى وعرّفه بقوله . هو أن يكون الشاعر آخذا فى معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن رادًّا يرد عليه قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدمه ، فإما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه) ثم ساق أمثلة لهذا الصبغ وشرحها ، وكلها يعطى أنه نوع من نوعى الاعتراض عند ابن المعتز فقد مثل قدامة للالتفات بأبيات على حذو هذا البيت من قول الرماح بن ميادة :

فلا صرمه يبدو ، وفى اليأس راحة ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

ومأخذ هذا الصبغ هو التفات الأصمعى الذى حدثتك عنه قريبا .

(١٠) المساواة :(٤)

جعلها من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى ثم عرفها بقوله . هو أن يكون

(١) ص ٨٥ .

(٢) أرهنه : جعله رهناً ، وأرهنه أضعفه وأسلفه وفى السلعة : غالى بها ، والطعام لهم أدامه ، والميت القبر ضمنه إياه .

(٣) ص ٨٧ . (٤) ص ٨٩ .

اللفظ مساويا للمعنى حتى لايزيد عليه ولا ينقص عنه» وهو وان أربى على ابن المعتز بهذا اللون قد استقى هذه التسمية من نصوص تقدم عليه أصحابها ، قال :

« وهذه هى البلاغة التى وصف بها بعض الكتاب رجلا فقال . كانت ألفاظه قوالب لمعانيه أى مساوية لها لايفضل أحدهما على الآخر » وقد عرض لها الجاحظ من قبله أيضا ، قال فيما نقله فى البيان والتبيين (١) «حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم له لافاضلا ولا مفضولا ) .

(١١) الإشارة(٢) :

جعلها من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ثم حدها بقوله : «هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها» وهو وإن أربى على ابن المعتز بهذا اللون ، قد نقل مايفيد أنه مسبوق اليه حيث يقول . كما قال بعضهم . وقد وصف البلاغة فقال . هى لمحة دالة ، وقد عرض لها المبرد فى الكامل وسماها الايماء . قال (٣) : من كلام العرب الاختصار المفهم ، والأطناب المفخم ، وقد يقع الايماء إلى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل (٤) « لمحة دالة »

(١٢) الإرداف(٥) :

جعله من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى وحده بقوله : هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع » ثم ساق له أمثلة من بينها قول امرئ القيس .

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ثم علق عليه قال . وإنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترف هذه المرأة وأن لها من يكفيها فقال . نؤوم الضحى وأن فتيت المسك يبقى الى الضحى فوق فراشها وكذلك سائر البيت أى هى لاتنتطق لتخدم ولكنها فى بيتها فتفضله . ومعنى «عن» فى هذا البيت معنى »بعد» .

---

(١) حـ ١ / ٧٩ .
(٢) ص ٩٠
(٣) رغبة الآمل حـ١/١٢٢ .
(٤) قائله خلف الأحمر .
(٥) ص ٩٢ .

وقد سبق الى الكناية ابن المعتز ومن قبله ابن قتيبة والمبرد ، والإرداف نوع منها وقد قصر المتأخرون اسم الكناية على ماعرف عند المتقدمين باسم الإرداف .

(١٣) التمثيل(١) :

جعله من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى ثم عرفه.بقوله « هو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير اليه » . ثم ساق أمثلة لهذا اللون وجميعها منطبق على ما عرف عند المتأخرين باسم الاستعارة التمثيلية ، وقدامة وإن أربى على ابن المعتز بهذا اللون لم يكن السابق إليه فقد عرفه السابقون عليهما وسموه المثل قال . أبو عبيدة فى قول جرير .

إنى إذا بسط الرماة لغلوهم    عند الحفاظ غلوت كل مغالى

قوله : غاوت . هو من غالانى فغلوته . يقول نظرنا أينا أبعد غلوة سهم وإنما هو مثل للتفاخر وذكر الأيام والنعم والأيادى (٢) وتابعه المبرد على ذلك قال (٣) تعليقا على قول القتال الكلابى .

طوال أنضية الأعناق لم يجدوا    ريح الإماء إذا راحت بأزفار(٤)

قوله . طوال أنضية الأعناق ضربه مثلا وإنما أراد طوال الأعناق .

هذا وبين الكتب التى تنسب إلى الجاحظ كتاب سماه ( التمثيل ) . فليس قدامة ببدع فى هذا اللون .

(١٤) المطابق : (١٥) المجانس :

قال قدامة : وقد يضع الناس من مصنفات الشعر المطابق والمجانس وهما داخلان فى باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناهما أن تكون فى الشعر معان متغايرة قد اشتركت فى لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة .

فأما المطابق : فهو ما يشترك فى لفظة واحدة بعينها مثل قول الأفوه الأودى : —

---

(١) ص ٩٤ .    (٢) النقائض ج ١-٢٩٥ .

(٣) رغبة الآمل ج١-١٨٢ .

(٤) أنضية : جمع نضى وهو العنق أو أعلاه أو أعظمه أو مابين العاتق إلى الأذن. الأزفار : جمع زفر وهو الحمل على الظهر أو القربة أو جهاز المسافر .

وأقطع الهوجـل مستأنســـا بهـوجل عيدانة (١) عنتريس

فلفظة الهوجل فى هذا الشعر واحدة قد اشتركت فى معنيين لأن الأول يعنى الأرض ، والثانى الناقة .

وأما المجانس : فأن تكون المعانى اشتراكها فى ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق كقول حبان بن ربيعة الطائى : —

لقد علم القبائـل أن قـومى لهم حدّ إذا لبس الحديـد

فتراه يشقق الجناس الذى عرض له ابن المعتز ومن تقدمه وينوعه : فيطلق على ما كان بين الجوامد اسم المطابق ، وعلى ما كان بين المشتقات اسم الجناس ، وله سلف فى هذا فأستاذه ثعلب فى كتاب (قواعد الشعر) يسمى أنواع الجناس كلها طباقاً .

(١٦) ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت(٢) :

وسماه المتأخرون التمكين كما يقول ابن أبى الإصبع فى المقدمة ، وعرفه قدامة بقوله : هو أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاءمة لما مرّ فيه » . وهو وإن أربى على ابن المعتز بهذا اللون مسبوق إليه : فقد نقل الجاحظ عن شبيب بن شيبة قوله(٣) : « الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت » . وقال بشر بن المعتمر(٤) . « فإن كانت القافية لم تحل مركزها وكانت قلقة فى مكانها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها » . وقد فرع قدامة من هذا الباب . باب التوشيح ، وباب الإيغال .

(١٧) التوشيح(٥) :

جعله من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر معنى البيت ثم حدّه بقوله : « هو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلقاً به حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها إذا سمع أول البيت

(١) العيدانة . الطويلة من النخل . العنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة .

(٢) ص ٩٩ . (٣) البيان والتبيين ج ١–٩٠ .

(٤) البيان والتبيين ج ١–١٠٦ . (٥) ص ٩٩ .

عرف آخره وبانت له قافيته ، ثم ساق أمثلة لذلك اللون ، وقدامة وأن أربى بذلك اللون على ابن المعتز لم يكن السابق إليه فقد عرفه المتقدمون وإن لم يسموه بهذا الاسم . قال ابن رشيق (١) . ويحكى عن عدىّ بن الرقاع أنه أنشد فى صفة الظبية وولدها :

« تزجى أغنّ كأن أبرة روقه »

فغفل الممدوح عنه فسكت . فقال الفرزدق لجرير ما تراه يقول . فقال . يقول :

قلم أصاب من الدواة مدادها

وأقبل عايه الممدوح فأنشد كما قال جرير لم يغادر حرفاً ، وقد قال ابن المقفع (٢) ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته ، وقدامة يسميه التوشيح ، وقد سمى فيما بعد بالتسهيم ، وقيل إن الذى سماه بذلك على ابن هارون المنجم ، وأمّا ابن وكيع « المتوفى سنة ٣٩٣ » فسماه المطمع (٣) . وقد عرف فيما بعد باسم « الإرصاد » .

(١٨) الإيغال(٤) :

جعله من أنواع ائتلاف القافية مع سائر معنى البيت ، ثم حده بقوله « هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم يأتى بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره من المعنى فى البيت » . وقدامة وإن أربى على ابن المعتز بهذا الصبغ فقد سبقه إليه الأصمعى وإن لم يسمه . قال قدامة . ومما يدل على أن المعانى قد كانت فى نفوس الناس قديماً أن أبا العباس محمد بن يزيد النحوى قال . حدثنى التوزى(٥). قال قلت للأصمعى . من أشعر الناس ؟ فقال من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى . قال : قلت نحو من ؟ قال نحو ذى الرمة حيث يقول :

(١) العمدة جـ ٢-٣١ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١-٩١ .
(٣) العمدة جـ ٢ - ٣٠ .
(٤) ص ١٠٠ .
(٥) فى الأصل الثورى وهى محرفة عن التوزى كما جاء فى الصناعتين - ٣٧٠ .

قف العيس فى أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل (١)

فتم كلامه قبل المسلسل . ثم قال . المسلسل فزاد شيئاً .

(١٩) الاستعارة(٢) :

عرض قدامة للاستعارة فى أثناء حديثه عن المعاظلة حيث فسرها بفاحش الاستعارة ، وساق أمثلة لذلك ، ثم ساق أمثلة لغير القبيح منها بما يشمل التصريحية والمكنية ، وقد أسلفنا ما يفيد أنه مسبوق بهذا المصطلح .

(٢٠) التصريع (٣) :

جعله قدامة من نعت القوافى وعرفه بقوله « هو أن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول فى البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها » ثم بين أن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه ، وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره .

وقدامة وإن أربى على ابن المعتز بهذا اللون ليس بالسابق إليه فقد سبق به علم العروض والقوافى الذى ولد مكتملا على يد الخليل بن أحمد ، وإنما قلنا : إن التصريع من ألوان البديع لأن الأدباء قبل قدامة كانوا يعدونه من محسنات الكلام ، فهذا أبو تمام يمتدحه يقول : —

وتقفو لى الجدوى بجدوى وإنما يروقك بيت الشعر حين يصرع (٤)

فتلك عشرون نوعاً من أنواع البديع عرض لها قدامة فى كتابه نقد الشعر بينا فى كل نوع منها مبلغ سبقه أو محاكاته للسابقين .

وأيّاً ما كان فكتاب ( نقد الشعر ) لقدامة خير تراث ورثه من جاء بعد من المؤلفين فكانوا رعيته فيما عرضوا له من أصباغ البديع ، وسيمر بك الدليل على ذلك فى موطنه من هذا البحث .

ولقد نبّه هذا الكتاب كثيراً من الأقلام ، وبعثها من مرقدها ، فانبرى

---

(١) ثوب مسلسل : ردىء النسج . ثوب أخلاق : إذا كانت الخلوقة فيه كله .

(٢) ص ١٠٤ . (٣) ص ٣٠ .

(٤) تقفو : تتبع . الجدوى : من معانيها المطر والعطيه

للطعن عليه الآمدى صاحب الموازنة فألف كتاباً سماه «تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر (١)» .

وصنع عبد اللطيف البغدادى كتابين للدفاع عن قدامة . أحدهما دعاه «تكملة الصناعة فى شرح نقد قدامة» . والآخر «كشف الظلامة عن قدامة»(٢) ولا نعرف مقدار ما بلغته هذه الكتب من السمو أو الانحدار بقدامة إذ لم نحصل عليها سوى أن الآمدى فى الموازنة عاب قدامة على تفسيره المعاظلة بفاحش الاستعارة وفى مخالفة السابقين فى تسمية بعض أصباغ البديع ، وفى تحكيمه الفضائل الخلقية فى نقد الشعر (٣) فذلك يعطينا صورة مختصرة عن طعن الآمدى على قدامة ، وكذلك فعل ابن سنان فى «سر الفصاحة» فقد طعن على قدامة فى غير موطن من كتابه كما سيأتى فى موطنه .

وهذه الطعون جميعاً لم تنفذ إلى صميم الكتاب وجوهره ولم تغض من شأنه وخطره ، فبقى دعامة قوية من دعائم علم البديع ارتكز عليه من جاء بعده من المؤلفين .

## نقد النثر

وكان من بين المخلفات التى نسبت إلى قدامة : كتاب « نقد النثر » أو «البيان» عارض به « البيان والتبين » للجاحظ ولم نر فيه ما يستأهل أن نفرده بالتحليل ، لذلك طوينا عنه كشحا وضربنا عنه صفحا ومضينا إلى أوضح الآثار لدعامتى البديع — كتاب البديع ، كتاب نقد الشعر — ذلك هو كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى (٤) . المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

(١) بغية الوعاة للسيوطى — ٢١٨ .
(٢) كشف الظنون جـ ٢–٦١٢ .
(٣) الموازنة ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٤) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكرى تلقى العلم فى بغداد والبصرة وأصبهان وهو تلميذ أبى أحمد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢ ، أما أبو هلال فقد توفى سنة ٣٩٥ هـ .

## ٣– البديع فى كتاب الصناعتين

كان الجديد الخالص فى البديع منذ عهد التأليف فيه هو جمع تلك الألوان وتوشيحها بإزجاء أمثلة – من رائع النثر والشعر على يد رجل أقرب إلى روح الأدب منه إلى روح العلم هو الأمير العباسى عبد الله بن المعتز ، أو الإطاقة بهذه الألوان البديعية فى نماذج من الشعر والخوض فى تحليل عناصرها ، وتعرف الوجوه التى بها يفضل قول قولا فى بيان أدنى إلى الروح الفلسفية العميقة ، التى تتصف بالضبط والتحديد وجودة التنسيق والتفصيل ، وكان ذلك على يد قدامة ابن جعفر الكاتب ، أو عرض ألوان البديع محددة مفصلة مشفوعة بالشواهد الكثيرة من مختار الكلام نثره ونظمه والخوض فى تحليلها تحليلا أدنى إلى الذوق العربى ذلك ما سنراه على يد أبى هلال العسكرى فقد أحسن استخدام طريقتى : ابن المعتز ، وقدامة ، فى الباب الخاص بالبديع الذى عقده فى كتابه الصناعتين.

### الحافز على تأليفه :

وقد كان الحافز لأبى هلال على تأليف هذا الكتاب هو ما أحسّه فعبر عنه بنفسه ، قال – بعد أن أبان عن خطر علم البلاغة ومنزلته بين العلوم وفائدته فى التعريف بإعجاز القرآن ، وتربية الملكات الصحيحة للقول والاختيار ، وأن من جهله ولم يأخذ منه بأكبر قسط وأوفر نصيب قد تردى فى أسوأ حمأة . قولا وحكماً ، « فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت إليه الحاجة ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبين » لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابى هذا

مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار » .

محتويات الكتاب : —

أما محتويات هذا الكتاب فحسبنا فيها أن نترك لأبى هلال التعبير عنها فى بيان إجمالى قال (١): « وجعلته عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا »

الباب الأول : فى الإبانة عن موضوع البلاغة فى أصل اللغة وما يجرى معه من تصرف لفظها، وذكر حدودها، وشرح وجوهها وضرب الأمثلة فى كل نوع منها ، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها « ثلاثة فصول » .

الباب الثانى : فى تمييز الكلام جيده من رديئه ، ومحموده من مذمومه ( فصلان )

الباب الثالث : فى معرفة صنعة الكلام « فصلان »

الباب الرابع : فى البيان عن حسن السبك وجودة الرصف « فصلان »

الباب الخامس : فى ذكر الإيجاز والإطناب « فصلان » .

الباب السادس : فى حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته « فصلان » .

الباب السابع : القول فى التشبيه « فصلان » .

الباب الثامن : فى ذكر السجع والازدواج « فصلان »

الباب التاسع : فى شرح البديع والإبانة عن وجهه وحصر أبوابه وفنونه « خمسة وثلاثون فصلا » .

الباب العاشر : فى ذكر مقاطع الكلام ومباديه ، والقول فى الإساءة فى ذلك والإحسان فيه « ثلاثة فصول » .

ذلك عرض موجز لما احتواه كتاب الصناعتين من الألوان البلاغية قدّمناه بين يدى غرضنا المروم ليقف منه القارئ على قيمة هذا الكتاب فى علوم البلاغة ويحكم معنا بأنه أول كتاب بدت فيه مباحث علومها الثلاثة .

(١) صفحة ٦ — ٧ كتاب الصناعتين .

« المعانى والبيان والبديع فى عرف المتأخرين » بدوّا ظاهرا واضحاً لا لبس فيه ولا خفاء ، وليدرك من أول وهلة مبلغ مباينة أبى هلال من سبقوه بالتأليف فى علم البديع مستقلا أو تابعاً للنقد ، حيث عقد باباً من الأبواب العشرة خاصاً بالبديع سرد فيه ستة وثلاثين نوعاً ، لم يكن من بينها التشبيه ، وقد عده معها ابن المعتز وقدامة ، كما لم يكن من بينها مقاطع الكلام ومباديه ، وقد بحث المبادى ابن المعتز ضمن ألوان البديع ، وكذلك لم يكن من بينها السجع والازدواج ، وقد عرض قدامة للسجع فى أثناء حديثه عن الترصيع .

ذلك هو الجديد فى صنيع أبى هلال بالبديع على جهة العموم .

والذى يهمنى لإكمال هذا البناء الذى عرضت عليك دعامتيه هو الباب التاسع الخاص بالبديع ، لأعرض عليك مبلغ تأثر أبى هلال بمن سبقه من علماء البديع وإلى أى حد فرعهم وطال عليهم ، أو قصر عن اللحاق بهم ، وسآخذ نفسى بمجانبة التكرار مع ماسبق ، وتبيين الجديد فى هذا الباب والرجوع به إلى منبعه الذى منه نبع أو إسلام قياده لأبى هلال إن لم يكن .

وسأحاكى أبا هلال فى تعديد تلك الألوان مجملة ثم أمضى معها مفصلة .

سرد أبو هلال ألوان البديع التى عرض لها فى كتابه على هذا الوجه .

(١) الاستعارة والمجاز . (٢) التطبيق . (٣) التجنيس . (٤) المقابلة . (٥) صحة التقسيم . (٦) صحة التفسير . (٧) الإشارة . (٨) الإرداف والتوابع (٩) المماثلة . (١٠) الغلو . (١١) المبالغة . (١٢) الكناية والتعريض . (١٣) العكس . (١٤) التذليل . (١٥) الترصيع . (١٦) الإيغال . (١٧) التوشيح . (١٨) رد الأعجاز على الصدور . (١٩) التتميم والتكميل . (٢٠) الالتفات . (٢١) الاعتراض . (٢٢) الرجوع . (٢٣) تجاهل العارف. (٢٤) الاستطراد . (٢٥) جمع المؤتلف والمختلف . (٢٦) السلب والإيجاب. (٢٧) الاستثناء . (٢٨) المذهب الكلامى . (٢٩) التشطير . (٣٠) المجاورة . (٣١) الاستشهاد والاحتجاج . (٣٢) التعطف . (٣٣) المضاعفة . (٣٤) التطريز (٣٥) التلطف . (٣٦) الاشتقاق « الذى سينبه عليه آخر الباب » .

تلك هى الألوان التى سردها أبو هلال بين يدى هذا الباب سوى « الاشتقاق » الذى سيأتى التنبيه عليه منه فضممناه إلى هذا السرد حتى تكمل الفائدة ، ثم يأخذ أبو هلال بعد سردها على هذا النحو فى التعقيب عليها يقول . « فهذه أنواع البديع التى ادعى من لا رواية له ، ولا رويه عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم من أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب ، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة ، وقد شرحت فى هذا الكتاب فنونه وأوضحت طرقه ، وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع : —

(١) التشطير . (٢) المجاورة . (٣) التطريز . (٤) المضاعفة . (٥) الاستشهاد والاحتجاج . (٦) التلطف . (٧) الاشتقاق كما سيأتى أن ينبه عليه فى آخر الباب .

ثم قال . وشذبت على ذلك فضل تشذيب وهذبته زيادة تهذيب »

ذلك ما يقوله أبو هلال فى التعليق على هذه الألوان ، وهو بهذا يشيد بذكر جديده بنفسه وينوعه نوعين . أما الأول — فهو اختراعه لهذه الألوان السبعة وإرباؤه على المتقدمين بها . وأما الثانى . فهو تهذيب تلك الألوان التى عرض لها المتقدمون . ذلك ما سنكشف عنه فى هذه الكلمات .

وقبل المضى فى هذا الغرض . نقول . إن أبا هلال فى باب البديع قد أحسن استخدام طريقتى ابن المعتز وقدامة واحكم التوفيق بينهما . فنحا نحو ابن المعتز فى الاحتفال بحشد الأمثلة الكثيرة من القرآن والحديث وكلام الصحابة والعرب وشعر المتقدمين والمحدثين ، ثم تعقيب ذلك بالإلماع إلى المعيب المستهجن ، والقبيح المسترذل من كلام القدماء والمحدثين ، وتراه يحافظ على هذا النهج فى جمهور ما عرض له من ألوان ، وقد يقتبس من أمثلة ابن المعتز وشواهده التى ساقها فى كتابه « البديع » .

كما أنه حذا حذو قدامة فى تحليل جل الأمثلة والتوقيف على مدى حسنها أو قبحها وإن كان يباينه فى أن تحليله كان أدنى إلى الذوق العربى ومجانبة العمق الفلسفى الذى نزع إليه قدامة ، تراه يسلك تلك السبيل وقلما يحيد عنها ، وفى كثير من الأحايين يحافظ على تعريف قدامة ويقتبس بعض أمثلته .

فبديع أبى هلال فى الصناعتين مزيج من هاتين الطريقتين المتقدمتين ، مرب عليهما بالتهذيب الذى هداه إليه عقله أو أفاده من أستاذه، أو من كتب أخرى وقعت له ولم تصل إلينا . زائد عليهما بهذه الألوان السبعة التى أخبر بسبقه إليها ، وسنرى عند بلوغها إلى أى حد صدقت دعواه أوكانت على خلاف ذلك .

ونسوق إليك الآن صورة من تجديد أبى هلال فى البديع تهذيباً وابتكاراً.

الاستعارة والمجاز(١) :

عرف الاستعارة وبين أغراضها قال« هى نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض . وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة » .

فتراه قد تأثر بتعريف ابن المعتز لها وأربى عليه بتبيين أغراضها التى يتوخاها المستعير ، ثم مضى يبين فضل الاستعارة على الحقيقة يقول « ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن مالا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا » . ثم يدلل على ذلك يقول . « والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ماليس للحقيقة أن قول الله تعالى « يوم يكشف عن ساق » أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال « يوم يكشف عن شدة الأمر » . وإن كان المعنيان واحداً . ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجد فى أمره « شمر عن ساقك فيه ، واشدد حيازيمك له » فيكون هذا القول منك أوكد فى نفسه من قولك « جدفى أمرك » . وهكذا يزجى الأمثلة الكثيرة على طريقة ابن المعتز ، ثم يعلق على جلها على طريقة قدامة ، ثم عرض لأصلين من أصول الاستعارة .

أما الأول : فقد بين أنه لابد لكل استعارة من حقيقة ، ثم شرح ذلك بالأمثلة .

---

(١) ص ٢٥٧ — ٢٩٦ صناعتين .

وأما الثانى : فهو الجامع بين المستعار له والمستعار منه . قال « ولا بد أيضا من معنى مشترك بين المستعار(١) والمستعار منه » ثم بين ذلك بالأمثلة .

ذلك هو الجديد فى صنيع أبى هلال بالاستعارة ، والذى نلحظه أيضاً أنه عنون بالاستعارة والمجاز ولم يعرض للمجاز بتحديد كما عرض للاستعارة ، ولم يدر فى كلامه حديث عن المجاز إلا قوله « ولابد لكل استعارة ومجاز من حقيقة وهى أصل الدلالة على المعنى فى اللغة » . ونستطيع أن نحكم على ضوء صنيعه هذا بأن الاستعارة والمجاز عنده كلمتان مترادفتان على معنى واحد ، وقد كانا كذلك عند متقدمى العلماء . فابن قتيبة فى مشكل القرآن يوقع اسم الاستعارة على كل كلمة عبر بها عن معنى سوى معناها ، ويستوى فى ذلك ما علاقته المشابهة أوغيرها ، ويؤكد هذا الفهم ويقويه صنيع أبى هلال نفسه ، فقد مثل بأمثلة تنتظم الاستعارة التصريحية . أصلية وتبعية ، وبما يصلح أن يكون استعارة الكناية وإن لم يعرض له بشرح فقد ساق قول لبيد . —

وغداة ريح قد كشفت وقــرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وكذلك بما يصلح أن يكون مثالا للمجاز المرسل إذ قال . ويقولون للمطر سماء . قال الشاعر (٢) .

إذا سقط السماء بأرض قــــوم رعيناه وإن كانوا غضابـــــا

وأما أسلوب التشبيه البليغ فهوعنده محتمل للاستعارة والتشبيه على اختلاف التوجيه يدل على ذلك قوله (٣) . فى توجيه قوله تعالى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . معناه فإنه يماس المرأة وزوجها يماسها والاستعارة أبلغ لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسة ، ويحتمل أن يقال . إنهما يتجردان ويجتمعان فى ثوب واحد ويتضامان فيكون كل واحد منهما بمنزلة اللباس فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة التشبيه » ذلك هو الجديد الذى اكتسبته الاستعارة على يد أبى هلال .

---

(١) هكذا فى الأصل والصواب « المستعار له » (٢) معاوية بن مالك .

(٣) ص ٢٥٩ .

(٢) المطابقة(١) :

أشار إلى إجماع الناس من قبله على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشيء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ، ثم نبه على خروج قدامة على هذا الإجماع قال « وخالفهم قدامة ابن جعفر الكاتب فقال: المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء والصيغة مختلفتين فى المعنى . وسمى الجنس الأول التكافؤ ، وأهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه « المطابقة » — التعطف — وهو أن يذكر اللفظ ثم يكرره والمعنى مختلف ، وستراه فى موضعه إن شاء الله » وستأتى مناقشته فى هذا لأن ذلك نوع من الجناس كما نبهنا عليه فيما سبق ، ثم أشار إلى مأخذ الطباق من اللغة ، ثم أزجى الأمثلة على طريقته .

(٣) التجنيس(٢) —

عرفه بتعريف ابن المعتز ، وعرض لقسميه اللذين عرض لهما —

( ا ) ما تكون الكلمة فيه تجانس الأخرى لفظاً واشتقاق معنى ، ومثل له بما مثل ابن المعتز .

( ب ) ما تكون الكلمة فيه مجانسة للأخرى فى تأليف الحروف دون المعنى ، ومثل بما مثل به ابن المعتز . ثم علق على هذا القسم بقوله « وشرط بعض الأدباء هذا الشرط فى التجنيس وخالفه فى الأمثلة . فقال . وممن جنس تجنيسين فى بيت زهير فى قوله : —

بعزمة مأمور مطيع وآمر مطاع فلا يلقى لحزمهم مثل

وليس المأمور والآمر ، والمطيع والمطاع من التجنيس لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أن بعضها فاعل وبعضها مفعول به ، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة ، وكتاب الأجناس الذى جعلوه لهذا الباب مثالا لم يصنف على هذا السبيل ، ويكون المطيع مع المستطيع ، والأمر مع الأمر تجنيساً » . ثم مضى فى سوق أمثلة أخرى للتدليل على خطأ هذا البعض . ثم قال . ليس فى هذه الألفاظ تجنيس وإنما اختلفت هذه الكلم للتعريف .

---

(١) ص ٢٩٦ — ٣٠٨ . (٢) ص ٣٠٨ — ٣٢٦ .

ولا ريب فى أن هذا مظهر جلى من مظاهر تشذيب أبى هلال وتهذيبه لطرق من تقدموه . وقد أربى على ابن المعتز فى أقسام التجنيس قال . « ومن التجنيس ضرب آخر وهو أن تأتى بكلمتين متجانستى الحروف إلا أن فى حروفها تقديماً وتأخيراً كقول أبى تمام : —

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى    متونهن جلاء الشك والريب

ثم قال : ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدم بزيادة حرف أونقصانه كقوله تعالى : «وهم ينهون عنه وينأون عنه» . وقوله « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » فما كان على حذو بيت أبى تمام قد عرف فيما بعد بجناس القلب ، وما كان على غرار الآية الأولى قد عرف بالمضارع ، وماكان على نحو الثانية قد عرف باللاحق .

وأبو هلال مسبوق إلى تقسيم الجناس بالجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ فى الوساطة(١) .

(٤) المقابلة(٢) :

حذا فيها حذو قدامة .

(٥) صحة التقسيم (٣) :

وكذلك هذا اللون قد حذا فيه حذو قدامة .

(٦) صحة التفسير (٤) : —

عرفها بتعريف قدامة ثم ساق أمثلة بعضها لايزال علماً فى باب اللف والنشر عند المتأخرين والمتقدمين كما أسلفنا . منها قوله تعالى : « ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ومنها قول الشاعر :

كيف أسلو وأنت حقف وغصن    وغزال لحظا وردفاً وقدا

(٧) الإشارة(٥) — لم يزد على ما أورده قدامة .

(١) الوساطة ص ٤٣ — ٤٥
(٢) ص ٣٢٦ — ٣٣٠ .
(٣) ص ٣٣٠ — ٣٣٤ .
(٤) ص ٣٣٤ — ٣٣٦ .
(٥) ص ٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٨) الإرداف والتوابع (١) :

لم يزد على قدامة إلا بضم كلمة التوابع إلى الإرداف – ثم عرفهما بتعريف قدامة للإرداف ، ثم اقتبس منه بعض أمثلته. وجميع ما مثل به ينطبق على ما عرف عند المتأخرين باسم الكناية . وترى الخطيب القزوينى فى الإيضاح فى باب الكناية ينقل كثيراً من أمثلة أبى هلال للإرداف والتوابع .

(٩) المماثلة(٢) :

وقد سماها قدامة التمثيل ، فخالفه أبو هلال فى التسمية ، وهو فى هذا حاذ حذو أستاذه أبى أحمد العسكرى إذ سماها « المماثلة » . قال عبد القاهر الجرجانى (٣) فى أثناء حديثه عن التمثيل . وذكر أبو أحمد العسكرى أن هذا النحو من الكلام يسمى « المماثلة » وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل وليس الأمر كذلك » وقد عرفها أبو هلال بتعريف قدامة للتمثيل مع مغايرة يسيرة فى العبارة ، ثم ساق أمثلة تنطبق على التشبيه التمثيلى وعلى الاستعارة التمثيلية .

(١٠) الغلو (٤) :

وهذا مظهر من مظاهر تهذيب أبى هلال لمنحى السابقين عليه ، فقد كان المتقدمون ولا سيما قدامة يستعملون الغلو والمبالغة على أنهما كلمتان متواردتان على معنى واحد ، أما أبو هلال فقد جعلهما لونين ، وعرّف كل واحد منهما بتعريف يخصه ، ولعل أبا هلال لم يسبق بتلك التفرقة ، فإنى لم أر – على مبلغ جهدى – أحداً من السابقين قد فرق بينهما ، وقد عرف أبو هلال الغلو قال . « هو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها » ثم ساق أمثلة لذلك من القرآن الكريم . منها قوله تعالى « وبلغت القلوب الحناجر » ومن الشعر نحو قول الشاعر .

تظــل تحفر عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادى

ثم ساق أمثلة أخرى للمعيب الذى خرج إلى حد المحال .

---

(١) ص ٣٣٨ – ٣٤١ (٢) ص ٣٤١ – ٣٤٥ .

(٣) أسرار البلاغة – ٩٠ . (٤) ص ٣٤٥ – ٣٥٤ .

(١١) المبالغة (١) :

أما المبالغة فقد حدّها قال . هى أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته ولا تقتصر فى العبارة عنه إلى أدنى منازله وأقرب مراتبه ، ثم مضى يسوق أمثلة من القرآن الكريم ومن الشعر ، ثم يقول . ومن المبالغة نوع آخر — وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأته فى غرضه منها فيجاوز ذلك ، حتى يزيد فى المعنى زيادة تؤكده ، ويلحق به لاحقة تؤيده كقول عمرو بن الأهتم التغلبى :

ونكرم جارنـــا مادام فينـــــا ونتبعه الكرامـــة حيث مـــالا

فإكرامهم الجار مادام فيهم مكرمة وإتباعهم إياه الكرامة حيث مال من المبالغة ، وذلك التعريف هو ما عرف به قدامة المبالغة ، وذلك البيت مما مثل به لها وكذلك التعليق عليه .

وهكذا يتم على يد أبى هلال تنويع المبالغة إلى ثـــلاثة الأنواع التى عرفها بها المتأخرون مع مباينة طفيفة ، وهذا القسم الأخير عرف فيما بعد باسم « الإغراق » .

(١٢) الكناية والتعريض (٢) :

حذا فى هذا اللون حذو ابن المعتز وأربى عليه بالتعريف قال . « هو أن يكنى عن الشىء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشىء » ثم ساق أمثلة منها قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء » فالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع ، ثم قال ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون . أما بعد فقد استشفع فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول عليه فى إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقونه فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفع بهم وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام ، فوقّع فى كتابه قد عرفنا تصريحك له وتعريضك بنفسك وأجبناك إليهما .. » .

وابن المعتز لم يفرق بين أمثلة الكناية وأمثلة التعريض ، فدلنا صنيعه على

(١) ص ٣٥٤-٣٥٨ . (٢) ص ٣٥٨ - ٣٦١ .

أنهما مترادفان ، أما أبو هلال فصنيعه فى التعريف يدل على أنهما مترادفان، ولكن توزيعه الأمثلة والتنبيه على أن هذا كناية وذاك تعريض يدل على أنه يفرق بينهما ، فإذا كان هذا كما هو الظاهر من صنيعه فما الفرق بين الكناية والإرداف الذى قدمه ؟ ويظهر لى أنه أراد من الكناية معناها اللغوى بدليل تمثيله بالآية السابقة ، وأما الإرداف فينطبق على ما خصه المتأخرون باسم الكناية .

(١٣) العكس(١) :

وهذا مما لم يتعرض له ابن المعتز وقدامة ، وقد عرفه أبو هلال قال. «هو أن تعكس الكلام فتجعل فى الجزء الأخير منه ماجعلته فى الجزء الأول ، ثم قال وبعضهم يسميه « التبديل » وقد روى ابن رشيق(٢) عن أبى جعفر النحاس « المتوفى سنة ٣٣٨ » أن الذين سموه التبديل هم الكتاب » . فترى من هذا أن أبا هلال قد سبق بهذا اللون ، ثم مضى يسوق الأمثلة فمنها قوله تعالى « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » . ثم قال . والعكس أيضاً من وجه آخر . وهو أن يذكر المعنى ثم يعكسه بإيراد خلاف كقول الصاحب. « وتسمى شمس المعالى . وهو كسوفها » .

(١٤) التذييل(٣) :

بين مكانته ومنزلته فى الكلام قال . وللتذليل فى الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً ، وقال بعض البلغاء : للبلاغة ثلاثة مواضع . الإشارة . والتذييل . والمساواة . وقد شرحنا الإشارة والمساواة فيما تقدم .

فأما التذييل : فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند من فهمه ، وهو ضد الإشارة والتعريض ، ثم بين مواطنه قال. «وينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة والمواقف الحافلة لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم ، والبعيد الذهن ، والثاقب القريحة ، والجيد الخاطر . فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تأكد عند الذهن اللقن

(١) ص ٣٦١ – ٣٦٢ . (٢) العمدة ج ٢–٤ .
(٣) ص ٣٦٢ – ٣٦٤ .

وصح للكليل البليد ، ومثاله من القرآن « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور » معناه « وهل يجازى بمثل هذا الجزاء إلا الكفور » فأنت تراه يجعل مواطن التذييل عين مواطن الإسهاب والإطناب ، وما ذلك إلا لأن التذييل نوع من أنواعه .

(١٥) الترصيع(١) :

تأثر فى تعريفه بقدامة وأربى عليه ببيان مأخذه من اللغة قال . وأصله من قولهم رصعت العقد إذا فصلته ، ثم ساق أمثلة له من شعر الأقدمين والمحدثين وعقب ذلك بأمثلة للمعيب المسترذل .

(١٦) الإيغال(٢) :

تأثر فيه بتعريف قدامة له واقتبس كثيراً من أمثلته ، ثم أربى عليه ببيان الفرق بينه وبين التتميم قال. « ويدخل أكثر هذا الباب فى التتميم. وإنما يسمى إيغالا إذا وقع فى الفواصل والمقاطع » .

(١٧) التوشيح (٣) :

أشار إلى أن هذا اللون سمى بالتوشيح وبين أن هذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ، ولو سمى تبيينا لكان أقرب ، ثم عرفه بتعريف قدامة ، وأربى على قدامة بضرب آخر للتوشيح قال . وضرب منه آخر . وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام وإن لم يجر ذكره فيما تقدم، وهو كقوله تعالى « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون » فإذا وقف على قوله . لننظر مع ما تقدم من قوله تعالى « جعلناكم خلائف فى الأرض » علم أن بعده « تعملون » لأن المعنى يقتضيه ، ثم ساق أمثلة للضربين اقتبس كثيراً منهامن نقد قدامة .

(١٨) رد الأعجاز على الصدور(٤) :

تأثر فى هذا اللون بابن المعتز ، وأربى عليه بتبيين موقعه من البلاغة وأن له فى

(١) ص ٣٦٤ – ٣٧٠ .
(٢) ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .
(٣) ص ٣٧٢ – ٣٧٥ .
(٤) ص ٣٧٥ – ٣٧٨ .

فى المنظوم خاصة محلا خطيراً وزاد عليه قسما رابعا ، وساق أمثلة للأقسام الأربعة من بينها أمثلة ساقها ابن المعتز .

(١٩) التتميم والتكميل(١) :

تأثر فى هذا اللون بقدامة واقتبس كثيراً من أمثلته ، ولم يزد عليه شيئا سوى وضع التكميل بجوار التتميم .

(٢٠) الالتفات(٢) :

نوعه إلى نوعين . أما أولا — فأن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ثم ساق قصة التفات الأصمعى . واما ثانيا — فأن يكون الشاعر آخذاً فى معنى وكأنه يعترضه شك أوظن أن رادا يرد قوله أوسائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ماقدمه. فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه. وذلك الأخير هو تعريف قدامة للالتفات ، وأما الأول فقد استقاه من ابن المعتز ، ثم ساق أمثلة من بينها ما مثل به قدامة .

(٢١) الاعتراض(٣):

(٢٢) الرجوع (٤) :

تأثر فى هذين اللونين بابن المعتز ، واقتبس كثيراً من أمثلته .

(٦٣) تجاهل العارف ومزج الشك باليقين(٥) :

عرفه بقوله ، هو إخراج مايعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً وساق أمثلة من بينها قول العرجى :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنـــا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

ولم يزد على ابن المعتز إلا إضافة «مزج الشك باليقين» إلى تجاهل العارف.

---

(١) ٣٧٨ — ٣٨١ .
(٢) ص ٣٨١ — ٣٨٣ .
(٣) ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .
(٤) ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .
(٥) ٣٨٦ — ٣٨٧ .

(٢٤) الاستطراد(١) :

عرفه بقوله ، «هو أن يأخذ المتكلم فى معنى فبينا يمر فيه يأخذ فى معنى آخر وقد جعل الأول سببا له». وقد أسلفنا أن ابن المعتز سماه الخروج ، كما بينا أن تسميته بالاستطراد ترجع إلى أبى تمام .

(٢٥) جمع المؤتلف والمختلف(٢) :

عرف هذا اللون بقوله، «هو أن يجمع فى كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة كقوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » . وقوله، «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وساق أمثلة غير هذين تنطبق جميعها على ما سمى فيما بعد بمراعاة النظير وقد سبقه إلى الجمع الجرجانى فى الوساطة (٣) .

(٢٦) السلب والإيجاب (٤) :

عرفه بقوله ، « هو أن تبنى الكلام على نفى الشىء من جهة وإثباته من جهة أخرى ، أو الأمر به فى جهة والنهى عنه فى جهة وما يجرى مجرى ذلك . كقوله تعالى « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » ثم ساق أمثلة كثيره . ولاريب فى أن هذا النوع من أنواع الطباق ، وقد جعله الجرجانى فى الوساطة (٥) نوعا من الطباق حيث قال فى أثناء حديثه عن المطابقة . « وقد يجىء منه جنس آخر تكون المطابقه فيه بالنفى كقول البحترى .

يقيض لى من حيث لا أعرف الهوى ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

ثم علق على ذلك بقوله . « لما كان قوله « لا أعلم » كقوله « أجهل » وكان قوله أجهل مطابقة . كان الآخر بمثابته .

(٢٧) الاستثناء (٦) :

وابن المعتز يسميه تأكيد المدح بما يشبه الذم فخالفه أبو هلال فى التسمية

---

(١) ص ٣٨٧ – ٣٩١ .
(٢) ص ٣٩١ – ٣٩٣ .
(٣) ص ٤٨ .
(٤) ص ٣٩٤ – ٣٩٦ .
(٥) الوساطة ص ٤٦ .
(٦) العمدة جـ ٢–٤٦ .

وإن كان مسبوقا اليها . قال ابن رشيق(١)« وليس هذا الاستثناء على ما رتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة وإنما سمى اصطلاحا وتقريبا سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ولم يسم حقيقة » .

ثم مضى أبو هلال ينوع الاستثناء نوعين .

النوع الأول : أن تأتى معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثنى بغيره فتكون الزيادة التى قصدتها والتوكيد الذى توخيته فى استثنائك ، ثم روى أبو هلال . أن ابن سلام قال لجندل بن جابر الفزارى :

فتى كملت أخلاقه غير أنــه ... جواد فما يبقى من المال باقيا
فتى كان فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه مايسوء الأعاديا

فقال هذا استثناء . فتبين هذا الاستثناء لهم كما قال الغابغة :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فاول من قراع الكتائب

النوع الثانى : استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان ، ثم ساق أمثلة منها قول طرفة .

فسقى ديارك غير مفسدها ... صوب الربيع وديمة تهمى

وقد مثل بهذا البيت للتتميم والتكميل .

(٢٨) المذهب الكلامى (٢) :

لم يزد فيه على ما قاله ابن المعتز ، ولم يمثل له بآية من القرآن الكريم كما فعل ابن المعتز مع كثرة إطافة هذا الصبغ بالقرآن من غير تكلف أو تعسف .

(٢٩) التعطف(٣) :

عرفه بقوله . هو أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف ، وهو نوع من الجناس عند ابن المعتز وسماه قدامة « المطابقة » وقد أسلف أبو هلال

(١) العمدة : جـ ٢/٤٦ .
(٢) ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .
(٣) ص ٤٠٧ - ٤١٠ .

فى بحث المطابقة (١) أن أهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه قدامة المطابقة «التعطف» فاتبعهم أبو هلال على هذه التسمية ناسيا أن هذا النوع قد أدرجه تحت الجناس متابعا ابن المعتز فى هذا ، وذلك موطن التبس على أبى هلال فظنه نوعا على انفراد وهو من الجناس ، ثم ساق له أمثلة من الشعر والقرآن الكريم .

وبذلك اللون يتم جمع أبى هلال لما عرض له السابقون فهذبه كما قال وسنرى ما ادعاه من اختراعه وصرح بأنه لم يسبق إليه أحد من قبله .

(٣٠) التشطير (٢) :

وهذا أول الأصباغ التى زادها أبو هلال كما قال . وقد عرفه بقوله : « وهوأن يتوازن المصراعان والجزءان وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه واستغنائه عن أصحابه . فمثاله من النثر قول بعضهم « من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته » ومن النظم قول الشاعر :

فأما الذى يحصيهم فمكثر     وأما الذى يطريهم فمقلل

وأبو هلال مبالغ فى ادعائه أن هذا النوع من زيادته واختراعه،فقد سبقه إليه ثعلب فى كتابه «قواعد الشعر» وسماه «المعدل» وجعله قسما من أقسام الشعر ، وعرف الأبيات المعدلة بأنها التى يستغنى كل شطر فيها بنفسه،وساق لذلك أمثلة منها قول امرئ القيس بن عابس الكندى :

الله أنجح ما طلبت بـه     والبر خير حقيبة الرحل

ومن هذا ترى أن أبا هلال مبالغ فى نسبته لنفسه وليس له إلا وضع التشطير موضع المعدل .

(٣١) المجاورة(٣) :

وهذا هو اللون الثانى الذى سلمت زيادته لأبى هلال ، وقد عرفه بقوله—

---

(١) ص ٢٩٦ .     (٢) ٣٩٩ – ٤٠١ .

(٣) ص ٤٠١ – ٤٠٣ .

« هو تردد لفظتين فى البيت ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أوقريبا منها من غير أن تكون إحداهما لغوا لايحتاج إليها كقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه    أنى توجه والمحروم محروم

فقوله «الغنم يوم الغنم » مجاورة، «والمحروم محروم» مثله ولاريب فى أن أبا هلال صاحب السبق فى هذا غير منازع – على مبلغ علمى – وقد سمى هذا اللون فيما بعد باسم الترديد (١) .

(٣٢) الاستشهاد والاحتجاج (٢) :

وهذا هو النوع الثالث من الأنواع التى سبق إليها أبوهلال، وقد بين منزلته فى الكلام . قال « وهذا الجنس كثير فى كلام القدماء والمحدثين. وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر . ومجراه مجرى التذييل لتوكيد المعنى » ثم عرفه بقوله: «هو أن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته » .

ثم ساق أمثلة منها قول بشار :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة    فإن الخوافى قوة للقوادم

وجميع ما ساقه من الأمثلة موزع بين ما عرف بحسن التعليل ، والتشبيه الضمنى ، والمذهب الكلامى، وقد نبه على التشبيه أبو هلال قال : وتدخل أكثر هذه الأمثلة فى التشبيه أيضا .

(٣٣) المضاعفة (٣) :

وهذا النوع الرابع من الألوان التى زادها أبوهلال ، وقد نوعه إلى أربعة أنواع :

( أ ) أن يتضمن الكلام معنيين . معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه . ثم ساق أمثلة من بينها قوله تعالى « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى

(١) العمدة جـ ١–٣٠٠ .    (٢) ص ٤٠٣ – ٤٠٧ .

(٣) ص ٤١٠ – ٤١٢.

العمى ولو كانوا لايبصرون » . ثم قال : « فالمعنى المصرح به فى هذا الكلام . أنه لا يقدر أن يهدى من عمى عن الآيات وصم عن الكلم البينات . بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه : أنه فضل السمع على البصر ، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ومع العمى فقدان النظر فقط » . ثم مثل له بقول أبى الطيب :

نهبت من الأعمار مالو حويته لهنئت الدنيا بأنك خـــالد

وذلك البيت قد مثل به صاحب التلخيص للاستتباع .

(ب) أن تورد الإسم الواحد على وجهين وتضمنه معنيين كل واحد منهما معنى كقول بعضهم :

أفدى الذى زارنى والسيف يخفره ولحظ عينيه أمضى من مضاربه

فما خلعت نجادى فى العناق له حتى لبست نجادا من ذوائبه

فجعل فى السيف معنيين . أحدهما أن يخفره ، والآخر أن لحظه أمضى من مضاربه .

(ج) ثم قال وضرب منه آخر ولم يعرفه ومثل له بأمثلة منها قول ابن الرومى

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

(د) وضرب منه آخر لم يعرفه . وساق له أمثلة منها قول مسلم :

وخال كخال البدر فى وجه مثـله لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

(٣٤) التطريز (١) :

وذلك هو الصبغ الخامس من الأصباغ التى زادها أبو هلال . وقد عرفه بقوله : «هو أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن فيكون فيها كالطراز فى الثوب» ثم قال : «وهذا النوع قليل فى الشعر وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبى طاهر :

إذا أبو قاسم جادت لنـــا يـــده لم يحمد الأجودان : البحر والمطر .

وإن أضـــاءت لنا أنوار غرته تضاءل الأنوران : الشمس والقمر .

---

(١) ص ٤١٢ — ٤١٣ .

وإن مضى رأيه أوحد عزمته  تأخر الماضيان : السيف والقدر .
من لم يكن حذرا من حد صولته  لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر .

فالتطريز فى قوه . الأجودان ، والأنوران ، والماضيان ، والمزعجان .

هذا وقد سماه المتأخرون التشريع وما أخلقه بعلم العروض .

(٣٥) التاطف (١) :

وهذا هو اللون السادس من الألوان التى ابتكرها أبو هلال ، وقد حده بقوله : «وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه ، والمعنى الهجين حتى تحسنه . فمن ذلك أن يحي بن خالد البرمكى قال لعبد الملك بن صالح : «أنت حقود . فقال إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان» فقال يحي : «ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسنه غيرك» ورأى الحسن على رجل طيلسان صوف فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟ قال : نعم . قال : إنه كان على شاة قبلك فهجنه من وجه قريب . وأبو هلال صاحب الفضل فى تسمية هذا اللون فحسب إذ أنه مسبوق إليه بمادته .

روى قدامة فى نقد الشعر ونقله عنه أبو هلال . أن التوزى . قال : قلت للأصمعى من أشعر الناس . فقال من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، فما أحرى هذا النوع أن يكون من أساليب المبالغة .

ثم علق أبو هلال على ألوان البديع التى عرض لها قال (٢) « وقد فرغنا من شرح أبواب البديع وتبيين وجوهها وإيضاح طرقها والزيادة التى زدنا فيها ستة فصول ، وأبرزناها فى قوالبها من الألفاظ من غير إخلال ولا إهذار . وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل فى معناها قبلها فمثل بينها وبينه فإنك تقضى لها عليه ، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه إن شاء الله » .

ثم قال : وقد عرض لى بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد وسميته .

---

(١) ص ٤١٣ – ٤١٦ .  (٢) ص ٤١٦ .

(٣٦) المشتق(١) :

جعله على وجهين . الوجه الأول : أن يشتق اللفظ من اللفظ ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ . فاشتقاق اللفظ من اللفظ مثل قول أبى هلال فى البانياس .

فى البانياس إذا أوطئت ساحتها خوف وحيف وإقـلال وإفلاس
وكيف يطمع فى أمن وفى دعة من حل فى بلد نصف اسمه ياس

واشتاق المعنى من اللفظ كقول أبى العتاهية :

حلقت لحية موسى باسـمه وبهارون إذا ما قلبـا

وقد سمى هذا النوع الأخير فيما بعد باسم تجنيس الإشارة وجعل نوعا من أنواع التجنيس(٢) :

تلك هى الألوان التى عرض لها أبو هلال عرضت عليك منها الجديد لتحكم معى بأن البديع فى الصناعتين ثالث الدعائم التى قام عليها صرح البديع ونمسك القلم عن إطراء أبى هلال وإكبار مجهوده فقد كفانا مؤونة ذلك وأربى على ما كنا نريده ، ثم نمضى إلى ابن رشيق القيروانى لنرى ماذا جدد فى البديع .

## ٤ — البديع فى العمدة

فإذا تركنا أبا هلال إلى غيره من علماء البديع فى القرن الخامس الهجرى ، وجدنا أطول رجاله باعا ، وأفسحهم ميدانا ، وأوسعهم تصرفا فى فنونه : الحسن ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ على الأرجح ، أحد بلغاء القيروان الأفاضل ، وشعرائها المجيدين وعلمائها المبرزين ، تلقى الأدب عن أبى عبدالله محمد بن جعفر القزاز القيروانى النحوى وعن العالم الأديب أبى محمد عبد الكريم ابن ابراهيم النهشلى الذى تجده يحلى كتابه هذا بنقول كثيرة عنه ، فأفاد من هذه التلمذة ومن اطلاعه على كتب السابقين فائدة ظهر أثرها واضحا جليا فى

(١) ص ٤١٦ — ٤١٧ .
(٢) المطول ص ٤٤٩ .

آثاره التي خلفها وكان أعمها نفعا وأبعدها صيتا (كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه) وقد حقق ابن رشيق هذا العنوان بما عرض له فى هذا الكتاب فكان كتابه هذا خير كتاب ألف فى نقد الشعر ، وكل ما سبقه من المؤلفات كان من قبيل المقدمات التمهيدية التى لا تسد نهمة ولاتبل أواما .

وأنت إذا استعرضت هذا الكتاب الجامع لمحاسن الشعر وآدابه وجدت فيه ثروة لاتعد لها ثروة فى بابها ، فتقر بفضل ابن رشيق وسعة أفقه وغزارة علمه ودقة تفصيله وحسن استخدامه لآثار سلفه ، وإن كنت تحس أنه يكبر رأى قدامى العلماء ولايخرج على أفكارهم وإن ظهر له ما يخالفها إلا فى الأقل النادر الذى يدل على أدبه وإكباره للسلف (١) .

## الباعث على تأليفه هذا الكتاب :

قال ابن رشيق(٢) . قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن من الشعر لحكما ) . وروى « لحكمة » وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته . فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم » مع ما للشعر من عظم المزية وشرف الأبية وعز الأنفة وسلطان القدرة ، ووجدت الناس مختلفين فيه متخلفين عن كثير منه ، يقدمون ويؤخرون ، ويقللون ويكثرون قد بوبوه أبوابا مبهمة ، ولقبوه ألقابا متهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ماقاله كل واحد منهم فى كتاب ليكون « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » إن شاء الله تعالى . فتجده يؤلف هذا الكتاب من أجل الشعر ، ويجمع فيه أحسن ما قاله العلماء من قبله ، وتراه يرشدنا بنفسه إلى مبلغ سبقه ومقدار تبريزه يقول(٣) « وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ، ونتيجة خاطرى ، خوف التكرار ،

---

(١) راجع ص ١١ جـ ١ من العمدة فى رده على ابن الرومى .
(٢) جـ ١-٤ .
(٣) جـ ١ - ٤ .

ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فإنه لاسبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف ولاأحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك ، ألا أن يكون متداولا بين العلماء لايختص به واحد منهم دون الآخر ، وربمانحلته أحد العرب وبعض أهل الأدب تسترا بينهم ووقوعا دونهم ، بعدأن قرنت كل شكل بشكله ورددت كل فرع إلى أصله وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لبس الارتياب به حتى أعرف باطله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه » .

وقد حقق كل أولئك ابن رشيق فجرى فى نقد الشعر موفقا حتى بلغ الغاية. واستولى على الأمد ، ونبه أعين الحاسدين وأطلق ألسنة الحاقدين ، فتصدى معاصروه لنقده ومعارضته بكتب كثيرة لم يصلنا منها إلا رسائل الانتقاد(١) لأبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى الشاعر الأديب المعاصر لابن رشيق والمتوفى سنة ٤٦٠ فقد عارض بهذه الرسائل كتاب العمدة ، وعلى رغم تأنقه فيها بالسجع والتشبيهات والكنايات وسلوكه فيها مسلك المقامات فى الخطاب والجواب وتضمينه إياها انتقاداً على الشعراء الجاهليين وغيرهم ، لم يلحق فيها بابن رشيق ، ولم يبلغ ما بلغه من سبق وفضل ، وإحكام وترتيب ، ودقة وحسن تخريج ، وقد أحس ذلك ابن رشيق فقال مزريا عليهم عائبا تخلفهم وقصورهم « وكم فى بلدنا هذا من الحفاث (٢) قد صاروا ثعابين ومن البغاث قد صاروا شواهين . أن البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه ، وركاكة لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا إليها انتحالا ، وقد بلغنى أن بعض من لا يتورع عن كذب ، ولايستحى من فضيحة زعم أنى أخذت عنه مسائل

---

(١) نشرت هذه الرسائل فى مجلة المقتبس سنة ١٩٠٦ .

(٢) الحفاث : حية عظيمة : البغاث : طائر أغبر جمعه بغثان ، ومعنى البغاث بأرضنا يستنسر أى من جاورنا عزبنا .

من هذا الكتاب لو سئل عنها الآن ماعلمها . والامتحان يقطع الدعوى . كما قال بعض الشعراء :

من تحلى بغير ما هو فيه     فضح الامتحـــان ما يدعيه

وكنت غنيا عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى من أشرت إليه آنفا من ذكره وعزوفا بهمتي عن الانحطاط إلى مساواته ولكنى رأيت السكوت عنه عجزاً وتقصيراً » .

وذكر صاحب نفح الطيب(١) أن للأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٥٤٩ كتابا فى مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه .

محتويات الكتاب : وقد احتوى هذا الكتاب الحافل على ستة ومائة باب تناولت محاسن الشعر من : بيان فضله ، والرد على من يكرهه ، وشعر الخلفاء والقضاة والفقهاء ومن رفعه الشعر ومن وضعه ، ومن قضى له الشعر ومن قضى عليه ، وشفاعات الشعراء وتحريضهم ، واحتماء القبائل بشعرائها ، وفأل الشعر وطيرته ، ومنافعه ومضاره ، وتعرض الشعراء ، والتكسب بالشعر والأنفة منه ، وغير أولئك مما هو قارفى موطنه من هذا الكتاب لا يعجز من ينشده .

والذى يهمنى من هذا الكتاب هو القسم الخاص بالبديع فقد جال فيه ابن رشيق جولات واسعة حتى أصبح عمدة المراجع لمن جاءوا بعده ، جمعا وتنسيقا وشواهد ، وقد عقد ابن رشيق للمبادئ والمخارج والنهايات بابا على حدة ولم يسلكها فى أبواب البديع وقد جارى فى ذلك أبا هلال كما قدمنا ، كما أنه عقد بابا للإيجاز ولم يدخله ضمن أبواب البديع كما فعل سلفه السابقون عليـــه .

والذى تلمحهمن الجدة فى صنيع ابن رشيق بالبديع أنه أطلق على ألوانه اسم « الحلى » قال (٢) فى أثناء حديثه عن المثل السائر . وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن ، ونكت تستظرف مع القلة وفى الندرة ، فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلفة .. ولاينبغى للشعر أن يكون أيضا خاليا

---

(١) جـ ١ – ٤٣٥ .     (٢) جـ ١–٥٥ .

مغسولا من هذه الحلى فارغا» . ولابن رشيق سلف فى إطلاق اسم «الحلى» على أوان البديع هو عبد العزيز الجرجانى صاحب « الوساطة » فقدقال فيها (١) بعد أن سرد ألوانا من البديع. « وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ماذكرناه بديعا لكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود فى حلى الشعر » ومن قبل الجرجانى أطلق على بعضها ابن المعتز « محاسن الكلام والشعر » .

ولعل هذا كله قد غرّ المتأخرين فأخذوا هذا الإطلاق على ظاهره وألصقوه بألوان البديع ، وكان من نتائجه السيئة: الحكم على هذه الأصباغ بأنها زائدة عن الغرض ، وآتية بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلالة وإلا كانت كتعليق الدر على أعناق الخنازير . وسيأتى فى القسم الثانى من هذا البحث – بمشيئة الله تعالى – موقفى من هذا الحكم الظالم الجائر ، وحسبى أن أقول هنا : إن الجرجانى وابن رشيق لم يقصدا إلى ما فهمه المتأخرون بل الحلية عندهما أمر ذاتى ليس بالعرضى يتم به الغرض من الأسلوب إن وجد ، وينعدم إن لم يوجد ، وعلى هذا درج عبد القاهر . كما سترى .

كما نلمح من مظاهر تجديد ابن رشيق فى البديع أنه أربى على أبى هلال فى تهذيب كلام السابقين ، وضم الأشباه إلى الأشباه ، كعده الترصيع من التقسيم، وعده الكناية واللغز وما شاكلهما من أقسام الإشارة : وتعرضه للفرق بين الألوان المتقاربة كفرقه بين الاستطراد والالتفات ، والإيغال والتتميم وما إلى ذلك مما ستشاهده فيما نعرض عليك مما يتضاءل أمامه كل مؤلف سبقه .

كما أن ابن رشيق كثيراً ما ينبه على سرّ الصنعة فى اللون الذى يعرض له كما قال فى « التسهيم » مما سيمر بك قريبا فى موطنه .

كما أنه سبق إلى بعض ألوان من البديع وعنون لها كما سيأتى فى موطنه .

والآن نحاول أن نضع بين يديك صورة منبئة عن تجديد ابن رشيق دالة على مقدار جهده ، وسآخذ نفسى بعدم التكرار مع ما سبق حتى تكون هذه السلسلة صادقة التصوير للبديع فى مختلف عهوده .

---

(١) ص ٤٨ .

المخترع والبديع (١) :

فرق ابن رشيق بين المخترع والبديع قال : المخترع من الشعر ما لم يسبق إليه قائلة ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، ثم ساق أمثلة تبين ذلك ، ثم قال : وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتولد ، غير أن ذلك قليل فى الوقت ، والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه زيادة . فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضا سرقة إذ كان ليس آخذاً على وجهه ، ثم مضى يبين ذلك بالأمثلة ، ثم أخذ فى الفرق بين الاختراع والإبداع قال : والفرق بين الاختراع والإبداع — وإن كان معناهما فى العربية واحداً — أن الاختراع خلق المعانى التى لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط . والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذى لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع ، وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ . فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمد ، وحاز قصب السبق ، ثم عرض لمأخذ الاختراع والبديع من اللغة قال : واشتقاق الاختراع من التليين . يقال بيت خرع إذا كان ليناً ، والخِروع فِعول منه ، فكأن الشاعر سهل طريقة هذا المعنى ولينه حتى أبرزه ، وأما البديع فهو الجديد . وأصله فى الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديداً ليس من قوى حبل نقضت ثم فتلت فتلا آخر وأنشدوا للشماخ بن ضرار :

أطار عقيقه عنه نُسالا وادْمُجَ دَمْجَ ذى شطَنٍ بديع (٢)

ثم قال : والبديع ضروب كثيرة . وأنواع مختلفة . أنا أذكر منها ما وسعته القدرة ، وساعدت فيه الفكرة إن شاء الله تعالى ، على أن ابن المعتز وهو أول من جمع البديع وألف فيه كتابا لم يعده إلا خمسة أبواب . الاستعارة أولها . ثم التجنيس ، ثم المطابقة ، ثم رد الأعجاز على الصدور ، ثم المذهب الكلامى ،

(١) جـ ١ صفحة ٢٣٢ — ٢٣٦ .

(٢) العقيق : شعر كل مولود من الناس والبهائم . نسالا : اسم لما سقط من الصوف ، وأدمج : دمج دموجاً : دخل فى الشىء واستحكم فيه . شطن : حبل طويل . بديع : البديع من الحبال الذى ابتدئ فتله ولم يكن حبلا فنكث ثم غزل وأعيد فتله .

وعدّ ما سوى هذه الخمسة الأنواع محاسن وأباح أن يسميها من شاء ذلك بديعا ، وخالفه من بعده فى أشياء منها يقع التنبيه عليها والاختيار فيها حيثما وقعت من هذا الكتاب إن شاء الله .

وسنحاول فيما نعرضه عليك الإيجاز على وسع الطاقة ونترك التفصيل باقيا فى مواطنه من هذا الكتاب يقف عليه من أراد ، وتلك هى الألوان .

(١) المجاز (١) :

نبه على كثرته فى كلام العرب ، وعرض لمأخذه من اللغة ، ونقل كلام ابن قتيبة فى الرد على من ذهب إلى أن المجاز كذب ، ثم بين أن المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، ثم بين أن التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز قال « وماعدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به أعنى اسم المجاز بابا بعينه ، وذلك أن يسمى الشىء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب » . ثم ساق أمثلة تشمل المجاز المرسل والعقلى والمجاز بالحذف والاستعارة ثم احتج لدخول التشبيه تحت المجاز بأن المتشابهين فى أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح لاعلى الحقيقة ، وكذلك الكناية ، فى مثل قوله عز وجل أخبارا عن عيسى ومريم عليهما السلام « كانا يأكلان الطعام » كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان .

(٢) الاستعارة (٢) :

بين أنها أفضل أنواع المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها إذا وقعت موقعها ، ثم ألمع إلى خلاف الناس فيها . فمنهم من يستعير للشىء ما ليس منه ولا إليه كقول لبيد :

وغداة ريح قد وزعت وقـــرة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)

---

(١) جـ ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٩ . (٢) جـ ١ — ص ٢٣٩ — ٢٤٧ .

(٣) وزعه ، كفه والرواية الشهيرة « كففت » بدل « وزعت » .

ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه كقول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى      وساق الثريا فى ملاءته الفجــر

وقد أسلفنا هذا البيت بتعليق أبى عمرو بن العلاء عليه فيما تقدم ، ثم مضى يرد على من يفضل ما كان من نوع بيت لبيد ، على ما كان من نوع بيت ذى الرمة مبينا أن ذلك خطأ مخالف للسابقين من جلة العلماء إذ كانوا يستحسنون الاستعارة القريبة ويستهجنون البعيدة ، ونقل عن الجرجانى صاحب « الوساطة » مايؤيد دعواه ، ثم اختار من الاستعارات أوساطها بألا تكون بعيدة جدا ولا قريبة جدا ثم ساق أمثلة تبين الحسن والقبيح فى الاستعارة

(٣) التمثيل (١) :

جعله من ضروب الاستعارة ، ونبه على أن بعضهم سماه « المماثلة » ، ثم عرفه وساق أمثلته ومن بينها ما اختاره أستاذه عبد الكريم ، ثم فرق بين التشبيه ، والتمثيل والاستعارة قال : والتمثيل والاستعارة من التشبيه إلا أنهما بغير آلته وعلى غير أسلوبه ، والمثل المضروب فى الشعر راجع إلى بعض ما ذكرته .

(٤) المثل السائر (٢) :

أشار إلى كثرته فى كلام العرب نظما ونثرا ، وبين أن أفضله أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وحقق المراد من قولهم : « مثل شرود وشارد » ثم ساق له أمثلة من القرآن والحديث والشعر .

(٥) التشبيه (٣) :

عرفه ، ثم بين أن وقوعه على الأعراض لا على الجواهر ، لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد اختلفت أنواعها واتفقت ، ثم مضى يبين أن التشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد كما شرط الرمانى فى كتابه ، وهما عنده فى باب الاختصار ، ثم بين أن الرمانى جعل

---

(١) حص ٢٤٧ – ٢٥٠ .

(٢) جـ ١ ص ٢٣٦ – ٢٣٩ .

(٣) جـ ١ ص ٢٥٠ – ٢٥٦ .

التشبيه على ضربين . حسن ، وقبيح ، فالحسن هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا ، والقبيح ما كان على خلاف ذلك ، وأشار إلى تعليل الرمانى ذلك ، بأن ماتقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لاتقع عليه ، والمشاهد أوضح من الغائب .... الخ .

ثم عرض لما قاله قدامة فى التشبيه وارتضى بعضه ورفض بعضه الآخر ، ثم خلص من ذلك قال « واذا كانت فائدة التشبيه إنما هى تقريب المشبه من السامع وإيضاحه له فسبيله أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه ، وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه » ثم وشح ذلك بالأمثلة ، ثم بين أن أصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شيء بشيء فى بيت واحد إلى أن صنع امرؤ القيس فى صفة عقاب .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا    لدى وكرها العناب والحشف البالى

فشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد ، ثم اتبعه الشعراء فى ذلك حتى لم يصر عجيبا ، ثم جاءوا بتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى بيت واحد ، ثم أربعة بأربعة ثم خمسة بخمسة وهو يسوق الشواهد على كل مايقول ، ثم خلص من ذلك الى أن التشبيه قد يقع بين الضدين والمختلفين كقولك « العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته أو كالخل فى حموضته » ثم نقل عن الرمانى أن هذا الضرب لايقال إلا بتقييد وتفسير ، ووشح ذلك بالأمثلة .

(٦) الإشارة (١) :

بين أنها من غرائب الشعر وملحه وأنها بلاغة عجيبة تدلّ على بعد المرمى وفرط المقدرة وليس يأتى بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر ، وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه ، وساق أمثلة لها من بينها بعض ما ساقه قدامة ، ثم نوّع الإشارة إلى أنواع كثيرة منها .

(ا) التفخيم : كقوله تعالى « القارعة ما القارعة » .

(ب) الإيماء : كقوله « فغشيهم من اليم ماغشيهم » فأومأ إليه وترك التفسير معه .

---

(١) ج ١ ص ٢٥٦ – ٢٧١ .

(ج) التعريض : كقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

فعرض بعمر بن الخطاب ، وقيل بأبى بكر رضى الله عنهما ، وقيل برسول الله صلى الله عليه وسلم .

( د ) التلويح : كقول المجنون قيس بن معاذ العامرى

لقد كنت أعلو حبّ ليلى فلم يزل بى النقض والإبرام حتى علانيا

فلمح بالصحة والكتمان ، ثم بالسقم والاشتهار تلميحا عجيبا .

(هـ) الكناية والتمثيل : كما قال ابن مقبل — وكان جافيا فى الدين — يبكى أهل الجاهلية وهو مسلم فقيل له : مرة فى ذلك فقال :

ومالى لا أبكى الديار وأهلهـــا وقد رادها روّدعك وحميرا(١)

وجاء قطا الأحباب من كل جانب فوقع فى أعطاننا ثم طـــيرا

قال ابن رشيق . فكنى عما أحدثه الإسلام ومثل كما ترى .

(و ) الرمز : كقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :

عقلت لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح أو مع جنح كل أصيل(٢)

يريد أنى لم أعطها عقلا ولا قودا بزوجها الا الهم الذى يدعوها إلى عد الحصى ثم أشار إلى مأخذ الرمز من اللغة قال . وأصل الرمز الكلام الخفى الذى لايكاد يفهم ثم استعمل حتى صار الإشارة .

وقال الفراء . الرمز بالشفتين خاصة .

(ز) اللمحة : كقول أبى نواس يصف يوما مطيرا .

وشمسه حُـــرّة مخـــدرة ليس لها فى سمائها نـــور

فقوله « حرّة » يدل على ما أراد فى باقى البيت . إذ كان من شأن الحرة

(١) علك : هو ابن عدثان بن عبد الله بن الأزد .

(٢) الجنح : بكسر الجيم وقد يضم : الجانب والكنف والناحية ومن الليل الطائفة .

الخفر والحياء ولذلك جعلها مخدرة ، وشأن القيان والمملوكات التبذل والتبرج .

(ح) اللغز : بين أنه من أخفى الإشارات وأبعدها » وعرفه بقوله . هو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن وباطن ممكن غير عجب . كقول ابى المقدام :

وغلام رأيته صار كلبـــا     ثم من بعد ذاك صار غزالا

فقوله « صار » (١) إنما هو بمعنى عطف ، ثم قال . واشتقاق اللغز من ألغز اليربوع ولغز إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة يورى بذلك ويعمى على طالبه .

(ط) اللحن : ويسمى المحاجاة — وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان على غير وجهه ، ثم قال : ويسميه الناس فى وقتنا « المحاجاة » لدلالة الحجا عليه ، وذلك نحو قول الشاعر يحذر قومه :

خلوا على الناقة(٢)الحمراء أرحلكم     والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا

إن الذئاب قد اخضرت براثنهـــا     والناس كلهم بكر إذا شبعـــوا

أراد بالناقة الحمراء . الدهناء ، وبالجمل الأصهب ، الصمان (٣) ، وبالذئاب الأعداء . يقول قد اخضرت أقدامهم من المشى فى الكلأ والخصب ، والناس كلهم إذا شبعوا طلبوا الغزو فصاروا عدوا لكم كما أن بكر بن وائل عدوكم ، وما إلى ذلك .

ثم نقل عن الجاحظ والرمانى أنهما قالا . مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ

---

(١) صار : من معانيها صوت ، وصار الشيء صوراً أماله وهده ، كأصاره فأنصار ، وصور : مال ، وصار وجهه يصوره ويصيره : أقبل به ، وفى اللسان : صاره يصوره ويصيره أى أماله ، وصار وجهه يصور أقبل به ، ثم أنشد. بعد أن ساق الخلاف فى قوله تعالى : « فصرهن إليك » .

وجاءت خلقة دهس صفايــــــــا     يصور عنوقها أحـــــوى زنيم

أى يعطف عنوقها تيس أحوى : اهـ لسان .

(٢) وفى كتاب الفوائد لابن القيم صفحة ١٢٣ . حلوا عن الناقة .

(٣) الصمان : كل أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل .

الصوت ، ونقل عن أبي نواس إشارات لم تجر العادة بمثلها ، ومنها : أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعرا لاقافية فيه ؟ قال : نعم . وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قولى — من بعيد لمن يحبك ... (إشارة قبلة)
فأشارت بمعصم ثم قالت — من بعيد خلاف قولى .. (إشارة لا . لا)
فتنفست ساعة ثم إنى — قلت للبغل عند ذلك . (إشارة : امْشِ)

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه وأعطاه الأمين صلة شريفة .

(ى) الحذف : جعله من أنواع الإشارة ثم مثل له بما أنشده الفراء قال :

قلت لها قومى ، فقالت : قاف . « تريد قد قمت »

(ك) التورية : جعلها من أنواع الإشارة أيضا كقول الشاعر ( وقد ينسب إلى علية بنت المهدى) فى طلّ الخادم :

أيا سرحة البستان طال تشوقى — فهل لى إلى ظل اليك سبيل

فورّت بظل عن طل وقد كانت تجد (١) به فمنعه الرشيد من دخول القصر . ثم قال . وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كناية بشجرة ، أوشاة ، أو بيضة ، أو ناقة ، أو مهرة أوماشاكل ذلك ، ثم ساق لكل أولئك أمثلة ، ثم ذيل هذا الباب الحافل بنقل كلام المبرد فى الكناية وقد أسلفنا الإشارة إليه فى موطنه .

وذلك الباب مظهر من مظاهر تنظيم ابن رشيق لمباحث السابقين وضم الأشباه إلى أشباهها وجعلها تحت لون واحد ، وحديثه فى هذا الباب يدل على أن هذه الألوان جميعا كانت معروفة للسابقين ، ولكنى رأيتها منثورة ليست مجموعة تحت هذا العنوان كما مرّ شيء من هذا النوع .

(٧) التتبيع (٢) :

جعله من أنواع الإشارة أيضا ، وأشار إلى أن قوما يسمونه التجاوز ثم عرّفه . قال . هو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر مايتبعه فى الصفة وينوب عنه فى الدلالة ، ثم ساق أمثلة له كلها ينطبق على ماخصّ عند المتأخرين باسم « الكناية » .

---

(١) وجد به يجد بكسر الجيم وضمها وجدا : هام به .

(٢) ص ٢٨٢ — ٢٨٩ .

( ٨ ) التجنيس(١) :

بين أن التجنيس ضروب كثيرة منها (١) « المماثلة » وهى أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ثم ساق له الأمثلة . ثم ردّ على قدامة بن جعفر فى تسميته بعض أمثلة هذا النوع طباقا مخالفا جميع الناس ، (٢) التجنيس المحقق — وهو ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع ، والجرجانى يسميه المستوفى . (٣) تجنيس المضارعة ، وبين أنه على ضروب كثيرة (ا) منها أن تزيد الحروف وتنقص ، والجرجانى يسميه التجنيس الناقص . (ب) ومنها أن تتقدم الحروف وتتأخر ، وهذا النوع يسميه الرمانى المشاكلة ، وهى عنده ضروب هذا أحدها وهى المشاكلة فى اللفظ خاصة (حـ) ومن المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف ، ثم بين أن شرط التصحيف التناسب فى الخط سواء كان كلمة واحدة أو كلمتين ، وقد أحدث المولدون النوع الأخير ، ثم أشار إلى أن القدماء لم يكونوا يعرفون التجنيس بهذا اللقب ، ودلل على ذلك بمحاورة رؤبة بن العجاج لأبيه . فمما قاله العجاج « وأنا علمتك عطف الرجز . قال . وما هو ؟ قال :

عاصم ياعاصم لو أعتصم .... الخ ثم تراه فى أثناء ذلك كله يسوق الشواهد لجميع الألوان ، ثم يعرض لأقوال العلماء فيقر بعضها وينكر بعضها الآخر فى أسلوب علمى واضح .

ثم يذيل هذا الباب الحافل بالعلاقة بين التجنيس والطباق يقول : وإذا دخل التجنيس نفى عد طباقا . وكذلك الطباق يصير بالنفى تجنيسا ، ولا يكتفى بذلك بل ينبه على أنه سيفرد لهما بابا .

( ٩ ) الترديد(٢) :

وهذا النوع هو الذى سماه أبو هلال « المجاورة » ، وقد بين ابن رشيق فى باب التجنيس أن الترديد نوع من المجانسة ، ثم عرفه هنا بما لايخرج عن تعريف أبى هلال ، ثم أشار إلى أن هذا النوع فى أشعار المحدثين أكثر منه فى أشعار القدماء ، ثم ساق الأمثلة لهذا اللون .

---

(١) جـ ١ ص ٢٨٩ — ٣٠٠ .    (٢) جـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠٣ .

(١٠) التصدير(١) :

أشار إلى أن ابن المعتز وغيره من علماء البديع سموه « رد العجز على الصدر » ثم عرفه بتعريف لا يخرج عن تعريفهم ، وسرد الأقسام الثلاثة التى أتى بها ابن المعتز ، ثم فرق بين التصدير والترديد قال . والتصدير قريب من الترديد . والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافى ترد على الصدور ، فلا تجد تصديرا إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين وإن لم يذكروا فيه فرقا ، والترديد يقع فى أضعاف البيت غالبا – ثم أشار الى اضطراب عبد الكريم فى تسميته نوعا من التصدير بالمضادة ويمثل له بمثال يجعله من المطابقة ، والكتاب يسمون هذا النوع التبديل .

(١١) المطابقة(٢) :

أشار إلى أنها عند جميع الناس ماعدا قدامة . الجمع بين الضدين فى الكلام . ثم أشار إلى خروج قدامة على هذا الإجماع بإطلاقه المطابقة على نوع من الجناس كما تقدم وإطلاقه التكافؤ على المطابقة المعروفة عند الناس ، ثم مضى ينقل عن الخليل والأصمعى حديثهما عن المطابقة ثم عرض لتعريف الرمانى لها ، ثم ساق الأمثلة الكثيرة لهذا اللون .

ثم أشار الى أن الكثير من الناس يغلطون فى هذا الباب ومن ذلك الجمال والقبح كقول بعض المحدثين :

وجهه غاية الجمال ولكن     فعله غاية لكل قبيح

وليس ضده، وإنما ضده الدمامة ، والقبح ضده الحسن، ثم مضى يسوق أمثلة أخرى لذلك .

(١٢) باب ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة (٣) :

عقد ابن رشيق هذا الباب لبيان الفوارق بين الجناس والمطابقة ، وساق لذلك أمثلة كثيرة منها قول البحترى :

يُقَيِّضُ لى من حيث لاأعلم الهوى     ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

(١) جـ ٢ ص ٣ – ٥ .
(٢) جـ ٢ ص ٥ – ١٢ .
(٣) جـ ٢ ص ١٢ – ١٤ .

فهذا مجانس فى ظاهره وهو فى باطنه مطابق . لأن قوله . لا أعلم . كقوله : ( اجهل ) ومنها ما أنشده ثعلب :

أبى حبى سليمى أن يبيـــدا وأمسى حبلها خلقا جديـــدا

ثم قال : الحديد هاهنا المحدود وهو المقطوع ، مثل قتيل وهزيل بمعنى مقتول كأنه قال : مجدودا أى مقطوعا فليس بمطابق وإن كان كذلك فى الظاهر عند من لا يميز .

فأما المميز فيعلم أنه لايكون خلقا جديدا فى حال ، وهكذا يستمر فى سوق الأمثلة التى يختلط فيها التجنيس بالمطابقة ، ويبين الصواب فيها بما لم أره لغيره ممن أسلفنا الحديث عنهم .

(١٣) المقابلة (١) :

عرفها بما اتضح عنده مما لم يسبق إليه . قال « هى مواجهة اللفظ بما يستحقه فى الحكم » ثم بين أنها بين التقسيم والطباق وأنها تتصرف فى أنواع كثيرة ، وأصلها ترتيب الكلام على مايجب فيعطى أول الكلام مايليق به أولا ، وآخره مايليق به آخرا ، ويأتى بالموافق بما يوافقه ، وفى المخالف بما يخالفه » وذلك هو تعريف قدامة للمقابلة ، ثم بين أن أكثر ما تجىء المقابلة فى الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة ، ثم ساق أمثلة منها ماساقه قدامة وأقر بعضها ورفض بعضها الآخر الذى لاينطبق على حد المقابلة من مراعاة التقديم والتأخير . ثم قال : ومن المقابلة ماليس مخالفا ولاموافقا كما شرطوا إلا فى الوزن والازدواج فقط فيسمى حينئذ موازنة نحو قول النابغة .

أخلاق مجد تجلت مالها خطـــر فى البأس والجود بين الحلم والخبر

ثم قال : وقد بينت فى أول هذا الباب أن المقابلة بين التقسيم والطباق فكلما توفر حظها منهما كانت أفضل .

(١٤) التقسيم (٢) :

عرض لخلاف العلماء فى التقسيم ، ثم قال : ومن أنواع التقسيم التقطيع ، وساق ما أنشده : الجرجانى فى الوساطة للنابغة الذبيانى :

---

(١) جـ ٢ ص ١٤ – ٢٠ . (٢) ح ٢ ص ٢٠ – ٣٠ .

ولله عينا من رأى أهل قبة  أضر لمن عادى وأكثر نافعا
وأعظم أحلاما وأكبر سيدا  وأفضل مشفوعا إليه وشافعا

ثم قال : وسماه قوم منهم عبد الكريم « التفصيل » ثم بين أنه إذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعا أو شبيها بالمسجوع فهو الترصيع عند قدامة ، ووشح ذلك بالأمثلة ، ثم نبه على أن المولدين أدخلوا فى هذا الباب أشياء عدوها تقطيعا وتقسيما كقول ديك الجن .

احل وامرر ، وضروانفع ، ولن واخـ  ـش ورش وابر وانتدب للمعالى(١)

ثم أشار إلى غرام أبي الطيب المتنبي بهذا اللون من الكلام حتى انتهى إلى غاية المقت والبغاضة .

(١٥) التسهيم (٢) :

بين أن قدامة سماه التوشيح ، وأن على بن هارون المنجم هو الذى سماه تسهيما ، وأن ابن وكيع سماه « المطمع » ، ثم أشار إلى أنه أنواع ، فمنه مايشبه المقابلة ، وهذا اختيار الحاتمى كقول جنوب أخت عمرو ذى الكلب :

فأقسم ياعمرو لو نبهاك  إذا نبّها منك داء عضالا
إذا نبّهـا ليث عريسة  مفيتا مفيدا نفوسا ومالا

والشاهد فى قولها مفيتا نفوسا ومفيدا مالا ، فقابلت مفيتا بالنفوس ومفيدا بالمال ثم نبّه على أن سر الصنعة فى هذا الباب هو أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته وشاهدا بها دالا عليها ، ثم بين ذلك بأمثلة كثيرة من بينها ما ساقه قدامة للراعى :

وأن وزن الحصى فوزنت قومى  وجدت حصى ضريبتهم(٣) رزينا

فهذا النوع الثانى هو أجود من الأول للطف موقعه ، والنوع الثالث شبيه بالتصدير وهو دون صاحبه إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا وأنشد للعباس بن مرداس :

هم سوّدوا هُجْناً(٤) وكل قبيلة  يُبين عن أحسابها من يسودها

---

(١) انتدب : سارع .  (٢) ح ٢ ص ٣٠ - ٣٣ .
(٣) الضريبة : الطبيعة والسيف وحده ، والرجل المضروب بالسيف .
(٤) الهجين : من أبوه كريم وأمه ليست كذلك .

ثم قال . وأن تأملت قوافى ما هذه سبيله لم تجد له من لطف المواقع ما لقافية الراعى ، وإنما اختير هذا النوع على ماناسب المقابلة والتصدير لأن كل واحد منهما مدلول عليه من جهة اللفظ إما بالترتيب ، وإما باشتراك المجانسة ، والقافية فى بيت الراعى دالة على نفسها بالمعنى وحده فصار استخراجها أعجب وأغرب ، وتمكنها أشد وأوكد .

ثم مضى يبين مأخذ التسهيم ، والمطمع ، والتوشيح من اللغة ، ثم نبه على أن بعض العلماء يسميه التوشيج بالجيم .

(١٦) التفسير (١) :

عرفه ، وأشار إلى صحيحه وسقيمه وساق أمثلة كثيرة ، ولم يخرج عما قاله قدامة .

(١٧) الاستطراد(٢) :

عرفه بقوله . هو أن يرى الشاعر أنه فى وصف شيء وهو إنما يريد غيره . فإن قطع ورجع إلى ماكان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج ، وأكثر الناس يسمى الجميع استطرادا ، والصواب مابيّنْتُه ، ثم أشار إلى قصة البحترى مع أبى تمام التى سقناها فيما سلف مبينين أن هذه التسمية ترجع إلى أبى تمام ، ثم نبه على تساهل الحاتمى فى تسمية الخروج استطرادا . قال : قال الحاتمى : وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح كقول زهير .

إن البخيل ملوم حيث كان ولـ    كن الجواد على علاته هرم(٣)

فسمى الخروج استطرادا كما تراه اتساعا .

ثم بين أن من الاستطراد نوعا يسمى «الإدماج» ثم مثل له بأمثلة من بينها مثال يدل على أن المأمون هو الذى سماه بهذا الاسم .

---

(١) ح ٢ ص ٣٣ – ٣٧ .    (٢) ح ٢ ص ٣٧ – ٤٠ .

(٣) قولهم على علاته أى على كل حال .

(١٨) التفريع (١) :

بين أن منزلة التفريغ من الاستطراد كالتدريج من التقسم، وذلك أن يقصد الشاعر وصفا، ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا كقول الكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفى من الكلب

فوصف شيئا، ثم فرّع شيئا آخر لتشبيه شفاء هذا بشفاء هذا، ثم قال. وحق التفريع أن يكون الآخر من الموصوفين زائدا على الأول درجة فى الحسن إن قصد المدح ، وفى القبح إن قصد الذم ، ثم شفع ذلك بالأمثلة .

(١٩) الالتفات(٢) :

أشار إلى أنه «الاعتراض» عند قوم، وسماه آخرون «الاستدراك»، حكاه قدامة ، ثم نبه على أن ابن المعتز أفرد الاعتراض عن الالتفات بباب ، وسائر الناس يجمع بينهما ، ثم ساق أمثلة تنتظم الاعتراض والالتفات .

ثم بين أن منزلة الالتفات فى وسط البيت كمنزلة الاستطراد فى آخر البيت وإن كان ضده فى التحصيل . لأن الالتفات تأتى به عفوا وانتهازا ولم يكن لك فى خلد فتقطع له كلامك ثم تصله بعد إن شئت ، والاستطراد تقصده فى نفسك وأنت تحيد عنه فى لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره أو تلقيه إلقاء وتعود إلى ما كنت فيه ، ثم أشار إلى التفات الأصمعى الذى حدثتك عنه .

(٢٠) الاستثناء(٣) :

أشار إلى أن ابن المعتز سماه توكيد المدح بما يشبه الذم ، ثم بين أن هذه التسمية مجرد اصطلاح وليس هذا الاستثناء هو ما رتبه النحويون فيطلب بحروف الاستثناء المعروفة ، وإنما سمى اصطلاحا وتقريبا، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ولم يسم حقيقته . ثم قال . ومن أصحاب التأليف من يعد فى هذا الباب ماناسب قول الشاعر —

(١) ح ٢ ص ٤٠ — ٤٢ . (٢) ج ٢ ص ٤٢ — ٤٥ .

(٣) ح ٢ ص ٤٥ — ٤٨ .

فأصبحت مما كان بيني وبينهـــا سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

وليس من هذا الباب عندى . وإنما هو من باب الاحتراس والاحتياط . فلو أدخلنا فى هذا الباب كل ما وقع فيه استثناء لطال ، ولخرجنا فيه عن قصده ، وغرضه ولكل نوع موضع .

(٢١) التتميم(١) :

أشار إلى أنه يسمى «التمام» وإلى أن بعضهم يسمى ضربا منه «احتراسا واحتياطا» ثم قال : ومعنى التتميم . إن يحاول الشاعر معنى فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورده وأتى به . إما مبالغة ، وأما احتياطا واحتراسا من التقصير ، ثم ساق أمثلة منها ماساقه قدامة وغيره .

(٢٢) المبالغة(٢) :

أبان أنها ضروب كثيرة ثم عرض لاختلاف الناس فيها قبولا ورفضا ، ثم خلص من ذلك باختيار مذهب وسط بين المذهبين قال « ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام » . ثم شفع ذلك بأمثلة من الشعر القديم والقرآن الكريم تؤيد مذهبه .

(٢٣) الإيغال(٣) :

بين أنه ضرب من المبالغة غير أنه خاص بالقوافى لايعدوها ، ثم نبه على أن الحاتمى وأصحابه يسمونه «التبليغ» وهو تفعيل من بلوغ الغاية .

ثم فرق بين الإيغال والتتميم قال « وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق إلا أن هذا فى القافية لايعدوها وذلك فى حشو البيت » .

(٢٤) الغلو(٤) :

قال فى باب المبالغة(٥) . فأما الغلو فهو الذى ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف ، ثم أشار هنا إلى أن من أسمائه

(١) ح ٢ ص ٤٨ – ٥١ .
(٢) ج ٢ ص ٥٠ – ٥٤ .
(٣) ح ٢ ص ٥٤ – ٥٧ .
(٤) ح ٢ ص ٥٧ – ٦٢ .
(٥) ح ٢ ص ٥٢ .

الإغراق . والإفراط . ورد على من يقصر فضيلة الشاعر على معرفته بوجوه الإغراق والغلو قال « ولا أرى ذلك إلا محالا لمخالفته الحقيقة وخروجه على الواجب والمتعارف ، وقد قال الحذاق « خير الكلام الحقائق ، فإن لم تكن فما قاربها وناسبها » ثم بين أن الإفراط مذهب عام فى المحدثين ، وقد وجد كثيرا فى كلام الأقدمين . وأن الناس مختلفون فيه فمن مستحسن قابل ، ومستقبح رادّ ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز بالوصف حدها سلم ، ومتى تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط وشعبة من الإغراق ، ثم قال « وأحسن الإغراق مانطق فيه الشاعر أو المتكلم بكاد وما شاكلها نحو كأن ، ولو ، ولولا ، ثم شفع ذلك بالأمثلة ، ثم بين أن الغلو مشتق من المغالاة ، ومن غلوة السهم وهى مدى رميته .. الخ .

(٢٥) التشكيك(١) :

بين أنه من ملح الشعر وطرف الكلام وأن له فى النفس موقعا حسنا بخلاف ما للغلو والإغراق،وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لايفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر ، وشفع ذلك بأمثلة من بينها ماساقه ابن المعتز لتجاهل العارف ، ولم يشر هنا كعادته إلى أن ابن المعتز سماه « تجاهل العارف » ولعله ترك ذلك لشهرته .

(٢٦) الحشو وفضول الكلام(٢) :

نبه على أن قوما سموه «الاتكاء» ثم عرفه قال . «هو أن يكون فى داخل البيت من الشعر لفظ لايفيد معنى وإنما أدخله الشاعر لإقامة الوزن ، فإن كان ذاك فى القافية فهو استدعاء،ولاشك ان الحشو بهذا الوصف معيب مرذول ، وليس من المحسنات البديعية، ولكن بعض الحشو قد يأتى لفائدة فيكون حسنا معدودا فى ألوان البديع ، وإلى ذلك أشار ابن رشيق قال : «وقد يأتى فى حشو البيت ماهو زيادة فى حسنه وتقوية لمعناه كالذى تقدم من التتميم والالتفات والاستثناء وغير ذلك مما ذكرته سالفا » ثم ساق أمثلة تنطبق على التتميم

(١) ح ٢ ص ٦٢ — ٦٥ .  (٢) ح ٢ ص ٦٥ — ٦٩ .

وما إليه مما ذكره ثم وشحها بقوله «فما كان هكذا فهو الجيد، وليس بحشو إلا على المجاز، وإنما يطلق الحشو على ما قدمت ذكره مما لا فائدة فيه» ثم عد مايكثر به حشو الكلام قال «ومما يكثر به الحشو. أضحى، وبات، وظل، وغدا، وقد، ويوما، وأشباهها» ثم نبه على أن أبا تمام كثيرا ما يأتى بها، ثم بين ما يكره للشاعر قال: «ويكره للشاعر استعمال. ذا، وذى، والذى، وهو، وهذا، وهذى» ونبه على أن أبا الطيب المتنبى كان مولعا بهذه المكروهات مكثرا منها فى شعره حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وشفع ذلك بالأمثلة.

ثم نبه على أن بعض العلماء يسمى الحشو المفيد «ارتفادا» ثم أشار الى أن من الحشو نوعا سماه قدامة «التفصيل» بالفاء، وزعم قوم أنه بالعين كأنهم يجعلونه اعوجاجا من قولهم ناب أعصل، وجعله آخرون بالعين والضاد المعجمة كأنه عندهم من تعضل الولد إذا عسر خروجه واعترض فى الرحم، ثم رجح تسميته بالتفصيل. قال — وظاهر البيت الذى أنشده قدامة يدل على أنه التفصيل بالفاء، وهو قول دريد بن الصمة.

وبلغ نميرا — إن عرضت — ابن عامر    وأى أخ فى النائبات وطالب

(٢٧) الاستدعاء(١):

وهو ألا يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية فقط تخلو حينئذ من المعنى كقول عدى القرشي «أنشده قدامة»

ووقيت الحتوف من وارث وا    ل وأبقاك صالحا رب هود

فإنه لم يأت لهود النبي عليه السلام هاهنا معنى إلا كونه قافية» ولا شك فى أن ذلك من المعيب وليس من المحسنات البديعية، بل الحسن فى اجتنابه.

(٢٨) التكرار(٢):

بين أن للتكرار مواضع فيها يحسن وأخرى يقبح، ثم نبه على أن أكثر

---

(١) ح ٢ ص ٦٩ — ٧٠.    (٢) ح ٢ ص ٧٠ — ٧٥.

التكرار فى الألفاظ دون المعانى ، وأنه فى المعانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك هو الخذلان بعينه ، ولا ينبغى للشاعر أن يكرر اسما الا على جهة التشوق والاستعذاب اذا كان فى تغزل أو نسيب أو إرادة التنويه به ان كان فى مدح ، أو على سبيل التقرير والتوبيخ ، ثم ساق أمثلة لكل أولئك من الشعر والقرآن الكريم ، ثم نبه على أن أولى الأبواب بالتكرير هو باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة القرحة التى يجدها المتفجع ، وبين أنه كثير فى الشعر فحيثما التمس فيه وجد .

(٢٩) المذهب الكلامى (١) :

نقل ماقاله ابن المعتز من اسناد تسميته الى الجاحظ ، وأنه لم يعثر فى القرآن الكريم على شاهد له ، وأنه ينسب إلى التكلف ، ثم قال كالمعترض على ابن المعتز « غير أن ابن المعتز قد ختم بهذا الباب أبواب البديع الخمسة التى خصها بهذه التسمية وقدمها على غيرها » . كأنه يستنكر على ابن المعتز هذا التناقض حيث يعده من أبواب البديع ثم ينسبه الى التكلف . وكان فى حل ألا يسلكه فى أبواب البديع ما دام فى نظره منسوبا الى التكلف ، ثم ساق أمثلة لهذا اللون من بينها ماساقه ابن المعتز ثم وشحها بقوله « وهذه الملاحة نفسها والظرف بعينه » . ثم قال . ومن هذا الباب نوع آخر هو أولى بهذه التسمية من كثير مما ذكره المؤلفون نحو قول ابراهيم بن المهدى يعتذر الى المأمون من وثوبه على الخلافة .

البر منك وطاء العذر عندك لى فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم؟(٢)
وقام علمك بى فاحتج عندك لى مقام شاهد عدل غير متهم

والظاهر أن هذا النوع من اهتداء ابن رشيق وحده وأنه لم يسبق إليه — على مبلغ علمى — .

(١) ح ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) الوطاء : ككتاب وسحاب عن الكسائى، خلاف الغطاء .

(٣٠) نفى الشيء بإيجابه(١) :

أشار إلى أن هذا الباب من المبالغة وليس بها مختصا إلا أنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نفيا وظاهره ايجابا ومن ذلك قول زهير .

بأرض خلاء لايسد وصيدها  على ومعروفى بها غير منكر

فأثبت لها فى اللفظ وصيدا ، وانما أراد . ليس لها وصيد فيسد على ، ثم أخذ فى ازجاء أمثلة أخرى والتعليق عليها على هذا النحو .

والظاهر أن هذا اللون من ابتكار ابن رشيق لأنه لم يسنده الى أحد كما جرت بذلك عادته ، ولم أره لغيره ممن سبقه —على مبلغ علمى— .

(٣١) الاطراد(٢) :

نبه على أن من حسن الصنعة أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ ، فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر وقلة كلفته ومبالاته بالشعر نحو قول الأعشى .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد  وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

فأتى كالماء الجارى اطرادا وقلة كلفة وبين النسب حتى خرج عن مواضع اللبس والشبهة . ولم يشر ابن رشيق فى هذا الباب الى نص قديم سوى أنه قال « ولما سمع عبد الملك ابن مروان قول دريد بن الصمة » .

قتلنا بعبد الله خير لداته  ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

قال كالمتعجب . لولا القافية لبلغ به آدم .

والظاهر أن ابن رشيق استند إلى هذا النص واشتق على ضوئه هذا الاسم لهذا اللون .

(٣٢) التضمين والإجازة(٣) :

نبه على أن هذا الباب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم فى بلده بالمعرفة ونسب اليها

---

(١) ح ٢-٧٦- ٧٨ .
(٢) ح ٢ ص ٧٨ — ٨٠ .
(٣) ح ٢ ص ٨٠ — ٨٨ .

مكذوبا عليه فيها ، ثم خلص من ذلك الى بيان معنى التضمين قال « هو قصدك الى البيت من الشعر أوالقسيم فتأتى به فى آخر شعرك أو فى وسطه كالمتمثل ، ثم ساق أمثلة لذلك ، ثم بين أن أجود التضمين أن يصرف الشاعر المضمن وجه البيت المضمن عن معنى قائله الى معناه ، ثم أشار الى أن من الشعراء من يقلب البيت فيضمنه معكوسا ، ثم بين أن من التضمين ما يجمع فيه الشاعر قسمين من وزنين ، وأن منه ما يحيل فيه الشاعر احالة ويشير به اشارة فيأتى به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به وأن هذا أبعد التضمينات كلها وأقلها وجودا ، وأن من التضمين تعليق القافية بأول البيت الذى بعدها . وغير خاف أن هذا من مصطلحات علم العرض والقافية ، وليس من المحسنات البديعية . وقد عرض للتضمين ابن المعتز فى كتاب البديع كما مرّ .

وأما الإجازة — فإنها بناء الشاعر بيتا أو قسيما يزيده على ماقبله ، وربما أجاز بيتا أو قسيما بأبيات كثيرة ، ثم قال « ومن هذا الباب نوع يسمى « التمليط » وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيما وهذا قسيما لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه » ثم ساق أمثلة للنوعين تدل على أن هذين الاسمين معروفان فى القديم ، ولابن رشيق فضل التعريف وجمع الأمثلة .

(٣٣) الاتساع (١) :

بين معناه بقوله . وذلك أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل فيأتى كل واحد بمعنى وانما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى . ثم ساق أمثلة بين بها ماقال .

(٣٤) الاشتراك(٢) :

نوعه إلى نوعين . أولهما ما يكون فى اللفظ ، وثانيهما مايكون فى المعنى ، ثم نوع اللفظى إلى ثلاثة أنواع (ا) أن يكون اللفظان راجعين إلى حد واحد ومأخوذين من حد واحد وذلك الاشتراك محمود وهو التجنيس وقد تقدم . (ب) أن يكون اللفظ يحتمل تأويلين أحدهما يلائم المعنى الذى أنت فيه والآخر لا يلائمه ولا دليل فيه على المراد كقول الفرزدق :

---

(١) ح ٢ ص ٨٨ – ٩٢ .    (٢) ح ٢ ص ٩٢ – ٩٥ .

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

فقوله « حى » يحتمل القبيلة ، ويحتمل الواحد الحى . وهذا الاشتراك مذموم قبيح . ثم قال : والمليح الذى يحفظ لكثير فى قوله يشبب :

لعمرى لقد حَبَّبْتِ كل قصيرة إلى وماتدرى بذاك ، القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد فصار الخطا . شر النساء البحاتر(١)

فأنت ترى فطنته لما أحس بالاشتراك كيف نفاه وأعرب عن معناه الذى نحا إليه .

(ج) النوع الثالث : ليس من هذا فى شىء وهو سائر الألفاظ المبتذلة للتكلم بها لا يسمى تناولها سرقة ولا تداولها اتباعاً لأنها مشتركة بين الناس جميعاً لا أحد أولى بها من الآخر فهى مباحة إلا أن تدخلها استعارة أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى أو تفيد فائدة، فهناك يتميز الناس ويسقط اسم الاشتراك الذى يقوم به العذر ، ولو غيرت اللفظة وأتى بما يقوم مقامها ، ثم ساق الأمثلة التى تكشف عن ذلك .

أما الاشتراك فى المعانى فنوعان : أحدهما . أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما فيتباعد اللفظان ، وذلك هو الجيد المستحسن ، ثم ساق أمثلة لذلك .

والنوع الثانى على ضربين : أحدهما ما يوجد فى الطباع من تشبيه الشجاع بالأسد ونحو ذلك، لأن الناس كلهم فصيحهم وأعجمهم، ناطقهم وأبكمهم فيه سواء ، والآخر ضرب كان مخترعاً ثم كثر حتى استوى الناس فيه وتواطأ عليه الشعراء آخرا عن أول كتشبيه الخد بالورد وما شاكل ذلك . فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعاً ثم تساوى الناس فيه إلاّ أن يولد أحد منهم فيه زيادة ، أو يخصه بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم .

وكان الأخلق بابن رشيق أن يؤخر هذا البحث إلى باب السرقات ، ولعل الذى بعثه على هذا هو عد التجنيس من أنواع الاشتراك، وإذن ليس ذلك

---

(١) الحجال : جمع حجلة وهى كالقبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس .

الباب من أبواب البديع إلا على اعتبار السرقات باباً من أبوابه أو لاحقة من لواحقه .

وقد استشعر ذلك ابن رشيق نفسه ، فقال فى نهاية هذا الباب « وسيرد عليك من قوافى باب السرقات وما ناسبها كثير » .

٣٥ — التغاير (١) :

هو أن يتضاد المذهبان فى المعنى حتى يتقاوما ثم يصحا جميعاً ، وذلك من افتنان الشعراء وتصرفهم وغوص أفكارهم ، ثم ساق أمثلة كثيرة من بينها قول أبى الشيص .

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

وقول أبى الطيب فى عكس هذا : —

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

وهذا عند الجرجانى هو « النظر والملاحظة » ، وهو يعده فى باب السرقات ، قال وأصله من قول أبى نواس . —

إذا غاديتنى بصبوح عذل فممزوجا بتسمية الحبيب

تلك خمسة وثلاثون باباً عقدها ابن رشيق لألوان البديع بين المباحث التى تناولت الشعر من جميع نواحيه ، وهى واضحة لا تحتاج إلى تعليق يرشد إليها ، سوى أنى أنبه هنا على ما سبق التنبيه إليه . وهو أن الباب الأول الذى عقده ابن رشيق للمجاز لم يعتبره من البديع ، إذ جعل الاستعارة أول أبوابه ، كما أنه عقد بابا لما اختلط فيه التجنيس بالتطبيق ، وليس ذلك الباب لوناً على حدة كما هو ظاهر ، وقد رأيت كيف يجعل الأبواب المتقاربة تحت عنوان واحد مخالفاً بذلك صنيع من تقدموه ، وكيف يفرق بين الألوان التى تلتبس على بعض الأذهان ، مما يجعلنى أقول : إن ابن رشيق أمثل رجال هذه المدرسة فى طريقته وحسن تنسيقه ودقة تصويره ، إذ جمع بين الحسنيين . حسنى التدقيق العلمى ، وحسنى اختيار الشواهد وانتقاء المثل ، فكان القسم

---

(٢) ح ٢ ص ٩٥ — ٩٩ .

الخاص بالبديع فى العمدة أقرب مورد ورده المتأخرون فنهلوا منه وعلوا ، وإن كانوا لم يحسنوا استخدام هذا التراث الحافل ، فراحوا يكثرون من الألوان ويسردونها سرد المفردات اللغوية حتى منى البديع بما منى به على أيديهم ، ذلك ما سنكشف عنه فى حينه إن شاء الله تعالى .

هذا وقد كانت نظرة من أسلفنا الحديث عنهم للبديع نظرة أدنى إلى الروح الأدبى الممزوج بالروح العلمى المعتدل المتزن الذى لم يبلغ من الإسراف حداً يصير به إلى التفرقة بين الحسن اللفظى والمعنوى الذى تسرب إلى رءوس العلماء فى القرن الخامس، وظهر أثره واضحاً جلياً فى التأليف العلمى ، ذلك ما ستراه فى سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

## ٥ — البديع فى سر الفصاحة

وقد عاصر ابن رشيق الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد(١) بن سعيد ابن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ ه إلا أن ذاك فى المغرب وهذا فى المشرق ، ولم يشر أحدهما إلى الآخر فى مؤلفه أية إشارة يستدل منها على تلاقيهما ، لذلك تجد تبايناً بين الرجلين فى الطريقة والعرض يتجلى لك حينما نعرض لألوان البديع التى عرض لها ابن سنان فى سر الفصاحة .

وقد تتلمذ ابن سنان على أبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ ه وكثيراً ما ينقل من شعره ويدعوه شيخه ، كما استعان فى كتابه سر الفصاحة الذى نحن بصدده الآن ، بمؤلفات كثيرة أبرزها كتاب « نقد الشعر لقدامة » وكتاب « الموازنة » للآمدى ، وكتاب « الوساطة » للجرجانى ، وكتاب « الجامع فى علم القرآن » للرمانى، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ وما إلى ذلك مما تراه واضحاً فى أثناء كتابه ، وكثيراً ما يصرح بأسماء هذه المؤلفات حينما ينقل عنها .

وقد امتاز ابن سنان بحرية الرأى ، والاعتداد بالنفس ، والجنوح عن التقليد حتى فى أيسر المسائل وأهونها شأناً ، إذ كثيراً ما ينقد كلام غيره ، ويختار غير اختياره معتمداً فى ذلك على فكره وعقله ، وقد أعلن ذلك فى غير موطن من كتابه .

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات جـ ١ — ٢٣٣ .

اقرأ قوله(١) بعد أن نقل كلام الآمدى فى بيت امرئ القيس : —

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

من أن هذه الاستعارة فى غاية الحسن والصحة .... ألخ .. « وهذا الذى قاله أبو القاسم لا أرضى به غاية الرضا . ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة ، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عما يقوله أبو القاسم لصحة فكره وسلامة نظره وصفاء مذهبه وسعة علمه ، ولكننى أغلب الحق عليه ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه ، وبيت امرئ القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها بل هو من الوسط بينهما ... وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزاً استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده وذكر الكلاكل من أجل نهوضه فكل هذا إنما يحسن بعضه من أجل بعض فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز والوسط ، والتمطى لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك . وهذه الاستعارة المبنية على غيرها ، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف » .

فهذه صورة من صور كثيرة تدلنا على مبلغ استقلاله فى الرأى ورغبته عن التقليد، فقد رأيت كيف ينفى عن نفسه التقليد، وكيف يخلص من مخالفته هذه إلى النزول بالاستعارة عن الحد الأعلى إلى الحد الأوسط ، ويعلل ذلك بأنه من باب الاستعارات المبنية على غيرها ، وهذه عنده كما سيجىء ليست من جيد الاستعارات ولا رديئها بل من أوساطها وسيأتى مناقشة ابن الأثير لهذا الرأى وموقفنا منه فى حينه بمشيئة الله تعالى .

وليست حرية ابن سنان هى كل ما امتاز به بل قد سبق إلى مباحث قدمها بين يدى غرضه ونبه على سبقه فيها بقوله (٢) « شرحت من حال اللفظ بانفرادها وما يحسن فيها ويقبح ما اعتمدت فى تلخيصه وإيضاحه على أننى لم أرجع فيه إلى كتاب مؤلف ولاقول يروى ، ولاوجدت ما ذكرته مجموعاً فى مكان ، وإنما عرفته بالدربه وتأمل أشعار الناس ومانبه أهل العلم فى اثباتها » .

---

(١) ص ١١٤ .

(٢) ص ٨٥ .

وذلك يدل على مبلغ سبقه وإن كان ابن الأثير سيلومه على هذه المباحث التي وضعها فى هذا الموضع من علم الفصاحة وليس هذا مكانها .

وقد كان ابن سنان ممن يدينون بالصرفة(١) . وقد أفصح عن ذلك بقوله(٢) «وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك » وقوله(٣) « الصحيح أن وجه الإعجاز فى القرآن هو صرف العرب عن معارضته وأن فصاحته قد كانت فى مقدورهم لولا الصرف ، وهذا هو المذهب الذى يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وقد سطر عليه من الأدلة ماليس هذا موضع ذكره » ولسنا بحاجة إلى أن نقول لابن سنان إن بطلان هذا المذهب ظاهر ، وقد سطر على بطلانه من الأدلة ما يكفى واحد منها لهدمه. لأن هذا يخرجنا عن الغرض المروم من هذا البحث ، وهو موجود فى مواطنه لا يفوت من يطلبه .

ولهذا الكتاب منزلة لا تنكر ، ومكانة لا تجحد ، وعلى رغم تعقب ابن الأثير له فى مسائل كثيرة قد شهد له وجعله ثانى اثنين ارتضاهما من كتب البيان التى ألفت من قبله على كثرتها . اقرأ قوله فى صدر كتابه المثل السائر « وبعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وحطباً ، ومامن تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها » .

---

(١) ولابن سنان كتاب ألفه فى الصرفة . معجم ياقوت جـ ٣ – ١٣٩ .

(٢) ص ٩٢ . (٣) ص ٢١٤ .

## الباعث على تأليف سر الفصاحة :

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب والغرض منه وفائدته فقد كفانا مؤونة ذلك كله ابن سنان فى مقدمة كتابه قال «أما بعد . فإنى لما رأيت الناس مختلفين فى مائية(١) الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابى هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها ، وقربت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل ، ولم أمل بالاختصار إلى الاخلال ، ولامع الإسهاب إلى الإملال .

ثم قال : اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها ، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع الرغبة فيه ، فنقول : أما العلوم الأدبية ، فالأمر فى تأثير هذا العلم فيها واضح لأن الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة بل هو مقصور على المعرفة بها فلا غنى للمنتحل الأدب عما نوضحه ونشرحه فى هذا الباب ، وأما العلوم الشرعية ، فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم هو القرآن . والخلا ف الظاهر فيما كان به معجزاً على قولين أحدهما : أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية ، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التى وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر ، والقول الثانى : أن وجه الإعجاز فى القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت فى مقدورهم لولا الصرف ، وأمر القائل بهذا يجرى مجرى الأول فى الحاجة إلى تحقق الفصاحة ما هى . ليقطع على أنها كانت فى مقدورهم من جنس فصاحتهم ، ونعلم أن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذى أورده خال من الفصاحة التى وقع التحدى بها فى الأسلوب المخصوص ، وإذا ثبت بما ذكرناه الغرض بهذا الكتاب وفائدته فالدواعى إلى معرفة ذلك قوية والحاجة ماسة شديدة .

---

(١) مائية الشيء حقيقته نسبة إلى « ما » الاستفهامية التى يطلب بها بيان الشيء والأكثر فى الاستعمال . ماهية بقلب الهمزة هاء ( هامش ) .

محتويات الكتاب :

قدم ابن سنان بين يدى غرضه عدة فصول (١) فى الأصوات . (٢) فى الحروف . (٣) فى الكلام . (٤) فى اللغة وهل هى تواضع أو توقيف ؟ وقد أفاض فى بيان ذلك إفاضة جعلته هدفاً لنقد ابن الأثير كما أسلفنا .

ثم مضى يتحدث عن الفصاحة . فعرض لمأخذها من اللغة . ثم فرق بينها وبين البلاغة بأن الأولى مقصورة على وصف الألفاظ ، والثانية لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعانى، ثم خلص من ذلك إلى القول بأن كل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً ، ثم ساق أقوال القدامى فى البلاغة على غرار ما ساقه الجاحظ فى البيان والتبيين ، وبين أنها رسوم وعلائم وليست بالحدود الصحيحة .

ثم قال « وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها فكلامى على المقصود وهو الفصاحة غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ماقدمت ذكره »

ثم مضى يتحدث عن مقصوده قال(١) . « ونبتدئ الآن بالكلام فيما أجرينا القول إليه ونقول : إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الأطراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين . فالأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شىء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

أما الأول فثمانية أشياء :

(١) أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج .
(٢) أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية على غيرها .
(٣) أن تكون الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعرة وحشية .
(٤) أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية كما قال أبو عثمان أيضاً .

(١) ص ٦٠ .

(٥) أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة ويدخل فى هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة

(٦) ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها الصفات التى بيناها .

(٧) أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة .

(٨) أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شىء لطيف أوخفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك فإنى أراها تحسن به ويجب ذكره فى الأقسام المفصلة »

تلك هى شروط فصاحة المفرد يسوقها ابن سنان ويوضحها بالأمثلة الكثيرة المشفوعة بتعليقه العلمى الدقيق ، ولانبعد إذا قلنا إن ابن سنان أول من فصل بين شروط فصاحة اللفظة المفردة والألفاظ المنظومة المركبة على هذا الوجه المرتب المنظم حتى كان صنيعه أقرب الموارد للمتأخرين وأقوى الدعائم التى بنوا عليها مقدمة علوم البلاغة التى تراها واضحة كل الوضوح منبئة عن صدق ما نقول فى كتابى : المفتاح ، والتلخيص . وإن كان شىء من ذلك لم يرق ابن الأثير فانبرى للرد عليه فى غير موطن من كتابه المثل السائر كما سيأتى فى موطنه من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

أما القسم الثانى : وهو ما ينبغى أن يتوافر فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض فقد عرض له ابن سنان قال :(١) « إن أحد الأصول فى حسنه وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فيه ، ثم مضى يشرح ذلك شرحاً وافياً مدعوماً بالشواهد الكثيرة .

البديع فى سر الفصاحة :

والذى يعنينى من هذا الكتاب لتحقيق الغرض المروم هو ما عرض له ابن سنان من ألوان البديع ، وقبل الخوض فى ذلك الغرض يجدر بى أن أنبه على شىء لابد من التنبيه عليه ، ذلك أن المستوعب لهذا الكتاب يحس فى

(١) ص ١٠٣ .

طريقته ويلمح فى نهجه تأثره البعيد المدى بطريقة قدامة ونهجه فى نقد الشعر ، إذ تراه يوزع بحوثه بين أوصاف من نعوت الألفاظ ، وأوصاف من نعوت المعانى ، وأوصاف من نعوتهما معاً ، كما ترى ذلك فيما سيمر بك مما سنعرض له من هذه الأصباغ البديعية ، بل كثيراً ما ينقل من نقد الشعر عبارات متوالية بأعيانها ، ولا تراه يخالفه إلا فى تسمية بعض الألوان كما صنع من تقدموه ، أو فى توجيه بعض الشواهد حسبما يتراءى له من حسن أوقبح ، وابن سنان بهذا الصنيع قد أكمل البناء الذى أسسه قدامة فى نقد الشعر من تنويع الأصباغ البديعية إلى لفظية ومعنوية فكان ثانى اثنين مهدا الطريق للمتأخرين فى تقسيمها هذا التقسيم ، وإن كانت نظرة ابن سنان أسد وطريقته أعدل ، إذ جعل ذلك من شرائط الفصاحة والبلاغة ، وسلك فى شرحها الطريق الذى سلكه رجال هذه المدرسة من جعلها ذاتية وليست بالعرضية كما سنرى فى الفصل الثانى .

وإذن ما ألوان البديع التى طرقها ابن سنان وما الجديد فيها ؟

وللإجابة عن ذلك نقول : —

قد عرض ابن سنان لألوان البديع التى عرفت قبله على هذا الوجه .

(١) حسن الاستعارة(١) :

جعل الاستعارة من وضع الألفاظ موضعها ، ثم نقل تعريف الرمانى لها ، ثم بين أن الحقيقة أصل والاستعارة فرع عنها ، ثم عرض للفرق بينها وبين التشبيه ، ثم نوع الاستعارة إلى نوعين : قريب مختار ، وبعيد مطّرح . فالقريب المختار . ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطرح . إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، ثم قال : والقسمان مما يشملهما وصفى بالبعد لكن هذا التفصيل يوضح ، وبين الطرفين وسائط تتنزل بحسب نسبتها إلى الطرفين ، ثم ساق أمثلة تكشف عن وجوه الحسن فى الاستعارة وجلها من الشعر دون النثر مع أن كلامه عليهما واحد لكثرة المنظوم واشتهاره وسهولة حفظه كما يقول (٢) ، ثم عقب ذلك بسوق أمثلة تكشف عن رديئها المسترذل

(١) ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) ص ٧٢ .

على نهج ما صنعه ابن المعتز ، وقدامة ، وأبو هلال ، وابن رشيق ، وقد رسم لنفسه خطة التوسط ومجانبة التقليد ، وقد أسلفنا شيئاً من ذلك ، ونضيف إليه قوله هنا: (١)« إننا لم نذكر هذه الأبيات الذميمة وغرضنا الطعن على ناظمها ، وإنما قادتنا الحاجة فى التمثيل إلى ذكر الجيد والردىء والفاسد والصحيح على ما ذكرناه سالفاً ، ومعاذ الله أن يخرجنا بغض التقليد ، وحب النظر ، من الطرف المذموم فى الاتباع والانقياد إلى الجانب الآخر فى التسرع إلى نقص الفضلاء والتشييد لما لعله اشتبه على بعض العلماء والرغبة فى الخلاف لهم وإيثار الطعن عليهم، بل نتوسط إن شاء الله بين هاتين المنزلتين فننظر فى أقوالهم ، ونتأمل المأثور عنهم ونسلط عليه صافى الذهن ، ونرهف له ماضى الفكر ، فما وجدناه موافقا للبرهان وسليما على السير اعترفنا بفضيلة السبق فيه ، وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله ، وماخالف ذلك وباينه اجتهدنا فى تأويله وإقامة المعاذير فيه ، وحملناه على أحسن وجوهه ، وأجمل سبله إيجاباً لحقهم الذى لا ينكر ، وإذعاناً لفضلهم الذى لا يجحد ، وعلماً أنهم لم يؤتوا من ضلالة ولا كلال ذهن وفطنة ... » . وقد حقق هذه الخطة ابن سنان فى كل ما عرض له من مباحث وألوان .

الحقيقة — ثم عرض للحقيقة قال: (٢) « فأما الحقيقة فلا نحتاج فيها إلى مثال لأن أكثر الكلام على ذلك » .

(٢) الحشو (٣) :

بين أن من وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشواً ، ثم عرض لتحديده وتنويعه إلى مفيد وغير مفيد ، ووشح ذلك بالأمثلة ، ثم عرض للإيغال(٤) فى أثنائه وجعله من الحشو المفيد .

(٣) التوشيح أو التسهيم : عرض له فى أثناء تفسير المعاظلة ومثل له .

(٤) حسن الكناية(٥) :

جعلها من وضع الألفاظ موضعها . قال: « ومن هذا الجنس حسن الكناية

---

(١) ص ١٣٦ .
(٢) ص ١٣٧ .
(٣) ص ١٣٨ وما بعدها .
(٤) ص ١٤٩ .
(٥) ص ١٥٦ .

عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، وذلك أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة » ثم وشح ذلك بالأمثلة المشفوعة بتعليقه وشرحه . ثم عرض لها فى صفحة ٢١٨ وجعلها من نعوت البلاغة والفصاحة . ثم قال :(١)« ومن شروط الفصاحة المناسبة بين الألفاظ وهى على ضربين : —

(١) مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة . (٢) ومناسبة بينهما من طريق المعنى .

فأما المناسبة من طريق المعنى فسنذكرها فى المعانى إذا وصلنا إليها من هذا الكتاب بعون الله ومشيئته .

ثم مضى يشرح المناسبة بين الألفاظ فى الصيغة ، نذكر منها ما يتعلق بالبديع .

(٥) السجع والازدواج(٢) :

جعلهما من التناسب بين الألفاظ فى الصيغ ، ثم عرض لتحديد السجع وحكمه من حيث الإباحة والحظر وقد ألمعنا إلى رأيه فى الباب الأول فلاحاجة بنا إلى إعادته .

(٦) الترصيع(٣) :

جعله من التناسب بين الألفاظ وعرفه بما لم يخرج عما سلف لقدامة ، وساق له الأمثلة .

(٧) الجناس(٤) :

جعله من التناسب بين الألفاظ ثم عرفه بقوله : « هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض إن كان معناهما واحداً ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى » فجعله كما ترى شاملا للمشتق وغيره على خلاف ما ذهب إليه أبو هلال ، ثم بين أنه إنما يحسن إذا

---

(١) ص ١٦٢ .
(٢) ص ١٦٣ وما بعدها .
(٣) ص ١٨١ .
(٤) ص ١٨٣ .

كان قليلا غير متكلف ولا مقصود فى نفسه ووشح ذلك بأمثلة من الشعر القديم والمحدث ومن القرآن الكريم .

ثم قال :(١) « وبعض البغداديين يسمى تساوى اللفظتين فى الصيغة مع اختلاف المعنى « المماثل » وفى أثناء ذلك كله يعرض لما قاله قدامة والآمدى موافقاً أو مخالفاً ثم أسند إلى شيخه أبى العلاء تسمية نوع من الجناس ورد فى شعره بجناس التركيب قال :(٢) « ومن المجانس فن ورد فى شعر أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان وسماه لنا مجانس التركيب لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان كقوله . —

مطايا مطايا وجد كن منـــــازل منا زلّ عنها ليس عنى بمقلع(٣)

ثم قال : وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئاً من قبيله ، وهو عندى غير حسن ولا مختار ولا داخل فى وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة . ثم قال : فأما مجانس التصحيف فقد ورد فى شعر أبى عبادة كقوله : —

ولم يكـــن المغـــتر إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبــــه

فهذه الثلاثة الألوان . السجع ، والترصيع ، والجناس ، قد جعلها ابن سنان من شروط الفصاحة للمناسبة بين الألفاظ فى الصيغ ، وهى من أبرز المحسنات اللفظية عند المتأخرين فهذا هو منبعها بعد قدامة ، وإن اختلف النظر وتباين الحكم بين ابن سنان والمتأخرين .

أما المناسبة بين الألفاظ : من طريق المعنى فقد عرض لها على هذا الوجه قال(٤) :

---

(١) ص ١٨٥ . (٢) ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) مطا فعل ماض يمطو مطوا أى مد ، ويا حرف نداء ، ومطايا : جمع مطية ، والمنى : القدر ، وزل عنها : أخطأها .

والمعنى : استدعى وجد هذه المطايا منازل الأحباب ، وقد زل عنها المنا أى لم يصب الحدثان المنازل ، يعنى وصلت المطايا إلى هذه المنازل وهى معمورة لم يعف رسمها كأن الحوادث زلت عنها وأخطأتها فلم تغيرها ، ثم قال ولكن المنا الذى زل عن المنازل فلم يعفها ليس بمقلع عنى أى ليس يكف عنى أى أن الحوادث لا تزال تصيبنى حتى لا تبقى فى بقية .

(٤) ص ١٨٨ وما بعدها .

فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى ، فإنها تتناسب على وجهين : أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقارباً ، والثانى أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريباً من التضاد فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمناسبة . وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتضاد من معانى الألفاظ :

(٨) المطابق :

وسماه قدامة بن جعفر الكاتب المتكافئ ، وأنكر ذلك عليه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وتوارد معه على هذا الإنكار أبو الحسن على بن سليمان الأخفش .

وسمى أصحاب صناعة الشعر ما كان قريباً من التضاد « المخالف » ثم ساق للمخالف أمثلة (١) تنطبق على ما عرف عند المتأخرين باسم التدبيج .

ثم حكى عن بعضهم تنويع التضاد إلى الطباق والمقابلة والسلب والإيجاب ، واختار إطلاق اسم « الطباق » على كل أولئك ، ثم أشار إلى أن الطباق يجرى مجرى الجناس فى أنه لا يستحسن منه إلا ماقل ووقع غير مقصود ولا متكلف ، ثم وشح ذلك بأمثلة تكشف عن جهتى الحسن والقبح وشفعها بشرحه .

(٩) التبديل :

وفى أثناء حديثه عن الطباق تراه يعرض لما سماه قدامة بالتبديل ويجعله جارياً مجرى الطباق ، ثم يسوق له الأمثلة .

(١٠) الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام(٢) .

جعلها من شروط الفصاحة والبلاغة ، وبين مواطنها التى تحسن فيها ، ثم(٣) نقل عن العلماء أنهم قسموا دلالة الألفاظ على المعانى إلى ثلاثة أقسام (ا) أولها المساواة وهو أن يكون المعنى مساوياً للفظ . (ب) ثانيها التذييل وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلا عنه (حـ) ثالثها الإشارة . وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ. وساق لكل أولئك أمثلة ذيلها بشرحه ، وقد جعل كما رأيت التذييل مرادفاً للإطناب والإسهاب بدليل مقابلته بالقسمين

---

(١) ص ١٩٢ .
(٢) ص ١٩٤ .
(٣) ص ١٩٦ .

الآخرين ، وقد خالف فى ذلك نهج المتقدمين الذين جعلوا الإطناب أعم من التذييل وجعلوا التذييل نوعاً من أنواعه .

١١ — التمثيل(١) :

جعله من نعوت الفصاحة والبلاغة ، وساق أمثلة له من المنظوم والمنثور .

ثم قال :(٢) « فهذا منتهى ما نقوله فى الألفاظ بانفرادها واشتراكها مع المعانى ومن وقف عليه عرف حقيقة الفصاحة ومائيتها وعلم أسرارها وعللها » .

فأما الكلام على المعانى بانفرادها فقد قدمنا القول بأن البلاغة عبارة عن حسن الألفاظ والمعانى وأن كل كلام بليغ لابد من أن يكون فصيحاً ، وليس كل فصيح بليغاً . إذ كانت البلاغة تشتمل على الفصاحة وزيادة لتعلق البلاغة مع الألفاظ بالمعانى ، ثم مضى يذكر ما يتعلق بالمعانى مفردة من الألفاظ . وبين أن حصر المعانى بقوانين تستوعب أقسامها على نحو ما صنع بالألفاظ أمر عسير متعب لا يليق بهذا الكتاب ، ولكن نحتاج إلى أن نومئ إلى المعانى التى تستعمل فى صناعة تأليف الكلام المنظوم والمنثور ، ونبين كيف يقع الصحيح فيها والفاسد والتام والناقص ، على أن من كان سليم الفكر صحيح التصور لم يخف عنه شىء مما تستر النفوس وإن كان يخفى عنه كثير مما ذكرناه من الكلام والألفاظ لأن فى الألفاظ مواضعة واصطلاحاً يختلف الناس فى المعرفة بهما بحسب اختلافهم فى معرفة اللغة وفهم الاصطلاح والمواضعة ، والمعانى ليس فيها شىء من ذلك وإنما معيارها العقل ، والعلم ، وصفاء الذهن فى الوجود ، وهى أربعة مواضع .

الأول — وجودها فى أنفسها ، والثانى وجودها فى أفهام المتصورين لها ، والثالث وجودها فى الألفاظ التى تدل عليها ، والرابع وجودها فى الخط الذى هو أشكال تلك الألفاظ المعبر بها عنه ، ثم قال وإذا كان هذا مفهوماً فإنا فى هذا الموضع إنما نتكلم على المعانى من حيث كانت موجودة فى الألفاظ التى تدل عليها دون الأقسام الثلاثة المذكورة ، ثم ليس نتكلم عليها

---

(١) ص ٢٢١ .    (٢) ص ٢٢٢ .

من حيث وجدت فى جميع الألفاظ بل من حيث توجد فى الألفاظ المؤلفة المنظومة على طريقة الشعر والرسائل وما يجرى مجراهما فقط . إذ كان ذلك هو مقصودنا فى هذا الكتاب ، ثم قال : وإذ بان ذلك فإن الأوصاف التى تطلب من هذه المعانى هى : —

الصحة ، والكمال ، والمبالغة ، والتحرز مما يوجب الطعن ، والاستدلال بالتمثيل والتعليل وغيرهما ، وسنذكر من أمثلة ذلك ما يعرب عن قصدنا ويوضح مرادنا ثم مضى فى بيان ذلك قال :

(١٢) الصحة فى التقسيم(١) :

أن تكون الأقسام المذكورة لم يخل بشىء منها ولا تكررت ولا دخل بعضها تحت بعض ، ثم ساق أمثلة من النظم والنثر تمثل الصحة والفساد مشفوعة بتوجيهاته ، ثم عد من الصحة تجنب الاستحالة والتناقض متأثراً بقدامة فى نقد الشعر ، وإن كان لم يرتض بعض توجيهاته ، ثم عد من الصحة أيضاً ألا يضع الجائز موضع الممتنع إلا على ضرب من الغلو والمبالغة .

(١٣) صحة التشبيه(٢) :

حدّه وساق له أمثلة .

(١٤) صحة المقابلة فى المعانى(٣) :

جرى فيها مجرى قدامة فى التعريف وإزجاء أمثلة تمثل الحسن والقبح .

(١٥) صحة التناسق والنظم(٤) : « حسن التخلص »

بين معناه بقوله: «هو أن يستمر فى المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه ، ثم بين أن المحدثين اعتنوا بالتخلص فأجادوه ، بخلاف القدماء فإنهم لم يحفلوا به » ثم وشح ذلك بالأمثلة .

---

(١) صفحة ٢٢٤ .
(٢) ص ٢٣٥ .
(٣) ص ٢٥١ .
(٤) ص ٢٥٣ .

(١٦) صحة التفسير (١) :

عرفه بتعريف قدامة ، وساق له أمثلة من بينها أمثلة من قدامة .

(١٧) كمال المعنى (٢) : « التتميم »

عرفه بتعريف قدامة للتتميم ، وساق بعض أمثلته والتعليق عليها .

(١٨) المبالغة فى المعنى والغلو (٣) :

سلك مسلك قدامة من جعل المبالغة والغلو لفظين مترادفين على معنى واحد ، ولم يفرق بينهما كما صنع أبو هلال وابن رشيق ، ثم عرض لاختلاف الناس فى المبالغة والغلو ، فمنهم من يحمدها ، ومنهم من يذمها ، ثم مال إلى الرأى الأول ، ولكنه يرى أن يستعمل فى ذلك كاد وما جرى فى معناها ليكون الكلام أقرب إلى الصحة ، ثم ساق أمثلة من بينها تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(١٩) التحرز مما يوجب الطعن (٤) : « الاحتراس والتكميل »

عرفه بقوله : هو أن يأتى بكلام لو استمر عليه لكان فيه طعن فيأتى بما يتحرز به من ذلك الطعن ، وساق له أمثلة من بينها قول طرفة :

فسقى ديارك — غير مفسدها — صوب الربيع وديمة تهمى

ثم ساق تعليق قدامة عليه مع مغايرة طفيفة ، وهذا البيت من أمثلة التتميم عند قدامة ، ثم اقتبس من قدامة بعض الأمثلة التى تمثل العيب والقبح .

(٢٠) الاستدلال بالتمثيل (٥) :

عرّفه بقوله : هو أن يزيد فى الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له نحو قول أبى العلاء : —

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط فى الخصر

فدل على أن الزيادة فيما يطلب ربما كانت سبباً للامتناع منه بتمثيل ذلك

(١) ص ٢٥٤
(٢) ص ٢٥٥
(٣) ص ٢٥٦
(٤) ص ٢٥٨ .
(٥) ص ٢٥٩ .

بالماء الذى لا يشرب لفرط برده وإن كان البرد فيه مطلوباً محموداً ، وساق أمثلة أخرى من بينها مثال للنابغة ساقه صاحب التخليص مثالا للمذهب الكلامى .

(٢١) الاستدلال بالتعليل(١) :

مثل له بامثلة منها قول أبى الحسن التهامى : —

لو لم يكن ريقتـــه خمـــرة لما تثنى عطفه وهو صـــاح

ومنها قول الله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فتراه يخلط بين ماعرف فيما بعد باسم حسن التعليل، وماعرف من قبل باسم المذهب الكلامى.

ومن هنا نستطيع أن نحكم بأن ابن سنان الخفاجى أول من عرض لحسن التعليل من المؤلفين فى البديع بعد أبى هلال، ثم تلاهما عبد القاهر الجرجانى فسماه التخييل ، ونوعه إلى أنواعه المعروفة التى نقلها عنه صاحب التلخيص .

تلك هى الألوان البديعية التى عرض لها ابن سنان فى كتابه موزعة بين اللفظ والمعنى على الوجه الذى رأيته مع الإحكام والإتقان والاستقلال فيما يتذوق وينقد ، وإن كان غير مستقل فيما أتى به من ألوان البديع سوى الاستدلال بالتعليل ، فإنى لا أعلم أحداً تحدث عنه من قبله سوى أبى هلال حيث أدرجه تحت الاستشهاد والاحتجاج . وقد رفض ابن سنان بعض الألوان التى اعتاد علماء النقد ذكرها فى كتبهم، وبين أن التأليف فيها ليس من دأب العقلاء فى نقد الكلام والكشف عن مناحى حسنه أو قبحه ، اقرأ قوله(٢) فى أثناء فصل عقده لذكر الأقوال الفاسدة فى نقد الكلام ختم به كتابه قال: «وذهب قوم إلى «حسن الترديد» وهو أن يعلق الشاعر لفظة فى البيت بمعنى ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر كما قال زهير :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

وهذا عندى لا تعلق له بالنقد لأن التأليف فى هذا الترديد كسائر التأليف فى الألفاظ التى لا يستحق بها حمدا ولاذما ، ولايكسبها حسنا ولاقبحا، وقد صنف قوم فى نقد الشعر رسائل ذكروا فيها أبوابا من الصناعة لا تخرج عما

(١) ص ٢٦١ . (٢) ص ٢٦٩ .

ذكرناه فى كتابنا هذا ، إلا أنهم ربما جعلوا للمعنى الواحد عدة أسماء ، كالترصيع الذى يسمونه ترصيعا وموازنة وتسميطا وتسجيعا ، وهو كله يرجع إلى شيء واحد . وإذا وقف على ماصنفوه فى هذا الباب وجدالأمر فيما قلنا ظاهراً والتكرير بينا » .

هذه صورة مصغرة عن كتاب سر الفصاحة الذى فرغ صاحبه من تأليفه سنة ٤٥٤ كما يقول فى آخره ، تحس منها أبرز مميزات هذا الكتاب ، من حسن تنسيق وتبويب ، وإحكام بين مسائله جعلها متماسكة تماسكا قويا مترتبا بعضها على بعض آخر مما ينبئ عن مبلغ ما بذله ابن سنان من مجهود شاق وتعب مضن أثمر أحسن الثمر ، وأعقب أحمد النتائج ، وكان من أقوى الدعائم التى ارتكز عليها المتأثرون فى التفرقة بين اللفظى والمعنوى من ألوان البديع ، وإن كان البون شاسعا والفرق عظيما بين النظرتين ، فعلى رغم شيوع نظرية اللفظ والمعنى فى عصر ابن سنان وخضوعه لهذه النظرية التى ظهر أثرها فى صنيعه حيث فرق بين الفصاحة والبلاغة وجعل الأولى مقصورة على اللفظ والثانية عليه وعلى المعنى ، وتقسيمه الفصاحة إلى قسمين . فصاحة المفرد ، وفصاحة المركب وما إلى ذلك مما أسلفناه ، فقد كان حينما يتحدث عن فصاحة الألفاظ لاينسى ما للمعنى من أثر بالغ فى أصل الفصاحة ، وقد أسلفنا شيئا من ذلك فى الجناس وقد قال فى السجع (١) : « والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسراً بلاكلفة ولامشقة وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه » والسجع عنده معدود فى المناسبة بين الألفاظ من طريق الصيغة كالجناس ، ولابد فيه عنده من مناصرة المعنى ومؤازرته حتى يتم الحسن للكلام ، ولئن فرق ابن سنان بين مباحث اللفظ ومباحث المعنى تقليداً لقدامة — وإن جاهر ببغض التقليد — وخضوعا لطوابع عصره ، لقد اتسم بطابع هذه المدرسة من نمو الذوق الأدبى، والنزوع بالبديع منازع الحسن الذاتى ، وكانت نظرته إلى البديع قريبة من نظرة عبد القاهر الجرجانى إليه على تباين بينهما فى الإكثار والإقلال وإحكام التآخى بين اللفظ والمعنى الذى عنى به عبد القاهر . ذلك ما سنراه فى هذا البحث .

---

(١) ص ٢٦٣ .

## ٦ — البديع فى كتابى عبد القاهر الجرجانى

فإذا انحزنا عن ابن سنان الخفاجى إلى غيره من علماء عصره وجدنا أنفسنا أمام رجل حالفه التوفيق فى علمه وفى نقده وفى قلمه فجاء خارقا لناموس عصره محطما لأغلاله ، ذلك هو علم البلاغة الشامخ ، وأستاذها النابغ ومنقذ البديع من براثن الصناعات اللفظية بإنصاف معانيه من ألفاظه ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى النحوى المتوفى سنة ٤٧١ (١) الذى أخذ النحو عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى ، فكان فيه إماما مقدما وخلف فيه آثاراً قيمة لم يكتب لها الذيوع والانتشار كما كتب لكتابيه فى البلاغة — أسرار البلاغة . ودلائل الإعجاز .

والذى يهمنى من هذين السفرين الجليلين هو ما عرض له عبد القاهر فيهما من أصباغ البديع ، وكيف كان ينظر إليها ، وإلى أى حد بلغ سبقه أو تقصيره فيها .

أما أسرار البلاغة :

فيجدر بنا قبل الإلماع إلى محتوياته أن نشير إلى الباعث على تأليفه فإن ذلك يفسر لنا إيثار عبد القاهر بعض ألوان البديع على بعضها الآخر ، ويكشف عن مبلغ خروجه على تقاليد عصره وسلوكه منهجا كان فيه نسيج وحده .

وقد أبان عبد القاهر فى فاتحة هذا الكتاب عن منزلة الكلام وامتياز الإنسان به عن سائر الحيوان ، وأن أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، ثم قال(٢) : « ومن هاهنا يبين للمحصل ويتقرر فى نفس المتأمل كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ ، كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب » ثم مضى يدلل على ذلك بأنك لو عمدت إلى أى بيت من الشعر أو فصل من النثر فأبطلت نظامه الذى بنى عليه أخرجته

---

(١) وقيل سنة ٤٧٤ بغية الدعاة .

(٢) ص ٢ .

من كمال البيان إلى محال(١) الهذيان إلى أن قال : «وفى ثبوت هذا الأصل ماتعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلمة بيت شعر أوفصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ، وهذا الحكم - أعنى الاختصاص فى الترتيب - يقع فى الألفاظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس المنتظمة فيها على قضية العقل » . ثم قال(٢) : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده » ثم خلص من ذلك إلى أن الاستحسان إنما يرجع إلى اللفظ وحده من غير شرك من المعنى فيه فى حالة واحدة . وهى أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ولاتكون وحشية غريبة أوعامية سخيفة بإزالتها عن موضوع اللغة كقول العامة أشغلت . وانفسد . وما إلى ذلك » .

من هذا الباعث تحس أن عبد القاهر قد هاله حيف النقاد وعدولهم عن الجادة حينما يعرضون للموازنة بين كلام وكلام ، فهب ينصف النظم من اللفظ ، ويلفت الأذهان إلى أنه موطن الاستحسان ، وبذل فى سبيل ذلك مجهوداً مضنيا استنفد كتابيه ، وإن كنت ترى فى بادئ الأمر وظاهر الحال اضطرابا فى حديثه عن اللفظ والمعنى . فتارة ينصر اللفظ وأخرى ينصر المعنى وفى آخر الأمر ينتصر للنظم ويعظم من شأنه ويعلى من مكانه ويجعله موطن البلاغة وسر الإعجاز ، ولعبد القاهر عذره فى هذا ، فقد كان عبد القاهر فى القرن الخامس الهجرى ، وكان السقم قد دب إلى الأساليب العربية ، والهزال قد هد من كيانها ، فطغت دولة الألفاظ واستفحل أمرها وتعاظم خطرها ، واستبدت بأقلام الكتاب حتى صرفتهم عن المعانى ، فراحوا لا يحفلون إلا بجناس ، ولا يقصدون إلا إلى سجع ، وحسبوا أن مادة ذلك وقوامه إنما هى

---

(١) محال : من معانيه الكيد وروم الأمر بالحيل والجدال أو مصدر ماحله مماحلة ومحالا : قاواه حتى يتبين أيهما أشد .

(٢) ص ٣ .

الألفاظ وحدها من غير أن يكون للمعنى فى ذلك نصيب قليل أوكثير ، فانبرى عبد القاهر لحرب هذه الطائفة يحمل أمضى سلاح وأحد سنان ، ومضى يجالد حتى أقام للمعانى الدولة ومكن لها وقضى لها على الألفاظ عند من أغرموا بهذه الأخيرة ، وهو فيما بين ذلك لاينسى حظ الألفاظ ولا يغفل خطرها على أنها تابعة للمعانى وخدم لها ، تحمل عبد القاهر فى سبيل هذه المعركة ما تحمل ليصل إلى غرضه وهو إثبات الجمال للنظم والأسلوب دون اللفظ وحده أو المعنى وحده ، وذلك الأخير هو ما كشف عنه فى دلائل الإعجاز .

ومن هنا يستبين لك السر فى إيثار عبد القاهر بعض ألوان البديع بالحديث على بعضها الآخر . فلم يعرض لكل ما عرف قبله من أصباغ البديع التى طرقها من تقدموه بل اختار من بينها ألوانا استدعاها غرضه من هذين الكتابين استدعاء قويا،وراح يضفى عليها من سحر بيانه ثوبا قشيبا باينت به ما لبسته على يد غيره ممن تقدموه أو خلفوه ، ذلك ما ستراه فى هذا العرض الموجز.

موضوع أسرار البلاغة :

عنون عبد القاهر كتابه « بأسرار البلاغة » وجعل موضوعه . التشبيه والتمثيل ، والاستعارة ، ولم يشر فيه أية إشارة تدل على أنه يسمى هذه المباحث «علم البيان» حتى يسوغ لناشر هذا الكتاب أن يضم إلى عنوان عبد القاهر هذا العنوان،ولاإخاله إلا مجاريا لاصطلاح السكاكيين الذين أطلقوا على هذه الموضوعات مضموما إليها الكناية اسم«البيان» أما عبد القاهر فقد جارى السابقين فى إطلاق اسم « البديع » على هذه المباحث إذ قال فى المقدمة(١) ، وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ... الخ . فتراه يعد الاستعارة من البديع كما صنع السابقون ، والاستعارة ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل. فتكون الدعائم التى أقام عليها عبد القاهر كتابه وجعلها محور بحثه ألوانا من البديع دون أن يعرض لتسميتها بالبيان ، وإن كان عرف المتقدمين يسوى

(١) صفحة ١٤ — ١٥ .

بين مثل هذه الألفاظ إلا أننا قد أخذنا أنفسنا بالتزام الترجمة الصحيحة عن أغراض المؤلفين دون أن ننقص منها شيئا أونزيد عليها .

وإذن فموضوع أسرار البلاغة هو البحث عن هذه الدعائم ، وقد توخى ذلك عبد القاهر فى هذا الكتاب إلا أنه قدم بين يديها مقدمة عرض فى أثنائها للتجنيس والسجع والحشو ، مبطلا أن يكون الحسن فيها لمجرد اللفظ دون المعنى اقرأ قوله(١) : « وها هنا أقسام قد يتوهم فى بدءالفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو » .

( ١ ) أما التجنيس (٢) فقد مضى يدلل على أنه لا يقع موقعة ولا ينزل منزله إلا إذا استدعاه المعنى استدعاء قويا من غير تصنع أوتكلف ظاهرين ، قال : « أما التجنيس فإنك لاتستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييها من العقل موقعا حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً » وأردف ذلك بأمثلة تكشف عن جهات الحسن والقبح مبينا أن الذى يأتى بالتجنيس من غير أن يستدعيه المعنى لم يزد على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلاتجدها إلامجهولة منكرة ،وأن الذى يأتى حسبما يطلب المعنى كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، ثم قال : فبهذه السريرة صار التجنيس—وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة — من حلى الشعر ومذكورا فى أقسام البديع » ثم مضى يبين أن ما يعطيه التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، ودلل على ذلك بأنه لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن ، ولما وجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها » . ثم كر لنصرة غرضه من هذا الكتاب قال : «فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال

(١) ص ٤ . (٢) ص ٤ .

الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين .

(٢) السجع — وفى أثناء حديثه عن الجناس وإنصاف المعنى من اللفظ بين أن كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع أمكن فى العقول وأبعد من القلق بخلاف كلام بعض المتأخرين الذين شغفوا بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع حتى نسوا أنهم يتكلمون ليفهموا ، حتى خيل إليهم إذا جمعوا بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عنوه فى عمياء . فمثلهم كمثل من ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها وإلى غير هذا يقصد العارفون بجواهر الكلام ، ثم عاد يأخذ بيد المعنى فى التجنيس والسجع قال : (١) « وعلى الجملة ، فإنك لا تجد تجنيا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولاتجد عنه حولا ، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ،أوما هولحسن ملاءمته — وإن كان مطلوبا — بهذه المنزلة وفى هذه الصورة » . ثم مضى يدلل على ذلك بحشد الأمثلة للجناس والسجع المقبولين من كلام القدماء والمحدثين ، ثم عرج على ايجاع أبى تمام لولوعه بالتجنيس وإخلاده إلى تكلفه ، ثم بين أن النكتة التى ذكرها فى التجنيس وجعلها العلة فى استيجابة الفضيلة وهى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام إلا فى المستوفى . المتفق الصورة منه ، أو المرفو ، فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا ، ثم ساق لكل أولئك الأمثلة التى توضح غرضه وتكشف عن مراده .

(٣) أما الحشو(٢) « ويريد به الاعتراض » :

فقد قسمه إلى مفيد وإلى غير مفيد ، وبين أن غير المفيد إنما كان مذموما لأنه خلا من الفائدة ، ولم يُحْلِ (٣) منه بعائدة ، وأن المفيد إنما كان حسنا محمودا لإفادته إياك على مجيئه مجىء مالا يعول فى الإفادة عليه ، ولاطائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترتقبها ، والنافلة

(١) ص ٧ . (٢) ص ١٤ . (٣) حلى منه بخير وحلا : أصاب منه خيرا .

أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلي ظرفا يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم .

فهذه ثلاثة ألوان من البديع عرض لها عبد القاهر فى مقدمة ساقها بين يدى غرضه، ومن بين هذه الثلاثة التجنيس، والسجع ، وقد عدهما ابن سنان فى المناسبة بين الألفاظ وإن لم ينس جانب المعنى كما أسلفنا ، إلا أن عبد القاهر كان أعمق غورا ، وأطول نفسا ، وأحكم نظراً فى الكشف عن أسرار التجنيس والسجع وفوائدهما وتبيين مايعود به الجناس والسجع على الكلام من روعة وخلابة ، وما يحدثه الحشو المفيد من حسن الموقع وتطريب النفس وهو فى أثناء ذلك كله يحاول أن يأخذ بيد المعنى ويظاهره على اللفظ.

أما بقية المحسنات البديعية الأخرى فقد طردها تحت حكم واحد ، إذجعل الحسن والقبح إنما يعتورانها من قبل المعنى من غير أن يكون للفظ فى ذلك نصيب . إقرأ قوله(١)

(٤) « وأما التطبيق ، والاستعارة وسائر أقسام البديع فلاشبهة أن الحسن والقبح لايعترض الكلام بهما إلامن جهة المعانى من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أوخلاف التحسين تصعيد وتصويب » . تحس أنه يحاول دائما نصرة المعنى على اللفظ ليبلغ مايريد من القضاء على تلك الأوهام التى استبدت بالشعراء والكتاب حتى أغفلوا المعانى وأهملوها واحتفلوا بالألفاظ وعظموها ، ولايريد عبد القاهر أن هذه الألوان البديعية لاترجع على اللفظ بالتحسين والتجميل كما ترجع على المعنى ، وإنما المراد أن يعنى الشعراء والكتاب بالتوفر على المعانى كما عنوا بالألفاظ فى هذه الأصباغ .

ثم مضى فى إتمام غرضه قال : أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل والتشبيه قياس والقياس يجرى فيما تعيه القلوب وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان .

وأما التطبيق : فأمره أبين وكونه معنويا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة

---

(١) ص ١٤ – ١٥ .

ثم مجال ثم مضى يزجى الأمثلة التى تناصر غرضه المروم ، ويتبعها بأبهى بيان وأدق تصوير ، مما ينبئ عن تذوق صادق لأساليب العربية ، ويفصح عن ملكة موهوبة ، وفطرة جياشة ، ولاعجب ، فأسلوب عبد القاهر فى كتابيه مثل أعلى للبيان العملى يحتذى ، وغاية بعيدة قصر عنها السابقون من العلماء وانقطع عن السير فى طريقها المتأخرون ، فكان كتاباه هضبة عالية فى تاريخ التأليف البلاغى بزت السابقين ، وغطت على اللاحقين .

اقرأ قوله بعد أن ساق هذه المقدمة بين يدى غرضه من هذا الكتاب تقرله بالسبق والتبريز . قال (١) « واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعت أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين تنسب عنه ، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسيب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لايقبلونه ولا يمتعضون له ، ولايذبون دونه ، وإن من الكلام ماهو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصياغات وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره ، ومنه ماهو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة فلها — مادامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل — قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ، وللرغبة إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذاخانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التى كانت فيها زهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضا دونها وصدا ، وصارت كمن أخطأه الحد بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه ، وقدّمه البخت من غير معنى يقضى بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته وتنبه لغلطته فأعاده إلى دقة أصله ، وقلة فضله ، وهذا غرض لاينال على وجهه

(١) ص ١٩ .

وطلبة لا تدرك كما ينبغي إلا بعد مقدمات تقدم وأصول تمهد ، وأشياء هى كالأدوات فيه حقها أن تجمع ، وضروب من القول هى كالمسافات دونه يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع ، وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة ، فإن هذه أصول كثيرة كأن جلّ محاسن الكلام — إن لم نقل كلها — متفرعة عنها وراجعة إليها وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها »

تلك هى الدعائم التى بنى عليها عبد القاهر حديثه فى أسرار البلاغة ، وقد أطلق عليها اسم « البديع » أو اسم « المحاسن » .

وقد رسم عبد القاهر لنفسه خطة البحث فى هذه الدعائم وبين أن الذى يوجبه ظاهر الأمر أن يبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز ، ويتبع ذلك الحديث عن التشبيه والتمثيل ، ثم يأتى بذكر الاستعارة فى إثرهما ، وبين السر فى ذلك بأن المجاز أعم من الاستعارة ، والواجب فى قضايا المراتب أن يبدأ بالعام قبل الخاص ، والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيهة بالفرع له ، فكان الواجب أن يعالج هذه الأبحاث حسب ذلك الترتيب ، إلا أنه صرح بأن هاهنا أمورا اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صدر منها والتنبيه على طريق الانقسام فيها ، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها ويقف على سعة مجالها عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين فوفى حقوقهما وبين فروقهما ، ثم يعرج بعد ذلك على الاستعارة فيستقصى القول فيها ، ولا ندرى أمراً من الأمور التى حتمت على عبدالقاهر أن يخالف هذا الدستور الذى وضعه سوى أنه عرض للاستعارة وقرنها بالتطبيق فى المقدمة وجعل الحسن والقبح فيهما راجعين إلى المعانى . فآثرها بالتقديم حتى لا يطول تطلع النفوس إليها ، هذا إلى أن الاستعارة من أجل الطلبات التى يتنازعها المحسنون ، ويتنافس فى إحراز قصب السبق فيها المجيدون ، فالحديث عنها عذب غير مملول . والتعريف بها أولى من التعريف بأصلها فى التقديم ، وقد يطول الفرع أصله سمو مكانة وعلو منزلة ؟

( ٥ ) الاستعارة : عرفها ، ثم قسمها إلى المفيدة وغير المفيدة ،

---

(١) ص ٣٥٢ .

ثم حكم على غير المفيدة بأنها قصيرة الباع قليلة الاتساع ، ثم ساق لها أمثلة تنطبق على ما عرف فيما بعد باسم المجاز المرسل ، وأشار إلى أن هذا القسم من الاستعارة لا غناء فيه سوى أنه أريد به التوسع فى أوضاع اللغة ، ولولا مجاراة عبد القاهر لسلفه ورغبته عن التشدد فى مخالفتهم لضن عليه باسم الاستعارة ، اقرأ قوله « واعلم أن الواجب كان ألا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة فى مكان المشفر ونظائره التى قدمت ذكرها فى « الاستعارة » وأضن باسمها أن يقع عليه ولكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها فكرهت التشدد فى الخلاف واعتددت به فى الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة » . ومتى أخذت الاستعارة هذا الوصف فليست من حلى الشعر ولامعدودة فى ألوان البديع عند عبد القاهر . وأما الاستعارة المفيدة وهى التى بنيت على التشبيه فهى الجديرة بهذا الاسم ، وهى أمد ميدانا ، وأشد افتنانا ، وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ومتى كانت الاستعارة على هذا الوصف فهى من « حلى الشعر » ومعدودة ضمن ألوان « البديع » بل هى منها فى الذرى والمقدم . قال عبد القاهر (١) بعد أن أبان أن المجاز أعم من الاستعارة وأن كل استعارة مجاز « قال القاضى أبو الحسن فى أثناء فصل ذكرها فيه وملاك الاستعارة تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار للمستعار منه » « وهكذا تراهم يعدونها فى أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطا ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا . ومن البديع الاستعارة التى من شأنها كذا ، فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعا وإما قريبا من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة ، يبين ذلك أنها إن كانت تساوق المجاز وتجرى مجراه حتى يصلح لكل ماتصلح له فذكرها فى أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون أجراء اليد على النعمة بديعا وتسمية البعير حفضا(٢) والناقة نابا ، والربيئة عينا ، والشاة عقيقة بديعا كله وذلك بين الفساد » . ثم قال(٣) : «وقال الآمدى :

(١) ص ٣٤٦ . (٢) الحفض : متاع البيت إذا هيىء للحمل . (٣) ص ٣٥٠ .

ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثة أنواع يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسناء حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصاً ، ثم قال وهذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم « البديع » وهى الاستعارة، والطباق ، والتجنيس» . فهذا نص فى موضع القوانين على أن الاستعارة من أقسام البديع ، ولن يكون النقل بديعا حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بينت لك ، وإذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الإطلاق بديعا فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصوص من النقل دون كل نقل فاعرفه » .

ترى من هذا أن عبد القاهر يوافق سلفه على اعتبار الاستعارة من أبواب البديع لكن على شرط أن تكون مفيدة مبنية على التشبيه ، وهذه التفرقة من تجديد عبد القاهر وتعمقه فى بيان الفروق والتمييز بين أسلوب وأسلوب. وهكذا تراه فى كل ما يعرض له من ألوان البديع يعتمد على هذا التحليل العميق والتفصيل الدقيق .

فقد قسم المجاز إلى قسمين : مجازلغوى . ومجاز عقلى ، ثم قسم المجاز اللغوى إلى قسمين أحدهما ما يبنى على التشبيه وذلك هو الاستعارة التى حدثناك عنها ، والآخر عبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما وهو الذى عرف فيما بعد باسم المجاز المرسل .

ذلك التقسيم للمجاز إلى لغوى وعقلى لم يعرف قبل عبد القاهر ، فهو من ابتكاره كما أن المجاز العقلى تسمية وتحقيقا من ابتكار عبد القاهر واختراعه فلم يسبقه أحد إليه وقد بذل عبد القاهر جهداً صادقا فى تحديده وتمييزه عن المجاز المعروف.

وقد أطنب عبد القاهر فى الحديث عن التشبيه والتمثيل ، وفصل وقسم ، وضبط وحدد، وفرق وميز ، وأبان عن مواطن الحسن وكشف عن أسرار الجمال، بطريقة فذة فريدة بذّ بها السابقين ضبطا وتقنينا ، وتقسيما وتفصيلا ، وتعمقاً فى إبراز مكنونات التراكيب العربية، وأخمل اللاحقين بيانا معجبا ، وتصويراً ساحراً ، ومؤاخاة بين البلاغة العملية والنظرية ، مما جعله هضبة عالية راسخة فى تاريخ التأليف البلاغى، وقد حاولت أن أنقل لك صورة تمثل

كل ما عرض له فحال بيني وبين ذلك ما أنا مؤمن به . من أن كل اختصار لكلام عبد القاهر ناقص مبتور ، وكل تصوير لتصويره مشوه مرذول ، فإما أن ينقل كله وذاك ضرب من العبث ، وإما أن يترك قارا فى مكانه لا يفوت من يطلبه ناطقا بسبق عبد القاهر وتبريزه وخروجه على ميزان جميع العصور التأليفية وذلك أسلم الطريقين وأعدل الأمرين ، اقرأ قول عبد القاهر الذى يمثل موقفه من السابقين والمعاصرين واللاحقين حتى تقف على صدق ما أقول : «(١)واعلم أن هذه الأمور التى قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة ، وذلك أنها معروفة على الجملة لاينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام ، والمتمهرين فى فصل جيده من رديئه ، ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يرجع إليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن وقبح ما استهجن حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم ، وتضبط ضبط المزموم المخطوم ، ولعل الملال إن عرض لك ، أو النشاط إن فتر عنك قلت ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة ؟ وإنما يكفى أن يقال : الاستعارة مثل كذا . ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات وهكذا يكفينا المؤونة فى التشبيه والتمثيل يسير من القول » . ثم مضى عبد القاهر يبطل هذا بالقياس على الخبر وما شاكله من أنه لايكفى فيه مثل هذا الكلام المبتور ، بل لابد من تفصيل وتقسيم به تتبين معالمه ، وتتضح رسومه ومناهجه ، ثم قال : (٢) «ولئن كان الذى يتكلف شرحه لايزيد على مؤدى ثلاثة أسماء . وهى التمثيل والتشبيه ، والاستعارة ، فإن ذلك يستدعى جملا من القول يصعب استقصاؤها وشعبا من الكلام لا تستبين لأول النظر أنحاؤها . إذ قولنا شىء يحتوى على ثلاثة أحرف ، ولكنك إذا مددت يدا إلى القسمة وأخذت فى بيان ماتحويه هذه اللفظة ، احتجت إلى أن تقرأ أوراقا لا تحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ما ليس بالقليل النزر ، والجزء الذى لا يتجزأ يفوت العين ، ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلادا عظيمة الحجم . فهذا مثلك إن أنكرت ما عنيت به من هذا التتبع ، ورأيته من البحث ، وآثرته من تجشم الفكرة وسومها أن تدخل فى جوانب هذه المسائل

(١) ص ٢٢٥ . (٢) ص ٢٢٧ .

وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فإن كنت ممن رضى لنفسه أن يكون هذا مثله وها هنا محله فعب كيف شئت وقل ماهويت ، وثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت وشاهدك فيما ادعيت ، وإنك واجد من يصوب رأيك ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ويعادى المخالف لك .

وقد فتر النشاط عن المتأخرين الذين خلفوا عبد القاهر على هذا التراث العظيم فاكتفوا من هذه الأبواب التى أفاض فيها عبد القاهر ، بتفسيرها كما تفسر المفردات اللغوية ، أو المصطلحات العروضية ، ثم تقسيمها والوقوف عند شواهد معدودة لاتربى ذوقا ولاتُنَمِّى ملكة ، وكأن عبد القاهر بقوله المتقدم أحس من نفسه النبوغ ، واستشعر التفوق ، فتنبأ لخلفه بأنهم سيعجزون عن سلوك هذا الطريق الذى اختطه لهم ، وسيسيئون إلى هذا التراث الحافل الذى خلفه لهم ولايحسنون استخدامه . ولانحب أن نطوى الحديث عن هذا الكتاب قبل أن نعرض لبابين من أبواب البديع عرض لهما عبد القاهر فى أثنائه . أما أولهما فهو :

التخييل(١) :

وقد عرض له عبد القاهر فى أثناء تمهيده للحكم على الشاعر بالأخذ والسرقة من غيره ، إذ قسم المعانى إلى قسمين عقلى ، وتخييلى ، ونوع كل واحد منهما إلى أنواع ، والذى يعنينى فى بحثى هذا هو القسم التخييلى ، والتخييل عند عبد القاهر أعم من حسن التعليل عند المتأخرين ومن الاستدلال بالتعليل عند ابن سنان الخفاجى الذى أسلفنا الحديث عنه آنفا ، قال عبد القاهر :

وأما القسم التخييلى فهو الذى لايمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر إلا تقريبا ، ولايحاط به تقسيما وتبويبا ، ثم إنه يجىء طبقات ، ويأتى على درجات ...

( ١ ) فمنه ما يجىء مصنوعا قد تلطف فيه ، واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ، باحتجاج يخيل ، وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبى تمام يمدح الحسن بن رجاء :

---

(١) ص ٢٣١ .

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وأحكام ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لايثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب، وليس فى الكريم والمال شئ من هذه الخلال» . ثم مضى عبد القاهر يزجى الأمثلة المشفوعة بروائع بيانه وساحر تصويره على حذوما رأيت ، ثم طبق قولهم « خير الشعر أكذبه » على ذلك ، وقولهم « خيره أصدقه » على مقابله ، وانتصر للرأى الثانى ودعمه(١) بحجج مشرقة قوية لا تنقاد لغيره .

ثم عرض فى أثناء ذلك للفرق بين الاستعارة والتخييل ، ففصلها عنه بأنها لا تدخل فى قبيله ، لأن المستعير لايقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة ، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلايكون مخبره على خلاف خبره ، ثم وشح ذلك بسوق أمثلة مشفوعة ببيانه الساطع للتدليل على ما إليه قصد .

ثم قال : (٢) «وجملة الحديث أن الذى أريده بالتخييل هاهنا . ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لاطريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها مالاترى ، أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف فى أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله يثبت أمراً عقليا صحيحا ، ويدعى دعوى لها شبح فى العقل ، ثم قال : وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق » .

وتراه يجعل بعض أنواع المبالغة من التخييل حيث يقول(٣) :

(٢) وهذا نوع آخر : وهو دعواهم فى الوصف هو خلقة فى الشىء وطبيعة ، أوواجب على الجملة من حيث هو . أن ذلك الوصف حصل له من

---

(١) ص ٢٣٧ — ٢٣٨ . (٢) ص ٢٣٩ .
(٣) ص ٢٤١ —.

الممدوح ومنه استفاده ، وأصل هذا التشبيه ، ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ، ولهم فيه عبارات . منها قولهم : أن الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، وألطف ذلك أن يقال : تسرق ، وإن نورها مسروق من الممدوح .

(٣) ونوع آخر — وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور ، فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نيّة الجوزاء خدمته  لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى — أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق والإغراب ، ويدخل فى هذا الفن قول المتنبى يمدح أبا على هارون بن عبد العزيز الكاتب :

لم يحك نائلك السحاب وإنما  حمت به فصبيبها الرحضاء(١)

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعا وصوره فى صورة خرج معه إلى مالا أصل له فى التشبيه ، فهو كالواقع بين الضربين .

(٤) ونوع آخر منه قول الصولى (٢) :

الريح تحسدنى عليك م ولم أخلها فى العدا
لما همست بقبلة  ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه وأن تلف من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغيرة لمحبوبه ، وهى من أجل ما فى نفسها تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفى هذه الطريقة قول « محمد بن وهيب الحميرى » .

وحاربنى فيه ريب الزمان م كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة من الزمان فى معنى الحبيب ، ثم جعل دليلا عليها جواز أن يكون شريكا فى

(١) الرحضاء : العرق إثر الحمى .  (٢) ص ٢٤٣ .

عشقه .... ثم فرق بين المسلكين . قال : فأنت فى نحو بيت ابن وهيب — وحاربنى إلخ . تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى ذكرها ، وفى نحو بيت الصولى — الريح ، إلخ تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعا واختراعا .

(٥) وهذا نوع آخر من التعليل(١) وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ، ويضع له علة أخرى ، مثاله قول المتنبي يمدح بدر بن عمار :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ماترجو الذئاب

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبي كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك » . ثم مضى عبد القاهر يزجى الأمثلة ويتوّجها بشرحه العميق الدقيق .

(٦) تخييل بدون تعليل : قلنا إن التخييل عند عبد القاهر أعم من حسن التعليل إذ عرض فيما قدمناه لبعض أساليب المبالغة وجعلها من أنواعه ؛ وهنا يعقد فصلا للتخييل بدون تعليل يقول :(٢)« فيه وهو يرجع الى مامضى من تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن مامضى معلل » وأنت ترى كيف يطرد التعليل فى كل مامضى مع أن ما ذكره من المبالغة ليس فيه تعليل ظاهر كما فى بقية الأنواع ، ثم مضى يحشد الأمثلة الكثيرة لهذا اللون ومن بينها قول أبى تمام يرثى خالد بن يزيد الشيبانى :

ويصعد حتى يظن الجهـول بأن له حاجة فى السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، بجعله صاعدا فى السماء من حيث المسافة المكانية لما كان لهذا الكلام وجه .

ذلك عرض موجز ، وتصوير مصغر ، لما أفاض فيه عبد القاهر من

---

(١) ص ٢٥٧ . (٢) ص ٢٦٢ .

ألوان التخييل وقد شمل عنده كما رأيت ماعرف بحسن التعليل ، وما دعى باسم المبالغة ، وما وسم باسم الترشيح ، وهو وإن سبق فى حسن التعليل بابن سنان كما أسلفنا ليس فى هذه المباحث بالمقلد الذى يصدر عن رأى غيره ، لما بين الرجلين من تقارب فى سنى الوفاة وتباين فى المكان يبعد تقابلهما وتلاقيهما ، فعبد القاهر هو السابق المجلى إلى حسن التعليل ولم يشركه فى هذا الفضل أحد ، على أننا لو سلمنا اطلاعه على ماسطره ابن سنان فبين البحثين . عرْضا ، وتبيينا ، وتنويعا ، ودقة وأحكاما : بون شاسع وفرق كبير يؤكد صدق مانقول .

وأما ثانيهما . فهو التجريد .

عرض عبد القاهر لأسلوب هذا الصبغ البديعى — وإن لم يسمه بهذا الاسم فى أثناء كشفه عن الفروق بين الاستعارة والتشبيه البليغ قال :(1) .

«فإن قلت . فما تقول . فى نحو قولهم : لقيت به أسدا ، ورأيت به ليثا) فإنه مما لاوجه لتسميته استعارة . ألا تراهم قالوا : لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » فأتوا به معرفة على حده . إذا قالوا . احذر الأسد ، وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة وهو قوله عز وجل « لهم فيها دار الخلد » والمعنى . والله أعلم . أن النار هى دار الخلد . وأنت تعلم أن لامعنى هاهنا لأن يقال : إن النار شبهت بدار الخلد ، إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشىء يسمى دار الخلد .. وإنما هو كقولك : النار منزلهم ومسكنهم .. وكذا قول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

لايتصور فيه التشبيه ، وانما المعنى أنه ليس ببخيل ، ثم قال : هذا وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على مايدعى أنه مستعار له ، والاسم فى قولك . لقيت به أسدا ، ولقينى منه الأسد لايتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال . وإنما هو بنفسه مفعول لقيت ، وفاعل لقينى . ثم قال فأما القضية الصحيحة —

(1) ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

وما يقع في نفس العارف ويوحيه نقد الصيرف فإن الأسد واقع على حقيقته وسيتجلى الغرض من التجريد في القسم الثاني بمشيئة الله تعالى .

تلك هي ألوان البديع التي عرض لها في أسرار البلاغة ، أبرزها في أحسن معرض ، وصورها بأدق تصوير ، فغدت على حال من النصوع والتجديد لم تر عليها من قبله أو من بعده .

## دلائل الإعجاز

ألفه بعد أسرار البلاغة إذ كثيرا ما يعد في أسرار البلاغة باستيفاء موضوعات فاذا فتشت عنها لتحقق ذلك الوعد وجدتها في دلائل الأعجاز ، اقرأ قوله في أسرار البلاغة(١) وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاما في الفرق بين مايدخل في حيز قولهم « خير الشعر أكذبه » . وبين مالا يدخل فيه مما يشاركه في أنه اتساع وتجوز فاعرفه » .

وقد بر بهذا الوعد في دلائل الإعجاز في أثناء حديثه عن الشعر ، وغير ذلك كثير لايفوت من يطلبه .

أمّا الباعث على تأليف هذا الكتاب .

فشيء يؤخذ من عنوانه ، واقرأ قوله يصرح بذلك يقول :(٢) «بعد أن قدم صورة موجزة لأصول النحو جملة ،وكل مابه يكون النظم دفعة ، وساق أمثلة لذلك من كلام العرب نظمه ونثره – «فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر ، وقيد الخواطر والفكر ، حتى خرست الشقائق ، وعدم نطق الناطق ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقدح لأحد منهم زند ، ولم يمض له حد ، وحتى أسال الوادي عليهم عجزا ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذا . أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ، ونرده عن ضلاله ، وأن نطب لدائه ونزيل الفساد عن رائه(٣)فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب

(١) ص ٢٣٩ .
(٢) ص ٦ – ٧ من المدخل .
(٣) رأيه .

الذى وضعناه ، ويستقصى التأمل لما أودعناه فإن علم أنه الطريق إلى البيان ، والكشف عن الحجة والبرهان ، تبع الحق وأخذ به ، وأن رأى أن له طريقا غيره أومأ لنا إليه ، ودلنا عليه وهيهات ذلك » .

فأنت ترى أن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو الكشف عن دقائق إعجاز القرآن وتبيين الوجوه التى كان بها معجزا ، وإذن فمن واجب عبد القاهر أن يعرض فيه لكل مايوصله إلى هذه الغاية الشريفة التى جعلها علماء البيان الغرض منه منذ عهد معرق فى القدم ، ولكى يبلغ تلك الغاية يبدأ مباحثه بهدم نظريتين وجدتا قبل عبد القاهر واكتسبتا أنصارا فى عصره . إحداهما تجعل الجمال والسحر فى الكلام للفظ دون معناه . والأخرى تقصره على المعنى دون أن يكون للفظ شرك فى هذا الجمال ، ثم يخلص من ذلك كله إلى أن الروعة والجمال ليسا فى اللفظ وحده ، ولا فى المعنى وحده ، وإنما موطنهما ومبعثهما هو النظم ، ثم يمضى فى حشد الأدلة وعقد الفصول الكثيرة لدعم هذه النظرية وتثبيت أركانها ، وجعلها مبعث الجمال وموطن الإعجاز ، ولم يكتف عبد القاهر بذلك بل يبذل صادق الجهد وموفور العناية فى التوقيف على مواطن السحر فى الأسلوب والنظم لذلك تراه يعرض لمباحث الفصل والوصل ، والقصر ، والإيجاز والإطناب والتعريض وإعادة الحديث عن التمثيل والاستعارة ، وما إلى ذلك مما ينطق به كتابه ولا يعجز من يطلبه .

وعبد القاهر بذلك يعد واضع أساس « علم المعانى » . بعد أبى هلال العسكرى سوى أنه لم يعرض لتسميته بذلك الاسم وإنما سماه « البيان » . اقرأ قوله(١) فى صدر هذا الكتاب — بعد أن أفاض القول فى فضل العلم وجلالته وخطره ، وبين أن الناس متفقون على فضله مختلفون فى الميل إلى أنواعه لاختلافهم فى الميول والمشارب — « ثم إنك لاترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا من « علم البيان » الذى لولاه لم تر لسانا يحرك الوشى ، ويصوغ

---

(١) ص ٤ — ٥ دلائل .

الحلى ، ويلفظ الدر وينفث السحر ... إلا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقى من الضيم مالقيه، ومنى من الحيف بما منى به ، ودخل على الناس من الغلط فى معناه مادخل عليهم فيه ، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وظنون رديئة ، وركبهم فيه جهل عظيم ، وخطأ فاحش ، ترى كثيرا منهم لايرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين وما تجده للخط والعقد ..... الخ .

فتراه هنا يسميه « بيانا » وفى موطن آخر من هذا الكتاب يسميه « علم الفصاحة والبيان (١) » والفصاحة والبيان ، والبلاغة والبراعة وما شاكلها عند عبد القاهر ألفاظ متواردة على معنى واحد كما صرح بذلك(٢) .

فذلك هو العلم الذى تنطوى تحته مباحث هذا الكتاب كما صرح عبد القاهر وليس موضوعه « علم المعانى » كما عنونه بذلك ناشره ، ولا إخاله هنا —كما صنع بأسرار البلاغة— إلا مجاريا لعرف السكاكيين الذين أطلقوا على جل مباحث هذا الكتاب « علم المعانى » والخطب فى ذلك سهل ميسور ، سوى أن أمانة الترجمة عن أغراض المؤلفين تدعو إلى مثل ما أقول .

وأيا ما كان فالذى يعنينى من هذا الكتاب هو ماعرض له عبد القاهر من ألوان البديع وبيان الجديد فيها ، وكيف كان ينظر إليها .

وقد عقد عبد القاهر فى هذا الكتاب فصلا فى النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع وبنى حديثه فيه على ألوان من أصباغ البديع قال(٣) :

« اعلم أن مماهو أصل فى أن يدق النظر ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه هاهنا فى حال مايضع بيساره هناك ، نعم وفى حال مايبصر مكان ثالث ورابع يضعهما

(١) انظر ص ٣٤٩ دلائل . (٢) ص ٣٥ دلائل .
(٣) ص ٧٣ وما بعدها .

بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، فمن ذلك .

(١) أن تزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء معا كقول البحترى يمدح الفتح بن خاقان :

إذا مانهى الناهى فلج بى الهوى    أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

ثم ساق مثالا آخر للبحترى ثم قال فهذا نوع ، ونوع منه(١) آخر . قول سليمان بن داود القضاعى :

فبينا المرء فى علياء أهوى    ومنحط أتيح له اعتلاء
وبينما نعمة إذ حال بؤس    وبؤس إذ تعقبه ثراء

ونوع ثالث – وهو ما كان كقول كثير :

وإنى وتهيامى بعزة بعدما    تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما    تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وبحث المزاوجة على هذا الوجه لم أره لغير عبد القاهر .

(٢) ومنه التقسيم – وخصوصا إذا قسمت ثم جمعت كقول حسان :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم    أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة    إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ثم ساق مثالا آخر ، ثم قال(٢) :

وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ماتتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعا واحدا فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم ، والذى لاترى سلطان المزية يعظم فى شيء كعظمه فيه ، ومما ندر منه ولطف مأخذه ، ودق نظر واضعه ، وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق وغاية يعيا من قبلها

(١) الظاهر أن الضمير فى منه يعود على النظم المذكور فى أول الباب ، وكذلك قوله ونوع ثالث لأنهما لا يندرجان تحت المزاوجة كما ترى .

(٢) ص ٧٥

المذاكى(١) القرح الأبيات المشهورة فى تشبيه شيئين بشيئين ، ثم ساق أمثلة كثيرة من بينها بيت امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا    لدى وكرها العناب والحشف البالى

فأنت ترى من صنيع عبد القاهر فى هذا الفصل ، وإشادته بهذا النوع من النظم حتى بلغ به الذروة والسنام ، كيف يعد فى سلكه المزاوجة والتقسيم ، ويصرح بأن ماشأنه أن يجىء على هذا الوصف ليس له حد يحصره ، ولا قانون يحيط به وإذن فليس من الافتيات على عبد القاهر ، ولا من التزيد على قوله أن نقول إن جلّ مباحث علم البديع التى دعاها المتأخرون باسم المعنوية . والتى من بينها المزاوجة والتقسيم داخلة تحت هذا النوع من النظم ، وعلى ذلك جرى فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ فى كتابه « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » الذى أودعه مباحث دلائل الإعجاز فأضاف إلى المزاوجة والتقسيم اثنين وعشرين بابا أحدها التمثيل وباقيها من ألوان البديع المعنوية ، ثم علق عليها بقوله « وقد اقتصرنا على هذا القدر من الأمور التى تربط الجمل بعضها ببعض وإن كان مابقى أكثر مما أوردناه »(٢) . وسيأتى لهذا زيادة إيضاح فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

وحسب عبد القاهر من ألوان البديع هذه التى عرض لها فى كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فقد نهج بها منهجا جديدا ينبغى أن ينبه الأذهان إلى تطبيقه على سواها مما تركه عبد القاهر اكتفاء بتلك المبادئ التى وضعها فيما ذكره وإحالة على الكتب التى عرضت للبديع من قبله لكن لاعلى النحو الذى سلكته بل على نحوه الذى وضعه ، فلم يتركها عبد القاهر عجزا ، وإنما تركها اشتغالا بما رسمه لنفسه من إقامة الدعائم التى يرتكز عليها الإعجاز .

---

(١) المذاكى : من الخيل التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان . والقرح التى كملت أسنانها وهى جمع قارح .

(٢) انظر ص ١١٠ وما بعدها من نهاية الإيجاز .

والمتصفح لكتابيه هذين يحس مقدار مابذل من مجهود ، وما صادف من تعب سوى أن ذلك أعقبه حمدا ورفع له فى علوم البلاغة ذكرا .

وإلى هنا نطوى صفحة مشرقة فى تاريخ علوم البلاغة بعامة وعلم البديع بخاصة ونودع عهدا جمع بين الحسنيين ، واستحوذ على الفضلين ، فكان شعاره الجمع بين البديع علما وعملا .

فإذا تركنا القرن الخامس إلى السادس صادفنا رجلا من رجال البديع هو مؤيد الدولة ومجد الدين أبوالمظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد ابن نصير بن منقذ الذى ينتهى نسبه إلى حمير ، ولد وشب فى شيزر وهى لبعض أهله وهم أمراء وتوفى سنة ٥٨٤ وكان عالما أديبا له شعر عذب رقيق محكم النسج(١) وقد خلف آثارا وافرة أعظمها شأنا « كتاب البديع فى علوم الشعر » جمع فيه ماتفرق فى كتب العلماء فى نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه ، وأربى على ذلك بما وقف عليه بنفسه فاجتمع له خمسة وتسعون أولها التجنيس وآخرها التهذيب(٢) ولا يزال هذا الكتاب مغمورا بين المخطوطات التى لم يكتب لها الرواج والذيوع بالطبع والنشر ، وبين مخطوطات دار الكتب نسخة منه تحت رقم (٥ م ) (بلاغة) وقد طلبتها مرارا فلم أحظ(٣) بها فآثرت الحاقه بهذه المدرسة لقرب عهده من رجالها ، وإن كان ابن حجة قد رماه بالتخليط حيث قال (١٦٩ خزانة) » وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد والجمع بين أسباب الخطأ وأنواعه من التداخل والتبديل » . وسنرى منه صورة فى كتاب « البديع » لعبد العظيم بن أبى الإصبع الذى سنعرض له فى المدرسة الثانية .

وعلى الجملة فالطابع العام لهذه المدرسة التى اشتملت على علم البديع منذ طفولته إلى عهد السكاكى . هو عرض الألوان وتحديدها ، ثم توشيحها بالأمثلة الوافرة من روائع الشعر والنثر ، والتعرض لتحليلها تعرضا ينبئ

---

(١) كتاب تاريخ الآداب العربية من نشأتها إلى أيامنا ص ٣٧٦ .

(٢) كتاب تاريخ الأدب لجرجى زيدان ج ٣–٦١ .

(٣) لأن الوقت وقت حرب وقد أوت الكتب إلى الكهوف والمغارات فى جبل المقطم الأشم.

عن بصر بالأساليب وذوق فى النقد ، على اختلاف مابين رجال هذه المدرسة فى كل أولئك كما أسلفنا ،وإن كانوا يتفقون على أنها من البلاغة فى الصميم .

ولئن طفر البديع وخطا خطوات واسعة من حيث الكثرة على يد رجال المدرسة الثانية لقد أصيب بالوهن والعقم ، ومنى بالجمود والسقم ، بالذهاب به مذهب المفردات اللغوية التى يكتفى فيها بالتفسير والتمثيل دون الكشف عن سحر التراكيب وجمال الأساليب ذلك ماسنعالجه فى هذه الكلمات ..

## الفصل الثانى

# البديع من عهد السكاكى إلى البديعيات

أبرز عناصر هذا الفصل :

موازنة بين هذه المدرسة وما قبلها — انحدار البديع رويدا على يد رجال هذه المدرسة — خضوعه للتحديد المنطقى — فقدانه صبغته الأدبية .

(١) السكاكى زعيم هذه الحلبة — ثقافته — من شيخه فى العربية — مفتاح العلوم — الباعث على تأليفه — محتوياته — أقسامه — منهجه — طابع القسم الثالث — إخضاعه البلاغة للعلوم العقلية — موقف المتأخرين من طريقته — أسلوبه — ميزة القسم الثالث — فصله بين العلوم — أولياته — البلاغة عند السكاكى — نظرته إلى البديع — مكان البديع من أخويه — تضافر المحسنات مع مسائل العلمين فى تحسين الكلام — عذره فى هذا الصنيع — توزيع المحسنات على العلمين — جعلها من قبيل المقدمات — عناية الناس بالقسم الثالث — السكاكى يشرع للناس طرق الاختصار والتحشية .

(٢) البديع فى المثل السائر — استرداده إلى حد ماصبغته الأدبية — المنطق فى المثل السائر — ثقافة ابن الأثير — أبناء الأثير — منزلة الكتاب — تناسيه عبد القاهر — إسرافه فى دعوى الأسبقية — الباعث على تأليف الكتاب — منهجه فى البحث — تعقبه لابن سنان — محتويات الكتاب — سبقه إلى بعض ألوان — أولية الألغاز والأحاجى والمعمى .

(٣) كتاب البديع فى صناعة الشعر — منزلته — الباعث على تأليفه — موقفه من سلفه — تحريره وتنقيحه — الأصول — الفروع — سبقه إلى ثلاثين نوعا — سلامة ثلاثة عشر له — اعتلال الباقى — أبواب الكتاب مائة وثلاثة وعشرون .

(٤) بدائع القرآن لابن أبى الأصبع أيضا — الباعث عليه — محتوياته إجمالا — موقف ابن أبى الأصبع من السكاكى — انقطاع الصلة بين المتقدمين والمتأخرين .

(٥) التلخيص — آية التعبير فى ذلك العصر — استقلال البديع عن أخويه — تبعة عقم البلاغة واقعة على السكاكى — نشأة الخطيب — ثقافته — الباعث على تأليف المختصر — تأثره بغير السكاكى — محتويات التلخيص — التساهل فى تسميته تلخيص المفتاح — جناية الخطيب على البديع بجعله ذيلا لعلمى البلاغة — اغتراره بصنيع السكاكى — ما الجديد فى البديع عند الخطيب — سعادة الجد تكتب للتلخيص .

***

كان المنحى الذى نحاه عبد القاهر بأصباغ البديع أمثل المناحى وأجلها وأعودها على هذا العلم بأحمد النتائج وأطيبها إذ سلك به كما أسلفت مسلك المباحث التى يتقوم منها أخواه — المعانى والبيان — وجعل الحسن فيه أصيلا يتم الغرض بوجوده ويعدم بعدمه ، وأبرزه فى معرض سليم العبارة صافى الديباجة قوى التصوير ، ينبئ عن ذوق أدبى معدوم النظير ، وقوة فى التحليل والغوص على أسرار الأساليب ليس لها مثيل .

فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، أخذ البديع — كزميليه ينحدر رويدا رويدا . إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التى أبرزته فى معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر فى قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تعديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها كما تحدد الكلمات اللغوية ، وسوق الأمثلة التقليدية التى يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التى ألفت فيه بعد السكاكى كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه ، وذلك مالم نشهده فى المدرسة الأولى ، وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران فى العناية بالجدل الذى لايفيد ، وافتراض الاعتراضات والشبه ، ثم الاشتطاط فى الإجابة عليها مما قضى على البديع وذهب بروعته الأدبية وأورده موارد العقم والجمود .

وكان زعيم هذه الحلبة وممهد هذه الطريقة ، سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن على السكاكى (١) الخوارزمى (٢) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، شهد له ابن فضل الله فى المسالك(٣) قال : « ذوعلوم سعى إليها فحصل طرائقها ، وحفر تحت جناحه طوابقها ،واهتز للمعانى اهتزاز الغصن البارح(٤) ، ولز من تقدمه فى الزمان لز الجذع الضارح . فأضحى الفضل كله يزم بعنانه ، ويذم السيف ونصله بسنانه » . وقال أبوحيان فى الارتشاف (٥) « كان علامة بارعا فى فنون شتى خصوصا المعانى والبيان ، وله كتاب « مفتاح العلوم » فيه اثنا عشرعلما من علوم العربية » وقد تلقى الفقه عن سديد بن محمد الخياطى ومحمود بن صاعد الحارثى شيخ الإسلام وهما من علماء الفقه على مذهب أبي حنيفة ، سوى أن الذين ترجموا له على كثرتهم لم يحدثونا عن شيخه فى العربية ولعلهم أغفلوا هذا اعتمادا على تصريح السكاكى به فى غير موطن من المفتاح .

قال (٦) . وأرى أن شيخنا الحاتمى ذلك الإمام فى أنواع من الغرر الذى لم يسمع بمثله فى الأولين ولن يسمع به فى الآخرين ، كساه الله حلل الرضوان ، وأسكنه حلل الروح والريحان ، كان يرى هذا الرأى .. الخ » . ولانعرف من أمر الحاتمى أكثر من هذا ، سوى أن سعد الدين التفتازانى قال فى شرح القسم الثالث من المفتاح . « أن الحاتمى يلقب شرف الدين »

---

(١) قال السيوطى فى بغية الوعاة – ٤٢٥ ( أن أبا حيان يسميه فى الارتشاف ابن السكاك ) فقال الخفاجى فى شفاء الغليل . « يحتمل أن يكون نسبة إلى السكاك بائع السكك وهى المحاريث التى يحرث بها الأرض » أو لعله نسبة إلى صنعة السكة التى يضرب بها الدراهم .

(٢) نسبة إلى خوارزم التى نشأ بها . وهى كورة واسعة فى تخوم العجم مما يلى بلاد الترك فى الشمال الشرقى لبلاد الفرس وتوفى فى أيل كند سنة ٦٢٦ ، وترجم له كثير عدا السيوطى منهم القرشى فى « الجواهر المضية فى طبقات الحنفية » . وهو مخطوط بالدار تحت رقم ٢٥ م تاريخ وقد طبع بالهند سنة ١٣٣٢ هـ ؛ ومنهم ابن السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى فى ترجمة القفال المروزى جـ ٣–١٩٩ وغير هؤلاء .

(٣) بغية الوعاة – ٤٢٥ .

(٤) الظاهر أنها للبارح ومعنى البارح الريح الحارة فى الصيف ومن الصيد مامر من ميامنك إلى إلى مياسرك (ق) لز : شد . الضارح : الرامح .

(٥) بغية الوعاة ٤٢٥ . (٦) ص ٢١٨ مفتاح .

وهكذا تجد السكاكى يطريه ويشيد بعلمه،ويشهد له بالتفوق والتبريز فى غير موطن من كتابه ، ولا ننسى إفادته من كتب السابقين جميعا ولاسيما كتابا عبد القاهر الجرجانى ..

وأيا ما كان فقد نبغ السكاكى فى فنون كثيرة وخلف آثارا وفيرة ، وكان من أخطرها شأنا وأبعدها صيتا كتاب « مفتاح العلوم » الذى رزق من الشهرة والرواج واشتغال الناس به اختصارا وشرحا ، وتقريرا ونظما ما لم يرزقه كتاب كان قبله أو بعده من كتب العربية .

أما الباعث على تأليف المفتاح فذلك ما يحدثنا به السكاكى يقول :(١) « واعلم أن علم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع وشىء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف التمام ، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ فى العربية وسلوك جادة الصواب فيها اعترض دونك منه أنواع تلقى لأدناها عرق القربة ولاسيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبلك منها مالا يبعد أن يرجعك القهقرى وكأنى بك — وليس معك من هذا العلم إلا ذكر النحو واللغة — قد ذهب بك الوهم إلى أن ماقرع سمعك هو شىء قد افتر عنه عصبية الصناعة لاتحقيق له ، وإلا فمن لصاحب علم الأدب بأنواع تعظم تلك العظمة ، لكنك إذا اطلعت على مانحن مستودعوه كتابنا هذا مشيرين فيه الى ما يجب الإشارة إليه — ولن يتم لك ذلك إلا بعد أن تركب له من التأمل كل صعب وذلول — علمت إذ ذاك أن صوغ الحديث ليس الا من عين التحقيق ، وجوهر السداد،ولما كان حال نوعنا هذا ماسمعت ،ورأيت أذكياء أهل زمانى الفاضلين الكاملى الفضل قد طال إلحاحهم على فى أن أصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ منه ، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكى صنفت هذا ، وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية وسميته « مفتاح العلوم » .

---

(١) ص ٣ مفتاح .

محتويات المفتاح :

ضمن السكاكى كتابه المفتاح من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رآه لابد منه للأديب ، فأودعه علم الصرف بتمامه ، وبين أنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة ، وقد كشف عنها القناع ، وأورد علم النحو بتمامه وبين أن تمامه بعلمى المعانى والبيان ، ثم بين أن تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال فأتى بهما ، ولما كان التدرب فى علمى المعانى والبيان موقوفا على ممارسة باب النظم وباب النثر ، أوردهما فى كتابه ثم لما كان صاحب النظم يفتقر إلى علمى العروض والقوافى ثنى عنان القلم إلى إيرادهما ، ثم أشار إلى أنه ماضمن كتابه كل أولئك إلا بعد تمييز بعضها عن بعض التمييز المناسب ، وتلخيص الكلام على حسب مقتضى المقام والتمهيد لكل من ذلك بأصول لائقة ، وإيراد الحجج المناسبة وتقرير ماصادف من آراء السلف بقدر ماتحتمله من التقرير مع الإشارة إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفتنة لم يعرض لها أحد من قبله .

أقسام المفتاح :

قسم هذا الكتاب ثلاثة أقسام . القسم الأول فى علم الصرف . القسم الثانى . فى علم النحو . القسم الثالث : فى علمى المعانى والبيان . ولكن الذى نال الحظ الأوفر من الشهرة ، ورزق سعادة الجد وحسن الطالع وموفور العناية من الناس وكان محل الرضا وموطن الإجلال منذ ظهر إلى الوجود الى هذا الأوان هو القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان .

وذلك أنه قد نحا بالبلاغة نحوا جديدا لم ينح على هذا الوجه من قبله ، فجرى على طريقة من الضبط والتقسيم ، والتحديد والتدرج فى توليد المسائل اللاحقة عن المسائل السابقة والإحالة على قواعد العلوم الأخرى ، والكشف عن سر انحصار العلم فى أبوابه أو الباب فى مسائله ، واقرأ ان شئت فصلا عقده لضبط معاقد علم المعانى (١) واستعرض هذا القسم من الكتاب تره قد غمس قواعد البلاغة فى بحار العلوم العقلية من منطق وفلسفة ، وجرى فى ذلك الى غاية بعيدة المدى مترامية الأطراف كانت أولى الخطوات

(١) ص ٧٠ مفتاح .

الواسعة بعد قدامة — فى النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذى عليه الآن ، واقرأ للتدليل على ذلك مثالا من أمثلة كثيرة قوله فى المقدمة (١) « وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف لاجرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر تقدما استحقه طبعا » . ومثالا آخر . قال فى أول علم المعانى (٢) . ولما كان علم البيان شعبة من علم المعانى لاينفصل عنه إلا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لاجرم آثرنا تأخيره » . ومثالا آخر قال (٣) : وأما الحالة التى تقتضى وصف المعرف وهى إذا كان الوصف مبينا له كاشفا عنه كما إذا قلت « الجسم الطويل العريض العميق محتاج الى فراغ يشغله » وهكذا إذا قرأت ما سطره فى الجامع بين الجملتين من باب الفصل والوصل ، وما صنعه فى تقسيم وجه الشبه من باب التشبيه حيث بناه على قواعد الحس المشترك ، وما قدمه بين يدى علم البيان من حديث الدلالات ، استدللت على صدق مانقول ، من أن السكاكى أول جان على هذه العلوم بسلاح المنطق والفلسفة على هذا الوجه المسرف الذى رأينا بذوره الأولى عند قدامة ابن جعفر فى نقد الشعر ، فأمعن فيه السكاكى ،واستحلى مذاقه حتى ودعت البلاغة عصرها الذهبى الحافل بالذوق الأدبى بانطواء صفحة أستاذها الأول والأخير عبد القاهر الجرجانى .

وقد صادفت هذه الطريقة رواجاً عند المتأخرين فأسرفوا فى استعمالها حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق والفلسفة ،وعلم الكلام،وما إلى ذلك ، فأما البلاغة فالعفاء عليها وسط هذه الأخلاط ،أوقل إنشئت فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف وسط هذه السحب المتراكمة يبدو قليلا ثم يختفى كثيراً ، كان ذلك شأن الذين خلفوا السكاكى وتملأوا من طريقته إلا قليلا ممن رحم الله فى أوقات قليلة ، أقرأ قول السعد فى المطول (٤) بعد أن أفاض بما فتح الله عليه فى شرح مقدمة علم البيان « هذا هو الكلام فى شرح مقدمة علم البيان على ما اخترعه السكاكى . وأنت

(١) ص ٣ .
(٢) ص ٧٠ .
(٣) ص ٨١ .
(٤) ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

خبير بما فيه من الاضطراب ، والأقرب أن يقال : علم البيان . علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية ، ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التى أوردها فى صدر هذا الفن » وأقرأ قوله فى التعليق على أقسام التشبيه : (١) « واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الإمام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها .

أما أسلوب السكاكى فقد كان برزخاً بين المتقدمين الذين جمعوا فى منحاهم بين العلم والعمل ، وبين المتأخرين الذين أوردوا البلاغة موارد العلوم النظرية واكتفوا منها بتحديد الألوان كما تحد ألوان العروض ، أو ألفاظ اللغة ، وجروا شوطاً بعيداً متسابقين فى الاختصار المخل ، أو الإطناب الممل والجرى وراء مالا يجدى البلاغة ويفيدها .

لذلك كان السكاكى كثيراً ما ينزع إلى الغموض والالتواء ، ويكثر من الجمل المعترضة التى تضطر القارئ إلى الوقوف حيالها وإعمال الفكر فى حلها وبذل المجهود الشاق فى ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض .

ولعل ذلك هو السر فى أنه أول كتاب فى العربية استنفد الجهود الكثيرة وشغل الأقلام الوريدة فى الشرح والتبيين ، والتوضيح والتقرير . وقد أحس السكاكى نفسه بالغموض يشيع فى جنبات كتابه ، فعزم على إملاء حواش على هذا الكتاب ببسط ما أجمله وتوضيح ما أبهمه ، اقرأ قوله فى مقدمة كتابه : (٢) « وهأنا ممل حواشي جارية مجرى الشرح للمواضع المشكلة ، مستكشفة عن لطائف المباحث المهملة ، مطلعة على مزيد من تفاصيل فى أماكن تمس الحاجة إليها » ذلك ما صرح به السكاكى بنفسه فى كتابه . إلاّ أن من عرضوا للكتاب بالاختصار أو الشرح لم يذكروا شيئاً عن هذه الحواشى ولعل المنية عاجلته قبل أن يبر بهذا الوعد وينجز هذا العزم .

نقول هذا للحقيقة والتاريخ ، وذلك لا ينسينا ما أفادته البلاغة على يد

(١) المطول ص ٣١٩ .

(٢) ص ٣ مفتاح .

السكاكى من حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، وإحكام التمييز بين مباحث علم المعانى وعلم البيان (١) . فإن هذا مما يحمده التاريخ للسكاكى ، ولو سلم هذا القسم من مزجه بالعلوم العقلية لكان هذا من خير المؤلفات التى ألفت فى البلاغة فى جميع عصورها .

والذى يهمنا من هذا القسم هو ما عرض له السكاكى من أصباغ البديع وللسكاكى صنيع لم يسبق إليه فى تاريخ التأليف من حيث فصله وتمييزه بين العلوم التى اشتمل عليها المفتاح ، فقد عرض للفرق بين هذه العلوم جميعاً فى مقدمة كتابه قال (٢) — بعد أن أشار إلى اشتمال الكتاب على ثلاثة أقسام — « والذى اقتضى عندى هذا . هو أن الغرض الأقوم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ فى كلام العرب . وأردت أن أحصل هذا الغرض ، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك فى أربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخر مما لابد من معرفته فى غرضك لتقف عليه ثم الاستعمال بيدك ، وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة . المفرد . والتأليف ، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له ، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هى المرجوع إليها فى كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم ، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما فى المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمى المعانى والبيان فى الأخير (٣) ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه فى المفرد أو فيما هو حكم المفرد ، والنحو بالعكس من ذلك كما سنقف عليه ، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف لاجرم أنا قدمنا البعض على البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتبا استحقه طبعاً »

أما القسم الثالث الذى اشتمل على علمى المعانى والبيان فقد رتبه على مقدمة لبيان حدى العلمين والغرض منهما ، وفصلين لضبط معاقدهما والكلام

(١) إلا أن ما ذكره من العلاقة بينهما محل نظر عندى سأبينه فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

(٢) ص ٣ مفتاح .

(٣) هو كون المركب مطابقا لما يجب أن يتكلم له .

على مسائلهما ، والسكاكي أول من أطلق اسم «علم المعاني» على المباحث التي بحثها فيه وإن كان قد اقتبس ذلك الاسم من تعريف النظم وشرح الغرض منه عند عبد القاهر ، وأول من أطلق على مباحث : التشبيه، والمجاز ،والكناية اسم «علم البيان» بل هو أول من فرق بين مباحث هذين العلمين(١) على هذا الوجه من الضبط والتحديد وأول من حكم على علم البيان بأنه متنزل من علم المعاني منزلة المركب من المفرد — فينبغي أن يتأخر علم البيان عن علم المعاني ، وإن كان لي موقف حيال هذه العلاقة سأعرض له في القسم الثاني بمشيئة الله تعالى .

وقد عرف السكاكي البلاغة بقوله : هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ثم أشار إلى طرفيها الأعلى والأسفل وإلى ما بينهما من مراتب متفاوتة . ثم نوع الفصاحة إلى نوعين : نوع راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد، ونوع راجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ..... ألخ .

ثم خلص من ذلك قال :(٢) وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ،وقسم يرجع إلى اللفظ . فمن القسم الأول . (١) المطابقة . (٢) المقابلة . (٣) المشاكلة (٤) مراعاة النظير . (٥) المزاوجة . (٦) اللف والنشر . (٧) الجمع . (٨) التفريق. (٩) التقسيم. (١٠) الجمع مع التفريق. (١١) الجمع مع التقسيم . (١٢) الجمع مع التفريق والتقسيم . (١٣) الإيهام « وهي التورية » . (١٤) ومنه تأكيد المدح بما يشبه الذم . (١٥) التوجيه . (١٦) سوق المعلوم

(١) وهذا لا ينافي ما جاء في مقدمة الكشاف للزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ حيث صرح بما يفيد أن المعاني علم، والبيان علم آخر ،إذ أن ذلك كان على عرف المتقدمين من عدم التمييز بينهما على هذا الوجه الذي نحاه السكاكي بدليل أن الزمخشري قال في تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » إنه من الصنعة البديعية وهكذا من الخلط الكثير بين مسائل العلمين مما لا يفوت المتتبع لكشافه

(٢) ص ١٧٥ بما ليست لي حاجة إلى إيراده .

مساق غيره — ولم يحب أن يطلق عليه اسم «تجاهل العارف» كماهو عرف المتقدمين ، ولعل ذلك لوروده فى القرآن الكريم — . (١٧) الاعتراض . ويسمى الحشو كما سماه عبد القاهر . (١٨) الاستتباع . (١٩) الالتفات ، وقد أشار إلى أنه سبق ذكره فى علم المعانى . (٢٠) تقليل اللفظ ولا تقليله . مثل : يا وهيا وغاض وغيض ، إذا صادفا الموقع ، ويتفرع عليهما الإيجاز فى الكلام والإطناب فيه وقد سبقا فى علم المعانى .

تلك هى ضروب البديع المعنوية ساقها سوقاً موجزاً اكتفى فيه بتحديدها وإردافها وإزجائها بمثال واحد أو مثالين دون أن يشير كما أشار عبد القاهر أو أبو هلال مثلا إلى أسرار الأساليب ، وتبيين جمالها وروعتها .

ثم قال ومن القسم الثانى « الأضرب اللفظية » .

(١) التجنيس . وقد أشار إلى ضبط أنواعه المستحسنة وساق لها الأمثلة (٢) ومن جهات الحسن رد العجز على الصدر . (٣) والقلب . (٤) والأسجاع . (٥) والترصيع .

وهو فى أثناء ذلك يحدد تلك الألوان ويسوق الشواهد .

وقد ذيل هذا القسم بقوله :(١)« وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى ،لا أن تكون المعانى لها توابع أعنى ألا تكون متكلفة ، ثم قال . ويورد الأصحاب ها هنا أنواعاً مثل كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ، أو البعض منقوطاً ، والبعض غير منقوط بالسوية ، فلك أن تستخرج من هذا القبيل ماشئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت » .

على هذا الوجه الذى رأيت عرض السكاكى للبديع وقسم ألوانه إلى قسمين معنوى ولفظى ، وهو مسبوق بهذا التقسيم وبتلك الألوان كما أسلفنا ، وليس له من جديد فيها إلا تسمية « تجاهل العارف » « سوق المعلوم مساق غيره » وليس لهذا وما شابهه كبير خطر فى جوهر العلم ولبابه ، وقد نال البديع من طريقة السكاكى فى القسم الثالث التى ألمعنا إليها ، هذا السرد القائم على الاكتفاء بتعديد الألوان وتحديدها وإردافها بمثال واحد مشفوع بشرح موجز

---

(١) ص ١٧٩ مفتاح .

لا يكشف عن روعة الأساليب، ولا ينبيء عن جلالها الأدبى الذى ينبغى أن أن يحتذى ، كما فعل عبد القاهر ومن تقدمه ممن جمعوا بين البحث العلمى وحسن العرض الأدبى فى البديع .

إلا أننا نلحظ ها هنا أن السكاكى — وقد فصل بين علمى المعانى والبيان وأطلق عليهما هذين الاسمين — لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين بل على أنها تشارك مسائلهما فى تزيين الكلام بأبهى الحلل والوصول به إلى أعلى درجات التحسين ، ولم يشر السكاكى إلى أن هناك فرقاً بين هذه الألوان وبين غيرها من مباحث هذين العلمين بل تراه يذكر ضمين هذه المحسنات : الالتفات ، والإيجاز ، والإطناب ، وينبه القارىء إلى أن هذه الألوان قد سلف الحديث عنها فى علم المعانى .

ونظرة إلى تحديد السكاكى لهذين العلمين تقفنا على مبلغ عذره فى هذا الصنيع ، فقد عرف علم المعانى بقوله (١) « هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة ومايتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره(٢) . وعرف البيان بقوله(٣) : « هو معرفة إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه » . ثم حصر علم المعانى فى مسائله التى عرض لها ، وكذلك علم البيان ، فهذا الحصر بعد هذا التحديد للعلمين جعل هذه المحسنات البديعية لا تندرج ضمن مسائل العلمين ، ولما كان تعريفه البلاغة بقوله « هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » . شاملا لهذه المحسنات جعلها متضافرة مع مسائل العلمين فى البلوغ بالكلام إلى أعلى درجات التحسين والتزيين . فكأن السكاكى يشير بهذا الصنيع إلى أن من هذه المحسنات ما يمكن رجوعه إلى علم المعانى كالطباق ونحوه ، على أنه قسم آخر منه راجع إلى الجملة من حيث هى جملة ، وليس راجعاً إلى أجزائها كما هو الشأن فى أكثر أبحاث

---

(١) ص ٧٠ مفتاح .

(٢) وقد اعترض الخطيب القزوينى فى الإيضاح على هذا التعريف .

(٣) ص ٧٠

المعانى ، ومنها ما يمكن أن يرجع إلى مسائل البيان كالمشاكلة ونحوها وإن كانت هناك فوارق يسيرة من السهل إزالتها أوغض النظر عنها .

ولقائل أن يقول . إن السكاكى بعد أن انتهى من علمى المعانى والبيان عرض لتعريف البلاغة والفصاحة ، وهاتان من قبيل المقدمات لهذين العلمين ولا ينفى عنهما هذا الاسم تأخير السكاكى لهما ووضعهما فى ذيلهما ، ثم ضم إليهما هذه المحسنات ، وهذا الصنيع يشير إلى أن محسنات البديع من قبيل المقدمات التى لابد منها لطالب علمى المعانى والبيان فهلا اعتبرتها كذلك .

وأنا أقول إن هذا احتمال قريب الخطور سهل المأخذ من صنيع السكاكى ولا مانع عندى من جعلها من قبيل المقدمات التى لابد منها فى البلاغة ، أوتوزيعها على مسائل العلمين . ذلك ما سنكشف عنه فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

وقد لقى كتاب المفتاح — ولا سيما القسم الثالث منه — عناية لم يسبقه إليها كتاب من كتب البلاغة — قال ابن خلدون فى أثناء حديثه عن علم البيان (١) « ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا (٢) . من الترتيب ، وألف كتابه المسمى بالمفتاح فى النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هى المتداولة لهذا العهد ، كما فعله السكاكى فى كتاب التبيين » . وابن مالك فى كتاب المصباح ، وجلال الدين القزوينى فى كتابى : الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الإيضاح ، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم منه أكثر من غيره » .

وكما كان السكاكى أول الجناة المسرفين على علم البلاغة بإخضاعه للعلوم العقلية فأضاع بهجته ، وأخلق ديباجته ، كان أول الجناة عليها بإلجائها إلى مضايق الاختصار ووسمها بميسم التعمية والإلغاز ، ذلك أنه عمد إلى القسم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ ) .
(٢) المراد به ما يشمل علمى المعانى والبيان .

الثالث فاختصره فى كتاب دعاه ( التبيان) وفتح بذلك باب الاختصار لمن بعده حتى وصلت البلاغة إلى هذا الحد الذى يثير الضحك ، ويبعث على التندر ، ومرد ذلك كله إلى من أوردها تلك الموارد وهو السكاكى .

وإذا كان القسم الثالث قد استنفد هذه الجهود فى الاختصار فقد استنفد أخرى فى نظمه ، وأخرى فى شرحه ، وقد أحصى صاحب كشف الظنون(١) عدداً وافراً من المؤلفات يمثل هذه الطوائف الثلاث .

## ٢ — البديع فى المثل السائر
### لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ ﻫ

وإذا تركنا السكاكى إلى غيره من علماء عصره وجدنا البديع ينهج منهجاً آخر فضفاضاً، ويسترد إلى حد ماصفته الأدبية،ويبرز فى معارض محلاة بحلل البيان موشاة بزخرف الأدب الجم ، وإن كان يتشح بأظهر صفات ذلك العصر من النزوع به إلى الضبط ، وإلحائه إلى الحصر ، وغمسه فى جداول المنطق والفلسفة غمساً ، وإن كان يتطامن كثيراً عن المستوى الذى بلغه به السكاكى — إلا أنه خلط على أى حال ومباينة للطريق الذى سلكه به رجال المدرسة الأولى ، ممن جنبوه تلك الموارد التى وردها على يد زعماء هذه المدرسة ، فبينما السكاكى يرزح تحت أعباء هذه الطريقة الشاقة التى اختطها لنفسه فى البلاغة والتى أسلفت الحديث عنها قريباً ، إذا بعالم معاصر له غزير العلم وافر الحفظ ، طويل الباع فى الكتابة والنقد يجول فى البديع جولات ، ويحاول فيه محاولات إن لم تحمد كلها فقد عادت على هذا العلم بفوائد لا يجحد فضلها ، وكانت مورداً من موارد استقى منها المتأخرون ما رتبوه « وقننوه » ذلك هو ، نصر بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب العالم الوزير أصغر ثلاثة الإخوة الذين عرفوا ببنى الأثير (٢) ولد بجزيرة ابن عمر (٣) ونشأ بها

( ١ ) ج ٢ — ٤٨٠ وما بعدها .

( ٢ ) أكبرهم مجد الدين المحدث المتوفى سنة ٦٠٦ ، وأوسطهم عز الدين المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٠ وأصغرهم من نحدثك عنه . وقد ترجم له ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢—١٠٨ ، وخير الدين الزركلى فى كتاب الأعلام ج ٣ — ١٠١ .

( ٣ ) بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام . معجم البلدان ج ٣ — ١٠٢

وإليها نسب ، ثم انتقل مع والده إلى الموصل ، فأكب على العلوم واختص بعنايته وجهده فنون اللغة والبلاغة والأدب ، وحفظ الكثير من بليغ النظم والنثر حتى أصبح كاتباً بليغاً ومنشئاً مجيداً ، وعارض القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ صاحب الطريقة المشهورة فى رسائله فإذا أنشأ القاضى رسالة أنشأ ابن الأثير مثلها وتعدى ذلك إلى مكاتباته ومجاوباته وإن بدت عليه الكلفة أحياناً .

وعلى الرغم من اضطلاع ابن الأثير بأعباء وزارات مختلفة قد ورث اللغة العربية ثروة قيمة ممتعة كان من أجلها شأناً وأبعدها صيتاً كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وهو متعالم مشهور لدى هواة الأدب ورواد البلاغة. فقد جمع فيه كل ما يتعلق بفن الكتابة والقريض حتى استولى على الأمد واستحوذ على إعجاب كثير من العلماء ، اقرأ قول بعض علماء البلاغة والأدب « إن المثل السائر فى النظم والنثر وصناعة الكتابة والبيان بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام فقد أتى فيه بما لم يسبقه أحد إليه »(١) وقد أحس ذلك ابن الأثير فأعجب بنفسه ، وفخر بسبقه ، وزهى بحسن تصرفه فى الكتابة فراح يشيد بذكر نفسه بمناسبة وغير مناسبة حتى لم تخل صفحة من كتابه على سعته — من غير أن يشيد فيها بسبقه ويشغلها بنماذج من كتابته . وقد اطلع ابن الأثير على جل ما كتب قبله فى هذا الفن فنضح كل أولئك على فكره وظهر أثره واضحاً فى كتابه ، إلا أنه لم يصرح بإعلان رضاه إلا عن كتابين أولهما : كتاب الموازنة للآمدى ، وثانيهما : سر الفصاحة للخفاجى . وإن كانا لم يسلما فى نظره السلامة كلها ، غير أن المتصفح لكتابه هذا يجده قد تأثر بغيرهما تأثرا بعيد المدى لا يقل عن تأثره بهذين .

فقد انتفع بابن المعتز فى « البديع » ، وبقدامة فى « نقد الشعر » وإن كان يناقشه الرأى أحياناً ، وبأبى هلال فى « الصناعتين » وبابن أفلح البغدادى فى مقدمته ، وبابن جنى فى « الخصائص » وبابن حمدون البغدادى فى ( التذكرة ) وبغير هؤلاء ممن إذا طلبتهم بين كتابه لم يفوتوك ، ومن العجيب أنه كثيراً ما يقتبس من عبد القاهر ويدعى أنه من ابتكاره دون أن يشير إليه فى هذا الكتاب المترامى الأطراف بكلمة واحدة ، ولا نستطيع أن نحسن به

---

(١) التعريف ص ٩٠ القسم الخاص بأستاذنا نجاتى بك .

الظن إلى حد يجعلنا نقول . أنه لم يطلع على ما كتبه عبد القاهر ، وإذن فقد جره اعتداده بنفسه إلى أن يغمط عبد القاهر حقه ، وإلى أن يحاول التغطية على فضله ، ولكن هيهات فالفرق بين والبون شاسع ، وشتان ما بين الطريقتين واقرأ للتدليل على ما نقول قوله — حيث يدعى أنه السابق إلى أن اللفظة الواحدة تحسن فى موضع وتقبح فى موطن .

وانظر إلى مثال من أمثلته . وهو قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة : —

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا[1]

وقول أبى تمام : —

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فلفظة الأخدع وردت فى بيتين من الشعر وهى فى أحدهما حسنة رائقة وفى الآخر ثقيلة مستكرهة . ثم قال . ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ما وجد لها فى بيت الصمة من الروح والخفة والإيناس والبهجة ، وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة فى أحدهما مثناة فى الآخر ، وكانت حسنة فى حالة الإفراد مستكرهة فى حالة التثنية وإلا فاللفظة واحدة وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى » ولو قرأت هذا فى موطنه من دلائل الإعجاز لوجدت هذين البيتين ، ووقفت على قرب الطريقتين ، وعدت على ابن الأثير باللوم على هذا الإسراف فى دعوى السبق والتبريز .

إلا أن ذلك وأبعد منه لا يغض من شأن هذا الكتاب ولا ينقص من قيمته وعوده بالفائدة على علم البديع .

الباعث على تأليف الكتاب : وقد ذكر ابن الأثير ما حفزه على النهوض بهذا العبء ودفع به فى هذه المضايق ، مما تلمح منه الهدف الذى يرمى إليه من حرصه على السبق وولوعه بأن يغطى على السابقين . قال فى المقدمة :

---

(١) الليت : صفحة العنق ، الأخدع : عرق فى المحجمتين وهو شعبة من الوريد جمعه أخادع.

« اما بعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتباً ، وجلبوا ذهباً وحطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ماينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة ، فإنه قد أكثر مما قلّ به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها . ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لاحاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذ عنه الصواب فيها ، وسيرد بيان ذلك كله فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبواباً ، ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً وتركا لبابا ، وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ولم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها ، وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها ها هنا وشفعتها بضروب أخر مدونة فى الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى متبعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب » .

من هذا ترى مبلغ إدلال ابن الأثير بمؤلفه هذا ، وتلمس محاولته لغمط أسلافه والغض من شأنهم ، ويتراءى لك هذا بوضوح فى كل صفحة من صفحات كتابه ، وقد كان ذلك حافزاً لبعض العلماء أن يتعقبوه . فانبرى للرد عليه فى بعض المواطن عز الدين ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ فى كتاب صغير سماه « الفلك الدائر على المثل السائر (١) » ثم انتصر له صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ فى كتاب سماه « نصرة الثائر على المثل

---

(١) طبع بالهند سنة ١٣٠٩

السائر » . انتقد فيه ابن الأثير واستدرك عليه أشياء غربت عنه ناعياً عليه إعجابه بنفسه واختياله بعمله .

منهجه فى البحث : وقد تأثر ابن الأثير بصنيع قدامة فى « نقد الشعر » وصنيع الخفاجى فى « سر الفصاحة » حيث وزع المباحث بين اللفظ والمعنى ، وأربى عليهما بالضبط والتقسيم ، والشرح والتبيين ، والفصل بين الألوان المشتبهة ، والإكثار من الأمثلة والشواهد وإن تأثر أسلوبه فى كتابه بأساليب عصره ، التى تبدو فيها الصناعة اللفظية واضحة جلية على رغم نعيه على كتاب عصره الذين يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها (١) والمتصفح لكتابه يراه ملماً بثقافات عقلية طغت عليه فى بعض المواطن ونحاها عن مسلكه فى بعضها الآخر واقرأ للتدليل على الأول فى أثناء حديثه عن الكناية وأنه يتجاذبها جانب الحقيقة وجانب المجاز حيث يفرض الاحتمالات العقلية يقول(٢): « فلا تخلو إما أن تكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانباً مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع .. ثم يكر على هذه الأقسام فيبطل مالايستقيم مع رأيه .. ألخ » وأقرأ رده على ابن سنان الخفاجى حيث قال . ينبغى ألا تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ولا الألفاظ التى تختص بها بعض المهن والعلوم ... ألخ . (٣) » تجد ابن الأثر يرد عليه الحظر ويبطله ، ويبيح للشاعر والناثر أن يستعمل ماشاء من ألفاظ العلوم (٤) ، وغير خاف أن هذا قد فتح على على الشعر باباً من السقم والضعف وأسلمه للعقم والجمود .

واقرأ للتدليل على الثانى قوله فى مبحث التقسيم (٥) « ولسنا نريد بذلك ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب إليه المتكلمون فإن ذلك يقتضى أشياء مستحيلة كقولهم : —

---

(١) انظر ص ١٣٩ من المثل السائر .
(٢) ص ٢٤٩ المثل السائر .
(٣) ص ١٥٩ سر الفصاحة
(٤) ص ٣٠٨ المثل السائر .
(٥) ص ٢٩٢ المثل السائر.

الجواهر لا تخلو . إما أن تكون مجتمعة ، أو مفترقة ، أو لا مجتمعة ولا مفترقة ، أو مجتمعة ومفترقة معاً ، أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة . ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام جميعها وأن من جملتها مايستحيل وجوده . وإنما نريد بالتقسم هاهنا مايقتضيه المعنى مما يمكن وجوده .... ألخ » .

وتراه فى جل المباحث يعرض أقوال العلماء السابقين ثم يخلص منها إلى ما هو الصواب بإبطال هذه الآراء أو إقرار بعضها ورفض بعضها الآخر ، ثم ينبه على مبلغ سبقه ثم يأتى بشواهد كثيرة من القرآن والحديث وشعر القدامى والمحدثين ، ولا يخلى ذلك من شواهد وافرة من كتابته هو .

والذى يعنينى من هذا الكتاب هو ماعرض له ابن الأثير من ألوان البديع ، وذلك يقتضينا عرض صورة مصغرة لما احتوى عليه الكتاب تغنى القارئ عن مراجعته على أن ابن الأثير لم يعرض لكلمة « البديع » إلا فى موطن واحد حيث أطلق على الطباق اسم « البديع » كما سيأتى : —

محتويات الكتاب :

بنى ابن الأثير كتابه على مقدمة ، ومقالتين .

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه ، فالمقالة الأولى فى الصناعة اللفظية ، والمقالة الثانية فى الصناعة المعنوية .

أما المقدمة :

فإنها تشتمل على عشرة فصول . أما الفصل الأول . ففى موضوع علم البيان ، وقد عرض فيه لبيان موضوع كل علم قال : هو الشيء الذى يسأل فيه عن أحواله التى تعرض لذاته ، ثم عرض لموضوع الفقه والحساب وما إليهما . ثم قال (١) فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية ، ثم عرض لما بينه وبين النحو من اشتراك وافتراق: قال : وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى

(١) ص ٣

فضيلة تلك الدلالة وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب . ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم مافيه من الفصاحة والبلاغة ، ومن هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وأما الفصل الثانى (١) — فى آلات علم البيان وأدواته ، وقد عد فيه ما ينبغى للناظم والناثر الالمام به من نحو وتصريف ولغة وما إلى ذلك ، وبين أن ملاك ذلك كله الطبع المواتى والفطرة المساعدة .

وأما الفصل الثالث (٢) — فى الحكم على المعانى ، وقد بين فيه أن الأصل فى المعنى أن يحمل على الظاهر ، ولا يلجأ فيه إلى التأويل إلا بدليل ، ثم فرق بين التفسير والتأويل .

وأما الفصل الرابع (٣) : فى الترجيح بين المعانى ، وقد بين فيه مواضع الترجيح بين وجوه تأويلات المعنى .

وأما الفصل الخامس (٤) : فى جوامع الكلم .

وأما الفصل السادس (٥) : فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن .

وأما الفصل السابع (٦) : فى الحقيقة والمجاز ، وقد عرف الحقيقة ، ثم عرف المجاز ثم أشار إلى نوعيه من استعارة واتساع ، إلماما مجملا ونبه على أن للتفصيل محلا سيأتى :

وأما الفصل الثامن (٧) : فى الفصاحة والبلاغة . وقد بين فيه مأخذ

---

(١) ص ٣ — ١٣
(٢) ص ١٣ — ١٧
(٣) ص ١٧ — ٢١
(٤) ص ٢١ — ٢٢
(٥) ص ٢٢ — ٢٣
(٦) ص ٢٣ — ٢٦
(٧) ص ٢٦ — ٢٩

الفصاحة من اللغة ثم ساق كلام العلماء ولم يرتضه ، ثم بين أنها تخص اللفظ دون المعنى ، وأما البلاغة فهى شاملة للألفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة وهو مسبوق بهذا من ابن سنان ثم فرق بينهما فرقا آخر قال : إن البلاغة لا تكون إلا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة ، إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما ، وذلك قريب من الأول الذى ساقه .

وأما الفصل التاسع (١) : ففى أركان الكتابة ، وقد أشار فيه إلى أن للكتابة شرائط وأركانا . أما شرائطها فكثيرة ، وأما الأركان التى لابد من إيداعها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة : (١) حسن المطلع . (٢) أن يكون الدعاء المودع فى صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذى بنى عليه الكتاب . (٣) حسن التخلص . (٤) ألا تكون الألفاظ مخلوقة بكثرة الاستعمال ، وليس المراد بهذا أن تكون ألفاظا غريبة فإن ذلك عيب فاحش وإنما المراد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع معه أنها غير ما فى أيدى الناس وهى مما فى أيديهم . (٥) ألا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن والحديث .

وأما الفصل العاشر (٢) : فى الطريق إلى تعلم الكتابة . وقد بين أن هذا الفصل كنز الكتابة ونبه على أن أحدا لم يتكلم فيه بشىء ثم وجد هو أن الطريق فيها ينقسم إلى ثلاث شعب . الأول أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ثم يحذو حذوهم وهذه أدنى الطبقات عنده . (الثانى) أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة إما فى تحسين ألفاظ أو فى تحسين معان ، وهذه هى الطبقة الوسطى ، وهى أعلى من التى قبلها . ( الثالث ) ألا يفعل شيئا من ذلك بل يصرف همه إلى القرآن والأخبار النبوية ودواوين الفحول ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة فيقوم ويقع ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدى حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وتلك أحمد الطرق وأجلها

(١) ص ٢٩ .

(٢) ص ٣٠ .

عنده ، ثم عرض بعد ذلك لحل المنظوم وبين طرقه ، ثم وضح ذلك بشواهد من بينها الكثير لنفسه . وبذلك ينتهى حديثه عن أصول علم البيان ، ثم يأخذ فى التعرض لفروعه يقول :

المقالة الأولى (١) : فى الصناعة اللفظية ، وقدقسمها قسمين :

القسم الأول : فى اللفظة المفردة ، وقد بين أن صاحب هذه الصناعة محتاج فى تأليفه إلى ثلاثة أشياء . الأول : اختيار الألفاظ المفردة . الثانى : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجىء الكلام قلقا نافراً . الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام، فالأول والثانى من هذه الثلاثة هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة . ثم خلص من ذلك إلى بيان أن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وماكرهه ونبا عنه فهو القبيح، وإذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ماذكر من تلك الخصائص والهيئات التى أوردها علماء البيان فى كتبهم .... ثم عرض لما ذكره ابن سنان فى « سر الفصاحة » مما يتعلق باللفظة المفردة ورد عليه فى أشياء منها لا تمس هذا العلم وليس فى حاجة إليهـــا .

وقد أسلفنا قريبا أن الذى يهمنا من مباحث هذا الكتاب الفضفاض الطويل الذيول هو ما عرض له من ألوان البديع ، ولذلك رأينا ألا نتعب القارئ بإعطائه صورة أوسع من هذه مما لا يمس غرضنا المروم ، وسنلزم القصد أيضاً فيما عرض له من تلك الأصباغ لأنه ميال إلى الإطناب محب للإسهاب مكثر من الاعتراضات والأجوبة ، والشواهد والأمثلة وإذ كان ذلك غرضنا فالقسم الثانى من المقالة الأولى هو أول شىء يهمنا .

القسم الثانى من المقالة الأولى : فى الألفاظ المركبة (٢) وقد عرض فى هذا القسم لألوان من البديع اللفظى : قال : اعلم أن صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية أنواع هى : (١) السجع ويختص بالكلام المنثور. (٢) التصريع .

---

(١) ص ٥٦ .
(٢) ص ٧٤ .

ويختص بالكلام المنظوم . وهو داخل فى باب السجع لأنه فى الكلام المنظوم كالسجع فى الكلام المنثور . (٣) التجنيس . وهو يعم القسمين جميعا . (٤) الترصيع . وهو يعم القسمين أيضا . (٥) لزوم مالايلزم وهو يعم القسمين كذلك . (٦) الموازنة . وتختص بالكلام المنثور . (٧) اختلاف صيغ الألفاظ وهو يعم القسمين جميعا . (٨) . تكرير الحروف وهو يعم القسمين أيضا ، ثم عرض لها تفصيلا .

( ١ ) السجع :

عرفه وبين حكمه كما أسلفنا فى الباب الأول . وأزجى لذلك الأمثلة الكثيرة ثم قسم السجع إلى ثلاثة أقسام . (١) أن يكون الفصلان متساويين وهو أشرف السجع منزلة لما فيه من اعتدال ، ثم ساق له الأمثلة . (ب) أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول طولا لا يخرجه عن الاعتدال ، وإلا كان مطموسا مرذولا ، ثم ساق الأمثلة . (جـ) أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهو عيب فاحش ، ثم خلص من ذلك إلى تقسيم السجع على اختلاف أقسامه إلى ضربين . قصير وطويل . وبين أن الأول أحسن موقعا ، وأوعر مسلكا ، وأن الثانى أقل منه حسنا وأسهل مركبا .

( ٢ ) التصريع [١] :

شرحه وبين مراتبه منبها على أنه لم يسبق بها على هذا الوجه الذى سلكه ولايعنينا أن نعرض له لأنه من مباحث العروض .

( ٣ ) التجنيس [٢] :

أبان عن منزلته فى الكلام من أنه غرة شادخة[٣] فى وجهه ، ثم ألمع إلى تأليف العلماء فيه ، ثم عرفه وقصره على اللفظين المتحدين فى اللفظ المختلفين فى المعنى ، وبين أن ماعدا هذا ليس من التجنيس الحقيقى بل مما شبه به ، ثم قسم التجنيس وما يشبهه إلى سبعة أقسام ؛ أولها : أن تتساوى حروف الألفاظ فى وزنها وتركيبها ، ثم عرض فى أثناء هذا لما سماه العلماء رد الأعجاز على الصدور وأفردوه بباب ، واختار أن يكون من التجنيس دون أن يستقل وحده ، ومعنى

( ١ ) ص ٩٨ . ( ٢ ) ص ٩٩ .
( ٣ ) الغرة الشادخة : المنتشرة .

هذا أن يقصره على ما قصر عليه التجنيس ، ثم عرض لما اتفقا لفظا ومعنى وسماه بعضهم بالترديد ، وبعضهم يسميه التجنيس ، وليس من التجنيس فى شىء ، ثم خلص من ذلك إلى بيان الأقسام الستة التى تشبه التجنيس .

فالأول : التساوى فى التركيب والاختلاف فى الوزن ، والثانى التساوى فى الوزن والاختلاف فى التركيب بحرف واحد ، والثالث الاختلاف فى الوزن والتركيب بحرف واحد ، والرابع — المعكوس وهو ضربان . عكس الألفاظ وعكس الحروف . فالأول كقول بعضهم . عادات السادات سادات العادات ، وقد سماه قدامة التبديل ، وأما عكس الحروف فكقول الشاعر :

جاذبتها والريح تجذب عقربا — من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنّعت — وتحجبت عنى بقلب العقرب

فإذا قلبت العقرب . صارت برقعا .

تلك أقسام التجنيس وما يشبهه عند ابن الأثير .

( ٤ ) الترصيع (١) :

بين مأخذه من اللغة ، وعرفه وساق الأمثلة :

( ٥ ) لزوم مالا يلزم (٢) :

بين أنه من أشق هذه الصناعة مذهبا ، وأبعدها مسلكا وساق أمثلة قديمة ومحدثة .

( ٦ ) الموازنة (٣) :

عرفها بقوله : هى أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى وزن ، وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجزه متساويى الألفاظ وزنا ، وهذا النوع من الكلام أخو السجع فى المعادلة دون المماثلة لأن فى السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال وهى تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد ، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود فى السجع ولا تماثل فى فواصلها . فيقال كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ، فالسجع أخص من الموازنة .

( ١ ) ص ١٠٥ . ( ٢ ) ص ١٠٦ .
( ٣ ) ص ١١١ .

( ٧ ) اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها(١) :

بين منزلته الشريفة من الصناعة ، ثم أخبر بأنه قابل جماعة من مدعى فن الفصاحة ، وفاوضهم فيه فلم يجد عندهم محصولا فى هذا الباب ، وقد ادعى أنه استخرج فيه أشياء لم يسبق إليها ، وساق أمثلة كثيرة من بينها بيت الصمة بن عبد الله القشيرى ، وبيت أبى تمام . وقد أسلفنا الحديث عنهما وبينا أنه مسبوق بعبد القاهر ، ثم عرض للمعاظلة (٢) فقسمها قسمين . لفظية ومعنوية ، واقتصر على تفسير اللفظية لأنها هى المقصودة هنا ، ثم أشار إلى خلاف العلماء فى تبيين حقيقة المعاظلة ، ثم عرض لخطأ قدامة فى تفسيره لها بفاحش الاستعارة ، وعاب على غيره إهمال تقسيمها إلى لفظية ومعنوية .

( ٨ ) المنافرة بين الألفاظ فى السبك (٣) :

أشار إلى حقيقته وقسمه قسمين . الأول فى اللفظة الواحدة ، والثانى فى الألفاظ المتعددة ، ثم نعى على العلماء عدم تحقيقهم لهذا النوع .

ذلك ما عرض له فى القسم الثانى من المقالة الأولى ، وبذلك ينتهى حديثه عن المقالة الأولى ، ويمضى فى المقالة الثانية .

المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية : بين أنها تنقسم قسمين . الأول منها فى الكلام على المعانى مجملا ، والثانى فى الكلام عليها مفصلا ، ثم قسم الأول قسمين . أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، والثانى أن يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، ثم أفاض فى النوع الأول ودعم كلامه بالشواهد الكثيرة وأجمل فى الثانى لأن جل أرباب الصناعة على هذا .

ثم مضى فى الكلام على المعانى مفصلا ، فسرد منها ثلاثين نوعا من بينها التقديم والتأخير وحروف العطف والجر وما إلى ذلك مما ليس من مباحث البديع ، وسنقتصر فيما نعرضه على أصباغ البديع التى عرض لها فى هذه المقالة مبينين منحاه فيها مشيرين إلى مبلغ سبقه فى وحاء وإجمال .

---

( ١ ) ص ١١٢ ( ٢ ) ص ١١٦

( ٣ ) ص ١٢٠

( ١ ) الاستعارة (١) :

وقد مهد للحديث عنها تمهيداً طويلا نجمله فى هذه الكلمة . بين أن للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة وأوصافا عامة ، فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى ، وأماالعامة فكالسجع فيما يرجع إلىاللفظ . وكالاستعارة فيما يرجع إلىالمعنى ، وقد ادعى أنه استخرج ما يذكره فى كتابه ولم يسمع فيه قولا لغيره ، من ذلك أنه قال : والذى انكشف لى بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين .توسع فى الكلام وتشبيه، والتشبيه ضربان . تشبيه تام،وتشبيه محذوف، فالتام أن يذكر المشبه والمشبهبه، والمحذوف أن يذكر المشبه به دون المشبه ويسمى استعارة .

وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبن التشبيه التام ، وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه، ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما فى المعنى ، وقد أسلفنا عن عبد القاهر تقسيمه المجاز إلى ضربيه وفرقه بينهما ، ولم يزد ابن الأثير إلا التعميم فىالتشبيه بحيث يشملالتشبيه المعروف والاستعارة . ثم خلص من ذلك إلى بيان الفرق بين التشبيه والاستعارة ، وهو مسبوق بهذا من عبد القاهر وغيره كما أسلفنا .

ثم رد على ابن سنان الخفاجى فى خلطه الاستعارة بالتشبيه المضمر وعدم تفرقته بينهما أوتأسيه بغيره من علماء البيان كأبى هلال العسكرى ،والغانمى، والآمدى ، ثم عرض لما قاله الآمدى وابن سنان فى قول امرئ القيس . فقلت له لماتمطى بصلبه ... (البيت) واختار أن يكونمنباب التشبيه المضمر.

( ٢ ) التشبيه (٢) :

درج فيه على رأى علماء اللغة ومنهم الزمخشرى من جعل التشبيه والتمثيل لفظين مترادفين ، ثم نعى علىالعلماء الذين فرقوا بينهما،ثم خلص من ذلك إلى أنالتشبيه ينقسم إلى قسمين .مضمر ،ومظهر ، ثمأفاضالقولفيهماتفصيلاوتمثيلا

(٣) التجريد(٣) :

عرفه بقوله هوإخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب

---

( ١ ) ص ١٤١ . ( ٢ ) ص ١٥٣ .
( ٣ ) ص ١٦٥ .

نفسه ، ثم قسمه قسمين . الأول : تجريد محض . وهو أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك . الثانى : تجريد غير محض ، وهو خطاب لنفسك لالغيرك ، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شيء واحد لعلاقة أحدهما بالآخر ، وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر ، وذاك أولى بأن يسمى تجريداً لأن التجريد لائق به ، وهذا هو نصف تجريد لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئا وإنما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهى منك كقول عمرو بن الأطنابة :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى(١)

وابن الأثير مسبوق بمصطلح التجريد باعترافه هو حيث يقول(٢) : وهذا اسم كنت سمعته ... ألخ . وحيث ينقل تعريف أبى على الفارسى له وتمثيله له بقوله : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد،وقول الأعشى : « وهل تطيق وداعا أيها الرجل ... » وقد صوبه فى المثال الثانى ولم يصوبه فى المثال الأول وعلل ذلك بقوله : « لأن الثانى هو التجريد . ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها ، وأما الأول وهو قوله « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، فإن هذا تشبيه مضمر الأداة إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، وبيان ذلك أنك تقول لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالأسد ..... وليس شيء مجرد عنه كما تقدم . ولانرى أن نعرض لهذا الرأى بالتسليم أو البطلان إلا فى القسم الثانى بمشيئة الله تعالى .

( ٤ ) الالتفات (٣) :

بين منزلته من الكلام عامة ومن علم البيان خاصة ، ثم قسمه إلى ثلاثة أقسام .

( ا ) الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ثم بين سره وأنه لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وساق الأمثلة المشفوعة بالبيان والشرح .

---

( ١ ) جشأت : نهضت وجاشت من حزن أوفزع وثارت للقىء .
( ٢ ) ص ١٦٥ .
( ٣ ) ص ١٩٧ .

(ب) الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر ثم بين سره وداعيه وساق له الأمثلة .

(ج) الإخبار على الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى ، ثم بين سره وفائدته ودلل على ذلك بالأمثلة .

(٥) التفسير بعد الإبهام(١) :

أشار إلى أنه لا يصار إليه إلا لضرب من المبالغة فإذا جيء به فى كلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم وإعظامه ، ثم ساق له الأمثلة .

(٦) عكس الظاهر(٢) :

وهو نفى الشيء بإثباته . بين أنه من مستظرفات علم البيان ، وذاك أنك تذكر كلاما يدل ظاهره على أنه نفى لصفة موصوف وهو نفى للموصوف أصلا ، من ذلك قول على بن أبى طالب فى وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تنثى فلتاته أى لا تذاع سقطاته . فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات غير أنها لا تذاع .

وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتنثى . ثم ساق أمثلة له من الشعر وبين المراد منها على هذا النحو ، وابن الأثير مسبوق بهذا اللون من ابن رشيق كما أسلفنا ، سوى أنه سماه هنا عكس الظاهر أونفى الشيء بإثباته .

(٧) الاستدراج(٣) :

نبه على أنه هو الذى استخرج هذا النوع من كتاب الله تعالى وبين معناه بقوله . وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، وساق له أمثلة من بينها قول الله تعالى « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب » . ثم قال . ألاترى كيف أخذهم بالاحتجاج على سبيل

(١) ص ١٧٦ .
(٢) ص ١٩٢ .
(٣) ص ١٩٣ .

التقسيم فقال : لا يخلو هذ الرجل من أن يكون كاذبا . فكذبه يعود عليه . أويكون صادقا فإن تعرضتم له يصبكم بعض الذى يعدكم ... ألخ . وقد سلم هذا لابن الأثير فله الفضل فى استخراجه وتسميته .

(٨) الإيجاز(١) :

عرفه وقسمه قسمين . أحدهما إيجاز الحذف ، وأما الآخر وهو الذى لايحذف منه شيء فهو على ضربين . أحدهما ماساوى لفظه معناه ويسمى التقدير ، والآخر مازاد معناه على لفظه ويسمى القصر ، فتراه يجعل المساواة التى يسميها بالتقدير ضربا من الإيجاز .

(٩) الإطناب (٢) :

أشار إلى خلاف العلماء فيه وبين خطأ من ألحقه بالتطويل وجعله منه كأبى هلال والغانمى ، ثم أشار إلى أنه مأخوذ من أطنب فى الشيء إذا بالغ فيه ....ألخ .

ثم خلص من ذلك إلى تعريفه قال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، فهذا حده الذى يميزه عن التطويل . إذ التطويل هو زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة .

وأما التكرير . فإنه دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه . أسرع . أسرع . وهذا الأخير على ضربين . منه ما يأتى لفائدة . وذلك ملحق بالإطناب . وأما الذى يأتى لغير فائدة فهو ملحق بالتطويل ، ثم مضى يفصل ذلك ويبينه على نحو لم يسبق إليه .

(١٠) التكرير (٣) :

عرفه بما سلف قريبا ، ثم نوعه إلى نوعين . أحدهما يوجد فى اللفظ والمعنى والآخر يوجد فى المعنى دون اللفظ ، ثم ساق أمثلة للنوعين .

(١١) الاعتراض(٤) :

أشار إلى أن بعض العلماء يسميه الحشو ثم عرفه بقوله . كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الأول على حاله ، ثم وشح ذلك بالأمثلة .

(١) ص ١٩٤ .
(٢) ص ٢١٧ .
(٣) ص ٢٣٢ .
(٤) ص ٢٤٤ .

(١٢) الكناية والتعريض(١) :

أشار إلى اضطراب العلماء وخلطهم بين الكناية والتعريض وتمثيلهم لهذا بأمثلة هذه ، ولهذه بأمثلة ذلك ، كالعسكرى والغانمى وابن سنان ، ثم عرض لتحديدهم الكناية وأبطله ، ثم حدها بقوله : هى كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز ، فكل موضع ترد فيه الكناية عنده يتجاذبه جانب الحقيقة و جانب المجاز ، وإذا حمل على كل منهما صح المعنى . ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى « أولامستم النساء » يجوز حمله على الحقيقة والمجاز . وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل .. ألخ . ثم عرض لمأخذها من اللغة وخلص من ذلك إلى أن الكناية جزء من الاستعارة ، ولا تأتى إلا على حكمها خاصة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا حيث يطوى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال كل كناية استعارة ، وليس كل استعارة كناية ، ثم قال ويفرق بينهما . من وجه آخر . وهو أن الاستعارة لفظها صريح ، والصريح هو ما دل عليه ظاهر لفظه ، والكناية ضد الصريح لأنها عدول عن ظاهر اللفظ ، وهذه ثلاثة فروق . أحدها الخصوص والعموم ، والآخر الصريح والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز ، وقد تقدم القول فى باب الاستعارة أنها جزء من المجاز فتكون نسبة الكناية إلى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص .

فالمجاز عند ابن الأثير ثلاثة أقسام (١) التوسع فى الكلام . (٢) الاستعارة (٣) التشبيه . وإنما أفرد الكناية بباب مجاراة للعلماء حيث جرت عادتهم أن يذكروها مع التعريض .

وأما التعريض (٢) : فهو اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب « والله إنى لمحتاج » .

---

(١) ص ٢٤٧
(٢) ص ٢٥٠

فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب . وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم ، فالتعريض خاص بالمركب وأما الكناية فتجرى فى المفرد والمركب .

وابن الأثير مسبوق بالتفرقة بين الكناية والتعريض من الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ حيث قال فى الكشاف : «الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، والتعريض أن تذكر شيئا يدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه ( جئتك لأسلم عليك ) . فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على المقصود ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده(١) .

(١٣) المغالطات المعنوية(٢) :

أبان عن منزلة هذا اللون وأنه من أحلى ما استعمل فى الكلام وألطفه لما فيه من التورية ، وحقيقته أن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شيء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعا وألطف مأخذاً . فالأول الذى يكون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة ، ثم ساق له أمثلة كثيرة من بينها قول أبى الطيب المتنبى :

يشلّهم بكل أقبّ نهدٍ ... لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه ... على الكعبين منه دم ممار
يغادر كل ملتفت إليه ... ولبتــه لثعلبه وجــار(٣)

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف ، والوجار اسم بيته ، والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح ، فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار فى طرف السنان ، وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله ، وذلك ينطبق على ماخص باسم التورية .

أما القسم الآخر وهو النقيض فإنه أقل استعمالا من القسم الذى قبله لأنه لا يتهيأ استعماله كثيراً فمنه قول بعضهم :

---

( ١ ) المطول ص ٤١٢ — ٤١٣ .

( ٢ ) ص ٢٥٨ .

( ٣ ) يشلهم : يطردهم . الأقب : الضامر البطن . النهد : العالى المرتفع . أصم : شديد ليس بأجوف . يعسل : يضطرب . والكعبان : اللذان فى عامله وهما يغيبان فى المطعون وقيل المراد به الذى فيه السنان والذى فيه الزج فإن الطعن يقع بهما . المهار : الجارى .

وما أشياء تشريها بمــال    فإن نفقت فأكسد ما تكون

يقال نفقت السلعة إذا راجت وكان لهاسوق ، ونفقت الدابة إذا ماتت، وموضع المناقضة ها هنا فى قوله « إنها إذا نفقت كسدت » فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل هذا سببا لهذا وذلك من المغالطة الحسنة .

(١٤) الأحاجى(١) :

وهى الأغاليط من الكلام وتسمى الألغاز جمع لغز . وهو الطريق الذى يلتوى ويشكل على سالكه ، وقيل جمع لغز بفتح اللام وهو ميلك بالشىء عن وجهه ، وقد يسمى هذا النوع أيضا المعمى .

ثم أشار إلى أن هذا النوع يشتبه تارة بالكناية، وأخرى بالتعريض وطوراً آخر بالمغالطات المعنوية ، وأن عامة أرباب الفن قد وقعوا فى هذا التخليط ثم ساق أمثلة لما وقع فيه أبو الفرج الأصبهانى والحريرى من ذلك .

ثم خلص من ذلك إلى أنه وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ، ومنه ما يطلق عليه التعريض ، ومنه ما يطلق المغالطة ، ومنه شىء آخر خارج عن ذلك فجعل لغزاً وأحجية وإذ قد أسلف تحديد هذه الأنواع جميعا ماعدا الأخير فقد مضى يحدده قال :

وأما اللغز والأحجية فإنهما شىء واحد ، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لابدلالة اللفظ عليه حقيقة ولامجازا ولايفهم من عرضه لأن قول القائل فى الضرس .

وصاحب لا آمن(٢) الدهر صحبته    يشقى لنغصى ويسعى مسعى مجتهد
ما أن رأيت له شخصا فمذ وقعت    عينى عليه افترقنا فرقة الأبد

لا يدل على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولامن طريق المجاز ولامن طريق المفهوم،وإنما هو شىء يحدس ويحزر والخواطر تختلف فى الإسراع والإبطاء للعثور عليه .

ثم مضى ينوع اللغز والأحجية إلى أنواع . فمنه المصحف ، ومنه

---

(١) ص ٢٦١ .

(٢) هكذا فى الأصل والصواب ( لا أمل ) .

المعكوس ، ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية ، ومنه ما يرد على حكم المسائل الفقهية ، وهذه الأقسام يعتورها الحسن والقبح كبقية ألوان الكلام ، ثم أشار إلى سره . قال : « وإنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة ويحد الخاطر ، لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج فى استخراجها إلى توقد الذهن والسلوك فى معارج خفية من الفكر » وفى هذه الأثناء يسوق الأمثلة العديدة ويوشحها بشرحه .

وابن الأثير مسبوق بهذه المصطلحات جميعا ، فقد سبق الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ إلى الأحاجى ونظم منها فى المقامة السادسة والثلاثين عشرين أحجية وقال : وضع الأحجية لامتحان الألمعية واستخراج الخبيئة الخفية ، وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ معنوية ، ولطيفة أدبية » .

وإما الإلغاز : فأول من أطلق عليه هذا الاسم هو الخليل (١) بن أحمد ( روى أبو الطيب عبد الواحد اللغوى فى كتاب ( مراتب النحويين ) عن الخليل قال : رأيت أعرابيا يسأل أعرابيا عن البلصوص ماهو . فقال : طائر. قال فكيف تجمع . قال البلنصى (٢) قال الخليل : فلو ألغز رجل فقال . ما البلصوص يتبع البلنصى كان لغزاً (٣) ثم عرض له قدامة فى نقد النثر (٤).

وأما المعمى : فأول من استخرجه ونظر فيه الخليل بن أحمد ، وذلك أن بعض اليونان كتب بلغتهم كتابا إلى الخليل فخلا به شهراً حتى فهمه فقيل له فى ذلك . فقال علمت أنه لابد أن يفتتح باسم الله تعالى فبنيت على ذلك وقست وجعلته أصلا ، ففتحته ثم وضعت كتاب المعمى ، واستمر فن المعمى بعد الخليل أمثلة متفرقة لاتفرد بالتدوين حتى كان الجاحظ يقول : ليس المعمى بشىء فقد كان كيسان مستملى أبوعبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب ، وكان أعلم الناس باستخراج المعمى ،وكان

---

( ١ ) سرح العيون — ١٦٨ .

( ٢ ) البلصوص : طائر جمعه بلنصى شاذ أو البلنصى للواحد جمعه بلصوص أوهى الأنثى والبلصوص الذكر أو بالعكس ( ق ) .

( ٣ ) تاريخ أدب اللغة للرافعى ج ٣ — ٤٢٥

( ٤ ) نقد النثر ص ٥٨ .

النظام على قدرته على أصناف العلوم لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمى (١) وقد جعل ابن الأثير هذه الأسماء الثلاثة متواردة على معنى واحد ، أما المتأخرون فقد جعلوها أنواعا ثلاثة يتميز بعضها عن الآخر وإن كان المعمى أعمها جميعا وسيمر بنا شيء من ذلك بمشيئة الله تعالى .

(١٥) المبادى والافتتاحات(٢) :

أشار إلى أنه أحد الأركان البلاغية الخمسة التى مر ذكرها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب ، ثم بين حقيقته قال : هو أن يجعل مطلع الكلام من الشعر والرسائل دالا على المعنى المقصود ، وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ، ثم ساق أمثلة تمثل الحسن والقبح .

(١٦) التخلص والاقتضاب(٣) :

أشار إلى أنه أحد أركان البلاغة الخمسة أيضا ، ثم بين حقيقة التخلص والاقتضاب ، ثم ساق أمثلة تمثل الحسن والقبح ، ثم مضى يزيف رأى أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى حيث ذهب إلى أن كتاب الله تعالى خال من التخلص وساق أمثلة من القرآن الكريم تثبت وجوده فيه .

(١٧) التناسب بين المعانى(٤) :

نوع هذا إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : المطابقة وتسمى ( البديع ) أيضا ، وقد أشار إلى حقيقتها ورأى العلماء فيها ومخالفة قدامة لإجماعهم ، ثم انتصر لقدامة لأن الاشتقاق اللغوى يؤازره ، ثم ذهب إلى أن الأليق بهذا النوع أن يسمى ( المقابلة ) لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين ، فإما أن يقابل الشيء بضده ، أو يقابل بما ليس بضده ، وليس لنا وجه ثالث ، ثم نوع الأول إلى نوعين . النوع الأول مقابلة فى اللفظ والمعنى ، والنوع الثانى . مقابلة فى المعنى دون اللفظ ، ثم نوع الثانى إلى نوعين ، أحدهما ألا يكون مثلا ، والآخر أن يكون مثلا ، ثم جعل المؤاخاة بين المعانى وهى التى عرفت باسم ( مراعاة النظير ) مما يتصل

(١) سرح العيون ص ١٦٩ .
(٢) ص ٢٦٦ .
(٣) ص ٢٧٥ .
(٤) ص ٢٨٣ .

بالضرب الأول من القسم الثانى ، ثم مضى يطنب فى التفصيل وإيراد الشواهد بما هو مستقر فى موطنه من هذا الكتاب .

النوع الثانى : صحة التقسيم وفساده (١) أشار إلى أنه لايريد ما تقتضيه القسمة العقلية وإنما يريد مايقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد ، وإذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره ، ثم ساق أمثلة كثيرة تمثل الحسن والقبح .

النوع الثالث : فى ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد ، وقد تأثر بما قاله قدامة وابن سنان فى هذا اللون تأثراً ظاهراً .

(١٨) الاقتصاد والتفريط والإفراط(٢) :

أشار إلى مآخذها من اللغة ، ثم بين المراد منها قال : أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته ، وأما التفريط فهو أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه ، وأما الإفراط . فهو أن يكون المعنى فوق منزلته ، وهذا هو الذى أطلق عليه السابقون اسم « المبالغة » ثم أشار إلى قبح التفريط بإيراد أمثلة تكشف عنه ثم عرض للمذهبين فى الإفراط من الذم والحمد ، وانتصر للثانى وإن كانت درجاته متفاوتة عنده .

(١٩) الاشتقاق (٣) :

نعى على العلماء الذين فصلوا الاشتقاق عن التجنيس وجعلوه نوعا مستقلا ، ثم ذهب إلى أن الاشتقاق من التجنيس . إذ التجنيس نوعان . أحدهما تجنيس فى اللفظ ، والآخر تجنيس فى المعنى ، فأما الذى يتعلق باللفظ فلم ينقل عن بابه ولاغير اسمه ، وقد مضى ذكره ، وأما الذى يتعلق بالمعنى فإنه نقل عن بابه فى التجنيس وسمى ( الاشتقاق ) أى أحد المعنيين مشتق من الآخر وهو على ضربين . صغير وكبير . ثم مضى يبين حقيقة كل واحد منهما ويتبعه بالأمثلة التى توضحه .

---

( ١ ) ص ٢٩٢ ( ٢ ) ص ٢٩٨
( ٣ ) ص ٣٠٢

(٢٠) التضمين :

بين أن هذا النوع فيه نظر . بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم . وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ، ولكل من هذين القسمين مقام ، ثم قسم الحسن إلى تضمين كلى ، وإلى تضمين جزئى ومضى يشرح ويبين بالأمثلة كعادته .

(٢١) الإرصاد[1] :

بين حقيقته وشفع ذلك بالأمثلة ، ثم عاب على أبى هلال تسمية هذا النوع بالتوشيح ، وبين أنه نوع آخر غير هذا النوع ، ثم رد على الغانمى والحريرى فى تسمية بعض أنواع لا تمت الى هذا العلم بصلة كبعض الرسائل التى تشتمل على كلمة مهملة ، وأخرى معجمة ، وما إلى ذلك مما ليس من البلاغة فى شىء .

(٢٢) التوشيح [2] :

عرفه ومثل له بما يخرج به عمن تقدموه بهذا اللون ثم ختم هذه المباحث بمبحث للسرقات الشعرية أفاض القول فيها ونبه على أنه ألف فيها كتابا على حدة ، ثم ذيل كل أولئك بكلمة أبان فيها عن منزلة هذا العلم وفضله ، وبين أن المنثور أشرف من المنظوم ، وعلل ذلك بعلل لا تفوتك إذا طلبتها من موطنها فى هذا الكتاب .

## ٣ — كتاب البديع فى صناعة الشعر « تحرير التحبير »

فإذا تركنا السكاكى وابن الأثير إلى غيرهما من علماء البديع فى القرن السابع الهجرى وجدنا البديع يخطو خطوات واسعة ، ويطفر طفرة بعيدة المدى على يد الإمام الأديب أبى محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن عبد الله المعروف بابن أبى الإصبع الشاعر المصرى المشهور المتوفى بمصر فى الثالث عشر من شهر شوال سنة ٦٥٤ بعد أن نيف على الستين (٣) فقد

---

(١) ص ٣٠٦ (٢) ص ٣١٠

(٣) ترجم له صاحب شذور الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥–٢٦٥ ونقل بعض أبيات من شعره ، ونعت كتابه بأنه لم يصنف مثله كما ترجم له صاحب معاهد التنصيص ج ٢ — ١٨٢ ومما قاله : هو زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الإصبع (العدوانى) المصرى الشاعر المشهور الإمام فى الأدب صاحب التصانيف الحسنة فيه منها تحرير التحبير فى البديع ، وكتاب بدائع القرآن . وغير ذلك . وله شعر رائق . ولم يذكر صاحب كشف الظنون وصاحب شذور الذهب ( العدوانى ) ويذكرها صاحب معاهد التنصيص كما ترى وكذا فى فوات الوفيات .

ألف كتابا فى البديع على حدة سماه « البديع فى صناعة الشعر » وقد عرف هذا الكتاب باسم « تحرير التحبير » قال صاحب كشف الظنون(١) : « ثم تصدى لها زكى الدين عبد العظيم بن أبى الإصبع المتوفى ٦٥٤ فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين سلم له منها عشرون ، وسماه التحرير وهو أصح كتاب صنف فيه لأنه لم يتكل على النقل دون النقد » وقال النابلسى(٢) : « ثم جاء الشيخ زكى الدين بن أبى الأصبع فأوصلها الى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين سلم له منها عشرون وباقيها مسبوق إليه أو متداخل عليه » . ولم يشر النابلسى فى أثناء تعرضه لتلك الألوان بما سبق إليه ابن أبى الإصبع أو تداخل عليه ، كذلك لم أر لغيره من أصحاب البديعيات إشارة إلى ذلك ، وإذا وصلنا إلى هذا الموضع اعتمدنا على ما أسلفناه من تطورات هذه الألوان فى التنبيه على ماسبق إليه أو تداخل عليه بمشيئة الله تعالى » .

وهذا الكتاب على رغم إشادة العلماء به لايزال مغمورا بين المخطوطات فلم يكتب له الذيوع والانتشار ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة . وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وجمع فى عرضه بين النقل والعقل وإن كان أسلوبه ساذجا ليست فيه الروعة الأدبية ، ولا الدقة العلمية إذ كثيرا مايستعمل ألفاظا قريبة من العامية ويذهب فى تحديد الألوان مذهب الإطناب الممل فى بعض الأحايين .

الباعث على تأليف هذا الكتاب :

يحدثنا به ابن أبى الإصبع فيقول :

أما بعد فإنى رأيت ألقاب محاسن الكلام التى لقبت بالبديع قد انتهت تساعده منه أصول وفروع ، فأصوله أشار إليها ابن المعتز فى بديعه وقدامة فى نقده لأنهما أول من عنى بتأليف ذلك ، أما ابن المعتز فهو الذى سماه بالبديع واقتصر فى كتابه بهذه التسمية على خمسة أبواب ... ثم مضى يذكر ما انفرد به ابن المعتز ، وما توارد مع قدامة عليه بما لم يخرج عما قدمناه فى

(١) جـ ١ ١٩٠ كشف الظنون .

(٢) مقدمة نفحات الأزهار على نسمات الأسحار .

حينه ، ثم عرض لما ساقه قدامة فى نقد الشعر وما توارد مع ابن المعتز عليه ، وما تداخل ، ثم خلص من ذلك إلى أنه قد سلم لهما ثلاثون نوعا . ثم قال . وهذه أصول ماساقه الناس فى كتبهم من البديع إلى هلم جرا ، ثم اقتدى الناس بابن المعتز فى قوله « فمن أحب أن يضيف شيئا من هذه المحاسن أو غيرها الى البديع فليفعل » فأضاف الناس المحاسن إلى البديع ، وفرعوا من الجميع أبوابا أخر وركبوا منها تراكيب شتى . واستنبطوا غيرها بالاستقراء من الكلام والشعر حتى كثرت الفوائد ، ورأوا ابن المعتز قد غلب اسم البديع على اسم المحاسن فسمى كتابه البديع ، وهو جامع لهما معا فاقتدوا به لأنه المخترع الأول لجميع ذلك على انفراده ، فسموا أنواع كتبهم البديع ، وإن سمى كل منهم كتابه باسم مرجعه إلى معناه إلا أن يكون قد ألف كتابه فى مجموع البلاغة ، وكنه الفصاحة ، أوفى النقد، فإن له أن يسميه بما شاء .

ثم قال(١) : « ولقد وقفت من هذا العلم على أربعة وثلاثين كتابا ، منها ما هو منفرد به وما هذا العلم أو بعضه داخل فى ضمنه » ثم مضى يسرد هذه الكتب ، ومن بينها كتاب البديع لشرف الدين التيفاشى . وقال: «وهو آخر من ألف منه تأليفا قبلى فيما بلغنى وجمع فيه مالم يجمعه غيره ، لولا مواضع نقلها ولم ينعم النظر فيها ، وبعض أبواب تداخلت عليه كغيره ولو أنعم النظر فى ذلك لم يفته ما استدركته عليه فإن الرجل أمثل من لقيته من أهل هذه الصناعة فى وقتى هذا (٢) » .

ثم قال (٣) : « وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ فى التداخل والتوارد وضم غير البديع والمحاسن إلى البديع كأنواع العيوب ، وأصناف السرقات ، ومخالفة الشواهد المترجم ، وتفسير بديع الناس بما لاتعطيه ألفاظهم وقنعت

(١) ص ٤ .

(٢) قال صاحب كشف الظنون فى أثناء حديثه عن رجال البديع – بعد أن ذكر أبا هلال وابن رشيق – وتلاهما شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشى فبلغ بها السبعين . ولم أعثر على كتابه فى دار الكتب أوغيرها .

(٣) ص ٥ .

من الزلل والخلل وصلت إلى كثير من الخبط والفساد ما وصل إليه غيره ولا وقف على علمه سواه ، وإن كان قلما رأيت تأليفا فى هذا الشأن خلا عن بعض ما ذكرت بحسب منزلة مؤلفه من العلم والفهم . فمن كثير ومن قليل، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصم الله من أنبيائه ، وما أبرئ نفسى ولا أدعى سلامة وضعى دون أبناء جنسى ، غير أنى توخيت تحرير ماجمعته من هذه الكتب جهدى ، ودققت النظر حسب طاقتى ، فنقحت ماقدرت على تنقيحه ، وصححت ما قويت على تصحيحه ، وغيرت ما وجب تغييره ، ووضعت كل شاهد فى موضعه ، وربما أثبت اسم الباب دون مسماه ، إذا رأيت اسمه لايدل على معناه ، إلى أن جمعت ما فى كتب الناس من الأبواب على ماقدمت منى » .

ثم قال (١) : « فكان ماجمعته من ذلك بعد ماقدمته من أصول الأبواب ستين بابا من الفروع » ثم مضى يسردها سردا ويعدها عدا ، ثم عقبها بقوله: وأضفت هذه الأبواب الستين الفروع إلى الثلاثين الأصول . فصارت الفذلكة تسعين بابا . »

ثم قال(٢) : « وقد عن لى استنباط أبواب تزيد بها الفوائد ويكثر بها الإمتاع ... ففتح على من ذلك بثلاثين بابا سليمة من التداخل والتوارد ، ولم أسبق فى غلبة ظنى إلى شىء منها اللهم إلا أن يوجد فى زوايا الكتب التى لم أقف عليها مما اخترعته فأكون أنا والسابق إليه متواردين عليه . وما أظن ذلك والله أعلم ، ولما انتهى استخراجى إلى هذا العدد أمسكت من الفكر ليكون ما أتيت به وفق عدد الأصول » .

ثم قال: « وبذلت فى الاختصار غاية الإمكان ، ولم أطل بذكر كل الاشتقاق ولا الإكثار من الشواهد ، وتجنبت الإطناب إلا فى إيضاح مشكل أو كشف غامض ، أو زيادة تساعد فى الكلام على آية من كتاب الله ، أو بيت قد أهم الكلام عليه . وهذا أوان سياقة أبوابى التى استنبطتها

---

(١) ص ٦ .
(٢) ص ٨ .

وأنواعى التى اخترعتها ، ثم مضى يسردها ويعدها ، ثم عقب عليها قال(١) : « وألحقت ذلك بما تقدم من الأبواب فصارت عدة أبواب الكتاب مائة وعشرين بابا سوى ما انشعب من أبواب الائتلاف وغيره . كالجناس والطباق والتصدير ، وجملة هذه الأبواب على ضربين . ضرب يختص بالشعر . وضرب يعم الشعر والنثر ، وذلك ظاهر لمن تبحر فى هذا الكتاب » .

وسآخذ نفسى بسرد الأبواب التى أطلق عليها اسم الأصول ، وسرد الأبواب التى أطلق عليها اسم الفروع ، إلا ماخالف فيه غيره ، أو لم نره بين الألوان التى سقناها فيما سلف .

## الجزء الأول : ص ٩ — ٩٣

أودع الجزء الأول من أجزاء الكتاب الثلاثة هذه الألوان :

(١) الاستعارة . (٢) الجناس . (٣) الطباق . (٤) رد الأعجاز على الصدور . (٥) المذهب الكلامى . (٦) الالتفات . (٧) التمام . (٨) الاستطراد (٩) تأكيد المدح بما يشبه الذم . (١٠) تجاهل العارف . (١١) الهزل الذى يراد به الجد . (١٢) حسن التضمين . (١٣) الكناية . (١٤) الإفراط فى الصفة . (١٥) التشبيه . (١٦) عتاب المرء نفسه « أشار إلى أن هذا اللون من إفراد ابن المعتز ثم ساق البيتين اللذين ساقهما ابن المعتز لما دعاه فى النسخة التى حدثناك عنها باسم « إعنات الشاعر نفسه » .

وهو الذى عرف فيما بعد باسم « لزوم مالايلزم » ثم اعترض عليه بأن هذه الأمثلة التى ساقها ابن المعتز لاتنطبق على « عتاب المرء نفسه » ثم ساق من الأمثلة ماينطبق على هذا اللون . والظاهر أن ابن أبى الإصبع وقع على نسخة محرفة فنقل ذلك عنها خطأ وإلا فإن الأمثلة تنطبق على لزوم مالايلزم « أو إعنات المرء نفسه » لا على عتاب المرء نفسه ، وذلك أمر سهل ميسور وإنما أردنا التنبيه على ما قاله ابن أبى الإصبع وما وقفه من ابن المعتز .

(١٧) حسن الابتداءات . (١٨) صحة الأقسام . (١٩) صحة المقابلات . (٢٠) صحة التفسير والتبيين . (٢١) ائتلاف اللفظ مع المعنى

(١) ص ٩

« نبه فيه على أن قدامة ذكر هذا الباب وترجمه مفردا ولم يبين معناه ، وشرحه الآمدى وأطال ، ولم توف عبارته بإيضاحه ، وتلخيص معنى هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس منها لفظة غير لائقة بذلك المعنى » . وساق أمثلة لهذا ، واعتبر من ائتلاف اللفظ مع المعنى ، أن يكون اللفظ جزلا إذا كان المعنى فخما ورقيقا إذا كان المعنى رشيقا ، وغريبا إذا كان المعنى عربيا بحتا ... الخ .

(٢٢) المساواة . (٢٣) الإشارة . (٢٤) الإرداف والتتبيع . وقد عاب على من فرقوا بين الإرداف والتتبيع ، وخلص من ذلك إلى أنهما شيء واحد . (٢٥) التمثيل . (٢٦) ائتلاف اللفظ مع الوزن . (٢٧) ائتلاف المعنى مع الوزن . (٢٨) ائتلاف القافية مع مايدل عليه سائر البيت . ولم يزد فى هذه الثلاثة على ما أورده قدامة ، وإذا تأملت ما عرضناه عليك من ألوان نقد الشعر التى عرض لها قدامة ، وجدت ابن أبى الإصبع يعد مثل هذه الأبواب فى البديع ولم يعتبرها من تقدموه منه ، وإنما اعتبروا ماعده قدامة مما يرجع إليها على أنه قسم منها كما أسلفنا . (٢٩) التوشيح . (٣٠) الإيغال . وبذلك ينتهى الجزء الأول .

أمّا الجزء الثانى : ص٩٣–١٥٧

فقد أورد فيه بعض هذه الألوان التى اعتبرها ابن أبى الإصبع فروعا : وهى : (٣١) الاحتراس . (٣٢) المواربة . (٣٣) الترديد . (٣٤) التعطف : (٣٥) التفويف (٣٦) التسهيم . (٣٧) التورية . (٣٨) الترشيح « عرفه وجعله مطردا فى التورية والاستعارة ». (٣٩) الاستخدام . عرفه بقوله : وهو أن يأتى المتكلم بلفظة لها معنيان ثم يأتى بلفظتين يستخدم كل لفظة منهما معنى من معني تلك اللفظة المتقدمة ، وفرق بينه وبين التورية بأن التورية استعمال أحد المعنيين من اللفظة وإهمال الآخر . والاستخدام استعمالهما معا ، ثم ساق للاستخدام أمثلة من بينها قول البحترى :

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم　　شبوه بين جوانح وقلـــوب

(٤٠) التغاير . (٤١) الطاعة والعصيان : أشار إلى أن أبا العلاء المعرى هو الذى استنبطه وسماه بهذا الاسم عند شرحه قول المتنبي .

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

ومضمون حده . هو أن يريد المتكلم معنى من معانى البديع فيستعصى عليه بسبب الوزن ، فيأتى بكلام غيره فى موضعه يتضمن معنى كلامه ويحصل به معنى من البديع غير الذى قصده . فقد أراد المتنبي أن يكون فى البيت مطابقة ، ولتحققها ينبغى أن يقول . وهو (مستيقظ) بدل وهو ( قادر ) فلم يطعه الوزن فأتى بقادر مكانه ليضمنه معناه ، فإن القادر لايكون إلا مستيقظا وزيادة ، فقد عصاه الطباق وأطاعه الجناس ، ثم أشار إلى اتباع العلماء لأبى العلاء وعدم تنبههم إلى أنه ليس شيء هنا أطاع ولا شيء عصى ، وإنما كان يمكنه ليحقق الطباق أن يقول « وهو ساهر » بدل « وهو قادر » وما شاكل ذلك بل الذى عناه المتنبي هو الجمع بين الطباق والجناس وقد تما له ، والأول طباق معنوى كما تقدم .

(٤٢) التسميط : وهو أن يعتمد الشاعر تصيير بعض مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع يخالف قافية البيت ... الخ .

(٤٣) المماثلة : وهى تماثل ألفاظ الكلام أو بعضها فى الزنة دون التقفية ... الخ .

(٤٤) التجزئة : وهى أن يجزئ الشاعر البيت إما ثلاثة أجزاء إن كان سداسيا أو أربعة إن كان ثمانيا ويسجع أجزاء البيت على رويين مختلفين . أحدهما على روى مخالف لروى البيت ، والثانى على روى البيت ، وساق أمثلة بينها قول أبى تمام .

تجلى به رشدى وأثرت به يدى وفاض به ثمدى وأورى به زندى(١)

وهذا مثال للنوع الثانى الذى على روى البيت ، وذلك المثال مما ساقه

---

( ١ ) الثمد بتسكين الميم وتحريكها الماء القليل لا مادة له أوما يبقى فى الجلد أومايظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .

الخطيب فى التلخيص شاهدا على أن السجع يكون فى الشعر كما يكون فى النثر .

(٤٥) التسجيع . (٤٦) الترصيع . (٤٧) التصريع . حده ومثل له . ثم جعله على ضربين عروضى ، وبديعى ، فالعروضى ما كان التغيير شرطا فيه ، والبديعى مالم يكن ذلك شرطا فيه وذلك الذى دعاه بالبديعى هوماعرف فى مصطلح علماء العروض بالتقفية . فلم يكن بديعيا وإنما هو عروضى . ولا نعقل سرا لهذه التفرقة فكلاهما من أبواب العروض (٤٨) التشطير . (٤٩) التعليل . وليس هو حسن التعليل الذى أسلفنا الحديث عنه إذ قد عرفه بقوله : هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع فيقدم علته قبل ذكره كقوله تعالى « ولولا رهطك لرجمناك » فوجود رهطه علة فى سلامته من قومه .

(٥٠) التطريز : وهو أن يذكر المتكلم شاعرا أو ناثرا جملا من الذوات غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذى قدره فى تلك الجمل الأولى .. ثم ساق له أمثلة من بينها قول ابن الرومى :

أموركم بنى خاقان عنـــدى عجاب فى عجاب فى عجاب
قرون فى رءوس فى وجوه صلاب فى صلاب فى صلاب

(٥١) التوشيع : وهو أن يأتى المتكلم أو الشاعر باسم مثنى فى حشو العجز ثم يأتى تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الأخير منهما قافية بيته أو سجعة كلامه كأنهما تفسير له ، كقوله صلى الله عليه وسلم « يشيب ابن آدم ويشب معه خصلتان . الحرص وطول الأمل » وقد جعل ذلك كما جعل التكميل وغيرهما من أبواب الإطناب .

(٥٢) العكس والتبديل . (٥٣) الإغراق . (٥٤) الغلو . (٥٥) القسم . عرفه بقوله : هو أن يقصد الشاعر الحلف على شىء فيحلف بما يكون له مدحا وما يكسبه فخرا ، أو مايكون هجاء لغيره أو وعيدا له ، أو جاريا مجرى التغزل والترقق ... ثم ساق له الأمثلة (٥٦) الاستدراك والرجوع —

قسمه قسمين . قسما يتقدم الاستدراك فيه تقرير لما أخبر به المتكلم وتوكيد ، وقسما لا يتقدمه ذلك . فمن الأول قول الشاعر على بن فضال القيروانى :

وإخوان حسبتهم دروعا فكانوها ولكن للأعادى
وخلتهم سهاما صائبات فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادى

وذلك مامثل به الخطيب فى الإيضاح لأحد نوعى القول بالموجب ، ثم ساق ابن أبى الإصبع أمثلة للقسم الثانى تنطبق على الرجوع المعروف .

(٥٧) الاستثناء : نوعه إلى نوعين . لغوى . وصناعى . فاللغوى استوفاه النحاة ، والصناعى هو الذى يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى زائدا يعد من محاسن الكلام كقوله تعالى « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس » . فالمعنى الزائد على الاستثناء هو تعظيم الكبيرة التى أتى بها أبليس من كونه خرق إجماع الملائكة .

(٥٨) الاشتراك : وقد مضى ضمن ألوان ابن رشيق . (٥٩) جمع المختلفة والمؤتلفة . وقد مضى أيضا إلا أنه أشار إلى أن تفسير الناس لهذا الباب ليس حسنا ، وخلص من ذلك إلى أن الرأى عنده أن حده . هى أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين فيأتى بمعان مؤتلفة فى مدحهما ويقصد مع هذا ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فضل لاينقص بها مدح الآخر فيأتى لأجل الترجيح بمعان تخالف معانى التسوية ، وساق أمثلة لذلك من بينها أبيات الخنساء فى تفضيل أبيها على أخيها وقد ساوت بينهما أولا ... الخ .

(٦٠) التوهيم : وهو أن يأتى المتكلم فى كلامه بكلمة توهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها . ومراده على خلاف مايتوهمه السامع فيها . (٦١) الاطراد . وبذلك ينتهى الجزء الثانى .

أمّا الجزء الثالث : ص١٥٧ ألخ

فقد أورد فيه بقية الألوان التى أطلق عليها اسم الفروع ، وما اخترعه من الألوان التى نبه على أنه لم يسبق إليها .

(٦٢) التكميل : (٦٣) المناسبة . نوعها إلى نوعين . معنوية ولفظية .

ومثل للأولى بأمثلة تنطبق على مراعاة النظير ، وأما اللفظية فهى الإتيان بكلمات متزنات ... الخ .

(٦٤) التفريع : نوعه إلى نوعين – النوع الأول – أن يبدأ الشاعر بلفظة هى إما اسم وإما صفة ثم يكررها فى البيت مضافة إلى أسماء وصفات يتفرع من جملتها أنواع من المعانى فى المدح وغيره .... ثم نبه على أن هذا النوع لم يسبقه أحد إليه ولا إلى استخراجه وعلل عدم إثباته له ضمن مخترعاته بكونه نوعا من البديع ثم قال . والذى يجب أن يسمى به « تفريع الجمع » لأن كل بيت منطو على خروج من معان شتى من المدح تفرعت من أصل واحد ، أما النوع الثانى فقد سبق به الناس .

(٦٥) التكرار . (٦٦) نفى الشىء بإيجابه . (٦٧) الإيداع . وهوأن يعمد الشاعر إلى نصف بيت لغيره يودعه شعره فى العجز أو الصدر . أما الناثر فإن أتى فى نثره بنصف بيت لغيره سمى ايداعا ، أولنفسه سمى تفصيلا .

(٦٨) الاستعانة : هى أن يستعين الشاعر ببيت لغيره فى شعره بعد أن يوطئ له توطئة لائقة به بحيث لا يبعد ما بينه وبين أبياته وخصوصا أبيات التوطئة له ، ثم أشار إلى اشتراط بعض العلماء وجوب التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً ، ثم بين ذلك فى النثر .

(٦٩) التذييل : (٧٠) المشاكلة . نقل تعريف العلماء لها قال :

« هو الإتيان باسم من الأسماء المشتركة فى موضعين ومفهومهما مختلف ». ثم عقب على هذا التعريف بأنه يجعل المشاكلة نوعا من الجناس وليس لونا مستقلا ثم اختار أن تفسر بأن يأتى الشاعر بمعنى مشاكل لمعنى له فى شعر غير ذلك الشعر أوفى شعر غيره بحيث يكون كل واحد منهما وصفا ، أونسيبا أو غير ذلك .

غير أن كل صورة أبرز المعنى فيها غير الصورة الأخرى . فالمشاكلة بينهما من جهة الغرض الجامع لهما ، والتفرقة بينهما من جهة صورتهما

اللفظية ، ثم مضى يسوق أمثلة لما شاكل فيه الشاعر نفسه وما شاكل فيه غيره ومن الثانى قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

فإن مشاكله قول عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارهـــا ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت ... فى عينه سنة وليس بنائم(١)

فالمشاكلة بينهما من جهة كلاميهما . فكل واحد منهما وصف العيون بالمرض والفتور . فأبرز معناه فى صورة غير الصورة الأخرى بحسب قدرته على السبك .

وهذا رأى فى المشاكلة يخالف ماذهب إليه السكاكى فيها وتبعه الخطيب عليه. وما أحرى ما ذهب إليه ابن أبى الإصبع بأن يكون نوعا من أنواع السرقات .

(٧١) المواردة : فسرها بما ينطبق على نوع من أنواع السرقات . وشرط فى تحقق معناها أن يكون الشاعران المتواردان متعاصرين ، ثم أشار إلى أن بعض العلماء لا يشترط المعاصرة وإنما المهم التوارد على معنى من المعانى إما مجردا ، أو به وبلفظه ، أو بأكثرها .

(٧٢) التهذيب والتأديب : فسره بأنه تنقيح الكلام بعد عمله ، وإعادة النظر فيه بعد الفراغ منه ، ثم عرض لطائفة من المنقحين كزهير وأصحابه ، ثم بين ما ينبغى أن يتوخاه الشاعر فى اختيار الألفاظ للمعانى ، وذلك من أمثلة الخلط بين ألوان البديع وغيرها وإلا فما معنى هذا اللون فى البديع ولم اختص به دون سائر علوم البلاغة ؟

(٧٣) حسن النسق : وهو الإتيان بالكلمات فى الشعر والنثر متتاليات

---

(١) جآذر جمع جؤذر : ولد البقرة الوحشية . جاسم : قرية بالشام . وسن : فهو فهو وسن ووسنان والوسن شدة النوم أوأوله أو النعاس . أقصده : أصابه . رنق النوم فى عينيه: خالطهما .

متلاحمات تلاحما سليما ليس بالمعيب المستهجن ، ثم أشار إلى أن المستحسن فى ذلك أن يكون كل بيت إذا انفرد قام بنفسه .

(٧٤) الانسجام : هو الإتيان بالكلام منحدراً كتحدر الماء بسهولة وعذوبة .. الخ .

(٧٥) براعة التخلص : (٧٦) الحل — هو تصيير الشعر منثورا . (٧٧) العقد . ضد الحل (٧٨) التعليق . هو الإتيان بمعنى فى أى غرض من الأغراض الشعرية ثم يعلق به معنى آخر من ذلك الغرض يقتضى زيادة معنى كقول المتنبى :

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له ... كأنهم فيما وهبت ملام

فعلق الكرم بالشجاعة إذ دل على أنه عاشق الجود لا يسمع فيه ملاماوهذا البيت من أمثلة الاستتباع عند المتأخرين .(٧٩) الإدماج . (٨٠) الاتّساع . وهو إتيان الشاعر ببيت يتسع فيه التأويل على قدر قوى الناظرين وبحسب ما تحتمل ألفاظه وقد سلف لغيره فيما تقدم . ( وهو ابن رشيق )

(٨١) المجاز : درج فيه على رأى ابن الأثير من حيث شموله . التشبيه والاستعارة والتمثيل والإرداف . ثم أربى عليه بشموله المبالغة والإشارة . (٨٢) الإيجاز . (٨٣) سلامة الاختراع من الاتباع . وهو اختراع معنى لم يسبق إليه ولم يتبع فيه أى لم يلحق فيه . (٨٤) حسن الاتباع . وهو أن يقصد الشاعر إلى معنى قد اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات . إما باختصار لفظه أو عذوبة قافيته ، أوتتميم لنقصه .(٨٥) حسن البيان : وقد عرض فى هذا الباب لمراتب البيان وتفاوت الناس فيه . (٨٦) التوليد .(٨٧) التنكيت هو قصد المتكلم إلى ذكر شىء دون آخر يسد مسده لنكتة فى ذلك الشىء ترجح اختصاصه بالذكر دون غيره . ومن ذلك قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » خص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم لأن العرب كان فيهم رجل يعرف بابن أبى كبشة عبد الشعرى ودعا الناس إلى عبادتها (٨٨) الاتفاق — وهو أن يتفق للشاعر واقعة تعلمه العمل فى نفسها كما اتفق للرضى بن أبى حصينة المعرى — وقد أغزى

الناصر فى البحر حاجبه حسام الدين لؤلؤا الإفرنج الذين قصدوا الحجاز فظفر بهم الحاجب فقال الشاعر المذكور فى تهنئته مخاطبا الإفرنج :

عدوكم لؤلؤ والبحر مسـكنه والدر فى البحر لايخشى من الغير

ثم قال بعد أبيات مخاطبا صلاح الدين :

فامر حسامك أن يحظى بنحرهم فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

(٨٩) التوليد : قصره هنا على المعنى وشرحه بقوله . هو إتيان الشاعر بمعنى غريب لقلته فى كلام الناس كمدح زهير الأغنياء والفقراء وقد جرت عادة الناس بمدح الأولين قال :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

وأما التوليد الذى ذكره آنفا فقد قصره على اللفظى وشرحه بقوله : أن يزوج المتكلم كلمة من لفظه إلى كلمة من غيره فيتولد بينهما كلام يناقض غرض صاحب الكلمة الأجنبية ، وذلك مثل من أمثلة الميل إلى كثرة الأقسام التى يمكن اندراجها تحت قسم واحد، وماضره لوأنه جعل التوليدين توليدا واحداً ونوعه إلى هذين النوعين (٩٠) الإغراب والطرفة . ثم قال ابن أبى الإصبع . هذا آخر أبواب المتقدمين . وقد بقيت أبواب الأجدابى الثلاثة وهى :

( ١ ) الالتزام : وهو لزوم مالا يلزم . وصنيع ابن أبى الإصبع يدل على أن هذه الأبواب الثلاثة من ابتكار الأجدابى ، وظاهر جداً كما أسلفنا أن أن الأجدابى مسبوق بهذا الصنيع من ابن المعتز : وعذر ابن أبى الإصبع ما أسلفناه من تحريف بعض النسخ ، وذلك العذر يصلح للأجدابى أيضا :

( ٢ ) تشابه الأطراف : قال ابن أبى الإصبع . وسماه الأجدابى التسبيغ . وفسره بأن يعيد لفظ القافية فى البيت الذى يليها . والتسبيغ معروف فى اصطلاح العروضيين فلم تكن هذه التسمية لائقة بمسماها فرأيت أن أسميه بما سميته به كقول ليلى الأخيلية فى اللجاج :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشـفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

ستقاها فرواها بشرب سجاله دماء رجال يحلبون صراها(١)

وقد أطلق الخطيب القزويني تشابه الأطراف على نوع من مراعاة النظير ونسبه إلى بعض العلماء وفسره بتفسير يغاير تفسير ابن أبي الإصبع قال: ومنها « مراعاة النظير » ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف. وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه في المعنى نحو «لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وهو اللطيف الخبير».

(٣) التؤم (٢): قال ابن أبي الإصبع وسماه الأجدابي. التشريع. وفسره بأن قال هو أن يبني الشاعر البيت على قافيتين إذا اقتصر على إحداهما كان البيت له وزن، وإن كمله على الأخرى كان له وزن آخر، وهذه التسمية وإن كانت مطابقة لهذا المسمى وهي غير معلومة عند الكافة فسميته التؤم .... الخ.

ثم قال ابن أبي الإصبع هذا آخر ما جمعته من كتب الناس بعد التنقيح والتحرير وتغيير ما حسن فيه التغيير. ومن هاهنا أشرع في إثبات الأبواب التي استنبطتها والأنواع التي اخترعتها مفصلة مكملة. فأولها:

(١) التخيير: (٣)

عرفه بقوله: هو أن يأتي الشاعر ببيت يسوغ أن يقفى بقواف شتى. فيتخير منها قافية مرجحة على سائرها بالدليل كقول الشاعر:

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن فكيف حال غريب ماله قوت

فإنه يسوغ أن يقول. ماله حال. أومال. أونشب. إلى غير ذلك ولكن قوله: « ماله قوت » أبلغ من الجميع وأدل على القافية وأمس بذكر الحاجة، وأبين للضرورة وأشجى للقلوب فلذلك رجحت على ماذكرناه.

ثم عد من التخيير نوعا آخر وهو عطف بعض الجمل على الآخر بحرف

---

(١) السجال: جمع سجل وهو الدلو. الصرى: لبن صرى متغير الطعم، والصرى: البقية.

(٢) قال في معاهد التنصيص جـ٢/ ١٠٣ في أثناء تفسير شواهد التشريع وسماه ابن أبي الأصبع التؤم.

(٣) ص ٢٤٥.

التخيير وشرط كونه من المحاسن تضمنه التقسيم كقوله تعالى « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة »

وأنت خبير بأن النوع الثانى مسبوق إليه بالنحويين أولا لتسميتهم «أو» هنا حرف تخيير ، وبالبديعيين ثانيا لإطلاقهم على مثل تلك الآية التقسيم .

وأما النوع الأول فإنما يستقيم له على حسب تعليله إذا كان الشعر بيتا واحدا ، ولكن إذا كانت القصيدة تائية كما هنا وكان ذلك البيت الذى ساقه بعد مطلعها مثلا فليس الشاعر مخيراً بين هذه الكلمات التى ردده بينها .

فهو ملزم بكلمة « قوت » وما يجرى مجراها مما يؤدى معناها وينتهى بالتاء كانتهائها .

( ٢ ) التدبيج(١) :

هو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا بقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو نسيب أو غير ذلك .. وهذا اللون مما تداخل على ابن أبى الإصبع فهو نوع من أنواع الطباق ، وقد أسلفنا أن ابن سنان ساقه فى كتابه عن العلماء باسم المخالف ، واختار إلحاقه بالطباق فليس لابن أبى الإصبع إلا تغيير اسمه من المخالف إلى التدبيج وذلك لا يدخل فى باب السبق .

( ٣ ) التمزيج(٢) :

عرفه بأن يمزج المتكلم معانى من البديع بفنون الكلام أعنى أغراضه ومقاصده بعضها من بعض بشرط أن يجمع معانى البديع والفنون فى الجملة أو الجمل من النثر والبيت أو البيوت من الشعر ... ثم ساق أمثلة لذلك .

( ٤ ) الاستقصاء(٣) :

وهو أن يتناول الشاعر معنى ويستقصيه إلى ألا يترك فيه شيئا ثم ساق له أمثلة من شعر ابن الرومى علم هذا الباب .

---

( ١ ) ص ٢٤٧ . ( ٢ ) ص ٢٤٩ .
( ٣ ) ص ٢٥٠ .

(٥) البسط(١) :

عرفه بقوله: هو أن يأتى المتكلم إلى المعنى الواحد الذى يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل فيدل عليه باللفظ الكثير لفائدة .

وغير خاف سبقه بهذا اللون . فقد عرض العلماء للإطناب والتطويل من قبله كما سلف ، فهذا مما سبق به فليس له فيه فضل .

(٦) الهجاء فى معرض المدح(٢) :

عرفه بقوله : وهو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتى بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها الهجاء فيوهم أنه يمدحه ، وهو يهجوه كقول بعضهم فى بعض الأشراف .

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لغيره وهو الرسول

(٧) العنوان(٣) :

عرفه بقوله : هو أن يأخذ المتكلم فى غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك ، ثم يأتى لقصد تكميله بألفاظ تكون عنوانا لأخبار متقدمة ، وقصص سالفة وساق لذلك شواهد ، وهذا يتلاقى مع التلميح وقد سبق به من غيره .

(٨) الإيضاح(٤) :

وهو أن يذكر المتكلم كلاما فى ظاهره لبس ثم يوضحه فى بقية كلامه ثم ساق لذلك أمثلة من بينها قول مسلم ابن الوليد :

يذكرنيك الخير والشر كله وقيل الخنا والعلم والحلم والجهل

فقد جمع بين ألفاظ المدح والهجاء ولو اقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع فلما قال بعده :

فألقاك عن مكروهها متنزها وألقاك فى محبوبها ولك الفضل

أوضح المعنى ورفع اللبس ، وغير خاف انطباق هذا النوع بأمثلته

(١) ص ٢٥١ . (٢) ص ٢٥٤ .
(٣) ص ٢٥٥ . (٤) ٢٥٦ .

على ما عرف باسم التفسير كما أسلفنا، فهذا النوع مما سبق به وليس له فيه من فضل سوى اطلاق اسم الإيضاح عليه بدل التفسير .

(٩) التشكيك(١) :

عرفه بقوله – هو أن يأتى المتكلم فى كلامه بلفظة تشكك المخاطب هل هى حشو أو أصلية لاغنى للكلام عنها كقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين» فكلمة بدين تشكك السامع . فالضعيف النظر يخالها فضلة لإغناء لفظ تداينتم عنها ، والبصير بعلم البيان يعلم أنها أصلية .

ومنه نوع آخر . وهو الإتيان بجمل من المعانى بأو التى للتشكيك، وقد عرض ابن رشيق للتشكيك لكن على غير هذا المنحى، بل على النحو الذى سلكه ابن المعتز بتجاهل العارف فنقل ابن أبى الإصبع هذه التسمية لذلك المسمى ، والحق أن ذلك لاينبغى أن يسمى تشكيكا لأن الكلمة مادامت أصلية غير فضلة فمحال أن يحكم عليها بأنها فضلة ، والحكم من ضعيف النظر ليس حكما معترفا به حتى يراعى فيوضع له صبغ من أصباغ البديع .

(١٠) الحيدة والانتقال(٢) :

عرفه بقوله : هو أن يجيب المسئول بجواب لا يصلح أن يكون جوابا عما سئل عنه أو ينتقل المستدل إلى استدلال لا يصلح أن يكون جوابا ، وإنما يكون هذا بلاغة إذا أتى به المستدل بعد معارضته بما يدل على أن المعترض لم يفهم استدلاله، فينتقل عنه إلى استدلال ينقطع عند فهمه إياه، وساق أمثلة من الشعر ومن القرآن . منها قوله تعالى « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه.... الآية » وهو مسبوق بهذا بقدامى المفسرين حيث قالوا ذلك فى الآية .

(١١) الشماتة(٣) :

وهو إظهار المسرة بمن نالته محنة ، ومن بين أمثلته التى مثل بها قوله تعالى « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

ولا شك أن ذلك مما عرف من قبله باسم الاستعارة التهكمية وإن كان تعريفها بهذا التعريف لا يلزم أن تكون بالاستعارة .

(١) ص ٢٥٧ . (٢) ص ٢٥٧ .
(٣) ص ٢٥٨ .

(١٢) التهكم(١) :

أشار إلى مأخذه من اللغة ، ثم خلص منه إلى أنه التهاون بالمخاطب والوعد فى مكان الوعيد والمدح فى معرض الاستهزاء ، ومن بين أمثلته التى ساقها قوله تعالى « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » . ولا شك فى أن هذا اللون داخل فيما قبله وكلاهما أطلق عليهما من قبله اسم الاستعارة التهكمية .

(١٣) التندير (٢) :

عرفه بقوله : هو أن يأتى المتكلم بنادرة حلوة وهو يقع فى الجد والهزل ، ثم ساق له أمثلة من بينها للأول قوله تعالى « فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » . فوصفهم بالجبن والخور ، وفى هذا الكلام من ظريف التندير ما يبهرج كل نادرة .

ولا شك فى أن ذلك الأسلوب من أساليب المبالغة فلا معنى لفصله عنها وجعله لونا على حدة .

(١٤) الإسجال بعد المغالطة(٣) :

عرفه بقوله : هو أن يقصد الشاعر غرضا من ممدوح فيأتى بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض ، فيسجل عليه بذلك مثل أن يشرط لبلوغه ذلك شرطا يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض ثم يقرر وقوع ذلك الشرط مغالطة ليقع المشروط كقول بعض المحدثين :

جاء الشتاء وماعنـــدى لقرتـــه … إلا ارتعادى وتصفيقى بأســـنانى
وإن هلكت فمـــولانا يكفننى … هبنى هلكت فهب لى بعض أكفانى

(١٥) الفرائد(٤) :

بين أنه مختص بالفصاحة دون البلاغة لأنه عبارة عن إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته حتى أن هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعسر على الفصحاء غرامتها كقول أبى نواس :

وكأن سلمى إذ تودعنـــا … وقد اشرأب الدمع أن يكفا

(١) ص ٢٥٩ .
(٢) ص ٢٦٠ .
(٣) ص ٢٦١ .
(٤) ص ٢٦١ .

فلفظة اشرأب من الفرائد التى لا نظير لها فى فصيح الكلام ، وساق أمثلة أخرى على هذا النحو.

وهذا مما تداخل على ابن أبى الإصبع إذ ذلك شأن جميع الاستعارات التى تقع موقعها فإنها تبدو مشرقة وتكسو الكلام أبهى حلل التزيين .

(١٦) الإلغاز والتعمية(١) :

ويسمى المحاجاة . والتعمية أعم أسمائه . وهو أن يريد المتكلم شيئا فيعبر عنه بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه ويكون فى النثر والشعر ، وأنت جد خبير بأنه مسبوق إليها من ابن الأثير فى المثل السائر الذى عده ضمن الكتب التى اطلع عليها ، وقد أسلفنا ذلك قريبا ورجعنا بتلك الأسماء إلى أصولها التى منها نبعت ، سوى أن ابن الأثير جعل هذه الثلاث مترادفة على معنى واحد ، وابن أبى الإصبع جعل التعمية أعم هذه الأسماء .

(١٧) التصرف(٢) :

وهو أن يتصرف الشاعر فى معنى فيبرزه فى عدة صور . تارة بلفظ الاستعارة ، وطورا بلفظ التشبيه ، وآونة بلفظ الإرداف ، وحينا بلفظ الحقيقة كقول امرئ القيس فى وصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

فأبرزه فى لفظ الاستعارة ، ثم تصرف فيه فأتى به بلفظ التشبيه فقال :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل(٣)

ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الإرداف فقال :

كأن الثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل(٤)

ثم تصرف فيه فعبر عنه بلفظ الحقيقة فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وأنت تعلم أن هذا هو الغرض من علم البيان ، وقد سبقه السكاكى إلى تحديده ، قال هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح

(١) ص ٢٦٢ . (٢) ص ٢٦٤ .

(٣) مغار الفتل : محكمه . يذبل وأذبل : جبل .

(٤) مصام الفرس ومصامته : موقفه . أمراس : جمع مرسة وهى الحبل .

الدلالة عليه » وليس هناك داع لجعل الغرض من علم بأسره لونا من ألوان البديع فقل – إن شئت – إنه مسبوق إليه أومدخول عليه .

(١٨) النزاهة(١) :

أشار إلى أنه يختص غالبا بفن الهجاء وإن وقع نادراً فى غيره فإنه عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره عن الفحش حتى يكون الهجاء كما قال فيه أبوعمرو بن العلاء وقد سئل عن أحسن الهجاء فقال : الذى إذا أنشدته العذراء فى خدرها لايقبح عليها كقول جرير :

لو أن تغلب جمعت أحسابها ... يوم التفاخر لم تزن مثقالا

(١٩) التسليم(٢) :

عرفه بقوله : هو أن يفرض المتكلم فرضا محالا . إما منفيا أو مشروطاً بحروف الامتناع فيكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع مشروطه ، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا ويدل على عدم فائدة ذلك فى وقوعه على تقدير وقوعه كقوله تعالى « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » ثم قال : والمعنى والله أعلم . أنه ليس معه سبحانه من إله . وكأن قائلا قال لو سلمنا أن معه إلها للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله بما خلق وعلو بعضهم على بعض فلا يتم فى العالم أمر ، والواقع خلاف ذلك . ففرض إلهين فصاعدا محال .

وما أخلق مثل هذا بعلم البحث والمناظرة وبما يسمى فى البديع « المذهب الكلامى » وقد تقدم .

(٢٠) الافتنان(٣) :

عرفه بقوله : هو أن يفتن الشاعر فيأتى بفنين متضادين من فنون الشعر فى بيت واحد مثل النسيب والحماسة ، والمديح والهجاء ، إلى غير ذلك فمن الافتنان بالجمع بين النسيب والهجاء قول عبدالله بن طاهر بن الحسين أو قول أبى دلف العجلى :

أحبك يا ظلوم فأنت عندى ... مكان الروح من جسد الجبان
ولو أنى أقول مكان روحى ... خشيت عليك بادرة الطعان

---

(١) ص ٢٦٤ .
(٢) ص ٢٦٥ .
(٣) ص ٢٦٦ .

ولا شك فى أن هذا مما ينطبق عليه الإدماج الذى عرض له ابن رشيق فى العمدة كما أسلفنا فهو مما تداخل عليه .

(٢١) المراجعة(١) :

عرف هذا اللون بقوله : وهو أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة فى الحديث جرت بينه وبين غيره أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة وأسهل ألفاظ ، وساق من ذلك أبيات ابن أبى ربيعة فى الغزل القصصى . ولاشك أن هذا مما يمكن اندراجه تحت الحكاية التى قتلها النحاة بحثا قبل ابن أبى الإصبع وإن كانت نظرة البديعى غير نظرة النحوى ولكنى هنا لا أجد فارقا يسوغ عدها اونا .

(٢٢) السلب والإيجاب(٢) :

عرفه بقوله : هو أن يقصد المادح أن يفرد ممدوحه بصفة مدح لايشركه فيها غيره فينفيها فى أول كلامه عن جميع الناس ويثبتها لممدوحه بعد ذلك كقول الخنساء فى أخيها :

وما بلغت كف امرئ متناول ... من المجد إلا والذى نلت أطول
وما بلغ المهدون للناس مدحـــة ... وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضل(٣)

ويروى متناولا على أنه مفعول به .

وقد سبق هذا المصطلح بين ألوان أبى هلال إلا أن مسماه هنا خلافه هناك فنقله ابن أبى الإصبع إلى ماأراد هنا .

(٢٣) الإبهام(٤)عرفه بقوله :

هو أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين لايتميز أحدهما عن الآخر ، ولايأتى فى كلامه بمايأتى به التمييز فيما بعد ذلك بل يقصد به إبهام الأمر فيهما قصداً ومثل له بأمثلة من بينها قول بشار بن برد .

خاط لى عمرو قبـــــاء ... ليت عينيه ســــــواء

وذلك هو عين « التوجيه » الذى عرض له السكاكى فى المفتاح ومثل له

---

(١) ص ٢٦٧ . (٢) ص ٢٦٨ .
(٣) فى الأصل . إلا والذى وهو غير مستقيم . (٤) ص ٢٦٩ .

بقولك للأعور ليت عينيه سواء ، وقد عد ابن أبي الإصبع ضمن الكتب اطلع عليها كتاب المثل السائر لابن الأثير المتوفى سنة ٧٣٧ ولم يعد كتاب المفتاح للسكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ وأيا ما كان فهو مسبوق بهذا المصطلح من السكاكى وليس له إلا تسميته بالإبهام بدل « التوجيه » .

(٢٤) القول بالموجب(١) :

عرفه بقوله : هو أن يخاطب المتكلم مخاطبا بكلام فيعمد المخاطب إلى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبنى عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم وذلك عين القول بالموجب لأن حقيقته رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه كقول ابن حجاج :

قلت ثقلت إذ أتيت مرارا ... قال ثقلت كاهلى بالأيادى
قلت طولت قال لا بل تطولـ ... ـت وأبرمت قال حبل ودادى

(٢٥) حصر الجزئى وإلحاقه بالكلى(٢) :

عرفه بقوله : هو أن يأتى المتكلم إلى نوع فيجعله بالتعظيم له جنسا بعد حصر أقسام الأنواع فيه والأجناس كقول الشاعر :

إليك طوى عرض البسيطة جاعلا ... قصارى المطايا أن يلوح له القصر
وكنت وعزمى فى الظلام وصارمى ... ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر
فسرت بآمالى لملك هو الورى ... ودار هى الدنيا ، ويوم هو الدهر

ثم قال : والبيت الأخير أردت :

(٢٦) المقارنة(٣) :

هو أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه أو المبالغة أو غير ذلك من المعانى فى كلامه ، وساق أمثلة لذلك .

ولا أرى فرقا ظاهراً بين هذا اللون وبين التمزيج الذى أسلفه ضمن مبتكراته فهناك مزج لمعان من البديع بفنون الكلام ، وهنا مزج للاستعارة بالتشبيه أو المبالغة أو غير ذلك ، وهذه الثلاثة وغيرها معدودة فى معانى البديع ، فلا معنى لكثرة الاصطلاحات مادام أحدهما يغنى عن الآخر . فهذا مما تداخل على ابن أبى الإصبع .

---

(١) ص ٢٧٠ .

(٢) ص ٢٧٠ .

(٣) ص ٢٧٠ .

(٢٧) المناقضة(١) :

عرف هذا اللون بقوله : هو تعليق الشرط على معنيين ممكن ومستحيل ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن فكأن الشاعر ناقض نفسه فى الظاهر أن شرط وقوع أمر بوقوع نقيضه كقول النابغة :

وإنك سوف تحلم أوتناهى    إذا ماشبت أوشاب الغراب

فإن تعيلقه وقوع حلم المخاطب على شيبه ممكن وعلى شيب الغراب مستحيل ومراده الثانى لا الأول . لأن مقصوده أن يقول . إنك لا تحلم أبدا .

(٢٨) الانفصال(٢) :

عرفه بقوله : هو أن يقول المتكلم كلاما يتوجه عليه فيه دخل إذا اقتصر عليه فيأتى بعده بما ينفصل به عن ذلك الدخل كقول أبى نواس :

فى حرام الناس إن كنت من الناس تعد

ولقد ثنيت إبليس إذا راك يصد

ولا شك فى أن ذلك نوع من التوضيح أو التفسير الذى مر بيانه فلامعنى لإفرا ده عنه بلون على حدة فهذا مما تداخل على ابن أبى الإصبع أيضا .

(٢٩) الإبداع(٣) :

عرفه بقوله : هو أن تكون مفردات الكلمات من البيت الشعر أو الفصل النثر ، أو الحملة المفيدة متضمنة بديعا ، بحيث يأتى فى البيت الواحد — والقرينة الواحدة عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جمله ، وربما كان فى الكلمة الواحدة المفرد ةضربان فصاعدا من البديع ، ومتى لم تكن كل جملة بهذه المثابة فليس بإبداع ثم مثل بقوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم استخرج ما فيها من مناسبة بين أقلعى وابلعى . ومطابقة بين الأرض والسماء ، ومناداة الأرض والسماء على سبيل المجاز ، والإشارة فى قوله « وغيض » والتمثيل فى قوله : « وقضى الأمر »

---

(١) ص ٢٧١ .

(٢) ص ٢٧١ .

(٣) ص ٢٧٢ .

ومضى يسرد ألوان البديع فى الآية حتى بلغ بها العشرين ، على نحو ما سار عليه السكاكى فى هذه الآية بعينها حينما عرض لها على سبيل التطبيق .

ومثل هذا لا ينبغى أن يسمى لونا على حدة وإلا كان كل كلام جمع فيه بعض المحاسن البديعية من هذا اللون ، وقل أن يخلو الكلام البليغ عن هذا . ولا أرى فارقا يفصل بين هذا اللون وبين التمزيج والمقارنة السابقين حتى يستأهل أن يفرد بباب وحده .

وقد عرض ابن رشيق للحديث عن الإبداع فيما سلف فنقل ابن أبى الإصبع هذا الاسم إلى هذا المسمى الذى لم يسلم له .

(٣٠) حسن الخاتمة(١) :

بين أنه ينبغى للشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة فإنها آخر ما يبقى فى الأسماع ، ثم ساق لذلك الأمثلة .

وهذا تجاوز فى الادعاء من ابن أبى الإصبع حيث أسند استخراج هذا النوع إلى نفسه وهو مسبوق به من قدامى المؤلفين ، فقد عرض له القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣١٦ هـ فى كتابه الوساطة . قال ابن رشيق(٢) فى أثناء حديثه عن البحترى وحكمه عليه بأنه لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له «غير أن القاضى الجرجانى فضله بجودة الاستهلال وهو الابتداء على أبى تمام ، وأبى الطيب وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة» وقد عقد ابن رشيق بابا للمبدأ والخروج والنهاية فى العمدة(٣) فمما قاله فى الانتهاء(٤) : «وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها فى الأسماع وسبيله أن يكون محكما لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتى بعده أحسن منه وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه» . وقال ابن حجة فى الخزانة ص٥٦٢ : «عدّ ابن أبى الإصبع حسن الخاتمة من مستخرجاته وهو موجود فى كتب غيره بغير هذا الاسم فإن التيفاشى سماه حسن المقطع وسماه ابن أبى الإصبع حسن الخاتمة» فأنت ترى من هذا أن ابن أبى الإصبع مسرف فى ادعاء السبق إليه . وقد علمت أنه مسبوق به تسمية ومسمى فليس له إذن أن يقول . وهذا آخر

---

(١) ص ٢٧٤ .
(٢) العمدة جـ ١ – ٢٠٤ .
(٣) جـ ١ – ١٩١ .
(٤) العمدة جـ ١ – ٢١١ .

الأبواب التى استنبطتها وهى ثلاثون بابا، وبها تكمل الأبواب مائة باب وعشرين بابا سليمة من التداخل والتوارد .

وإذا كان النابلسى فى مقدمة بديعيته نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ، وصاحب كشف الظنون(١) يتفقان على أن ابن أبى الإصبع قد سبق إلى ثلاثين لونا سلم له منها عشرون واعتل عليه باقيها ، ولم أر أحدا من أصحاب البديعيات نبه على السالم أو المعتل، فقد اعتمدت على ما أسلفته من ألوان ، فحكمت على سبعة عشر لونا من هذه الثلاثين بالتداخل عليه أو سبق غيره بها ، فلم يسلم له سوى ثلاثة عشر لونا ، كما أسلفت ذلك فى موضعه .

وإذا كان أسامة بن منقذ قد بلغ بألوان البديع إلى خمسة وتسعين لونا وتلاه ابن أبى الإصبع فأوصلها إلى مائة وثلاثة وعشرين لونا ، فان البديع سيصل إلى أكثر من هذا العدد على يد رجال البديعيات الذين سنحدثك عنهم فى مكانهم من هذا البحث .

وقد ألف ابن أبى الإصبع بعد فراغه من هذا الكتاب الذى حدثناك عنه كتابا دعاه بدائع القرآن . ولا يزال هو الآخر مغمورا بين المخطوطات وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية مخطوطة مع نسخة من نهاية الإيجاز للرازى فى مجلد واحد ( تحت رقم ٢٥٠ بلاغة ) .

وتكاد تكون مقدمة هذا الكتاب هى عين مقدمة كتاب البديع السالف الذكر وقد أشار إلى كتاب البديع فى هذه المقدمة ووسمه بتحرير التحبير ثم قال . لما فتح على بعمل كتاب وسمته « بيان البرهان فى إعجاز القرآن » وعلمت أنه لابد له من تسمية تتضمن مافى الكتاب العزيز من أبواب البديع أفردت مايختص بالقرآن، فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب، ثم مضى يسوق هذه الأبواب ويشرحها شرحا أقرب إلى الضبط والتحليل العلمى مما صنعه فى كتاب البديع الذى قدمناه ، وإن كان لم يحدث بينهما خلاف جوهرى فى صميم النوع البديعى وقد ابتدأ أبواب هذا الكتاب بالاستعارة وختمها

---

(١) جـ ١ - ١٩٠ .

بحسن الخاتمة كما صنع فى كتاب البديع ، ولا نرى أن نطيل البحث بالتعرض لتحليل هذا الكتاب فإنه مشتق من كتاب البديع السالف الذكر .

ونظرة إلى صنيع ابن أبى الإصبع فى كتابيه المتقدمين ، تقفنا على مبلغ محاكاته لمن تقدموه سوى السكاكى ، إذ أنه لم يتأثر بطريقته بجعل مباحث علم البيان مستقلة وحدها عن مباحث البديع كما فعل السكاكى وذلك يبين لنا أن كلمتى البديع والبيان متقاربتا المفهوم عند ابن أبى الإصبع كما صرح بذلك مرارا فيما سلف .

وبهؤلاء المؤلفين الثلاثة . السكاكى . وابن الأثير . وابن أبى الإصبع تنقطع الصلة بين المتقدمين الذين غلبت عليهم الصبغة الأدبية ، وبين المتأخرين الذين غلبت عليهم الصبغة النظرية ، وتمضى البلاغة مثقلة بأعباء المنطق والفلسفة وفى ذيلها البديع فى طريق الاختصار المخل الذى لايشبع نهمة ولايبل أواما ، ولا يربى ذوقا ، أو فى طريق الشرح والتقرير الذى يبعدها عن موارد الصفو ، ويوردها مواطن الكدر ، وبقى الأمر كذلك منذ أوائل القرن الثامن الهجرى إلى يومنا هذا حتى مرنت الأذهان على العجمة وأصبح من آية الحذق والتمهر إحراز قصب السبق فى تحصيل تلك الطرائق فإن صاح صائح فى رواد هذه الموارد العقيم . أن ارجعوا بالبلاغة إلى عهود الصفو والإشراق وجانبوا عهود الكدر والإظلام حتى تتربى أذواقكم ، وتنضج سلائقكم رموه بالأفن والجنون . نقول ذلك والشواهد على ماندعى ماثلة حاضرة إلا من رحم الله بقوة الفكر ونضج العقل والتحلل من قيود التقليد ، ولا يزال تلخيص القزوينى وإيضاحه وما عليهما من شروح وحواش وتقريرات ، موطن القداسة ومباءة الطهر ، ومنبع العلم ، وآية القدرة ، وأمارة الإعجاز .

استقلال البديع عن أخويه :

قدمنا أن السكاكى وزع البلاغة بين علمين اثنين . المعانى والبيان ، وجعل البديع — وإن لم يسمه بذلك الاسم — متضافرا مع مباحث العلمين فى الوصول بالكلام إلى أعلى مراتب التحسين ، وكان صنيعه هذا لبادئ النظر

مؤذنا باستقلال مباحث البديع عن علمى البلاغة بعد طول اختلاط فكان بذلك الممهد الأول لمن يؤلفون فى البلاغة بجعل البديع فنا مستقلا عن أخويه، وإن كان لم يرم إلى ذلك ولا إليه قصد كما أسلفنا، وقد سن للناس سنة الاختصار حيث اختصر القسم الثالث من كتابه فى كتاب دعاه التبيان، كما لفت أذهانهم إلى وضع الحواشى والتقريرات بعزمه على إملاء ذلك بعد الفراغ من تأليف كتابه، ولا إخالك قد نسيت ماجره على البلاغة عموما من غمسها فى بحار واسعة من المنطق والفلسفة، وما أصاب البديع على يديه. من وضعه فى ذيل العلمين الآخرين وضعا سهل على من خلفوه على كتابه أن يجعلوه ذنبا لهذين العلمين، ومن جعله مساويا للمفردات اللغوية فى الاقتصار على التحديد وسوق مثل واحد لايصور ذلك اللون ولا يركزه فى الأذهان، فمهما استعين على مصطلحات البديع بالرد والتكرار فمآلها إلى التفلت والزوال، ذلك إلماع خاطف إلى طريقة السكاكى فى البلاغة، وعلى الرغم من أنه كان برزخا بين المتقدمين والمتأخرين فى العرض والتصوير فعليه تقع التبعة فى عقم البلاغة وجمودها وإيرادها موارد التدهور والانحطاط، وجعلها ضحية المختصرات والحواشى والتقريرات.

وقد أحصى صاحب كشف الظنون (١) عددا وافرا ممن توفروا على القسم الثالث من المفتاح بالاختصار أو النظم، إلاأن الحظ والتوفيق لم يكتبا لغير متن التلخيص الذى صنعه قاضى قضاة الإقليمين(٢) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد الذى ينتهى نسبه إلى أبى دلف العجلى، القزوينى ثم الدمشقى الشافعى، والذى شهر بالخطيب القزوينى، وكان مولده بالموصل سنة ٦٦٦ وتفقه على أبيه، وأخذ الأصلين(٣) عن الأربلى، وسكن الروم مع أبيه واشتغل فى أنواع العلوم، وسمع من أبى العباس الفاروقى وغيره، وولى الخطابة بدمشق، ثم القضاء بها، ثم بالديار المصرية ثم نقل إلى قضاء الشام حتى قضى سنة ٧٣٩ هـ.

(١) ج ٢ - ٤٨٠.

(٢) الشام ومصر. وترجمة الخطيب مستقاة من شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لعبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩.

(٣) الأصلين: أصول الفقه والتوحيد.

وقد نال تلخيص المفتاح للقزويني قسطا وافرا من الشهرة والرواج حتى غطى على أصله منذ ظهوره إلى يومنا هذا ، واستبد بجهود يتضاءل أمامها مابذل في القسم الثالث من المفتاح . قال صاحب كشف الظنون(١) : « ولما كان هذا المتن مما يتلقى بحسن التلقي والقبول أقبل عليه معشر الأفاضل والفحول وأكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول ، فصار كأصله محط رحال تحريرات الرجال ، ومهبط أنوار الأفكار ، ومزدحم آراء البال ، فكتبوا له شروحا ...... ثم مضى يعدد هذه الشروح فساق جملة وافرة تنبئ عن عناية فائقة ، واهتمام زائد ، ولست آتيا بجديد إذا سردتها هنا وما عليها من حواش وتقريرات فهي — والحمد لله — متعالمة مشهورة حالفت قراء هذا البحث منذ سلكوا هذا الطريق إلى يومنا هذا .

## الباعث على تأليف هذا المختصر :

وقد كان الحافز للخطيب على تأليف هذا المختصر مايحدثنا به يقول : «فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا ، وأدقها سرا إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها . وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ماصنف فيه من الكتب المشهورة نفعا ، لكونه أحسنها ترتيبا ، وأتمها تحريرا ، وأكثرها للأصول جمعا ، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلا للاختصار ، ومفتقرا إلى الإيضاح والتجويد ، ألفت مختصرا يتضمن مافيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ، ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه ، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه ، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه ، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه ، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها ، وسميته « تلخيص المفتاح . » ، والمتصفح لهذا الكتيب والقسم الثالث من المفتاح يدرك مبلغ التساهل في تسميته بتلخيص

---

(١) جـ ١ — ٣٢٣ .

المفتاح ، وقد أحس ذلك القزوينى فنبه عليه كما ترى فى مقدمته التى نقلناها إليك ، ولو أن مثل هذا البحث يتسع لغير هذا المسلك الذى وضعناه لأنفسنا لرجعنا كل مسألة من مسائله إلى منبعها الذى منه نبعت. ولكن حسبنا أن نقول إن الخطيب القزوينى قد تأثر فوق تأثره بالقسم الثالث من المفتاح ، بأبرز الكتب التى سبقته ، وأخصها سر الفصاحة للخفاجى ولا سيما فى المقدمة ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، والمثل السائر لابن الأثير والعمدة لابن رشيق ، والصناعتين لأبى هلال ، والبديع لابن أبى الإصبع وبغير أولئك مما أعان القزوينى على إبراز هذا الكتاب الذى جمع فيه مسائل البلاغة ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها أدق تبويب ، ولولا متابعته السكاكى بإخضاعه البلاغة للحد «والتقنين» وخلطها بالمنطق والفلسفة ، وإمحا لها من الشواهد الغزيرة التى تعين على تربية السلائق وتكوين الملكات لعاد صنيعه هذا على البلاغة بأحمد النتائج وأطيب الفوائد، ولكن التقليد غلب عليه فكان ثانى اثنين أسهما بأوفر قسط فى تجريد البلاغة من حلى الأدب والبيان ، وسلكاها فى سلك العلوم النظرية التى لاتربى ذوقا ولا تعود بيانا .

أما محتويات هذا المتن — فحسبنا أن نقول إنه رتبه على مقدمة وثلاثة فنون وخاتمة ، فالمقدمة فى شرح الفصاحة والبلاغة ، والفن الأول علم المعانى ، والثانى علم البيان والثالث علم البديع ، والخاتمة فى السرقات الشعرية وما يتصل بها .

ونظرة إلى هذا الصنيع تقفنا على مبلغ تجديد الخطيب بالنسبة إلى البديع فقد جعل أصباغ البديع علما مستقلا عن أخويه اللذين طالما خالطهما جميعا أوجمهور مسائلهما منذ عهد التأليف فيه إلى عصر الخطيب ، فكان بهذا العمل أول الجانين على ألوان البديع ممن ألفوا فى البلاغة بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض، وانظر إلى تعريفه علم البديع بقوله : «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة » .

كيف قضى على ألوانه بأن تكون حلى مزينة ، تكسو الكلام بهجة بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وأنها عرضية ليست بالذاتية ، ولعل

الخطيب نظر نظرة غير ممعنة إلى صنيع السكاكى فخدع به وحكم عليها هذا الحكم الجائر الذى قلل من شأنها وهوّن من خطرها فى نظر من لفوا لف الخطيب تأليفا وتعليما ، ولم يلتفت إلى مغزى كلمة السكاكى فى العلاقة بين هذه المحاسن وبين ماتقدمها من مسائل علمى المعانى والبيان ، ونعرضها عليك للمرة الثانية عسى أن نحظى منك بتأييد يشجعنا على المضى فى خطتنا قال السكاكى(١) : وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسوالكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين فهاهنا(٢) وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها ، وهى قسمان . قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ » . وقد ألمعنا إلى عذر السكاكى فى هذا الصنيع فيما سبق ، والآن نمسك القلم عن تهجين خطة القزوينى التى قضت على هذه الأصباغ بجعلها أذنابا وذيولا للبلاغة وهى منها فى الصميم إلى موضعه من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

ثم نمضى فى الكشف عن الجديد فى البديع على يد الخطيب . فنقول : أن السكاكى قسم أصباغ البديع إلى قسمين معنوى ولفظى . وعدّ من المعنوى عشرين لونا من بينها الاعتراض . والالتفات . والإيجاز . والإطناب . وجعل الطباق والمقابلة نوعين يستقل كل واحد منهما عن صاحبه ، فتابعه الخطيب على تقسيم المحسنات إلى القسمين المذكورين سوى أنه عدّ من المعنوى ثلاثين صبغا فى التلخيص وواحدا وثلاثين فى الإيضاح ، ليس من بينها الالتفات ، والاعتراض ، والإيجاز ، والإطناب ، واكتفى بعدها ضمن مباحث علم المعانى ، وجعل الطباق يشتمل على المقابلة متابعة لابن سنان الخفاجى حيث اختار إطلاق الطباق على جميع أنواعه من السلب والإيجاب ، والمقابلة وغيرهما ، كما أنه ضم الأشباه بعضها إلى البعض الآخر ، وحدّد الألوان وقسمها تحديدا وتقسيما أدنى إلى الضبط العلمى مما صنع السكاكى ، مع الإشارة إلى عدة الأسماء التى تكون للصبغ الواحد ، وها هى ذى عدة

---

(١) ص ١٧٩ مفتاح .

(٢) وإن كان ظاهر عبارة السكاكى يفيد أن وجوه البديع لا ترجع إلى وجوه الفصاحة فاستند الخطيب على هذا الظاهر وبنى عليه نظريته وإن كان مغزاها كما قلت .

الألوان التي عرض لها فى القسم المعنوى (١) المطابقة وتسمى الطباق والتضاد أيضا ، ونوعه إلى نوعين . طباق الإيجاب وطباق السلب ، وألحق به إيهام التضاد ، وأدخل فيه المقابلة ، وقد عدها السكاكى وحدها . (٢) مراعاة النظير — ويسمى التناسب والتوفيق ، وجعل منه مايسميه بعضهم تشابه الأطراف ، وألحق به إيهام التناسب . (٣) الإرصاد — لم يذكره السكاكى ، ويسميه بعضهم التسهيم (٤) المشاكلة . (٥) المزاوجة . (٦) العكس — لم يعرض له السكاكى فذكره وقسمه إلى عدة وجوه . (٧) الرجوع — لم يذكره السكاكى (٨) التورية — نوعها إلى نوعين مجردة ، ومرشحة . (٩) الاستخدام — لم يعرض له السكاكى (١٠) اللف والنشر — ونوعه إلى نوعين . مرتب . وغير مرتب . (١١) الجمع . (١٢) التفريق . (١٣) التقسيم (١٤) الجمع مع التفريق. (١٥) الجمع مع التقسيم . (١٦) الجمع مع التفريق والتقسيم . (١٧) التجريد — لم يعرض له السكاكى فذكره ونوعه إلى سبعة أنواع . (١٨) المبالغة — لم يعرض لها السكاكى فذكرها ونوعها إلى التبليغ والإغراق والغلو . (١٩) المذهب الكلامى — لم يعرض له فى المفتاح . (٢٠) حسن التعليل — وقد تأثر فيه بعبد القاهر ولم يعرض له السكاكى . (٢١) التفريع — لم يذكره السكاكى . (٢٢) تأكيد المدح بما يشبه الذم . (٢٣) تأكيد الذم بما يشبه المدح — لم يذكره السكاكى . (٢٤) الاستتباع (٢٥) الإدماج لم يذكره السكاكى . (٢٦) التوجيه . (٢٧) الهزل الذى يراد به الجد ، ولم يذكره السكاكى . (٢٨) تجاهل العارف ، وقد عرض له السكاكى ولم يحب أن يسميه بذلك بل سماه سوق المعلوم مساق غيره . (٢٩) القول بالموجب ، ولم يذكره السكاكى فاقتبسه الخطيب من البديع لابن أبى الإصبع كما سلف ونوعه إلى نوعين . (٣٠) الاطراد — ولم يذكره السكاكى فاستقاه من ابن رشيق ، وقد زاد على هذه الثلاثين نوعا آخر فى الإيضاح هو (٣١) الاستطراد — ولم يذكره السكاكى ، وذكره ابن رشيق وغيره .

تلك هى الألوان التى عرض لها الخطيب فى التلخيص والإيضاح من القسم المعنوى وقد حددها وقسمها ومثل لها على طريقته من الاختصار .

وأما اللفظى فقد عدّ منه سبعة أنواع . (١) الجناس — وقد عرض له السكاكى فأربى عليه الخطيب بكثرة التقسيمات . (٢) رد العجز على الصدر وقد ذكره السكاكى . (٣) السجع — وقد عرض له كذلك . (٤) الموازنة ولم يعرض لها السكاكى . (٥) القلب وقدعرض له السكاكى . (٦) التشريع ولم يعرض له أصله . (٧) لزوم مالا يلزم ولم يعرض له السكاكى — وهو فى كل أولئك يحدد ويقسم ويمثل ، وقد عقب على تلك الألوان بقوله: «وأصل الحسن فى ذلك كله أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى دون العكس» وتلك عبارة السكاكى فى التعليق على هذه الأصباغ .

ونظرة إلى ماصنعه الخطيب فى تلخيصه فى علم البديع تقفنا على مبلغ تأثره بغير القسم الثالث من المفتاح وترشدنا إلى حسن استخدامه لجميع الكتب التى اطلع عليها مع إحكام الترتيب ودقة التبويب ، وضبط الأقسام ، وقد أحس الخطيب بالغموض يشيع فى جنبات تلخيصه فعمد إلى شرحه فى كتاب سماه « الإيضاح » أوضح فيه غامض التلخيص ، وشرح مبهمه وأربى عليه بكثرة الأمثلة والشواهد والنقل عن عبدالقاهر وغيره ،والاعتراض على السكاكى فى كثير من المواطن ، ولم يزد فيه شيئا من ألوان البديع على ما ذكره فى التلخيص سوى لون الاستطراد الذى نبهنا عليه .

وقد استحوذ هذان الكتابان على حظ وافر من الشهرة والرواج ، فلقيا كل إعجاب ملك على الناس حواسهم ، وسيطر على مشاعرهم ، واستنفد منهم موفور جهودهم ، ولا يزالان موضع إعجابهم إلى هذا الأوان .

وإلى هنا نمسك القلم لنرى أثر التأليف فى حياة البديع الأدبية وكيف انتهت به هذه الحياة إلى البديعيات ذلك ماسنعالجه فى هذا الباب بمشيئة الله تعالى .

# الباب الثالث

## الحياة الأدبية للصبغ البديعي
## من بدء التأليف إلى العصر الحاضر

# الفصل الأول

## خيانة الأدبية إلى البديعيات

أبرز عناصر هذا الفصل:

إلماع إلى حال البديع قبل القرن الرابع — يقظة النقد — حال البديع فى القرن الرابع — التوسع فى أصباغه — نشأة مبحث السرقات — أبو هلال العسكرى — عبد العزيز الجرجانى — الجاحظ — أول المؤلفين فيها على انفراد — المؤلفون فيها ضمن مباحث غيرها — المتنبى — تحلل البديع من دقته — أبعاده فى الاستعارة — المبالغات الغالية ومبعثها — أثرها فى الشعر — التكلف فى أصباغ البديع — التعقيد فى طريق الأداء — رقية العقرب — إكثاره من الحشو — أثر الصناعة فى شعره — براعته فى التقسيم — سبق أبى نواس إلى نوع من الجناس وقيمته الأدبية — الصاحب بن عباد — قصائده الجديدة — الهمذانى — البستى — بدو الفتور فى النقد — مجاملة الثعالبى شعراء اليتيمة — جناس البستى — طباقه — دعايته للفلسفة — أثر هذه الدعوة فى نفسه — سرعة تأثر الشعر بالبديع — حال النثر — استواء الصنعة فيه — ابن العميد — دعائم طريقته — أثر هذه الطريقة — نصيب المعمى من شعره — أثر المعميات فى الأدب — الصاحب بن عباد — بديع الزمان — خصائصه — مقاماته — أثر الصنعة فى كتابته — غلبة روح العصر عليه — مميزات الكتاب فى القرن الرابع — تساوى الكتابة والشعر فى الميل إلى الانحدار بعدالمائة الرابعة — دولة الألفاظ — بواعثها — المقياس الأدبى — أثر الإقليمية فى الأدب — نظرية اللفظ والمعنى — نواتها فى القديم — موقف ابن سنان — موقف عبد القاهر — أثر ذلك فى الأدباء — أبو العلاء المعرى — لزومياته — جناساته وحظ الأدب منها — تسميته نوعا منه — قيمته فى نظر الخفاجى — غرامه بالألغاز — حظ الأدب منها — متى يحسن شعره — المصطلحات

العلمية ــ إنكار ابن سنان لها ــ عد رسائله فى كتب اللغة ــ ابن زيدون الكاتب الشاعر ــ لطف صنعته ــ الهزلية والجدية ــ إعادته عهدالبحترى ــ الحريرى ــ رواج الصنعة على يديه ــ طبخه أحمض أصنافها ــ جناسه ــ تصحيفه ــ إلغازه ــ مالا يستحيل بالانعكاس ــ بيت الأرجانى فيه هو الشعر كله ــ المعجم والمهمل ــ الرقطاء ــ العارى عن الإعجام ــ موقف ابن الأثير من هذا العبث ــ السينية والشينية ــ موقف ابن الأثير ــ موقف الرافعى ــ موقفى ــ لزوم السرقسطى ــ المكناسى ــ ابن قاضى حماه ــ قرب الحريرى من الإحسان فى بعض الألوان ــ ابن خفاجة الأندلسى وأبو تمام ــ ابن خفاجة وابن العميد ــ تصنع ابن خفاجة ــ حسن التعليل فى الأندلس ــ الطريقة الفاضلية ــ دعائمها ــ رواجها فى مصر ثم الشام والأندلس ــ التورية والاستخدام وحظهما من الطريقة الفاضلية ــ قوة الفاضل عصمت كتابته من السقوط ــ خلفه العاق ــ ضعف النقد وفتوره ــ إعجابه بهذه الرطانات ــ إسراع الكتابة إلى الانحدار ــ بقاء الشعر على شىء من الرونق ــ سبب ذلك فيهما ــ سيطرة الطريقة الفاضلية على الأدب إلى العصر الحديث ــ استعراض دعائم هذه المدرسة ــ التورية ــ الاستخدام ــ رجالهما ــ التضمين وأثره ــ الاقتباس ــ اقتباس المصطلحات العلمية ــ مشايعة ابن الأثير لها ــ مراعاة النظير ــ الألغاز والأحاجى ــ انتشارها فى أوساط العامة وسبب ذلك ــ حسن التعليل ــ تأكيد المدح بما يشبه الذم ــ التلميح ــ السجع والمؤلفات العلمية .

* * *

رافقنا فى الباب الأول من هذا البحث الصبغ البديعى منذ طاف بأخيلة الشعراء وجال فى الشعر العربى ماضيا فى طريق النضج والاكتمال حتى بلغ الغاية واستولى على الأمد فى أواخر القرن الثالث الهجرى على يد شعرائه الذين أغرموا به وتوفروا عليه فحلوا به قريضهم ، ووشحوا به بيانهم ، فكساه ثوب الروعة والبهجة ، إذ كان لهم من الدقة فى الصناعة والإحكام ، وصفاء السليقة فى الشعر ونقاء الوجدان ، ونمو الأذواق فى الأدب ونضج الأفكار ــ عاصم يحول بينهم وبين أن ينزل صناعتهم عبث هذه الأصباغ ، فقد كانت الأصباغ البديعية تبرز على قدر الحاجة إليها ، وكان يرعاها النقد

ويحاسب الشعراء عليها حسابا عسيرا ، ويتربص بهم الدوائر ، فمن حاد عن الطريق أو جانب النهج أذاقه مرارته وصب عليه سخطه ومقته ، لذلك برز جمهورها فى صورة مهذبة مقبولة لاخروج فيها ولا التواء .

فإذا جاوزنا القرن الثالث إلى الرابع ألفينا الشعراء يمضون متوسعين فى هذه الأصباغ لايتجاوزون مقدار مايوصلهم إلى محاكاة السابقين فى الظرف والتملح ، ولكنا نلمح لأول عهدنا بهذا القرن أن رواء هذه الصنعة وما صحبه من إحكام وإتقان ، وصفاء فطرة ووضوح بيان ، ينحسر رويدا رويدا عن الشعر العربى حتى لايكاد يحس القارئ بالروعة الساحرة ، والإعجاب البالغ ، والثراء الواسع الذى كان يملأ نفسه حيال شعر القرن الثالث وماقبله .

فقد تسرب إلى الحياة الشعرية شيئا فشيئا جمود وركود ، واستولى على العقل العربى ضعف وفتور ، فأخذ الشعراء يقنعون بمحاكاة سالفيهم والوقوف عند الحدود التى بلغوها من قبل ، وخالوا أن جميع الطرق التى تسلك إلى الاختراع والتجديد قد سدت أمامهم وأن الأول لم يترك للآخر شيئا ، فتوفر الشعراء على توليد هذه المعانى القديمة أو سرقتها فولد هذا البحث الفضفاض الذى تراه فى كتب النقد لهذا العهد وهو مبحث السرقات الشعرية ، إذ نرى أبا هلال العسكرى صاحب الصناعتين المتوفى حوالى سنة ٣٩٥ هـ يعقد بابا فى حسن الأخذ وقبحه ، ويسوق لذلك شواهد من الأدب القديم والمحدث ، وقد جاء فيه قوله(١) : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ... ثم نقل عن على بن أبى طالب قوله « لولا أن الكلام يعاد لنفد » . ويقول(٢) الجرجانى صاحب الوساطة المتوفى سنة ٣٦٦ : « والسرق – أيدك الله – داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذى صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير

---

(١) ص ١٨٩ صناعتين

(٢) ص ٧٠ – ٧١ وساطة .

اختلاف الألفاظ ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبر مافيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد ، والتعريض فى حال والتصريح فى أخرى ، والاحتجاج والتعليل فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور مالايقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله ... ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها ، وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون قد تركت رغبة عنها ، واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها ، واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكرة ، وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئ أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالا يغض من حسنه ، ولهذا السبب أحظر على نفسى ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة » .

ترى الجرجانى وهو من أعلام النقاد والشعراء فى هذا العصر يعترف بأن السرقات من الأدواء القديمة والعيوب العتيقة التى لازمت الشعراء فى جميع العصور ، واقرأ مايرويه صاحب الأغانى(١) يقول : « قال مروان ابن أبى حفصة . دخلت أنا وطريح بن اسماعيل الثقفى والحسين بن مطير الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد وهو فى فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعرا وقف الوليد بن يزيد على بيت من شعره . وقال هذا أخذه من موضع كذا وكذا من شعر فلان حتى أتى على أكثر الشعر فقلت . من هذا . قالوا حماد الراوية » . وقال عبد الرحيم العباسى فى معاهد التنصيص(٢) فى أثناء حديثه عن السرقات : « وقال الجاحظ نظرنا فى الشعر القديم والحديث فوجدنا المعانى تقلب ، ويؤخذ بعضها من بعض ... » وقال الجاحظ فى الحيوان(٣) : « ولايعلم فى الأرض شاعر متقدم فى تشبيه

(١) جـ ٦ – ٧١ – أغانى ط الدار .
(٢) جـ ٢ – ١٢٢ معاهد .
(٣) جـ ٣ – ٩٦ .

مصيب تام وفى معنى غريب عجيب أوفى معنى شريف كريم ، أوفى بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده إن هو لم يقدر على لفظه فيسرقه أو يدعيه بأسره فانه لايدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه » . وقبل الجاحظ بقرون قال طرفة بن العبد متبرئا من شرور السرقة — ويروى البيت من أبيات لحسان بن ثابت » :

ولا أغير على الأشعار أسرقهـــا عنها غنيت وشر الناس من سرقا(١)

وأيا ماكان . فالسرقة داء قديم فى الشعر العربى تنبه له الشعراء والنقاد، سوى أنها أصبحت منذ القرن الرابع من أجلى المظاهر وأبرز المميزات، حتى حملت النقاد على أن يبرزوها فى أبحاث خاصة ، فقد قال الجرجانى(٢) : « ومتى طالعت ما أخرجه أحمد بن ظاهر ،(٣) وأحمد بن عمار من سرقات أبى تمام وما تتبعه بشر بن يحيى على البحترى ، ومهلهل بن يموت على أبى نواس عرفت قبح آثار الهوى وازداد الإنصاف فى عينك حسنا » أو يعرضوا لها ضمن أبحاث كما صنع الجرجانى فى الوساطة ، والآمدى فى الموازنة ، وأبو هلال فى الصناعتين ، ثم وطئ المؤلفون أعقابهم فيها إلى اكتمال عهد التأليف فى النقد والبلاغة ، ومن الإسراف فى البحث والفضول فى العرض إزجاء شواهد وأمثلة من ذلك اللون فهو كثير لاينقاد لضبط متفرع لايدين لإحصاء ، سوى أننا نحيلك على شاعر هذا العصر المتنبىء أبى الطيب أحمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المقتول سنة ٣٥٤ الذى قال فيه الثعالبى(٤) : « نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر .. سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه فى البدو والحضر ، وكادت الليالى تنشده والأيام تحفظه » فإنك إذا قرأت ديوانه مستعينا بشروحه التى من أبرزها التبيان للعكبرى وجدت أنه لم يسلم له من شعره على كثرته إلا النزر اليسير .

---

(١) جـ ٢ – ١١٢ معاهد التنصيص . (٢) ١٦٦ وساطة .

(٣) هكذا فى الأصل وفى الفهرست لابن النديم ص ٢٠٩ أنه أحمد بن أبى طاهر وهو الصحيح وقد ذكر له كتابا فى السرقات .

(٤) جـ ١ – ٩٠ يتيمة .

وإلى هذا فإنك ترى البديع فى القرن الرابع يمضى فى طريق التحلل من دقته وأحكامه التى اتشح بها فى القرن الثالث وماقبله ، حتى ليخيل للرائى أن ألوانه قد استحالت إلى ألوان أخرى تباين ما ألفناه منذ عهد قريب اقرأ قول المتنبى (١) .

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها سرور محب أو اساءة مجرم

فانك تجده يطابق بين السرور والإساءة ، وبين الحب والإجرام ، ولكن أى طباق هو أنه طباق متحلل ليس بالمحكم ، متخلف ليس بالمتقن ، إذ الإساءة لاتقابل السرور وإنما يقابله الحزن ، كما أن الإجرام لايقابل الحبّ بل يقابله البغض ، قال ابن حجة (٢) تعليقا على هذا البيت : « اتفقوا على أن هذا من الطباق الفاسد . فإن المجرم ليس بضد للمحب بوجه ما ، وليس للمحب ضد غير المبغض » واقرأ قوله(٣) :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا فلا تحسبنى قلت ما قلت عن جهل

فإنك ترى أبعادا فى الاستعارة عن مألوف الشعر العربى لايدانيه سوى قول أبى تمام :

لاتسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

لذلك قال الصاحب: « ما زلنا نتعجب من قول أبى تمام . لاتسقنى ماء الملام ... فخف علينا بحلواء البنين » (٤) .

وكما كانت السرقات وعدم الدقة فى التعبير ظاهرتين من ظواهر هذا القرن قد كانت المبالغات المسرفة ظاهرة ثالثة لهذا العصر . وقد ساعد على شيوعها ضيق أبواب الرزق أمام الشعراء فدلفوا إلى أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مبالغين مسرفين فى مدحهم ليخدعوهم عن أجزل العطايا وأسنى الهبات كقول المتنبى يمدح محمد بن زريق الطرسوسى :(٥) .

---

(١) ج ٤ - ١٤١ التبيان للعكبرى .
(٢) الخزانة - ٨٧ .
(٣) اليتيمة ج ١ - ١٣٧ .
(٤) المصدر عينه .
(٥) التبيان ج ٢ - ١٩٧ - ١٩٨ .

بشر تصوّر غاية فى آية — تنفى الظنون وتفسد التقييسا
وبه يضن على البرية لا بهـا — وعليه منها لاعليها يوسى
لو كان ذو القرنين أعمل رأيه — لما أتى الظلمات صرن شموسا
أوكان صادف رأس عازر سيفـُه — فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه — ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه — عبدت فصار العالمون مجوسا
لما سمعت به سمعت بواحد — ورأيته فرأيت منه خميسا

وقوله يمدح بدر بن عمار :(١)

لو كان علمك بالإله مقسما — فى الناس مابعث الإله رسولا
أوكان لفظك فيهمُ ما أنزل الـ — ـقرآن والتوراة والإنجيلا

وقوله :(٢)

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا — وصاد الوحش نملهم دبيبـا

وقوله :(٣)

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم — إذا رأى غير شىء ظنه رجلا
فبعده وإلى ذا اليوم لو ركضت — بالخيل فى لهوات الطفل ماسعلا

وقوله :(٤)

كفى بجسمى نحولا أننى رجل — لولا مخاطبتى إياك لم تـرنى

وإنك لترى المتنبي لا يقف بمبالغاته عند المدح الذى من شأنه أن يغرى بها ، بل تعداه إلى غيره من أغراض الشعر كما رأيت حتى وصل إلى مالم يصل إليه شاعر من قبله من الإحالة والإفراط ، وبلغ شأوا بعيداً فى ذلك اللون لا يجاوزه فيه سوى معاصره أبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى المقتول

---

(١) التبيان جـ ٣ — ٢٤٤ .
(٢) جـ ١ ١٣٨ يتيمة .
(٣) جـ ١ — ١٣٨ يتيمة .
(٤) التبيان جـ ٤ — ١٨٦ .

سنة ٣٦٢هـ ، فقد جره تشيعه الغالى إلى الغلو فى المدح الذى يقرب من الكفر ، فمن ذلك قوله يمدح :

ما شئت لاماشاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمـــد ... وكأنما أنصارك الأنصـــار

أنت الذى كانت تبشرنا بــه ... فى كتبها الأحبار والأخبار

وقد كان للتأليف فى أنواع البديع أثر ملموس فى تشجيع الشعراء على هذا اللون من الكلام فى ذلك العصر ، فقد دعا إلى المبالغة وأعلى من شأنها بعض النقاد – وهم ميزان الأدب فى كل عصر – كما أسلفنا ذلك عند ابن قتيبة وقدامة بن جعفر ، وليس من شك فى أن الشعر إذا أفرط فيه هذا الإفراط الشديد بهذه المبالغة المغرقة الغالية فقد نزل عن مكانته الوجدانية الرائعة إلى مكانة مغرقة فى الصناعة ، ممعنة فى التكلف لذلك ترى الثعالبى ينكر على المتنبي هذا الإفراط حيث يقول(١) بعد أن أحصى كثيراً من مبالغاته : « فهو مما يستهجن فى صنعته على الشعر على أن كثيراً من النقدة لايرتضون هذا الإفراط » .

لذلك كان التكلف فى أصباغ البديع ظاهرة أخرى من مظاهر هذا العصر اقرأ قول المتنبي(٢) :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيسٍ كلهن قلاقل(٣)

تحس بالثقل يشيع فى هذا البيت من كثرة تكرار هذه القلقلة حرصا على جناس ممعن فى الثقل ، نازل عن مستوى الصناعة إلى الدرك الأسفل ، واقرأ قوله(٤) :

كبر العيـــان علىّ حتى أنه ... صار اليقين من العيان توهما

فإنك تجده يستخدم ألفاظ المتصوفة ويستعمل كلماتهم المعقدة و معانيهم

---

(١) ، (٢) اليتيمة جـ ١ – ١٣٩ .

(٣) قلقل : حرك ويريد بالحشا مافى داخل جوفه ؛ قلاقل عيس : جمع قلقل وهى الناقة الخفيفة وهى سريعة الحركة وقلاقل الثانية جمع قلقلة وهى الحركة .

(٤) اليتيمة جـ ١ – ١٤٥ .

المغلقة فى سبيل مراعاة النظير بين العيان واليقين ، والطباق بين اليقين والتوهم وذلك صنيع يستغلق على غير المتصوفة .

واقرأ قوله :(١)

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

فإنه يقول كما قال الثعالبي : «إذا نويت فعلا أوقعته قبل فوته وقبل أن يقال لم يفعل وإن يفعل » تجده يستخدم مصطلحات النحاة جامعا بين المضارع والماضى والجزم من أجل مراعاة النظير عندهم ، مقابلا بين المضارع والماضى ، وذلك جمع وطباق يستغلقان على غير النحاة ، وما هذه طريق الشعر التى ينبغى أن يسلكها من النصوع والوضوح ، وقد كان المتنبي بإكثاره من هذا أحد الجناة البارزين على الشعر العربى بإلجائه إلى مضايق العلوم والجنوح به إلى الإبهام والغموض . اقرأ قوله(٢) :

يشلهم بكل أقب نهد لفارسه على الخيل الخيار

وكل أصم يعسل جانباه على الكعبين منه دم ممار

يغادر كل ملتفت إليه ولبته لثعلبه وجار

قال ابن الأثير(٣) : « فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف، والوجار اسم بيته : والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح ، فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار فى طرف السنان » . وقد ضرب المتنبي فى هذا اللون الذى دعاه ابن الأثير باسم المغالطات المعنوية — وعرف فيما بعد باسم التورية — بسهم وافر فمن ذلك إلى ما تقدم قوله :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسى وأنت يمانى

« فشبيب الخارجى الذى خرج على كافور الإخشيدى وقصد دمشق

(١) اليتيمة ج ١ — ١٥٦ .

(٢) ج ٢ — ١٠٤ التبيان .

(٣) المثل السائر — ٢٥٨ .

وحاصرها وقتل على حصارها ، كان من قيس ، ومعلوم ما بين قيس واليمن من العداوات والسيف يقال له يمانى فورى به عن الرجل المنسوب إلى يمن ومراد المتنبي من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه كان كأن الناس قالوا لسيفه . أنت يمانى وصاحبك قيسى ولهذا جانبه السيف وفارقه(١) .

وهكذا يصبح التعقيد والالتواء والتكلف فى طرق الأداء من مظاهر هذا العصر على يد شاعره المتنبي ، واقرأ قوله — مما دعاه المولدون تقطيعا وتقسيما(٢) ودعاه ابن الأثير معاظلة — :

أقِلْ أنِلْ أقْطِع احمل علّ سلّ أعدْ
زدْ هَشّ بَشّ تفضّلْ أدنِ سُرّ صِلِ

ثم زاد فى هذا وتباغض — كما قال ابن رشيق — حتى صنع :

عش ابق اسم سُد قُدْ جُدْ مرانه رِفِ اسرنلْ
غظ ارمِ صب احم اغز اسب رع زع دِ ، لِ ، اثن ، نُلْ(٣)

فهذا تكلف ممعن فى الثقل كفيل بأن يضيف هذا إلى العبث وينزع عنه ثوب الشعر .

لذلك قال ابن رشيق فهذه رقية العقرب كما قال ابن وكيع ولابد من شرحها(٤) ثم مضى يشرح ذلك بما لايفوت من ينشده . ثم قال بعد شرح البيتين : وهذه غاية المقت والبغاضة .

واقرأ له هذا الحشو الذى ألجأه إلى استعمال الشاذ وركوب الضرورة.

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منكهو عقمت بمولد نسلها حواء(٥)

وقد كان أبو الطيب مولعا بمثل هذا الحشو مكثرا منه فى شعره حتى حمله

---

(١) المثل السائر — ٢٥٨ والخزانة للحموى — ٢٩٦ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢٩ — ٢٩ .

(٣) صب : من صاب السيف الهدف يصيبه صيبا . زع من وزعته إذا كففته . نل : من نلته أنوله إذا أعطيته وفى رواية بل من الوابل وهو أشد المطر.

(٤) جـ ٢ — ٢٩ . (٥) العمدة جـ ٢ — ٢٧ . ومعنى البيت : لولم تكن من هذا الورى الذى كأنه منك لأنك جماله وشرفه وأنت أفضل أهله لكانت حواء فى حكم العقيم

حبه فيه على مارأيت ، فإذا ضم إلى كل أولئك ما أحصاه الثعالبي عليه من من تفاوت شعره(١) واستكراه اللفظ وتعقيد المعنى(٢) ، وعسف اللغة والإعراب(٣) . والخروج عن الوزن(٤) . وغرامه بالغريب الوحشي(٥) . والركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم(٦) . وتكرير اللفظ فى البيت الواحد من غير تحسين(٧) وغلطه بوضع الكلام بغير موضعه(٨) . وامتثاله ألفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة(٩) والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة(١٠) . وما إلى ذلك من عيوب تفشت فى شعره وأحصاها عليه ، بان صدق ما قلته من أن الروعة الشعرية التى اتشح بها الشعر فيما قبل القرن الرابع أخذت تنحسر عنه فى هذا العصر وما بعده .

وعلى الرغم من ذلك كله قد كان المتنبي خير شاعر فى القرن الرابع فلم تسقط شعره الصناعة البديعية التى استخدمها فى شعره — على ندرتها — بل كان لها على يديه جانب من الروعة والطرافة لا ينبغى لناقد أن يغفله .

اقرأ قوله من الغلو المقبول :

عقدت سنابكها عليها عثيراً ... لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

وقوله من الاستتباع :

نهبت من الأعمار ما لوحويته ... لهنئت الدنيا بأنك خالد

---

(١) يتيمة ج ١ — ١٢٥ .
(٢) يتيمة ج ١ — ١٣٠ .
(٣) ج ١ — ١٣١ يتيمة .
(٤) يتيمة ج ١ — ١٣٣ .
(٥) نفس المصدر .
(٦) يتيمة ج ١ — ١٣٥ .
(٧) يتيمة ج١ — ١٣١ .
(٨) ج ١ — ١٤٤ .
(٩) يتيمة ١ — ١٤٤ .
(١٠) نفس المصدر .

قال الثعالبى (١) : « قال ابن جنى : لولم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلا بهذا البيت وحده لكان قد بقى فيه مالايخلقه الزمان . وهذا هو المدح الموجه — أى كالثوب له وجهان ما منهما إلا حسن — لأنه بنى البيت على ذكر كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه، ثم تلقاه من آخر البيت يذكر سرور الدنيا ببقائه واتصال أيامه » .

وقوله مشبها ومطابقا :

كالشمس فى كبد السماء وضوءها  يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وقد برع أبو الطيب فى التقسيم براعة فائقة فمن ذلك قوله (٢) :

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك
ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل والروم فى وجل
والبر فى شغل والبحر فى خجل

وقوله :

فلم يخل من نصر له من له يد  ولم يخل من شكر له من له فم
ولم يخل من أسمائه عود منبر  ولم يخل دينار ولم يخل درهم

وقوله جامعا ومقسما :

الدهر معتذر والسيف منتظر  وأرضهم لك مصطاف ومرتبع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا  والنهب ما جمعوا والنار مازرعوا

وما إلى ذلك مما إذا طلبته من مواطنه لا يفوتك ولا يعجزك :

فإذا تركنا أبا الطيب إلى معاصريه ومن جاءوا بعده ألفيناهم يتخلفون عنه فى هذه الصنعة ويسلكون لها طريق التكلف والتصنيع ، فهذا هو أبوفراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ يجانس جناسا جديداً حيث يقول :

إن أسيافنا القصار الدوامى  صيرت ملكنا طويل الدوام
نحن قوم لنا سداد أمور  واصطلام الأعداء من وسط لام

(١) يتيمة جـ ١ — ١٥٧ .
(٢) يتيمة جـ ١ — ١٥٩ .

واقتسام الأموال من وقت سام   واقتحام الأهوال من وقت حام(١)

جانس أبو فراس بين الدوامى والدوام وهذا جناس من نوع ما ألفناه قبل القرن الرابع ، ولكن الجديد البحت فيه هو مجانسته بين كلمة واصطلام وكلمتى وسط — لام ، وكذلك مجانسته بين كلمة واقتسام . وكلمتى . وقت— سام . وكذلك بين كلمة واقتحام ، وكلمتى . وقت — حام .

وذلك لون من تجديد هذا العصر ، وهو كما تراه ضرب من العبث المسرف واللعب الغالى بألفاظ لا يكسب صبغ الجناس حياة أوجدة ، بل يجره إلى التعقيد والتكلف الذى لايضيف إلى الشعر روعة ولايضفى عليه جمالا بل سنراه عما قريب يحمل الشعراء على الاستهانة بالمعانى فى سبيل الألفاظ .

وسترى عند الحديث عن المعرى موقف ابن سنان من هذا الجناس .

وذلك هو الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ الذى قال عنه الثعالبى (٢) .

« ولما قال الصاحب قصيدته المعراة من الألف التى هى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور وأولها :

قد ظل يجرح صـــدرى   من ليس يعدوه ذكرى(٣)

وهى فى مدح أهل البيت تبلغ سبعين بيتا تعجب الناس منها وتداولها الرواة :

فسارت مسير الشمس فى كل بلدة   وهبت هبوب الريح فى البر والبحر

فاستمر الصاحب على تلك المطية وعمل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو فانبرى أبو الحسين « على بن الحسين الحسنى الهمدانى(٤) » لعملها وقال قصيدة فريدة ليس فيها واو مدح الصاحب فى عرضها أولها :

(١) الدوامى : جمع دامية وهى شجة تدمى ولا تسيل . سداد : استقامة . لام : مخفف لأم جمع لأمة للدرع .

(٢) يتيمة ج ٣ — ٣٧٤ .

(٣) الذكر بضم الذال وكسرها : التذكر.

(٤) هكذا فى الأصل ولعلها الهمذانى حتى يتفق مع كونه علويا .

برق ذكرت به الحبـــائب      لما بدا فالدمع ساكب .. الخ :

فانظر إلى أى حد صعب الشعراء على أنفسهم مناهج الشعر وإلى أى حد توسعوا فى تكلفه ، وكم بذل الصاحب من جهد مضن فى سبيل إنجاز هذه المهمة الشاقة التى حفزه عليها تعجب الرواة وتداولهم بالإعجاب لها ، والحق أن هذه مقدرة عجيبة تنبئ عن امتلاك زمام اللغة والبصر بكلماتها ، ولكنها بعد ذلك الزمن بقليل تنزل من قيمة الشاعر فى الشعر بقدر ما تعلى من قيمته فى المفردات اللغوية ، ومتى اتجه الشعراء فى شعرهم هذه الوجهة فالعفاء على البهجة والرواء .

وهكذا تمضى أصباغ البديع مسرعة فى طريق الابتعاد عن مورد الشعر الصافى حتى تبلغ شأوا بعيداً فى ذلك الطريق على يد خاتمة هذا العصر أبى الفتح على بن محمد البستى الشاعر الكاتب المتوفى سنة ٤٠٠ هـ فقد أغرم بأصباغ البديع ولاسيما الجناس الذى تكلفه حتى عرف به وثقل فى شعره وسمج ومن العجيب أن الثعالبى يقول عنه : (١) « صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة .. الخ ».

وإذا قرأت من هذا التجنيس الأنيس قوله(٢) :

لم تر عينى مثله كاتبـــا      لكل شىء شاء وشاء(٣)
يبدع فى الكتب وفى غيرها      بدائعا إن شاء إنشـــاء

وعلمت أن الثعالبى يروى له هذين البيتين وغيرهما بإعجاب زائد وقفت على أن النقاد — وهم مقياس الأدب فى عصوره المختلفة سموا وانحطاطاً — أخذوا يفقدون جانبا كبيراً من الذوق الصافى والفطرة السليمة فيستحوذ على نفوسهم الإعجاب بمثل هذا الإسفاف الذى لايعقب فى النفس روعة ولايخلع على الشعر جمالا فأى متعة أدبية عادت على الشعر من جراء مجانسة البستى بين شاء ووشاء ، وبين إن شاء وإنشاء ، سوى التعمل الظاهر والتكلف الثقيل ، وأبئس بهذا الجمال على مذهب الثعالبى الذى لم يعد

(١) اليتيمة جـ ٤ — ٢٨٤      (٢) جـ ٤ — ٢٩١ يتيمة .

(٣) وشاء : وشى الثوب يشيه وشياوشية حسنة : نمنمه ونقشه وحسنه كوشاه ، واستخرج معنى كلام أو شعر .

الألفاظ إلى المعانى ، وهكذا إذا فريت عن شعراء اليتيمة وقفت على مبلغ مجاملة الثعالبى لهم وإطرائه شعرهم كما تقف على أن النقد يسير منذ الآن فى طريق التدهور والانحلال ، هذا وقد استبد الجناس بصنعة البستى وطغى عليها ، وقلما تجد له جناسا مقبولا أو قريبا من المقبول كقوله :

إن سل أقلامه يوما ليعملها    أنساك كل كمى هزّ عامله
وإن أمر على رَق أنامله    أقر بالرّق كتاب الأنام له(١)

حيث يجانس بين الرق والرّق ، وبين بعض كلمة قافية البيت الأول وكلمة وبعض أخرى من قافية البيت الثانى ، وقوله :

إذا ملك لم يكن ذا هبة    فدعه فدولته ذاهبة(٢)

وقد ملك الجناس عليه حسه حتى استخدمه فى نجومياته كقوله :

قد غض من أملى أنى أرى عملى    أقوى من المشترى فى أول الحمل
وأننى راحل عما أحـــــاوله    كأننى أستدر الحظ من زحل

جانس بين أملى وعملى ، وحمل ، وراعى النظير حيث جمع بين المشترى والحمل وزحل وهى من أسماء الكواكب ، ومن فصول البستى القصار التى تنبئ عن تعلقه بالجناس قوله :

« من أصلح فاسده أرغم حاسده ، من أطاع غضبه ، أضاع أربه. عادات السادات سادات العادات ، من سعادة جدك ، وقوفك عند حدك ، أفحش الإضاعة الإذاعة(٣) » . وتعلقه بالجناس فى كل فقرة مما مر لا يخفى .

فإذا ترك البستى الجناس إلى الطباق مثلا رأيت منه صنعة لطيفة تقرب من سماحة الفطرة كقوله فى نجومياته(٤) :

---

(١) يتيمة جـ ٤ – ٢٩١
(٢) معاهد التنصيص جـ ٢ – ٧٠ وما بعدها .
(٣) معاهد التنصيص جـ ٢ – ٧٠ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق .

سل الله الغنى تسأل جوادا    أمنت على خزائنه النفادا
وإن أدناك سلطان لفضل    فلا تغفل ترقبك البعادا
فقد تدنى الملوك لدى رضاها    وتبعد حين تحتقد احتقادا
كما المريخ فى التثليث يعطى    وفى التربيع يسلب ما أفادا

فقد طابق بين الأدناء والبعاد فى الثانى ، وبين الإدناء والإبعاد فى الثالث ، وفى الثالث أيضا يطابق بين الرضا والاحتقاد وذلك طباق جانبته الدقة وصدف عنه الإحكام إذ ضد الرضا الغضب وليس ضده الاحتقاد ، وفى البيت الرابع يطابق بين الإعطاء والسلب .

ومن عجيب أمر البستى أنك تراه يدافع عن الفلسفة ويدعو إليها كأن يقول(١) :

خف الله واطلب هدى دينه    وبعدهما فاطلب الفلسفه
لئلا يغرك قوم رضوا    من الدين بالزور والسفسفه

ثم تراه لا يأخذ منها بحظ ولايضرب فيها بسهم ، فلم يتعمق تعمق الفلاسفة بل عنى بالصناعة اللفظية عناية فائقة من غير أن يوشحها بالثراء الفلسفى كما صنع أبو تمام وذلك مالا يتفق مع دعايته لها ودفاعه عنها ، ولكننا لا ننسى أننا فى أواخر القرن الرابع وأن الشعراء أخذوا يسيرون فى الابتعاد عن الثقافات المتنوعة التى تمدهم بالمعانى والأفكار .

هذا حال البديع فى الشعر فى القرن الرابع ، وقد أسلفنا من قبل أنه كان أسرع أنواع الكلام قبولا لتلك الزخارف وأطوع تمثيلا لهذه الأصباغ ، ومن أجل ذلك سارت فيه الحلى البديعية سيراً حثيثا حتى استوت منها الجوانب ووضحت المعالم فى القرن الثالث الهجرى ، ثم أخذت تدنو رويدا رويدا نحو الانحدار فيما بعده من عصور حتى العصر الحديث .

أما النثر : فقد دب خلفه دبيبا خفيفا حتى استوت هذه الصنعة فيه ، وبلغت غايتها من النضج والاكتمال على يد كتاب القرن الرابع ، فقد بلغت

(١) المصدر السابق .

فى هذا العصر من حيث الصنعة البديعية المقبولة حدا لم تبلغه فى أى عصر من عصور اللغة العربية ، عذوبة تكاد ترشف وجزالة تلعب بالنفس ، وسلاسة يستريح فى ظلها القلب .

وكان زعيم هذه الحلبة وممهد هذه الطريقة ، وأول من شرع للكتابة شرعة الأصباغ البديعية أبو الفضل محمد بن الحسين العميد المتوفى سنة ٣٦٠ « عين المشرق ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة .... الآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ الرئيس ، يضرب به المثل فى البلاغة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلامتها ، إلى براعة المعانى ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ماقال له الصاحب — وقد سأله عن بغداد — بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد ، وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد »(١) .

فقد كانت الكتابة قبل أوائل القرن الرابع جارية على النهج العربى فى أساليب تغمرها الفحولة والجزالة ، وعبارات تشيع فيها القوة والرصانة ، لايرمى الكاتب من ورائها إلا إلى إبراز المعنى وإفهامه فى قوة وجلاء ، ووضوح ونصوع ، أما التكلف أو الصنعة أوما إليهما من مدلولات الكلمات التى تنبئ عن كدح وتعب فى تحبيرها فلم يكن لها أثر واضح فى تلك العصور .

فلما كانت أوائل القرن الرابع أخذت الصناعات اللفظية تغلب على الكتابة رويدا رويداً وكانت أول خطوة خطتها الكتابة فى هذه الطريق على يد ابن العميد صاحب الطريقة التى عرفت باسمه ، واتسمت بسمات خاصة ، من أبرزها السجع القصير الفقرات ، والاقتباس من القرآن أوالسنة ، وتضمين الأبيات أوأنصاف الأبيات ، والتلميح إلى الحوادث المتعالمة المشهورة ، وحل المنظوم ، والجناس ، والمطابقة ، وما إلى ذلك من الألوان التى إن جاءت من غير قصد ظاهر وتعمل بين ، أكسبت الكلام ثوب الرونق وعادت عليه بالتجميل والتحسين . فكان ابن العميد من أجل هذه الطريقة عميد كتاب الصنعة وإن كانت مقبولة لخلوها من الغلو والإسراف فهى أقرب إلى الطبع وأدنى إلى صفاء

---

(١) يتيمة الثعالبى ج ٣ — ١٣٧ .

الفطرة ، إذ كانت عنايته مصروفة إلى المعانى قبل الألفاظ ، فالمعانى هى التى تعنيه وهى التى تهمه ، وهى التى تستولى على جهده ، اقرأ قوله من رسالته التى كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة ، قال فى أولها(١) : « كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية » . وقوله منها(٢) : « ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد العسرة ، وأثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة » .

ومنها : « وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست فى خلافها يدك ، وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك. أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب . قل . نعم . كذلك » الخ .

تجد سجعا كسجع الحمام ، وطباقا فى عذوبته كالأنغام ، وجناسا خفيف الروح ، واقتباسا وقع موقعه وأصاب موضعه .

إلا أن ابن العميد قد مسته لوثة من عصره الذى كان ينزع بعض النزوع إلى الغموض والتصعيب فى طرق الأداء ، والذهاب ببعض الكلام مذهب التعمية والالتواء ، فقد صنع شعراً فى المعمى روى منه الثعالبى شواهد كثيرة له منها قوله معميا فى ماء الورد(٣) :

قل للأديب أبى الحسين ... أتتك صماء الغير
نكراء فى حالاتها ... لذوى البصائر معتبر

(١) يتيمة جـ ٣ — ١٤٥ .
(٢) يتيمة جـ ٣ — ١٤٦ .
(٣) يتيمة جـ ٣ ص ١٦١ — ١٦٢ .

دهياء يعترف الضمير بها وينكرها البصر
ماذا ترى فى درهم قد مسه قد الأبر
وتحفة من بعده تباشرا طرفا وزر
أزرى به وسط الردى وهو الحياة المشتهر
فاكشف لنا عن سره بلطيف حدسك والنظر

وليس من ريب فى أن شيوع هذه المعميات فى الأدب العربى كان مؤذنا بأن التعقيد فى طرق الأداء والغموض فى صياغة الأغراض سيغدو عما قريب غاية من غايات الأدب نثره ونظمه وهدفا من أهدافه التى تؤم وتقصد محببة إلى الأدباء والنقاد ، وإلا فأى روعة فى هذه المعميات ، وأى رواء تضفيه على الأدب حتى تستحوذ على عناية الأدباء .

وقد تأثر بطريقة ابن العميد من جاء بعده من الأدباء نذكر من هؤلاء كافى الكفاة أبا القاسم اسماعيل الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ فقد أغرم من بين ألوان البديع بالسجع والجناس وحل المنظوم فمن الأخير قوله(١) : «لئن كان الفتح جليل الخطر حميد الأثر ، فإن سعادة مولانا لتبشر بشوافع له يعلم معها أن لله أسرارا فى علاه لايزال يبديها ويصل أوائلها بتواليها » — وهو من قول أبى الطيب المتنبى :

ولله سر فى علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

وما إلى ذلك مما ساقه الثعالبى فى اليتيمة فلا يفوت من ينشده :

واقرأ من الأمثلة التى تصور غرامه بالسجع والجناس قوله لمن أهدى إليه مصحفا : « البر — أدام الله الشيخ — أنواع تطول به أبواع ، وتقصر عنه أبواع ، فإن يكن فيها ماهو أكرم منصبا ، وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ إذ أهدى مالا تشاكله النعم ، ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ،(٢) تقف على سجع مقبول ، وجناس معسول .

(١) يتيمة جـ ١ — ١٠٢ .
(٢) الوسيط — ٢١٢ .

ومن هؤلاء الذين حذوا حذو ابن العميد ووردوا ورده الصافى خاتمة المائة الرابعة أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى الملقب ببديع الزمان والمتمهر فى علوم اللغة العربية والفارسية والمتوفى سنة ٣٩٨ والذى قال فيه الثعالبي(١) : « معجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف الطبع وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته ... ثم مضى يصفه بسرعة الحفظ والارتجال ، وأنه ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه إلى أوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع . وإنه لما انتهى به المطاف إلى نيسابور سنة ٣٨٢ أملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العيون ثم شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى « المتوفى سنة ٣٨٣ » ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره ، إذ لم يكن فى الحسبان أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته ... » الخ .

ولميل الهمذانى إلى الارتجال رقت عبارته وسهلت ، وقصرت سجعاته وعذبت ، حتى كانت إلى صفاء الطبع وعذوبته أقرب منها إلى تعمل الصنعة وتعمدها ، وقد اطرد كل أولئك فى رسائله ومقاماته ، سوى أن نزعة العصر وميله إلى الغموض والإبهام فى بعض الأحايين غلبت عليه فى جزء ليس باليسير من رسائله من « أنه كان يستطيع أن يكتب كتابا يقرأ فيه جوابه ، أو كتابا يقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتابا إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتابا ، فإن عكست سطوره مخالفة كانت جوابا ، أو كتابا لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة ، أو دال ينفصل عنها ، أو خاليا من الألف واللام ، أو من الحروف العواطل أو أول سطوره كلها ميم ، وآخرها جيم ، أو كتابا

(١) يتيمة ج ٤ — ٢٤٠ .

إذا قرىء معرجا وسرد معرجا كان شعراً أو إذا فسر على وجه كان ذما(١) »
وما إلى ذلك من تضمين وجناس ، وطباق واقتباس . وأحاج وسجع وتلميح وما إليها . اقرأ هذا الفصل من رقعة له إلى الخوارزمى وهو أول ما كاتبه به(٢)

« إنا لقرب دار الأستاذ — أطال الله بقاءه — كما طرب النشوان مالت به الخمر . ومن الارتياح للقائه. كما انتفض العصفور بلله القطر. ومن الامتزاج بولائه . كما التقت الصهباء والبارد العذب. ومن الابتهاج بمزاره . كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب » .

تدرك مقدار حرصه على التضمين ، وتخال أن هذه الأنصاف من الأبيات كأنما نظمت من أجله ، ومن التلميح قوله من كتاب إلى أبيه(٣) « ولسيدنا أسوة بيعقوب فى ولده ، إذ ظعن إليه من بلده ، وليس العائق سور الأعراف ، ولا رمل الأحقاف ولا جبل قاف » . ومن أحاجيه قوله(٤) فى فص برحشانى(٥) .

أحاجيك أناجيك بما يهجس فى صدرى
بما يجمد من خمر وما يخمد من جمر
وما يورد معناه إذا قلت على أمرى(٦)
وحرف من حروف النصب لولا خفة الظهر
أجب إن شئت بالنظم وإن شئت فبالنثر

وما إلى ذلك مما عرف به كتاب المائة الرابعة من رشاقة وعذوبة وخفة وظرف ، فوصلوا بالكتابة البديعية إلى غايتها المحمودة من النضج والاستواء، وقد عصمهم من زلل هذه الصناعة ما كانوا عليه من إحاطة باللغة ، ودراية بالأساليب ونمو فى الأذواق ، وصفاء فى الفطر ، وتبريز فى الأدب ،

(١) رسائل بديع الزمان طبع اليسوعيين — ٧٤ .
(٢) يتيمة جـ ٤ — ٢٤٣ .
(٣) يتيمة جـ ٤ — ٢٦١ .
(٤) يتيمة جـ ٤ — ٢٨٣ .
(٥) لعلها برخشانى .
(٦) قلت : من معانى قال : تكلم ، وغلب ، ومال ، وأقبل ، ويعبر بها عن التهيؤ للأفعال.

فاستطاعوا على ضوء كل أولئك أن يعرضوا أساليبهم فى صورة تلتذها الأسماع وتستسيغها الطباع ، ثم خلف من بعدهم على هذه الصناعة خلف . ولاسيما بعد سقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ وفى عصر المماليك — لم تكن لهم تلك المنزلة فى اللغة والذوق والأدب ، فأسرفوا فى البديع ولاسيما التورية والاستخدام، والتصحيف ، ومالايستحيل بالانعكاس،وما إلى ذلك مما أصبح فيما بعد مقياس البراعة وميزان النبوغ فمنيت الأساليب بالفساد والضعف وأصبح الكتاب كالشعراء يضحون بالمعانى رخيصة هينة فى سبيل الألفاظ عزيزة غالية ، ذلك ما ستراه فى أثناء الحديث عن الشعر إلى العصر الحديث. إذ قد تساويا فى الميل إلى الانحدار بعد المائة الرابعة ، وإن بقى الشعر معتصماً بالوزن والقافية عن التردى إلى الهاوية التى تردت إليها الكتابة . فإذا تركنا القرن الرابع إلى الخامس ألفينا الآداب تمضى فى طريق الضعف والانحدار وتنتشر فيها الصناعات البديعية بكثرة فاشية حتى اعتقد كثير من الأدباء أن الألفاظ هى كل شىء فى الأدب ، وعليها يعول الكاتب والشاعر ، وبها يقاس الجمال البلاغى ، و يوزن الرواء الأدبى . وقد ساعد على ذلك ابتعاد الكتاب والشعراء عن التزود بالثقافات ، وجهل الأمراء والكبراء وانصرافهم عن الأدب الصحيح الذى يمثل الروعة الأدبية إلى الأدب المثقل بأعباء الصنعة والتكلف ، فمضى الأدباء يتنافسون فى هذه الأصباغ ويكثرون منها ويقصدونها لذاتها حتى صارت اللغة فى أواخر القرن الخامس وما بعده تابعة لهذه الحلى بعد أن كانت متبوعة وأصبح مقياس الجودة وميزان الأدب أن يطرح الأديب معنى ، أو ينظم لغزاً ، أو يلتزم التزامات تقيد فكره ، وتغل عقله ، أو يبرع فى بعض أنواع الجناسات فيجنى على اللغة بهذه البراعات وما إلى ذلك مما سيمر بك حديثه فى أثناء هذه الكلمات . مما دعوه معجزاً عويصا ، ومحسنا بديعا ، وهو إنما يهوى بالأدب إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ، وكانت تلك حال الشعراء والكتاب على السواء فى مختلف بقاع العربية من شامية ومصرية و أندلسية ، لأن تأثر الأدب العربى بالإقليمية كان يسيراً لا يكاد يحس ، فلم يخرج الأدب فى هذه الأقاليم على الطابع العام الذى الذى اتصف به الأدب العربى على رغم مابينها من اختلاف فى المميزات

الجغرافية والجنسية والعقلية لا تجحد ، وليس لذلك من سر نعقله سوى أن الأدباء فى هذه الأقطار المختلفة كانوا ينهلون من مورد واحد ويحتذون طريقا واحدا ، هو الذى رسمه العباسيون وأقاموا معالمه ، فعاش الشعراء فى هذه الأقطار عالة على هذا التراث الحافل الذى ورثوه عنهم وكان عمادهم فى حياتهم الأدبية فكل ما كان من فوارق بين هذه الأقاليم لم يتعد ظاهر الأدب وعرضه إلى صميمه وجوهره وإن كان طغيان هذه الصناعة — ولاسيما الألوان التى تنزع إلى الغموض من إلغاز وتورية واستخدام — على الأدب المصرى والشامى كان أقوى وأعنف منه على الأدب الأندلسى ، فقد ظل هذا الأخير على شىء من الرونق الأدبى — لولا السجع المرذول — إلى أواخر القرن التاسع وهو زمن تقلص الحكم الإسلامى عن القطر الأندلسى .

فلا عجب إذن حينما نرى — منذ أوائل القرن الخامس — للألفاظ الدولة والشيوع ، ومضى نظرية اللفظ والمعنى فى طريق الاتساع والتضخم واكتسابها الأنصار والمدافعين من الذين غلبت عليهم نزعة العصر ، كما رأينا عند ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة وهو من نقاد القرن الخامس وشعرائه ، وإن كان لم ينس جانب المعانى وما لها من أثر فى السجع والجناس ، إلا أنه شايعها على كل حال ، وقد بذل عبد القاهر الجرجانى — وهو من نقاد المائة الخامسة — جهدا جاهدا وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن النظم . فاضطره ذلك إلى أن يهون من شأن الألفاظ وحدها ، ويقلل من خطر المعانى على انفرادها ويقصر البلاغة على التركيب أو النظم . وكل أولئك فى أساليب مشرقة وعبارات رائقة تغرس البلاغة فى النفوس وتمزجها بالقلوب ، كما أسلفنا ذلك فى موضعه .

وليس معنى هذا أن نظرية اللفظ والمعنى كانت نابتة هذا العصر ووليدته وحده بل معناه أنها ذاعت فى هذا العصر ذيوعا لم تكن عليه من قبل — فقد كان لها نواة فى القديم إذ عول الجاحظ على الألفاظ وانتصر لها واطرح المعانى وهون من شأنها حين قال(١) فى أثناء رده على من يستحسن المعانى

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

دون الألفاظ : « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك ... الخ » .

فانبرى للرد عليه ابن قتيبة(١) وبين أن البلاغة تكون فى المعانى كما تكون فى الألفاظ وقد انحاز إلى الجاحظ أناس منهم أبو هلال العسكرى إذ قال(٢) « على أن المعانى مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسوقى والنبطى والزنجى وإنما يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

وكذلك فعل ابن خلدون — على تحرره من أعباء هذه الصناعة — حيث يقول(٣) : « إن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هى فى الألفاظ لافى المعانى » .

وقد كان لشيوع هذه الآراء أثر قوى فى نفوس الأدباء إذ جعلهم لا يبحثون عن موضوعات جديدة يظهر فيها سبقهم وتجديدهم ، بل عمدوا إلى أصباغ البديع — ولاسيما التى تنزع إلى التعقيد — واستخدموها مسرفين حتى سقم أدبهم وهزل ، ولم يسلم من ذلك شاعر أو كاتب حتى الشاعر الحكيم الفيلسوف أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله سليمان بن محمد التنوخى المولود بمعرة النعمان سنة ٣٦٣ فى بيت معرق فى العلم(٤) والمتوفى سنة ٤٤٩ . فقد سيطرت عليه هذه الصناعة فى جزء ليس باليسير من شعره ونثره .

وأبرز تلك الألوان التى أغرم بها أبو العلاء هو لزوم مالا يلزم فقد وفر له من المجهود المضنى مالم يوفره للون آخر. وقيد نفسه فيه بقيود ضايقت أفكاره وأسقمت معانيه فأسلمت ألفاظه إلى الغرابة وأساليبه إلى التعقيد ، ولم يقف ولوعه به عند قصيدة أو قصيدتين ، وعند رسالة أو رسالتين ،

---

(١) الشعر والشعراء ص ٣ — ٧ .

(٢) فى الصناعتين — ١٨٩ .

(٣) المقدمة — ٤١٥ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت جـ ٣ — ١٢٣ .

بل أودع هذا اللون الشاق المجهد ديوانا من الشعر دعاه باسمه ، ورسائل لا تقل عنه فى حجمه ، فكان بذلك أول من اتخذ هذا الصبغ صناعة احترفها شطرا كبيرا من عمره ، وقد أشار أبو العلاء إلى هذه اللوازم والقيود فى مقدمة اللزوميات حيث قال(١) : « وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أن يجىء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل روى فيه شىء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » . ومن ذلك ترى مبلغ الجهد الذى استنفده أبو العلاء فى هذا اللون .

وقد أراد أبو العلاء أن ينبئ عن مبلغ قدرته فى اللغة ، فأضاف إلى الجناس الذى تراه بين معظم قوافى قصائد هذا الديوان من جراء التزامه هذه اللوازم جناسا آخر يلتزمه فى بعض الأحايين اذ تراه يجانس بين القافية وكلمة فى حشو البيت كأن يقول :

عذيرى من الدنيا عرتنى بظلمها ... فتمنحنى قوتى لتخذ قوّتى
وجدت بها دينى دنيا فضرنى ... وأضللت منها فى مروت مروتى
أخوت كما خاتت عقاب لو اننى ... قدرت على أمر فعُدّ اخوتى
وأصبحت فى تيه الحياة مناديـــا ... بأرفع صوتى أين أطلب صوتى
وما زال حوتى راصدى وهو آخذى ... فما لمتابى ليس يغسل حوتى
رآنى رب الناس فيها متابعا ... هواى فويحى يوم أسكن هوتى
وما برحت لى ألوة حرجية ... تصير من(٢) رطب العضاه ألوتى
أبوتك يا إثمى ومن لى بأننى ... أتيتك فاشكر لاشكرت أبوتى(٣)

(١) ص ٣٢ .

(٢) اللزوميات جـ ١ – ١٧٩ .

(٣) مروت جمع مرت وهى المفازة بلا نبات أو الأرض التى لا يجف ثراها الصوة المنار الذى يهتدى به . الحوة : سواد إلى الخضرة والمراد به سواد المآثم . ألوة : العود تبخر به والغلوة والسبغة : حرجية لعله نسبة إلى الحرج وهو خشب يشد بعضه إلى بعض تحمل فيه الموتى . العضاة : أعظم الشجر أو كل ذى شوك ، جمع عضاهة أو عضة أو عضهة .

فهذه قصيدة من قصائد جاءت على هذا النهج فى اللزوميات ترى فيها إلى أى حد بلغ ولوع أبى العلاء بالتجنيس إلى غرامه باللزوميات ، وتجده قد نحا فى هذا الجناس منحى خاصا التزمه كما التزم هذه اللوازم ، إذ يجانس بين آخر البيت وكلمة من حشوه جناسا لا إخالك تحكم عليه إلا بالتكلف والثقل ، إذ لا أثر فيه لجمال أوروعة ، يجانس أبوالعلاء فى البيت الأول بين قوتى وقوتى ، وفى الثانى بين مروت ، جمع مرت وهى المفازة بلا نبات . ومروتى ، وفى الثالث بين أخوت - من خات البازى يخوت انقض على الصيد ليأخذه ، وأخوتى ، وفى الرابع بين صوتى وصوتى - وهى المنار الذى يهتدى به - وفى الخامس بين حوتى وحوتى ، وفى السادس بين هواى وهوتى - وفى السابع بين الألوة وهى العود يتبخر به وألوتى ، وفى الثامن بين أبوتك - أى صرت لك أبا - وأبوتى ، وغنى عن البيان أن هذا الجناس الثقيل ليس إلا ضربا من إظهار المقدرة اللغوية ، والتدليل على امتلاك ناصية المفردات العربية ، أما الروعة الساحرة والخلابة الباهرة التى يؤديها الجناس المصيب فلا أثر لها فى هذا الكلام .

وقد ملك الجناس على أبى العلاء حسه إذ تراه فى اللزوميات كثيرا ما يجانس بين معظم كلمات البيت كأن يقول : (١)

ما مقامى إلا إقامة عان     كيف أسرى وفى يد الدهر أسرى
تبعت تبعا وفى القصر غالت     قيصرا والتحت لكسرى بكسر
وطوت طيئا وآدت إيادا     وأصابت ملوك قسر بقسر(٢)

وفى أحيان أخرى تراه يلتزم التجنيس بين أول كلمة فى البيت وآخر كلمة فيه وترى ذلك منشورا فى لزومياته ، ومنه قوله من القصيدة السابقة :

ويسار الفتى يمين وإن كا     ن أشلا سام الأمور بيسر(٣)

(١) اللزوميات جـ ١ - ٤١٧

(٢) العانى : الأسير . أسرى الأولى من سريت والثانية من الأسر آدت : أثقلت .

(٣) سام فلانا الأمر كلفه إياه أو أولاه كسومه وأكثر استعماله فى العذاب .

وقوله(١) :

زمرت ربْدها وغنت بها الورق ولا حوب فى غناء وزمر(٢)

وقوله (٣) :

أتراك يوما قائلا عن نيـــة خلصت لنفسك يالجوج تراك

أدراك دهرك عن تقاك بجهده فدراك من قبل الفوات دراك

أبراك ربك فوق ظهر مطية سارت لتبلغ ساعة الإبراك

أفراكن أنا للزمان بمحصد بانت عليه شواهد الإفراك

أشراك ذنبك والمهيمن غافر ما كان من خطأ سوى الإشراك

ثم قال منها :

وأراك ياسمع الحمام فلم تبن سجع الحمام بأسحل وأراك (٤)

فتراه يلتزم الجناس بين أول كلمة فى البيت وآخر كلمة منه عن قصد وتعمد جره إلى الثقل والتكلف .

ولم يقف غرام أبى العلاء بالجناس عند استخدامه فى الشعر ، بل تعداه إلى الفن والعلم . قال ابن سنان الخفاجى(٥) : « ومن المجانس فن ورد فى شعر أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان وسماه لنا « مجانس التركيب » لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان كقوله :

مطايا مطايا وجدكن منازل منىً زل عنها ليس عنى بمقلع

---

(١) لزوميات ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) الزمر : صوت النعام . والربد : النعام لأن فى ألوانها غبرة . والورق جمع ورقاء وهى الحمامة . والحوب : الإثم .

(٣) لزوميات ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) أدراك : أدرى الصيد دريا ختله . أبراك : ابراه السفر يبريه : هزله والبرى التراب . الإبراك من أبرك الناقة إذا أناخها .

محصد : ماجف وهو قائم . والحصد محركة . نبات وما جف من النبات . الإفراك : أفرك الحب حان له أن يفرك . أشراك . ملاك وأمالك الإسحل : شجر يستاك به .

(٥) سر الفصاحة ص ١٨٧ — ١٨٨ .

وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئا من قبيله ، وهو عندى غير حسن ولا مختار ولا داخل فى وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة » وقد سبقه إلى هذا الجناس أبو فراس كما أسلفنا وإنما الفضل فى تسميته « بجناس التركيب » راجع إلى أبى العلاء الشاعر العالم ، ولقد وفق ابن سنان فى نفى الحسن والاختيار عن هذا اللون من الجناس لأنه يسلم إلى التكلف الثقيل الذى ينبغى أن يتنزه عنه الشعر ، وقد سلف التنبيه فى غير هذا الفصل على استخراج أبى العلاء لونا من ألوان البديع من شعر المتنبى سماه « الطاعة والعصيان » .

ولم يقف المعرى عند هذه اللوازم وما تبعها من جناس استخداما وتسمية — بل جاوز ذلك إلى مايمضى فى طريقه العصر من النزوع إلى الغموض والإبهام حيث أغرم بالألغاز والأحاجى غراما لم نره لأحد تقدمه ، وقد أسلفت شيئا من ذلك اللون عند ابن العميد والبديع الهمذانى ، سوى أنهما لم يولعا به ولوع أبى العلاء ، ولم يستعذباه استعذابه قال ابن سنان(1) : فى أثناء حديثه عن الإلغاز : « وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله فى شعره كثيرا ، ومنه قوله :

وجُبْتُ سرابياً كأن إكامه ... جوارٍ ولكن مالهن نهود
تمجس حرباء الهجير وحوله ... رواهب خيط والنهار يهود (2)

فألغز بقوله « جوار » عن الجوارى من الناس وهو يريد كأنهن يجرين فى السراب وبقوله « نهود » عن نهود الجوارى وهو يريد بنهود نهوض . أى كأنهن يجرين فى السراب وما لهن على الحقيقة نهوض ، وأراد بقوله . تمجس الحرباء أى صار لاستقباله الشمس كالمجوس التى تعبدها وتسجد لها ، وجعل الرواهب النعام لسوادها ، ويهود يرجع ، وهو يلغز بذلك عن اليهود لما ذكر المجوس والرواهب ، وكذلك قوله :

إذا صدق الجد افترى العم للفتى ... مكارم لاتكرى وإن كذب الخال(3)

---

(1) سر الفصاحة ٢١٥ — ٢١٦

(2) سرابيا : منسوب إلى السراب . إكام : جمع أكه . الخيط من معانيه اسم لجبل .

(3) أكرى : زاد ونقص ( ضد ) .

لأنه يريد بالجد الحظ ، وبالعم الجماعة من الناس ، وبالخال . المخيله ، وقد ألغز بذلك عن العم والجد والخال من النسب ، فهذا وأمثاله ليس من الفصاحة بشيء » .

وقد خلط ابن سنان بين ماعرف فى اصطلاح المتأخرين بالإلغاز وبين ماعرف بالتورية فالبيت الأخير شاهد على التورية عند المتأخرين ، إلا أن هذا لاينفى ماقلناه من أن هذين اللونين يشتركان فى أنهما لا يكسبان الشعر روعة ولا يضفيان عليه جمالا ، بل ينزعان به منازع الإبهام والغموض ، وبهذا حكم ابن سنان نفسه إذ يقول فى هذا الموضع : « إن الكلام الموضوع على وجه الإلغاز قد قصد قائله إغماض المعنى وإخفاءه ، وجعل ذلك فنا من الفنون التى يستخرج بها أفهام الناس وتمتحن أذهانهم » .

وإذا نزع الشعر أو الكتابة هذا المنزع وجريا فى تلك الطريق فعلى بهجتهما العفاء .

ومما يؤكد ولوع أبى العلاء بالإلغاز أنه ألف كتابا دعاه « إقليد الغايات » وقصره على تفسير اللغز فى عشر كراسات(١) وكتابا آخر سماه « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللغز يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها، ويذكر قوافى كل ضرب . ومقداره تسعة آلاف بيت فى ستين كراسة(٢) . فإذا جنح أبو العلاء إلى غير الجناس والإلغاز كان لشعره شيء من الرونق — اقرأ قوله مطابقا(٣) .

يا محلى عليك منى سلام ... سوف أمضى وينجز الموعود
ليت شعرى عمن يحلك بعدى ... أقيام لصالح أم قعــود
أيرجون أن أعود إليهم ... لا تُرجوا فإننى لا أعود
ولجسمى إلى التراب هبوط ... ولروحى إلى الهواء صعود
وعلى حالها تدوم الليــالى ... فنحوس لمعشر أو سعود

(١) معجم الأدباء ج ٣ — ١٤
(٢) معجم الأدباء ج ٣ — ١٥٤
(٣) اللزوميات ج ١ — ٢١٨ .

فإنك تراه يطابق بين القيام والقعود ، وبين الرجاء وعدمه ، والعودة وعدمها والهبوط والصعود ، والنحوس والسعود ، فى أسلوب أدنى إلى روعة الشعر وخلابته من أساليب الجناس والإلغاز ، وهكذا تقرأ فى سقط الزند قصائد جيادا لاتقل عن قصائد فحول الشعراء ، ومن غلوه المقبول قوله(١) : —

تكاد قسيّه من غير رامٍ    تمكن فى قلوبهم النبالا
تكاد سيوفه من غير سل    تجد إلى رقابهم انسلالا

وقد كان أبو العلاء أول من وسع للشعر باب استخدام المصطلحات العلمية ، فمن قبله كان أبو تمام والمتنبى وغيرهما يستخدمون ذلك ولكن لم يسرفوا إسراف أبى العلاء فمن ذلك قوله(٢) :

وفى الأصل غش والفروع توابع    وكيف وفاء النجل والأب غادر
إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة    كحالاتها أسماؤها والمصـــادر

فإنك تراه يستغل مصطلحات النحاة والصرفيين فى أداء غرضه ، فيجمع بين الأصل والفرع والتوابع والاعتلال والأفعال والأسماء والمصادر لينقاد له صبغ بديعى هو مراعاة النظير ، كما يقابل بين الأصل والفرع والوفاء والغدر ، والأفعال والأسماء ليتأتى له صبغ الطباق ، وقوله :(٣)

بقائى الطويل وغيي البسيط    وأصبحت مضطربا كالرجز

فإنك تجده يستخدم مصطلحات العروضيين فيجمع بين الطويل والبسيط والرجز ليحقق صبغ مراعاة النظير .

وهكذا مما تجده مبثوثا فى اللزوميات وفى سقط الزند مما يدل على ولوع أبى العلاء بهذا اللون، الذى إن دل من ناحية على بصر واسع بمختلف العلوم والفنون، فهو لا يضيف إلى الشعر جدة ولايكسبه طرافة إلا عند أرباب هذه

---

(١) خزانة الحموى — ٢٧٣ .
(٢) اللزوميات ج ١ — ٣١١ .
(٣) لزوميات ج ١ — ٤٣٨ .

العلوم . لذلك نرى أن ابن سنان ينعى هذه الطريقة على الأدباء حيث يقول(١) : « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التى تختص بها أهل المهن والعلا م ، ثم مضى يسوق لذلك شا اهد من شعر أبى تمام والمتنبى ، ومما ساقه للمعرى قوله :

تلاقٍ تفرّى عن فراق تذمه　　　مآقٍ وتكسير الصحائح فى الجمع (٢)

وقوله فى بعض رسائله « فحرس الله عز سيدنا حتى تدغم الطاء فى الهاء فتلك حراسة بغير انتهاء » ثم قال ابن سنان «وكثيرا مايسلك هذه الطريقة فى كلامه وهى لائقة به لأنه لم تكن له يد فى صناعة الكتابة ولا طريقة محمودة وإنما رسائله معدودة فى كتب اللغة ودساتير الأدب ، فاستعمال هذا وما يجرى مجراه فيها لائق » .

فترى من هذا أن ابن سنان يعد استخدام المصطلحات العلمية فى الشعر والنثر من وضع الألفاظ فى غير موضعها ، وذلك اعتبار أحبذه وأدعو إليه وأدين به كما أسلفت ، كما تراه يسلك رسائل أبى العلاء فى سلك كتب اللغة ، ومعنى هذا أنها ممحلة من رواء الأدب وجماله الذى ينبغى أن تتحلى به الرسائل ، وذلك حكم صحيح يؤكده ما أحصاه ياقوت فى معجمه من آثار أبى العلاء التى خلفها حيث عد منها . كتاب السجع السلطانى فى أربعة أجزاء(٣) وكتاب « سجع الفقيه » فى جزء واحد وكتاب « سجع المضطرين »(٤) وكتاب « خماسية الراح فى ذم الخمر » بناه على حروف المعجم فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجعات مضمومات ، وخمسا مفتوحات ، وخمسا مكسورات ، وخمسا موقوفات (٥) وكل

---

(١) سر الفصاحة ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) تفرى : انشق وفى رواية تغرى من غرا الشىء غروا وغراه : طلاه . مآق : جمع مأق أو مؤق أو موق .. الخ وها ما يلى الأنف وهو مجرى الدمع من العين أو مقدمها أو مؤخرها .

(٣) جـ ٣ — ١٥٥ معجم .

(٤) جـ ٣ — ١٥٦ .

(٥) جـ ٣ — ١٥٩ معجم .

ذلك كما ترى يقفك على مبلغ توفيق ابن سنان فى حكمه على نثر أبى العلاء ولكن على الرغم من هذا كله قد كان أبو العلاء المعرى خير شاعر فى المشرق فى القرن الخامس ، فإنك تقرأ له فى سقط الزند الذى أتمه قبل رحلته إلى بغداد سنة ٣٩٨ وضمنه القصائد الكثيرة فى متنوع الأغراض ، الشعر الرائع الجيد الذى يمثل الجمال الأدبى كما أسلفنا » .

فإذا تركنا أبا العلاء إلى غيره من شعراء عصره فى الأقاليم العربية ألفينا الشاعر المجيد الذى لم يسقط شعره عبث الصناعة ، والكاتب البارع الوزير أبا الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى المولود بها سنة ٣٩٤ والمتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣ فقد استخدم فى كتابته حل المنظوم ، والتلميح إلى الحوادث التاريخية المشهورة ، وتضمين الأمثال والحكم والشعر فى عبارات طليقة من عقال السجع فى معظم الأحايين على عكس ما رأينا عند المشارقة من كتاب القرنين الرابع والخامس .

وقد اطردت هذه الأصباغ فى رسالتيه . الجدية التى أنشأها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور ، والهزلية التى أنشأها على لسان ولادة بنت المستكفى يتهكم على ابن عبدوس ويسخر منه لمشاركته إياه فى حبها ، وقد أحكم ابن زيدون تضمين الأمثال والحكم والشعر فى رسالتيه إحكاما يخيل للقارئ أنها قيلت من أجله ، كما أجاد التلميح إلى الحوادث التاريخية فأنبأ عن غزارة فى المادة وسعة فى الاطلاع فمن الجدية قوله(١) : « يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، أن سلبتنى — أعزك الله — لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود إسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو ، قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل

(١) بلاغة العرب فى الأندلس — ٨٥ — ٨٦ .

الدواء المستشفى به ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى     وتهون غير شماتة الأعداء

وإنى لأتجلد . وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع ... » الخ .

فإنك ترى سجعا سمحا غير ملتزم ، وتضمينا للأمثال والشعر محكما لاينبو عن موضعه ولا يقلق فى مكانه .

ومن تلميحاته قوله من رسالته الهزلية(١) : « لا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك، وملتك إذ لم تغر عليك، فإنها أعذرت فى السفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ،وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ... » .

ومثل ذلك فى الإحكام والإتقان ترى صنعته البديعية فى شعره تفيض عذوبة وتسيل رقة حتى لقبوه عن جدارة ببحترى المغرب، اقرأ قوله (٢) :

ما على ظنى بـــاس     يجرح الدهر ويأسو
ربما أشرف بالمــر     ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفـــا     ل ويرديك احتراس
والمحـــاذير سهـــام     والمقادير قياس(٣)
ولكم أجدى قعــود     ولكم أكدى التماس
وكذا الحكم إذا ما     عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيـــــا     ف(٤) سراة وخساس

---

( ١ ) ص ٩١ المصدر نفسه والغاشية من معانيها جلد ألبس جفن السيف من أسفل شاربه إلى نعله .

( ٢ ) ص ٧٠ المصدر السابق .

( ٣ ) جمع قوس .

( ٤ ) مختلفون .

نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس
أذؤب هامت بلحمى فانتهاب وانتهـاس
ولئن أمسيت محبو سا فللغيث احتباس

فهذه القطعة تفيض بالصنعة ، ولكنها صنعة لطيفة خفيفة لاتكاد تدرك مقبولة لاتمج ،عذبة لاتمل ، فقد اشتملت هذه الأبيات على طباق مقبول ومراعاة نظير غير مرذول ، وجناس غير مملول ، وهكذا يراجع البديع على يد ابن زيدون عهدا مشرقا كعهد البحترى يفيض روعة ويسيل رقة على رغم كونه من أدباء القرن الخامس ، وذلك يؤكد ماقلناه . من أن الأندلسيين وإن قلدوا المشارقة فى كل مايأتون أو يذرون لم يخضعوا لسلطان الأصباغ البديعية خضوع المشارقة ، بل بقى لأدبهم إلى آخر عهدهم بالأندلس شىء من الروعة لايوجد نظيره فى المشرق .

فإذا عدنا إلى المشرق وجدنا رجل هذه الصنعة وحامل لوائها فى أواخر المائة الخامسة وأوائل السادسة ذلك هو الحريرى . أبو عبد الله القاسم ابن على بن محمد بن عثمان الحرامى أحد أئمة عصره صاحب المقامات الخمسين التى تدل على فضله وتنبئ عن غزارة مادته وكثرة اطلاعه ، والمتوفى سنة ٥١٦ وقيل سنة ٥١٥ وقيل سنة ٥١٠ هـ وقد كان الحريرى عالما شاعرا إلى كونه كاتبا ، فلقيت الصناعة البديعية على يديه من الرواج والانتشار مالم تلقه على يد رجل كان قبله ، فقد عسف بها وأخرجها عن شرط الأدب إلى شرط الصنعة ، والفكاهة إذا انقلبت جدا ثقلت وسمجت ، والفاكهة إذا صارت كل الطعام ملت ومجت ، وقد طبخ الحريرى أحمض أنواع الصنعة حتى صيرها ضربا من العبث الفارغ والتكلف البارد .

فقد أغرم بالجناس وجال فيه جولات عادت على أدبه بالاستكراه والتعقيد، اقرأ هذين البيتين اللذين دعاهما باسم المطرفين . أى المتشابهى الطرفين(١)

سِمْ سمَةً تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه(٢)

(١) مقامات ص ٥٣٠ - ٥٣١
(٢) سم سمة : علم علامة . وقد وسمه وسما وسمة إذا أثر فيه بسمة أوكى .

والمكر مهما اسطعت لاتأته　　لتقتنى السودد والمكرمة

ثم قال بعدها :

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه　　بدمع يحاكى المزن حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه　　وروعة ملقاه ومطعم صابه

قال ابن حجة(١) : « وهذا النوع لايخلو من تعسف وعقادة فى التركيب » وقد أغرم الحريرى بالتصحيف غراما شديدا فجاء منه بما بلغ الغاية فى التكلف .

اقرأ قوله(٢) :

زينت زينب بقدَ يقُدُّ　　وتلاه ويلاه نهــدٌ يهد
جندها جيدها ، وظرف وطرف　　ناعس تاعس ، بجدٍّ يجد
قدرها قد زها ، وتاهت وباهت　　واعتدت واغتدت بخد يخد
فارقتنى فارقتنى ، وشطــــت　　وسطت ، ثم نمَّ ، وجد وجد
فدنت فدّيت ، وحنَّت وحيَّت　　مغضَبا مغضيا ، يَوَدُّ يوُد

وقد أطلق على هذه الأبيات فى المقامة السادسة والأربعين اسم المتائيم(٣) لأن كل لفظين منها مجنسان تجنيسا خطيا ، ولو أنصف الحريرى لسماها المشائيم لأنها من عوامل الشؤم على هذا الأدب إذ غدت فيما بعد أمارة النبوغ وآية العبقريات وإذا اعتبرت مثل هذه الرطانات هذا الاعتبار فعلى الأدب العفاء .

ومما يدل على ولوع الحريرى بهذا التصحيف قول(٤) القاضى بن جابر ابن هبة الله : قرأت المقامات على الحريرى فى سنة ٥١٤ فقرأت قوله :

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا　　ولالقيتم ما بقيتم ضرا
قد دفع الليل الذى اكفهرا　　إلى ذراكم شعثا مغبرا

---

( ١ ) الخزانة ص ٢٩ .
( ٢ ) المقامات ص ٥٢٩ .
( ٣ ) جمع متآم وهى المرأة التى تأتى فى كل مرة إذا ولدت بتوءمين .
( ٤ ) معاهد التنصيص ج ٢ — ٢٤ .

فقرأته « سغبا معترا » وكنت أظنه كذلك ففكر ثم قال . لقد أجدت فى التصحيف وإنه لاجود فرب شعث مغبر غير محتاج ، والسغب المعتر موضع الحاجة ، ولولا أنى قدكتبت خطى إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت على لغيرته كما قلت ، ومهما يكن من أمر هذا التصحيف الذى اشتملت عليه هذه القصة من الرونق فإنه يدلنا على مبلغ حرص الحريرى على الصنعة وطغيانها عليه حتى سيطرت على عقله واستنفدت كل جهده فراح يلتمس فى سبيلها كل وعر شاق .

إلى هذا قد كان للحريرى غرام بالألغاز والأحاجى لا يقل عن غرامه بالجناس ولم يقتصر على استخدامها فى كلامه بل راح يروج لها ويدعو حيث يقول(١) فى المقامة السادسة والثلاثين : « إن وضع الأحجية لامتحان الألمعية واستخراج الخبية الخفية وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ معنوية ولطيفة أدبية » فمن ألغازه قوله(٢) :

ميم موسى من نون نصر ففتش    أيهذا الأمير ماذا عنيت

فمعنى ميم ، أصابه الموم وهو البرسام . ويقال . هو أثر الجدرى ، والنون السمكة بمعنى أكل سمكة نصر فأصابه الموم ، ومنها قوله :

باء بكر بلام ليلى فما ينـــــــفك منها إلا بعين وهاء

البكر الجمل ، وباء أقرّبه ، واللام الزرع ، فلازمته فما ينفك منها مما تلطمه فى وجهه إلا بعين واهية من اللطم » .

وهكذا لم يقف ولوع الحريرى بالألغاز عند البيت أو الأبيات ، بل تراه يشيعه فى مقاماته ويؤثره بست منها ، الأولى ، المقامة الخامسة عشرة «الفرضية» فقد بناها على أن أبا زيد قد عرض عليه لغز فى مسألة فرضية فحله وأبان عن سره فى عدة أبيات من النظم(٣) ، والثانية هى المقامة الرابعة والعشرون فقد ضمنها إلقاء أبى زيد على جلسائه مسائل ملغزة فى النحو

(١) المقامات — ٣٩٤ .
(٢) معاهد التنصيص ج ٢ — ٩٤ .
(٣) المقامات ص ١٤٢ وما بعدها .

فى أبيات من الشعر ، ثم حلها بعبارات مسجوعة من النثر(١) ، والثالثة هى المقامة الثانية والثلاثون الطيبية فقد أقامها على أن أبا زيد قام فقيها بمائة مسألة فقهية ملغزة فى عبارات من النثر مسجوعة(٢) ، والرابعة المقامة السادسة والثلاثون إذ بناها على جملة ألغاز وجهها أبو زيد لجماعة من الحاضرين فى أبيات من الشعر(٣) . والخامسة المقامة الثانية والأربعون فقد أقامها على ألغاز أبى يد فى عشرة أشياء فى أبيات من الشعر(٤) . والسادسة . المقامة الرابعة والأربعون . إذ بناها على أن أبا زيد أنشأ قصيدة فى عدة ألغاز تحتها تفسيرها(٥) .

من هذا تقف على مبلغ الجهد الذى بذله الحريرى فى هذه الألغاز حتى بلغ فيها مبلغا قلما تيسر لغيره من شعراء العربية أوكتابها ، وذلك جرم على الأدب لا يغتفره التاريخ للحريرى ، وإلا فأى روعة يكتسبها الأدب من وراء هذه الأحاجى والألغاز سوى الالتواء فى طرق الأداء والغموض فى تصوير الأغراض ؟

وكما مكن الحريرى للألغاز فى مقاماته حتى استولت على ست مقامات فقد اختص القلب الذى سماه مالا يستحيل بالانعكاس بالمقامة السادسة عشرة(٦) وجاء فيه بأمثلة كثيرة موزعة بين الشعر والنثر ، فمن الشعر قوله(٧) :

أسْ أرملاً إذا عرا وارع إذا المرء أسا
أسْندْ أخا نباهة أبِنْ إخاءً دنسا
أسْلُ جناب غاشم مشاغب إن جلسا

(١) ص ٢٣٦ - ٢٤٩ .
(٢) ص ٣٣٣ - ٣٦٩ .
(٣) ص ٣٩٠ - ٤٠٣ .
(٤) ص ٤٦١ - ٤٧٣ .
(٥) ص ٤٩٥ - ٥١٤ .
(٦) ص ١٥٠ - ١٦٠ .
(٧) أس : من الأوس وهو الإعطاء . أرمل : هو الذى نفد زاده وافتقر . عرا : أتى طالبا للرزق . جناب : فناء . اسر : كن سريا أى سيدا وأما أسر فأمر من الإسراء أو السرى أى اذهب عن محل المماراة . مرأ : جدال وقصره للضرورة وأصله مراء . نكس : قلب .

أسْر إذا هب مرًّا وارْم به إذا رسا
أسكن تقوَّ فعسى يسعف وقت نكسا

فهذه أبيات إذا قرئت عكسا لم يتغير معناها عن طردها ، وهى كما ترى من التكلف والثقل بالمحل الأول ، وهكذا يؤلف الحريرى أمثلة لهذا النوع من النثر كقوله « كبر رجاء أمرربك » . وقد تصنع الحريرى حتى أوصله إلى السمط السباعى فجاء به معقداً سخيفاً كقوله لمن ذم البخل ( لذ بكل مؤمل إذا لمّ وملك بذل » .

وكل ما نظم أوقيل من النثر فى هذا اللون رضيع التكلف والسخف ، ولم أر له مثالا من النظم أروع من قول القاضى الأرجانى المتوفى سنة ٥٤٤هـ .

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

فهذا البيت علم الرقة فى هذا الباب ، وكأن الشعر قد أقفر من هذا اللون إلا هذا البيت فهو فيه الشعر كله .

وكان الحريرى يمضى جادا فى طريق هذه الصناعة العابثة حتى تراه يضمن المقامة السادسة(١) رسالة بناها على جعل إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة كما يضمن المقامة السابعة(٢) عشرة رسالة تقرأ من أولها بوجه وآخرها بوجه آخر ، وكذلك يبنى المقامة السادسة والعشرين(٣) على الرسالة الرقطاء التى أحد حروفها منقوط والآخر بغير نقط . كما أقام المقامة الثامنة والعشرين(٤) على خطبة لأبى زيد عارية من الإعجام .

وما إلى ذلك من هذا اللعب العابث الذى كفانا مؤونة الرد عليه ابن الأثير حيث قال(٥) : « قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضوع علم البيان وهى بنجوة عنه لأنها فى واد وعلم البيان فى واد ، فممن

---

(١) ص ٤٩ .
(٢) ص ١٦٠ .
(٣) ص ٢٥٨ .
(٤) ص ٢٨٦ من المقامات .
(٥) المثل السائر– ٣٠٨ .

فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة وكلمة مهملة ، والرسالة التى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم .... ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول البيت الذى يليه ، وكل هذا وإن تضمن مشقة الصناعات خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ، لأن الفصاحة هى ظهور الألفاظ مع حسنها على ماأشرت إليه فى مقدمة كتابى هذا ، وكذلك البلاغة فإنها الانتهاء فى محاسن الألفاظ ، والمعانى .... وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لايتضمن فصاحة ولابلاغة وإنما يأتى ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراها وتوضع فى غير مواضعها وكذلك ألفاظه فإنها تجىء مكرهة أيضا غير ملائمة لأخواتها » . وذلك كلام أقره فى جملته وتفصيله .

ولو أن الحريرى وقف عند هذا الحد الشائن لهان الأمر ، ولكنه تجاوزه ملجئاً نفسه إلى أشق أنواع الإعنات والتضييق ، فراح يصنع رسالتيه السينية والشينية ملتزما فى الأولى ألا يخلى كلمة من السين وفى الثانية ألا يحرمها حرف الشين ، وقد أنشأ السينية على لسان الأمير أمين الملك أبى الحسن بن قطير المدائنى وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة إلى الأمير الأجل الاسفهسالار(١) النفيس معاتبا له على اختصاصه بالدعوة للأمير الحسام وقد كان نزل على الحسام فى داره بالبصرة فى المحلة المعروفة ببنى حرام وهى محلة الشيخ الحريرى ، وكان أمين الملك جاره وصديق الاسفهسالار النفيس فلم يدعه ، فكتبها إليه على لسانه ، وأما الشينية فقد كتبها إلى الشيخ شمس الشعراء طلحة بن أحمد ابن طلحة النعمانى ، وكلتاهما ملحقتان بالمقامات المطبوعة فلا تفوتان من يطلبهما ، وقد كفانا مؤونة ايجاعه على هذا العبث ابن الأثير حيث قال فى باب المعاظلة(٢) اللفظية تعليقا على بيت الحريرى :

وازور من كان له زائـــرا     وعاف عافى العرف عرفانه(٣)

---

(١) لفظ فارسى معناه رئيس الجيش ، واسمه النفيس .

(٢) المثل السائر – ١١٨ .

(٣) العافى : طالب فضل أورزق .

« فقوله وعاف عافى العرف عرفانه من التكرير المشار إليه ، وكذلك ورد قوله أيضا فى رسالتيه اللتين صاغهما على حرف السين والشين فإنه أتى فى إحداهما بالسين فى كل لفظة من ألفاظها ، وأتى فى الأخرى بالشين فى كل لفظة من ألفاظها فجاءتا كأنهما رقى العقارب أوخذروفة العزائم(١) ، وما أعلم كيف خفى ما فيهما من القبح على مثل الحريرى مع معرفته بالجيد والردىء من الكلام » .

وعندى أنه ليس فى هذا الكلام من ابن الأثير تحامل على الحريرى كما قرر ذلك المرحوم مصطفى صادق الرافعى(٢) محتجا بأن الصناعات كانت مشهورة لذلك العهد مرغوبا فيها ، وبأن مقام الرسالتين استدعى هذا الالتزام حيث كتبت الأولى إلى « الأسفهسالار » والثانية إلى « شمس الشعراء » ، فإن الجريمة لاتبرر الجريمة وإن الغرام بهذه الصناعة إلى هذا الحد المسرف لايبيح للحريرى أوغيره أن يورث اللغة هذه الحلى العاطلة ، ويشرع للأدب تلك الثغرات التى أسقطته وهوت به إلى الحضيض . فقد تطاير شرر هذا الأعناب إلى بلاد الأندلس بعد أن ظلت أمدا طويلا مصونة عنه ، فتكلفه الوزير جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى السرقسطى المعروف بابن الأشتركوانى المتوفى سنة ٥٣٨ فى مقاماته التى عارض بها الحريرى إذ التزم فى نظمها ونثرها لزوم مالايلزم حتى عرفت مقاماته بالمقامات اللزومية وقد اشتهر بأسلوبه هذا فى الأندلس حتى احتذاه من مشهوريهم عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالمكناسى المتوفى سنة ٥٩١ فقد كان كاتبا مغرما بإنشاء الرسائل اللزومية حتى بلغ فيها شأوا بعيداً(٣) .

وأغرم بهذا اللون عدا المعرى والحريرى بعض المشارقة حتى تكلفوه فى تأليف مستقل فمن هؤلاء عبد العزيز(٤) بن قاضى حماة المتوفى سنة ٦٦٢ فقد قال فيه الشيخ صلاح الدين الصفدى : «ولا أعرف فى شعراء الشام بعد

---

(١) الخذروف كعصفور : شىء يدوره الصبى بخيط فى يده فيسمع له دوى.
(٢) جـ ٣ - ٣٧٨ تاريخ الآداب العربية .
(٣) بغية الوعاة - ٣٠٣ .
(٤) ترجم له فى فوات الوفيات .

الخمسمائة من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ، ولا أصنع ولا أكثر ، فإن له فى لزوم مالايلزم مجلدا كبيراً » .

هذا وقد استخدم الحريرى عدا ما أسلفنا من ألوان البديع . الاقتباس ، والتلميح والتشريع وما إلى ذلك مما راج فى هذه العصور وإن كان لم يبلغ فيها من التكلف مثل ما بلغه فيما قصصنا عليك ، فمن التشريع قوله :

يا خاطب الدنيا الدنية إنهـــا شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ماأضحكت فى يومها أبكت غدا بعدا لها من دار(١)

فهذان البيتان من قصيدة جاءت فى المقامات على هذا النمط من ثانى الكامل ، وهى تنتقل بالإسقاط إلى ثامنه هكذا :

يا خاطب الدنيا الدنية أنها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا

ومن اقتباساته قوله: «فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلاما سعى ، وأن سعيه سوف يرى» وقوله «أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليله »(٢) .

ومن تلميحاته قوله فى المقامات « فبت بليلة نابغية » مشيراً إلى قول النابغة (٣) :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة(٤) من الرقش فى أنيابها السم ناقع

وهكذا يهب الحريرى نفسه للصناعات فلا تجود عليه إلابالغث المرذول الذى نفثه فى الأدب العربى فأسهم فى إجدابه وإمحاله .

وإذا كان الأدب يفيض بهذه السفاسف فى المشرق فقد كان لايزال على

(١) المقامات ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .
(٢) خزانة الحموى – ٥٤٢ .
(٣) من المصدر السابق ص ٢٣١ .
(٤) الضئيلة الحية الدقيقة .

شيء من الرونق في الأندلس ، فقد أظل عصر الحريري أبا إسحاق إبراهيم ابن عبد الله بن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٣ وقد كان شاعراً كاتبا مولعاً بألوان البديع ولكن في سهولة لفظ ووضوح معنى ، وإصابة غرض — اقرأ له هذه القطعة التي يصف بها سراه بالليل :

بعيشك هل تدرى أهوج الجنائب ... تخب برحلى أم ظهور النجائب
فمالحت في أولى المشارق كوكبا ... فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب
وحيدا تهاداني الفيافي فأجتلى ... وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلا من حسام مصمم ... ولا دار إلا في قتود الركائب
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ... ثغور الأماني في وجوه المطالب
وليل إذا ما قلت قد باد فانقضى ... تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجي فيه سود ذوائب ... لأعتنق الآمال بيض ترائب
فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس
تطلع وضاح المضاحك قاطب(١)

فإنك تخال أنك لست تسمح لشاعر من شعراء المائة السادسة التي ملئت بالتكلف البارد والصنعة الثقيلة ، بل دار الفلك دورته وراجع عهدا من عهود الإشراق الأدبي والنضج البديعي ، فذلك شعر يمت بأوثق الصلات إلى شعر أبي تمام ويذكرنا بعنايته في إحكام التراكيب وحسن التأتي لأصباغ البديع ، فقد جانس ابن خفاجة بين الجنائب والنجائب في البيت الأول ، مع ما فيه من تجاهل العارف ، وقابل في الثاني بين أولى المشارق وأخرى المغارب ، وفي الثالث يثبت للمنايا وجوها ، وللغياهب قناعا على

(١) الجنائب : جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا . النجائب : جمع نجيبة ونجيب وصف للناقة الكريمة . الغياهب جمع غيهب وهو الظلمة . تهاداني : تهادت المرأة تمايلت في مشيتها وكل من فعل ذلك بأحد فهو يهاديه . القتود : جبل والمراد به الرحل . ركائب : جمع ركاب وهي الإبل واحدتها راحلة . الترائب والتربة موضع القلادة أو ما بين الثديين . الأطلس : الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى السواد وكل ماعلى لونه ، والرجل إذا رمي بقبيح والأسود كالحبشي .

طريقة الاستعارة المكنية المحكمة ، وفى الرابع يجانس بين دار وجار ، وفى الخامس يجعل للأمانى ثغورا وللمطالب وجوها ، ثم يجمع بين الثغور والوجوه مراعيا النظير . وانظر إلى تكشف الليل عن وعد من الظن كاذب تر البراعة فى هذا التجوز ، وفى السابع يطابق بين سود الذوائب وبيض الترائب عدا ما فيه من تجوز لطيف ، وفى الثامن يثبت لليل جبينا ويشبهه — فى وقت الفجر حيث يختلط ضياء النهار بظلام الليل بشخص أطلس يجمع بين الضحك والتقطيب فى وقت واحد ، وما أشبه هذا بتوافر الأضداد التى أولع بها أبو تمام .

فابن خفاجة — وإن كان من شعراء المائة السادسة — قد رجع بالشعر إلى عهد أبى تمام فهو مغرم بمذهبه وطريقته مفتون بتقليده والسير على منهجه . وتلك حال شعراء الأندلس لا تجد بينهم من يستقل بالشعر عن مذاهب المشارقة وطرائقهم .

وكذلك تجد ابن خفاجة فى نثره مثل ماكان فى شعره رقيقا عذبا وإن كان يلتزم السجع ويغرم ببعض ألوان البديع ، اقرأ هذا الفصل من رسالة يصف فيها متنزها(١) : « ذهبت فى لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا ، ونطوى للتفرج أرضا ، فلا ندفع إلا إلى غدير نمير ، قد استدارت منه فى كل قرارة سماء ، سحائبها غماء ، وانساب ، فى كل تلعة حباب ، جلده حَباب ، فترددنا بتلك الأباطح ، نتهادى تهادى أغصانها ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشى على بساط وشى » الخ (٢) تجده يجمع فى سجعه الملتزم بين الطويل الفقرات والقصير حتى لترى كلمة واحدة سجعة على حدة ، كما تراه يحفل بالجناس وإن كان عذبا رقيقا محاكيا جناس ابن العميد أو البديع .

وقد لزمت هذه السلاسة أدب ابن خفاجة مادام يصف مشاهد الطبيعة

---

( ١ ) بلاغة العرب فى الأندلس — ١٩٢

( ٢ ) اللمة : الصاحب أو الأصحاب فى السفر . الغماء : سقف البيت . القلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ( ضد ) ، ومسيل الماء . حباب الرمل والماء معظمه أو طرائقه أو فقاقيعه والحباب الحية العظيمة وجمع حبابه لدويبة سوداء مائية . تراسل مشى : أى اتئاد .

التى ملكت عليه حسه واستنفدت كل جهده، فأجاد القول أيما إجادة، فإذا جنح عنها إلى غيرها وجدت منه سماجة وثقلا لا يقلان عما شهدنا عليه الحريرى.
اقرأ له من رسالة يعاتب فيها بعض إخوانه(١) : « أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الحازمة ... الخ » . وهكذا يمضى فى هذه الرسالة على هذا النحو الذى حفل فيه بمصطلحات العلوم من نحو وصرف وعروض وغيرها ، وتلك من سمات الأدب فى المائة الخامسة والسادسة كما أسلفنا .

فترى من هذا أن ابن خفاجة كان مجموعة عصور حيث جمع بين مميزات المائة الثالثة والمائة الرابعة وعصره الذى يعيش فيه . وذلك يؤكد ما رددناه كثيراً من عدم استقلال الأندلسيين عن المشارقة وعدم إقلاعهم عن مجاراتهم فيما يأتون ويذرون .

وقبل أن نترك ابن خفاجة إلى غيره يجدر بنا أن ننبه على أن من أظهر الألوان التى راجت فى أدب الأندلسيين بعد السجع ولقيت إقبالا من الأدباء واكتسبت منهم الأشياع والأنصار حسن التعليل، فقد أولعوا به وأكثروا من استخدامه حتى صار مذهبا من مذاهبهم . اقرأ قول ابن خفاجة يصف جبلا اعترضه فى سراه فتحدث عن لسانه قال :

وما خفق أيكى غير رجفة أضلع ... ولانوح ورقى غير صرخة نادب
وما غيّض السلوان دمعى وإنما ... نزفت دموعى فى فراق الصواحب

وهكذا نجد هذا اللون شائعا فى أشعارهم جميعا وقلما خلا منه شعر شاعر. فإذا تركنا ابن خفاجة الأندلسى إلى غيره من الأدباء الذين عاشوا فى القرن السادس الهجرى ألفينا الاهتمام بالبديع يعظم ويتضاعف، حتى يستحيل الأدب إلى صناعة بديعية محضة استبدت بجهود الأدباء ، حتى صارت همهم فى شعرهم

(١) نفح الطيب جـ ١ — ٣٥٢ .

ونثرهم ، وجروا شوطا بعيداً فى التورية والاستخدام إلى أن أصبحا عنوان النبوغ وآية التبريز فى الأدب منذ النصف الأخير من القرن السادس إلى أوائل القرن الثالث عشر حيث يبدأ عصر النهضة الحديثة ، وكان السابق فى هذا الميدان القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم اللخمى العسقلانى المولود بمدينة عسقلان(١) والمتخرج على أبيه فى علوم اللغة والأدب ، وعلى أعلام زمانه فى مختلف الفنون ، وقد رحل إلى مصر وتقلب فى المناصب حتى وزر لصلاح الدين الأيوبى ثم ابنه ثم أخيه من بعده حتى قضى سنة ٥٩٦ هـ .

وقد برز القاضى الفاضل فى الكتابة حتى انتهى إلى طريقة عرفت باسمه ، ورزقت من سعادة الجد ، ووفور الحظ ، وإقبال الناس ما لم ترزقه طريقة من قبل فنمت فى مصر نمواً سريعا حتى استحوذت على أقلام الكتاب ، والشعراء ، وصارت لهم شرعة وطريقة ، ثم فاضت على البلاد الإسلامية الأخرى فشرقت إلى الشام وغربت إلى بلاد الأندلس ، وطغت على طريقة ابن العميد التى سار عليها الناس زمنا ليس باليسير ، وبقيت هذه الطريقة طابع الكتاب والشعراء ولاسيما فى مصر إلى زمن قريب ، وقد كان القاضى الفاضل غزير المادة واسع الأفق ، فساعده ذلك على تلفيق طريقته من طرق أعلام الكتاب فى مصر والشام والعراق ولاسيما طريقة ابن العميد .

وقد أقامها على دعائم من أصباغ البديع أبرزها السجع الطويل الفقرات فى غالب الأحايين ، والتلميح ، ومراعاة النظير ، والتضمين ، والاستعارة ، والجناس ، والاقتباس واستخدام المصطلحات العلمية ، وما إلى ذلك مما عرف من قبله وأكثر منه الأدباء ، إلا أنها أصبحت فى طريقته شرطا من شروطها حتى غدت ذات سلطان على الأدب ، وأخذت تستبد به حتى صارت الكتابة والشعر أصباغا من البديع تصف ، وحلى ترصع ، من غير اكتراث بفكرة أو التفات إلى معنى ، وكان ذلك منذ أوائل حكم العثمانيين إلى العصر الحديث. وكل ما يمكن أن ينسب إلى هذه الطريقة من تجديد فى ألوان البديع — سوى إطالة فقرات السجع — هو احتفالها بالتورية والاستخدام والإكثار منهما

(١) بلدة كانت على ساحل فلسطين وموضعها الآن خرب .

حتى نسبا إليها وإن كانا لم يلبثا طويلا على شيء قليل من الطرافة والجدة حتى دب إليهما السقم والضعف الذى تسرب إلى سائر الألوان .

وبذلك كان القاضى الفاضل أحد الجناة على الكتابة والشعر بما شرع من هذه الطريقة التى قضت على الأدب أن يكون مجرد ألوان من البديع مرصوصة مصفوفة ، وهونت من شأن المعانى فى نظر الأدباء حتى استباحوا التضحية بها فى سبيل تورية سخيفة أو جناس مرذول وغدا ميزان الجمال ومقياس البراعة أن يلم الأديب بجملة من هذه الألوان يحشو بها ذهنه ، حتى إذا أخذ فى الكتابة أو الشعر حشدها بمناسبة وغير مناسبة .

نعم إن القاضى الفاضل لسلامة فطرته وتمكنه من صناعته لم ينحدر كما انحدر خلفه فكان لكتابته وشعره شيء من الرونق والجمال يسطر له حسن الذوق وسلامة الفطرة ودقة الصناعة ، ثم خلف من بعده خلف عاق لم يرزقوا سعة أفقه وغزارة مادته وصفاء قريحته ، فأخذوا يقلدونها باذلين جهداً شاقا فى الوصول إلى غايتها أو التفوق عليها ولا عتاد لهم فى هذا الميدان سوى ألوان البديع ، فجنت عليهم هذه المحاكاة وقادتهم إلى العبث بهذه الصناعة حتى تجاوزوا بها الحدود اللائقة ، ووفروا كل همهم للألفاظ ، وآزرهم فى ذلك فتور النقد وإعجاب النقاد بهذه الرطانات ، حتى كان أحدهم إذا حاول نظم قصيدة أو تحرير رسالة هدم بها من بناء اللغة لبنات وقوض دعائم ، ولم تزل تلك الحال مسيطرة على اللغة شعرها ونثرها ، وكلما تقدم الزمن ازداد جمود القرائح وعم الجهل ، وصد الأدباء عن التثقيف بالثقافات المختلفة التى تنمى الفطر وتساعد على التجديد نازعين بالأدب هذه المنازع اللفظية التى أمحلته وأجدبته وعفت على روعته وبهجته ولاسيما فى عصر العثمانيين ، وكانت الكتابة أطوع قبولا لهذه الجرائيم ، لذلك انحدرت بخطوات أوسع لإطلاقها من قيود الوزن وتقيد الشعر بها ، وبلغ السجع فيها غايته المرذولة حيث استخدم فى لغة التأليف فى المشرق والمغرب ، وتلك أوخم حالاته وأقبح مواطنه .

وهكذا تمضى اللغة فى هذه المضايق ، ويقف الأدب قرونا عدة على

هذا المورد الوبيل حتى تؤذن شمس النهضة بالبزوغ على يد رسل البيان فى هذا العهد الأخير فينشروه ويبعثوا فى صميمه الحياة فتأخذ تلك الجرائم فى الضعف ثم القلة ثم الفناء حيث تبيد وتنقرض إلا فى بطون الكتب والدواوين .

وإذا نظرنا إلى هذه الألوان البديعية التى اعتبرها القاضى الفاضل دعائم طريقته واستحلى مذاقها الأدباء من بعده ، وتعقبناها فى بعض أشعارهم وكتاباتهم ألفيناها أكسبت اللغة هجنة ،وألحقتها بضروب الحرف والصناعات الحافة ، وأحالتها إلى حال كلال ومضيعة — إذ كانت على رغم ما تستدعيه من مجهود شاق — نوعا من الحلى العاطلة التى لاتمثل جمال الصناعة ولاتصور روعتها ، لذلك لا نكون مبالغين إذا احتسبناها من أسباب تدهور اللغة وانحطاطها على عكس ما كانت عليه فى أيام إشراقها .

أما التورية — فقد أسلفنا شواهد لها فى الأدب القديم والمحدث إلا أنها لم تكن لهم طريقة ومذهبا لمجانبتهم الغموض وميلهم إلى الوضوح والجلاء ، فلما مال العقل العربى إلى التعقيد فى العصور المتأخرة ، وجنح عن التزود من الثقافات المتنوعة ، واستولى على النفوس الفزع من عسف الولاة والحكام احتمى الأدباء فى التورية رغبة فى الابتكار والتجديد وفرارا من القتل والتشريد: لذلك نرى للتورية الدولة والذيوع منذ أواخر القرن السادس الهجرى على يد هؤلاء المتأخرين ولاسيما المصريون والشاميون .

وقد قابلها النقاد بكثير من البهجة والسرور ، قال ابن حجة(١) : « هذا النوع أعنى التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب ، ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب ، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة ، وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول ، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول ... » ثم قال(٢)نقلا عن الصفدى فى كتاب فض الختام عن التورية

---

(١) الخزانة ص ٢٩٥ .

(٢) الخزانة ص ٢٩٨ .

والاستخدام «ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية واطلعوا شموسها ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها ، وقيل إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره ، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها ، وممن شرب من سلافة عصره ، وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره ، القاضى السعيد بن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها ومتمسكين بطيب أنفاسها إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها ، والواسطة فى عقد جمانها ، كالسراج الوراق «المتوفى سنة ٦٩٥» . وأبى الحسين الجزار « سنة ٦٧٢ » والنصير الحمامى « سنة ٧١٢ » وناصر الدين حسن بن النقيب « سنة ٦٧٨ » والحكيم شمس الدين بن دانيال « سنة ٧١٠ » والقاضى محيي الدين بن عبد الظاهر « سنة ٦٩٢ » . وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتأزر نصرهم ... كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماه « سنة ٦٦١ » والأمير مجير الدين بن تميم «سنة ٦٨١» وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى «سنة ٦٨٠» .. وشمس الدين محمد بن العفيف « سنة ٦٨٧ » وسيف الدين بن المشد « سنة ٦٥٥ »... ولا تقل أيها الواقف على هذا التأليف لقد أفرطت فى التعصب لأهل مصر والشام ، على من دونهم من الأنام وهذا باطل ودعوى عدوان ، وحمية لأوطانك ومن جاورها من البلدان ، فالجواب أن الكلام فى التورية لاغير ، ومن هنا تنقطع المادة فى السير ، ومن ادعى أن يأتى بدليل وبرهان ، فالمقياس بيننا والشقراء والميدان ا هـ كلام الصفدى» . ثم مضى ابن حجة يطرى هذا اللون من الكلام يقول(١) : «إن التورية عند علماء الفن بمنزلة الإنسان من العين ، وسموها فى البلاغة سمو الذهب على العين ، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة ، وأفكارهم لا تقصد مظانها وإن كانت سليمة صحيحة ، ولكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام ، فنقول إنها رمية من غير رام ، وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها ،

(١) الخزانة ص ٢٩٨ .

والمتفكهون فى أدواح الأدب بثمراتها » . وهذا الكلام يدلك على مبلغ ما لقيته التورية منذ شيوعها عند المتأخرين من الإقبال العظيم والرواج الذى ليس له مثيل ، وقد أفسح النقاد لها صدورهم ولم يضنوا عليها بمدحهم وثنائهم ، كما رأيت فى إطراء الصفدى وابن حجة لها ولايخالجنى ريب فى أن نزعة العصر وطبيعة الزمان غلبت عليهما فراحا يخلعان عليهامن ثياب الإطراء مالا تستأهله .

والذى أراه أن التورية كبقية ألوان البديع إنما تكسب الكلام روعة وتكسوه بهجة إذا جاءت قليلة من غير كد ظاهر وتعمل بين ، أما إذا صارت هم الأديب وغايته من أدبه ومذهبه فى صناعته وراح يحرص عليها ويركب فى سبيلها الأوعار والأهوال فهى حلية عاطلة ، وفتنة باطلة وتجارة كاسدة ، تحسر عن الأدب رواءه وتسلمه إلى السقم والهزال والعقم والجمود ، والشواهد على هذه الدعاوى كثيرة وافرة منها : قول القاضى الفاضل فى يوم شديد المطر والبرد(١) : « والخادم فى رأس جبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يبتذلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسجدة » . وقوله :

فى خده فخ لعطفة صدغه ... والخال حبته وقلبى الطائر

وقول سراج الدين الوراق فيمن تلقب بالضياء :

أمولانا ضياء الدين دم لى ... وعش فبقاء مولانا بقائى
فلولا أنت ما أغنيت شيئا ... وما يغنى السراج بلا ضياء

وقد أغرم السراج بالتورية حتى قيل له لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك(٢) فمما كتب به السراج إلى أبى الحسين الجزار فى عيد الأضحى قوله :

أجبت بعيد النحر من كان سائلى ... عن الحال فى عيدى وقد مر ذكره
إذا بطل الجزار والعيد عيــــده ... فلا تسأل الوراق فالعذر عذره

---

(١) الخزانة للحموى — ٢٩٩ .
(٢) الخزانة ص ٣٠٠ .

وقول ناصر الدين حسن بن النقيب :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة     دعونى فإنى آكل الخبز بالجبن

وقول محي الدين بن عبد الظاهر :

لقد قال كعب فى النبي قصيدة     وقلنا عسى فى فضلها نتشارك
فإن شملتنا بالجوائز رحمة     كرحمة كعب فهو كعب مبارك

وقول شيخ شيوخ حماة :

حروف غرامى كلها حرف إغراء     على أن سقمى بعض أفعال أسماء

وقول مجير الدين « شامى أيضا » .

وليلة بت أسقى فى غياهبهـا     راحا تسل شبابى من يد الهـرم
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى     غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم(١)

وقول بدر الدين الذهبي موريا باسمه :

قد أنحلتنى الغوادى غير راحمـة     ومحقتنى الليالى بعد إبدار

وقد شاع فى هذه العصور الجمع بين التورية وغيرها من ألوان البديع فمن الجمع بينها وبين الاقتباس قول شيخ شيوخ حماة :

يانظرة ماجلت لى حسن طلعتـه     حتى انقضت وأدامتنى على وجلى
عاتبت إنسان عينى فى تسرعه     فقال لى خلق الإنسان من عجل

ومن الجمع بينها وبين التضمين قول ابن نباته المصرى المتوفى سنة ٧٦٨

وضعت سلاح الصبر عنه فما له     يقاتل بالألحاظ من لايقاتله
وسال عذارٌ فوق خديه جائر     على مهجتى « فليتق الله سائله »(٢)

وقوله جامعا بينها وبين الاكتفاء :

أقول وقد جاء الغلام بصحنـه     عقيب طعام الفطر ياغاية المنى
بعيشك قل لى جاء صحن قطائف     وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنا(٣)

---

(١) الغزالة : الشمس عند طلوعها أوعند ارتفاعها أوعين الشمس وامرأة .
(٢) عذار : أراد به أول ما ينبت من الشعر .
(٣) يقصد الكنافة .

وما إلى ذلك مما تراه فى خزانة الحموى وغيرها ، سوى أنى أحببت أن أضع بين يديك صورة تقفك على مبلغ ضعفها فى أزهى عصورها حتى تقتنع بما قلته عنها .

وأما الاستخدام . فقد كان على مدى متطامن كثيرا عن الغاية التى وصلت إليها التورية من الكثرة والانتشار فى الطريقة الفاضلية ومصداق ذلك قول ابن حجة الحموى (١) .

وهذا النوع أعنى الاستخدام قل من البلغاء من تكلفه وصح معه بشروطه لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية ، وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية ، وأحلى موقعا فى الأذواق السليمة ، ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة .... على أن المتقدمين ما قصدوه جملة كافية ، ولا شعروا به لما شعروا أنه دخل معهم فى بيت تحت قفل قافية ، وأما المولدون من الشعراء كالفرزدق وجرير ومن عاصرهما وخاض معهما لجة بحر البلاغة فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير ، وأما الذين تفقهوا من بعدهم فى الأدب ، وتنبهوا لتخلل طرقه بالطلب ، فربما قصدوا بعض أنواع البديع فجادت إذ جاءت ، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاءت ، وقد قصد أبو تمام كثيرا من الجناس وفتح أبوابه وشرع طرقه للناس ، وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما وتيقظ الا من تأخر من الشعراء والكتاب ...

ثم مضى يبين أن السابق إلى هذا الصبغ من الأدباء إنما هو القاضى الفاضل وشيعته ثم عدّ من شعرائه بمصر والشام من عدهم فى التورية مما أسلفناه ثم قال(٢) : «واتصل هذا الحديث القديم بالشيخ جمال الدين بن نباته فأينع فرعه النباتى بغضه ووريقه ، واستعبد التورية والاستخدام فى سوق رقيقه

---

(١) الخزانة ص ٦٦ .

(٢) الخزانة ص ٦٧ — ٦٨ .

فمن استخداماته ما أرانا من استخدام البحترى عبث الوليد ، وقلنا بعده فى استخدام أبى العلاء ليس على الأعمى حرج » .

فترى ابن حجة يحتفل للاستخدام أكثر مما احتفل للتورية ، وينسب الفضل فيه الى الطريقة الفاضلية كما صنع فى التورية ، ولكنه لم يكثر من أمثلة الاستخدام كما أكثر فى التورية لندرة هذا اللون كما قال وصعوبة مسلكه ، واقتصر من شعر المتأخرين على هذين البيتين لابن نباته :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت  منازله بالقرب تَبْهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى  فلا عادها عيش بمغناه أخضر

فقد استعمل ابن نباته العقيق فى الدمع استعمالا مجازيا ثم أعاد عليه الضمير فى «منازله» بمعنى المكان المعروف ، واستعمل السفح بمعنى الصب والإسالة ثم أعاد عليه الضمير فى مغناه « بمعنى المكان » .

ومن الاستخدام قول ابن الوردى :

ورب غزالة طلعت  بقلبى وهو مرعاها
نصبت لها شباكا من  لجين ثم صدناها

وقول عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ :

كذبت على شوقى وعوده  من أجل ذا احمرت خدوده
قمر ومطلعه القلو  ب وقيل مغربه صدوده
لا سهم لى من وصله  بل من لواحظه حديده

وإنك لترى أن هذا اللون لايمكن أن يأتى عفوا إلا فى القليل النادر كقول البحترى :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم  شبوه بين جوانح وقلوب

لذلك نرى إلحاقه بالتورية فى الحكم الذى أسلفناه من أنه ميل بالأدب إلى التصعيب والتكلف ، وكل ما كان هذا طريقه فهو من وسائل الانحدار والتدهور.

وأياً ما كان فقد لقيت التورية والاستخدام إقبالا عظيما من المتأخرين على مابينهما مما قدمناه ، وإنك لتدرك هذا الإقبال وذاك الرواج من صنيع

بعض العلماء ، فقد أفردوهما بمؤلفات خاصة كما فعل الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ حيث ألف فيهما كتابا دعاه « فض الختام عن التورية والاستخدام(١) » وكذلك صنع ابن حجة فأفردهما بمؤلف دعاه « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام(٢) » . وبين المخطوطات كتاب بهذا الاسم . . « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » . لصفى الدين الحلى(٣) . فترى ابن حجة يستعير اسم كتابه من صفى الدين ، ولا عجب فى ذلك فستراه فى بديعيته يسطو على بديعية صفى الدين ، وذلك يدل على مبلغ ما كان عليه الأدباء فى هذه العصور من انطباع على التقليد والمحاكاة .

وأما التضمين — فقد أغرموا به وجروا فيه شوطا بعيدا حتّى استخدموا معانى الشعر المضمن فى غير معانيها التى قيلت فيها ، وتسابقوا فى ميدانه حتّى اعتبروه تبريزا وفخرا وتغنوا بذلك فى أشعارهم ، فهذا هو مجير الدين ابن تميم يفخر بأن نصف شعره من شعر غيره حيث يقول :

أطالع كل ديوان أراه ... ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى ... فشعرى نصفه من شعر غيرى

وكذلك أولع به ابن نباتة ولوعا شديدا حتّى لاتكاد تجد قصيدة من قصائد ديوانه خالية من هذا اللون ، وكثيرا ما كان يصرف وجه البيت المضمن عن معنى قائله إلى معناه الذى يريده هو وذلك أجود أنواع التضمين كما يقول ابن رشيق (٤) فمن ذلك قوله :

أتانى علىّ البانياسى منشـــدا ... فيالك من شعر ثقيل مطول
مكر مفر مقبـــل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله :

ياتالى القول كتبا فى لواحظـــه ... السيف أصدق أنباء من الكتب

وقد حمله غرامه بالتضمين على أنه كان ينقل منظومة فى النحو

---

(١) وهو مخطوط منه نسختان بدار الكتب المصرية رقم ١٢٦ بلاغة و١٨ ش

(٢) وهو مطبوع .

(٣) ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٢٨ و٤٢٢ و٥٦٧ بلاغة.

(٤) العمدة جـ ٢ — ٨١ .

إلى الغزل أو المدح ومن ذلك قوله من قصيدة فى المديح ضمنها إعجاز « ملحة الإعراب » فى النحو للحريرى :

إن قال قولا بين الغــرائبا وقام قُس فى عكاظ خاطبا
وإن سخا أتى على ذى العدد والكيل والوزن ومذروع اليد

وقد تبارى صلاح الدين الصفدى وابن نباته فى تضمين أعجاز معلقة امرئ القيس فكتب الصلاح إلى ابن نباتة معاتبا :

فى كل يوم منك عَتَبٌ يسوءنى كجلمود صخر حطه السيل من عل

فأجابه ابن نباتة متهكما بطويلة مطلعها :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

وهذا الصبغ من أصباغ البديع إذا جاء محكما متقنا ساغ وعذب وأنبأ عن تفوق فى الإلمام بالشعر ، وإلا كان ضربا من السرقة المعيبة دالا على إفلاس الشاعر وسوء صنيعه .

وأما الاقتباس : فقد كان له حظ من الرواج أيضا على يد هؤلاء المتأخرين لايقل عن حظ التضمين ، فمن ذلك قول ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ فى أحد مطالعه :

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم أنا باخع نفسى على آثارهم

وقول محى الدين بن عبد الظاهر فى معشوقه المسمى بالنسيم :

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم ياليتـــنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

وقول شيخ شيوخ حماة :

يانظرة ماجلت لى حسن طلعتــه حتّى انقضت وأدامتنى على وجل
عاتبت إنسان عينى فى تسرعه فقال لى . خلق الإنسان من عجل

وقول ابن نباتة :

وأغيد جارت فى القلوب لحاظه وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى
أجل نظراً فى حاجبيه وطــرفه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى

وقول شهاب الدين أبى جعفر بن مالك الأندلسى الغرناطى :

لاتعاد الناس فى أوطانهم قلما يرعى غريب الوطن
وإذا ماشئت عيشا بينهم خالق الناس بخلق حسن

فقد اقتبسه من قوله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وقد شاع فى هذه العصور استخدام المصطلحات العلمية واقتباسها للشعر (١) والكتابة شيوعا قويا حتى تعدوا فى ذلك الحدود وجاوزوا الغاية التى رأيناها فى القرن الخامس على يد المعرى وغيره ، وسطرنا هناك ثورة ابن سنان الخفاجى واعتبار ذلك وضعا للألفاظ فى غير موضعها ، ألا أننا نرى فى هذه العصور من النقاد تحبيذا لهذا المسلك واستحسانا ، فقد انبرى ابن الاثير للرد على ابن سنان فيما ذهب إليه من تحريم استخدام المصطلحات العلمية فى الأدب . قال ابن الأثير(٢) : « إن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لاضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذى قصده » ثم مضى يسوق الشواهد الشعرية التى تؤازر مدعاه .

وفى الحق أن ابن سنان كان موفقا فى إنكاره هذا الصنيع من أدباء عصره فالشعر العربى شىء والعلم شىء آخر ، ولايزال الشعر رائعا خصبا يؤدى رسالته إلى الشعور كاملة غير منقوصة مادام سالكا طريقه قاصدا غايته ، أما إذا حاد وانحرف عن الجادة ومال وصدف عن الغاية فأصبح مسرحا لمصطلحات العلوم والفنون التى تستغلق إلا على أصحابها فقد ضاعت بهجته وذهبت روعته ، وسلك مسالك الحرف الجافة والصناعات الجامدة ،

---

(١) بعض العلماء يسمى ذلك اقتباسا راجع الخزانة للحموى — ٥٥٠ .

(٢) المثل السائر ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

وذلك مالا يرتضيه ناقد مهما ضعف ذوقه ، أما ترويج ابن الأثير لهذا المسلك ودعايته القوية له فذلك أثر من آثار إعجاب النقاد فى هذه العصور بهذه الرطانات التى طبعتهم بطابعها فحملتهم على الدفاع عنها ناسين أن الذوق السليم ينكر ذلك ولا يقره بل يعتبره من العوامل الهدامة للشعر والنثر ، وإلا فأى رواء أدبى يملأ نفسك من قول القاضى الفاضل :

لى عندكم دين ولكن هل له — من طالب وفؤادى المرهون
فكأننى ألف ولام فى الهوى — وكأن موعد وصلك التنوين(١)

أو قول شمس الدين بن العفيف :

وما بال برهان العذار مسلما — ويلزمه دور وفيه تسلسل
وعندى أن الشمس بالصحو آذنت — وسكرى أراه من محياك يقبل

أو قول ابن عنين « سنة ٦٣٠ » فى معزول :

فلا تغضبن إذا ما صرفت — فلا عدل فيك ولا معرفة

أو قول ابن الوردى :

وأغيد يسألنى — ما المبتدا والخبر
مثلهما لى مسرعا — فقلت أنت القمر

وما إلى ذلك مما ذاع فى الأدب العربى شعره ونثره فأعقبه الجمود والعقم وألحقه بالعلوم والفنون ، ولم يخرج على ذلك الطابع إلا النزر اليسير كما ترى فى الشاهدين الأخيرين .

وأما مراعاة النظير : فقد أكثر منه الشعراء فى هذه العصور ولا سيما حينما ينزعون إلى استخدام المصطلحات العلمية كما مرّ ، ومن مراعاة النظير قول مجير الدين بن تميم :

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغى — فى موقف ما الموت فيه (٢) بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدى — تجرى دما من تحت ظل القسطل(٣)

---

(١) أى أنهما لا يجتمعان كما لا يجتمع التنوين مع الألف واللام .
(٢) هكذا فى الخزانة – ١٦٦ ولعلها « عنه »
(٣) القناة : الرمح . القسطل : الغبار .

فقد جمع بين الأنابيب والقناة والجريان والدم والقسطل .

وقد كان لابن نباتة ولوع شديد بهذا الصبغ فمن ذلك قوله :

وكنت أخا سعدى فأصبحت عمّها فهيهات لى جد بتقبيل خالها

وكان أكثر ما يجىء هذا اللون فى شعره حينما ينزع إلى اقتباس المصطلحات العلمية كقوله :

بلواحظ يرفعن جفنا كاسرا فيثرن فى الأحشاء هماً ناصبا

فقد جمع بين الرفع والكسر والنصب وهى أمور متناسبة فى عرف النحاة .

وقوله :

وافر المكرمات منسرح اللفظ طويل الثنا مديد الثواب

جامعا بين الوافر والمنسرح والطويل والمديد مما هو متناسب فى عرف العروضيين وأما الألغاز والأحاجى – فقد كانت على حظ عظيم من الرواج والذيوع فى هذه العصور فمن ذلك قول ابن عبد الظاهر « سنة ٦٩٢ » فى شربه فى كوز الوزير :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب(١)

وقول شيخ شيوخ حماة ملغزا فى باب :

ما واقف بالمخرج يذهب طورا ويجى
لست أخاف شره مالم يكن بمرتج

وقول ابن نباته فى على :

أمولاى ما اسم جلىّ إذا تعوّض عن حرفه الأول
لك الوصف من شخصه سالما وإن قلعت عينه فهو لى

وحسبك أن تمر بخزانة الحموى ، ونفحات الأزهار للنابلسى لتقف على مبلغ رواج هذا اللون فى الأدب فى هذه العصور التى نحدثك عنها .

(١) القلب : الفؤاد والعقل وبالضم سوار المرأة . حب : زير الماء . وفى القاموس الحب : الجرة أو الضخمة منها أو الخشبات الأربع توضع عليها الجرة ذات العروتين .

هذا . وقد تعدت الألغاز نطاق الأدباء إلى نطاق السوقة والعامة ، روى ابن الطقطقى المتوفى سنة ٧٠١ (١) فى كتابه « الفخر ٥ – ١٥ » . أن عز الدين بن عبد العزيز بن جعفر النيسابورى – لمجالسته أهل الفضل ولكثرة معاشرتهم له – صار يتنبه على معان حسنة ويحل الألغاز المشكلة أسرع منهم ولم يكن له حظ من علم » ومثل هذا قال فى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أنه لمثل ذلك كان يستنبط المعانى الحسنة ويتنبه على النكت اللطيفة مع أنه كان أميا لايقرأ ولا يكتب . ومن هذا تقف على مبلغ رواج هذا الفن فى تلك العصور ، ولا يزال منه أثر فى أذهان العامة بمصر يتوارثونه جيلا عن جيل ويتساجلون إلى اليوم بما يسمونه «الفوازير» . ويعتبرونها نوعا من امتحان العقول فيزهى بعضهم لتبريزه وسبقه فى هذا الفن الذى يدفع إليه الفراغ والميل إلى البطالة وذلك داء من الأدواء المصرية المستعصية .

وأما حسن التعليل : فقد أغرم به من بين رجال هذه الطريقة وأكثر منه كثرة غامرة حتى بلغ شأوا بعيدا الشاعر المصرى ابن نباتة فمن ذلك قوله :

وما سمى الغيث الهتـــون سحابة سوى أنه من خجلْة يتسحب

وقوله :

شكراً لأقلامك اللاتى جرت لمدى فى الفضل أبقى لباغى شأوه التعبا
حلتْ،وأطربت المصغى،وحزت بها فضل السباق فسماها الورى قصبا

فإنك تراه فى البيت الثانى يعلل تسمية الأقلام قصبا بعلل خيالية ثلاث . بالحلاوة وقصب السكر حلو ، وبالإطراب والقصب المثقب مطرب ، وبالسبق بها جميع الأنداد فهى قصب السبق .

وكذلك ترى ابن نباتة مكثرا من تأكيد المدح بما يشبه الذم حتى لاتكاد تخلو قصيدة من قصائد ديوانه من هذا اللون ، فمن ذلك قوله :

ليس فيه عيب سوى أن إحسا ن يديه يستعبد الأحـــرارا

وكذلك التلميح فقد شاع فى هذه الطريقة وأولع به ابن نباتة حتى حمله حبه فيه على التكلف الممقوت كقوله :

(١) ترجمته فى إعجام الأعلام – ٢٨ .

قسما بسورة عارضيك فإنها كالنمل عند بصائر الشعراء

فإنك تراه يلمح بأسماء النمل والشعراء من سور القرآن فيبعد هذا الإبعاد الشائن حيث يثبت للعارضين سورة ، ويستعمل البصائر بدل الأبصار .

وما إلى ذلك من جناس — ولا سيما التصحيف — مما شاع فى أدب هذه الطريقة فأنت تقرأ منه الغث المرذول ، وسجع تعدوا به الكتابة الأدبية إلى العلمية حتى أصبح الترسل مغلقا على غير المتبحرين كما فعل عماد الدين الأصبهانى ، المتوفى سنة ٥٩٧ ، فإنه استخدم السجع فى كتابة التاريخ كما صنع فى كتابه « الفتح القسى » الذى أرخ فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس، فإن من بين عباراته ما لايفهم إلا بعد التأمل الطويل كقوله منه(١) : « ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا ، وبالعزم غالبا ، وللنصر مصاحبا ، ولذيل العز ساحبا ، قد أصحب ريض مناه ، وأخصب روض غناه ، وأصبح رائج الرجاء ، أرج الأرجاء ، سيب العزف ، طيب العرف ، ظاهر اليد ، قاهر الأيد ، سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملأ فأفاض الآلاء، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق، فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل ، والسماء حاظية بأقساط القساطل (٢) .... » الخ .

وما إلى ذلك مما أغرم به المؤلفون فى المشرق والأندلس فى هذه العصور فتجاوزوا الحدود وبلغوا غاية المقت والاسترذال .

وحسبك دليلا على سيطرة البديع وطغيانه على أذهان الأدباء فى هذه العصور أن البديعيات ولدت فيها، ثم نمت نموا سريعا مستحوذة على الشعر والفن عدة قرون إلى عصر النهضة الحديثة ، فكانت أصدق مثل يوضح ما صار إليه الشعر ويغنى عن سرد أمثلته وشواهده . ذلك ماسنكشف عنه فى هذا الفصل بمشيئة الله تعالى ...

---

(١) تاريخ الآداب لجرجى زيدان ج ٣ — ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) ريض : الظاهر أنه اسم مصدر أراض ويصح أن تكون ريض مناه ، ومن معانيه القوت الذى يكفيه من اللبن وكل مايؤوى إليه ويستراح لديه من أهل وقريب ومال وبيت. سيب : من ساب جرى مسرعاً . العزف : الصوت يسمع فى المفاوز ليلا . رأد الضحى : ارتفاعه . حاظية : راضية من حظى يحظى .

## الفصل الثانى

# حياة الصبغ البديعى الأدبية والعلمية فى البديعيات

عناصر البحث — الألوان البديعية ليست كلها ارتقاء للغة ولا انحطاطا —عتاد الشعراء — انطباع النقاد بطابع العصر — ما البديعيات — إقبال الناس عليها — منزلتها الأدبية والعلمية — من زعيم هذا الفن . أهو الحلى أم ابن جابر — خطأ الجمهور — خطأ الدكتور زكى مبارك — تحقيق المسألة — السليمانى زعيم هذا الفن — موضوع البديعيات — غرضها — وزنها — رويها — متى أثرت البردة — أطوار البديعيات الثلاثة — عدم خضوعها لوزن وروى وغرض واحد — تساهل الكاتبين — ما وقفت عليه من هذه البديعيات — نتيجة هذا الوقوف — بديعية السليمانى — الباعث على بديعية صفى الدين الحلى — المدح الصناعى — الخلط بين مسائل البيان والبديع — عدم الفصل بين اللفظى والمعنوى — بديعية ابن جابر — ميزتها — موقف العلماء منها — شرحها — ميزته — بديعية الموصلى — ميزتها — بديعية اليمنى — بديعية عويس — بديعية الآثارى القرشى — بديعية ابن حجة — نشأته — آثاره — الباعث عليها — منزلتها الأدبية — الخزانة — محاسنها — مساوئها — أسلوبها — تحليلها — أشهر الأنواع التى نظمت بعدها — بديعية ابن المقرئ — ميزتها — بديعية السيوطى — اختراعاته فى عقود الجمان .

(ا) التأسيس (ب) نفى الموضوع (ج) تمهيد الدليل (د) التصحيف — تفاهتها — بديعية عائشة الباعونية — شرحاها — تحقيق وفاتها — بديعية على بن دقماق . بديعية الحميدى الميمية — خروجه عن الجادة — بديعيته الكافية — بديعية عبد الرحمن الحموى النونية — بديعية الكفعمى — بديعية الزفتاوى — بديعية عبد القادر الطبرى — بديعية شهاب الدين العطار — بديعية أبى سعيد المصرى الشاذلى — بديعية عبد على الحوزى الرائية — بديعية

ابن معصوم — شرحها — بديعيتا عبدالغنى النابلسى — شرحه — نقده — طريقة التورية باسم النوع — تعقبه ابن حجة — بديعية أبى الوفاء بن عمر العرضى — بديعية قاسم البكره جى — بديعية الشيخ مصطفى البكرى — بديعية الخورى نيقولاوس فى مدح عيسى عليه السلام — بديعية السيد غلام فى البديع الهندى بديعية البربيرى البيروتى — بديعية الخزرجى — بديعية العلوى — غلبة النزعة البديعية فى عصر النهضة — محمود صفوت الساعاتى — نشأته — مكانته من النهضة — خضوعه لنزعة العصر — من مظاهر ذلك استخدامه المصطلحات — بديعيته — ميزتها الأدبية — شرحها — بديعيات الخورى ارسانيوس الثلاث فى مدح عيسى — بديعية الشيخ عبد الهادى الإبيارى — بديعية الأدهمى — بديعية عبد الحميد قدس — بديعية ابن خير الله العمرى — بديعية طاهر الجزائرى — بديعية الملتقى اللامية — بديعية تاج الدين الحنفى — بديعية مجهولة الصاحب — حظ الأدب والفن من البديعيات — غصن البان المورق — غرضه — دعوته إلى التوسع فى البديع — رسالة الشوكانى — قيمة دعوته إلى الاختراع — انطواء صفحة البديع فى هذا العصر — أسباب ذلك ودواعيه .

***

حدثناك فى الفصل السابق عما كان للبديع من رواج فى طريقة القاضى الفاضل ومن حمل لواءها من الشعراء والكتاب حتى العصر الحديث ، وعرضنا عليك صورة من أمر هذه الصناعة فى منظوم الكلام ومنثوره ، تستطيع أن تحكم على ضوئها بأن هذه الأصباغ ليست كلها ارتقاء للغة ولا انحطاطا ، وإنما يحكم على كل صبغ منها بأثره الذى يعقبه فى الأدب ، فما يجد منها مما يورث الأدب حسنا ، ويخلع عليه خلع التزيين والتجميل يعتبر من أسباب الاكتمال وعوامل النهوض .

وأما مايحدث منها استجابة لرغبة التكلف واستعانة على شغل الفراغ مما يعود عليه بالتهجين والتعقيد ويسلكه فى نظام الصناعات الحافة والحرف المهينة فهو من بواعث الانحطاط وأمارات العقم والجمود .

وقد منى الشعر العربى منذ المائة السابعة إلى العصر الحديث بفئة كل عتادها ألوان من البديع تحفظ ، فإذا حاولوا الشعر نسوا مقتضيات الصناعة ،

وسلكوا فيها مسالك التكلف ، ووجهوا كل عنايتهم إلى رص ألوان البديع تاركين ماتقتضيه صناعته من مقتضيات ينبغى أن تراعى من إبراز المعانى فى قوالب بها يصح أن يسمى النظم شعرا ، فتراهم إذا ظفروا بإخضاع البيت لصبغ أو أصباغ من ألوان البديع قنعوا به ، واعتدوه فتحا مبينا ونصرا مؤزرا ، وسواء لديهم بعد ذلك علو الشعر أو انحطاطه ، وظهور المعنى أو استغلاقه ، وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر قرونا عدة لايتزحزح ولا يميل حتى ألفه النقاد واستساغوه ، ودعوا إليه واستحلوا مذاقه وناموا عن عيوبه ، فكان ذلك مدعاة للشعراء أن يلجوا فى هذا العبث ، ويسرفوا فى هذا الهراء ، حتى جاءوا بشىء لا أجد له شبيها إلا تلك الموازين والتفاعيل التى وضعها الخليل ميزانا للشعر لايروق لفظها ، ولا يفهم معناها ، تلك هى القصائد التى اشتمل كل بيت منها على لون أو أكثر من ألوان البديع تمثيلا فقط أو مضموما إليه التزام التورية باسمه ، وهذه هى التى وقع عليها اسم البديعيات وهى التى استحوذت على الأدب والفن عدة قرون حتى أسلمتهما إلى المهانة عند ذوى الصفاء من البلغاء .

وقد حبب هذا الفن إلى كثير من الشعراء فراحوا يتنافسون فى ميدانه ظالعين ،وكلما تقدم به الزمن استسمن ورمه ، واستمرئ طعمه ، واكتسب الأنصار والأشياع الذين توفروا عليه ظانين أن التاريخ سيحمد لهم هذا الصنيع وينزلهم منازل الفاتحين المجددين .

وفى الحق أن هذه البديعيات منذ ولدت إلى أن قضت صناعة من العبث أضعفت من الشعر وهدت من قوته ، وأزرت من مكانته ، وأوردته موارد التكلف والتعمل الثقيل إذ أن البديعيين أخطأوا طريق الإجادة ، وعموا عن أبواب التجديد فجنوا على الشعر بإخضاعه لهذا العناء الذى ظنوه غناء ، وهو عبث بين وتشويه ظاهر .

وأما فى ناحيتها العلمية فإنها لم تؤد رسالتها ولم تصل إلى غايتها ، إذ أن أصحاب البديعيات — وإن أجهد جمهورهم نفسه فى حل رموزها وشرحها — قد خلطوا الغث بالسمين من ألوان هذا الفن ، وعدوا فيه مالايصح أن يكون

نوعا بديعيا ، أو ماهو جدير بأن يعد من المقبحات لامن المحسنات ، وإلى ذلك الإكثار من الألوان إلى حد الإملال ، وهكذا تمضى البديعيات من صرخة الوضع إلى أنه النزع متعثرة فى أذيال الخيبة خابطة فى دياجير الحيرة ، وقد كتب لها الإخفاق فى ناحيتها الأدبية وسطر عليها الخلط والاضطراب والتهافت فى ناحيتها العلمية .

فإذا مضينا ننشد النصوص التى تفسر لنا رجال هذا الفن ، وترشدنا إلى زعيم تلك الحلبة وقائد هذا الميدان كان أول ما يطالعنا إجماع جمهور من العلماء على أن أول من مهد هذه الطريقة وسن تلك السنة فى الشعر العربى هو صفى الدين الحلى عبد العزيز بن سرايا بن على بن أبى القاسم السنبسى الطائى المولود فى الحلة(١) سنة ٦٧٧ والمتوفى ببغداد سنة ٧٥٠ ، شاعر عصره وأنبغ المتأخرين فى جملة الصناعات اللفظية حتى بلغ فيها شأوا بعيد المدى قلما تيسر لغيره من شعراء هذه الصناعة ، وقد فاض بذلك ديوانه المطبوع الذى جعله أحد عشر بابا على حسب الأغراض التى جمعها فيه فإنك تقرأ له قوله :

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| ليت شعرى | لك علم | من سقامى | يا شفائى |
| لك | علم | من زفيرى | ونحـــولى | وضـــنائى |
| من | سقامى | ونحـــولى | داونى | إذ | أنت دائى |
| يا | شفائى | وضـــنائى | أنت دائى | ودوائى |

وهذه أبيات تقرأ طولا وعرضا فلا يتغير وضعها ، والحلى فيها سباق ، فإنى لم أعثر عليها لغيره من قبل .

وقد أسلفنا أن الحريرى سمى الجناس المصحف المحرف بالمتائيم فجاء صفى الدين وذلل هذه الطريقة إذ جاء بأربعمائة فقرة نثرا وثمانين نظما فى

(١) بلدة بين الكوفة وبغداد . وقد ترجم له الزركلى فى الأعلام وترجمته مبسوطة فى كتاب الدرر الكامنة وغيره .

عشرة أبيات . وضمن ذلك كله رسالته التى سماها « التوءمية » وقد أنشأها سنة ٧٠٠ وقال فى سبب إنشائها إنه أنشأها حين جرى بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبى الفتح بن أرتق (١) ذكر أبيات الحريرى وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظما ونثرا .قال : وكنت أوثر من قبل أن أعرفه طرفا عن واقعتنا بالعراق التى أوجبت انتزاحى ، وأعرض بطلب خدمة ببلده مدة مقامى عندهم فى إنشاء بعض الرسائل المعجزة فعندها أنشأت هذه الرسالة فى تلك الصناعة وضمنتها ذكر ذلك كله ..... وأول هذه الرسالة .

قبِّل قبل يراك ثراك        عبد عند رخاك رجاك

وذلك لون من الصناعة كما أسلفنا – مهما كلف من جهد واستنفد من وقت – مجانب لرواء الأدب وجماله ، ولا يبعث عليه إلا الغرام بالصنعة والغلو فى التكلف والولوع بحب الإغراب والشغف بالإتيان بما قد يستدعى إعجاب أهل العصر وعجبهم . ولم يقف غرام صفى الدين بالصناعة عند هذا الحد ، بل تعداه إلى تأليف كتاب دعاه باسم « الدر النفيس فى أجناس التجنيس » . اخترع فيه نوعا بناه على جعل أركان التجنيس ثلاثة فى صدر البيت وثلاثة فى عجزه ، وقد نظم منه أبياتا مطلعها (٢) :

سَلْ سلسل الريق . لِمْ لَمْ يروحرّ ظما
بل بلبل القلب لما زاده ألمـــــا

ولقد يخيل إلىّ أن سامع أمثال هذا النظم ربما توهم أنه كلام أعجمى أو أنه من عزائم السحرة ورقاهم ، وأنه من أمثال « الحلجلوتية » (٣) ونحوها .. وكان الصفى أول من خص « المقطع والموصل » بالنظم ، فمن المقطع قوله :

---

(١) هو الملك المنصور نجم الدين غازى بن قرا أرسلان بن غازى بن أرتق ملك ماردين بعد وفاة أبيه سنة ٦٩٣ حتى توفى سنة ٧١٢ .

(٢) الديوان – ٣٩٩ .

(٣) الجلجلوتية : تعويذة تقرأ كالطلاسم .

إذا زار دارى زوْرٌ ودود أودّ وأورده وردَ ودّ(١)

وذلك بيت من ثلاثة أبيات دارت كلها على هذه الأحرف تقريبا لأن الحروف التى ترسم منفصلة معدودة ، ومثال الموصل قوله :

سل متلى عطفا عسى يتعطف فلقد قسا قلبا فما يتلطف

وهذا بيت من سبعة أبيات جاءت على هذا النمط ، وقد أنشده الصاحب شمس الدين بن السدى أبيات سليم الهوى النبلى المصغرة ألفاظها التى أولها « بريق بالأبيرق فى الفجير »(٢) وذكر له أن ناظمها نظمها لصاحب الديوان علاء الدين الجوشنى ولم يمكنه نظم بيت واحد مديحا إذ شأن المدح التعظيم فنظم صفى الدين قصيدة كل ألفاظها مصغرة ومطلعها »(٣) :

نُقَيط من مُسَيْك فى وُرَيْد خويلُك أووسَيْم فى خُدَيْد

ومعناه نقط من مسك فى ورد خالك هذا أووسم فى خد . وهى طويلة وكلها على هذا النمط ، ولئن لم يستطع سليم أن يأتى ببيت واحد مدحا لقد استطاع الحلى أن يأتى بجميع أبياتها مدحا إذ تراه فيها يحتال للمدح احتيالا عجيبا حيث لم يذكر صفات الممدوح ، وإنما يذكر عطفه عليه ، ويصغر نفسه ، ويعرض لوصف حساده ويحقرهم ،فكان هذا التصغير مضمنا معنى التعظيم ، وبذلك يتم له ما أراد . وقد تابعه على هذا المتأخرون وأطلقوا على هذه القصائد اسم « المصغرة » ومنها قصيدة لابن حجة الحموى(٤) :

وهكذا ممـــا ترى تفصيله قارا فى مواطنه من ديوانه ناطقا بنبوغ الحلى فى هذه الصناعة وإن كانت فى جملتها ثقيلة على المسمع تمثل التكلف ورداءة النسج ، ولا يفوتك أن ترى إلى جانبها قصائد جيادا تنم عن روعة الشعر ورواثه ، بها استحق الحلى أن يكون شاعر عصره وأن يعد خاتمة المجيدين فيه .

---

(١) الزور : الزائر والزائرون .

(٢) الأبيرق : تصغير الأبرق وهو غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة . جمعه أبارق أو كل شىء اجتمع فيه سواد وبياض .

(٣) دائرة معارف وجدى جـ ٥ ص ٥٢٥ – ٥٢٦ .

(٤) الخزانة – ١٩٧ .

فليس بكثير على الحلى إذن أن يكون سباقا إلى فن جديد هو فن البديعيات الذى أحدثه فى الشعر العربى وساعده على إبرازه بردة البوصيرى التى حاكى وزنها ورويها وغرضها وأربى عليها فى الاحتفال بالبديع بأن جعل كل بيت من بديعيته مثالا لنوع أو أكثر من البديع بحسب انسجام القريحة فى النظم كما يقول هو ، وقد صرح بسبق الحلى إلى هذا الفن الجديد جمهرة من شارحى البديعيات ومؤرخى الأدب كما تقرأ ذلك صريحا فى مقدمة « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار » . للنابلسى ، وقد درج على هذا الرأى صاحب « تاريخ الآداب العربية منذ نشأتها إلى أيامنا(١) » ، وصاحب الوسيط (٢) ، وأصحاب المفصل (٣) ، وكما يؤخذ تلويحا من صنيع « كشف الظنون » إذ قال(٤) : « ومنها بديعيات الأدباء وهى قصائد مع شروحها » وكانت أول بديعية عدها هى « بديعية الشيخ الأديب صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ سماها « الكافية البديعية » ثم شرحها شرحا حسنا » . ولكن الدكتور زكى مبارك فى كتابه المدائح النبوية فتح فتحا جديداً فى زعامة المدرسة إذ اهتدى إلى أن البديعيات فن متفرع عن المدائح النبوية التى يرجع عهدها إلى الصدر الأول ، وإلى أن أول من استولى على أمد السبق فيها هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠ إذ قال عنه(٥) « وقد شغل ابن جابر نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أى معارضة ؟. لقد ابتكر فنا جديداً هو البديعيات .... »

فترى الدكتور يجزم واثقا بأسبقية ابن جابر إلى هذا الفن الجديد غير مبال بهذا الفارق الكبير بين سنى وفاة هذين الشاعرين إذ كان بينهما ثلاثون عاما ، وذلك الزمن كان كفيلا بأن يلفت نظر الدكتور إلى أن جزمه بهذا الرأى إسراف لم يقع موقعه على ما فيه من مخالفة صريحة لما سطره العلماء الذين عاشوا فى عصر ابن جابر فقد قال ابن حجر (٦) فى شأن ابن جابر » : ونظم الحلة

(١) ص ٥٢٥ .
(٢) ص ٣١٣ .
(٣) ج ٢–٢٠١ .
(٤) ج ١–١٨٩ .
(٥) المدائح النبوية – ١٦٩ .
(٦) « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » فى ترجمة محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى .

السيرا فى مدح خير الورى على قافية الميم وهى بديعية على طريقة الصفى الحلى وشرحها صاحبه أبوجعفر » . وهذا القول صريح بأسبقية الحلى على ابن جابر إلى هذا الفن كما ترى ، ولكن الدكتور أراد أن يكون صاحب رأى جديد يخرق به هذا الإجماع الذى رأيته فكان حظه مارأيت وما ترى .

إذ قد فات الدكتور كما فات الجمهور أن التحقيق فى هذه المسألة على خلاف ما قرروه جميعا فليس ابن جابر كما ذهب الدكتور ، وليس صفى الدين الحلى كما جزم الجمهور بأول سابق إلى هذا الفن بل كلاهما مسبوق بشاعر مصرى عرف به الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ فى كتابه فوات الوفيات (١) ذلك هو على بن عثمان بن على بن سليمان أمين الدين السليمانى الأربلى (٢) الصوفى الشاعر ، كان من أعيان شعراء الناصر بن عبد العزيز ، وكان جنديا فتصوف وصار فقيراً ، وتوفى بالفيوم وهو فى معترك المنايا سنة ٦٧٠ ومن شعره قصيدة فى كل بيت نوع من البديع وهى :

بعض هذا الدلال والإدلال حالى الهجر والتجنب حالى
« الجناس اللفظى »

حرت إذ حزت ربع قلبي وإدلا لى صبرا كثرت من إذلالى
« الجناس الخطى »

رق يا قاسى الفؤاد لأجفا ن قصار أسرى ليال طوال
« الطباق »

وهكذا يرويها ابن شاكر الكتبي حتى ينتهى منها فى ستة وثلاثين بيتا قد اشتمل كل بيت منها كما رأيت على مثال لنوع من أنواع البديع كتب إلى جانب البيت ، وقد بدأها بالغزل ثم خلص منه إلى مدح شخص لم يسمه ابن شاكر ، وغالب الظن عندى أن يكون اسمه عليا بدليل هذا البيت :

كملت وصـــــفها بمـدح على
فى علىّ ربّ الحجا والكمال « التوشيح »

---

(١) ج ٢ – ٥٧ .    (٢) أصله من أربل وإليها نسب كما فى أعلام الزركلى .

فها أنت ذا ترى أن أمين الدين السليمانى هو صاحب المحاولة الأولى فى هذا الفن الجديد وأن هذا الفن منذ نشأته فى الشعر العربى كان وليد التكلف ، رضيع التعسف ، لأنه خروج بالشعر عن آفاقه ونزول به عن درجاته ، كما أنك رأيت أن الدكتور «زكى مبارك» مسرف فى دعواه حينما زعم أن البديعيات متفرعة عن المدائح النبوية فقد رأيت أن موضوع قصيدة السليمانى مدح غير نبوى ، وقد كنت وقفت على أسبقية السليمانى لهذا الفن منذ أخذت فى مراجعة المصادر التى أستنير بها فى هذا البحث ، فاعتبرت ذلك فى حينه ظفرا لم يسبقنى إليه سابق ثم وقفت فى أثناء تنقيبى عن البديعيات على «أنوار الربيع فى أنواع البديع» . وهو شرح لابن معصوم المتوفى سنة ١٩٢٠ على بديعيته فوجدته فريدا فى خروجه على هذا الإجماع حيث صرح بما طمأننى على سداد هذا الرأى قال فى مقدمة شرحه المذكور «كنت أظن أن أول من نظم أنواع البديع على هذا الأسلوب البديع فضمن كل بيت نوعا وانقاد له شموس هذا المرام طوعا هو الشيخ صفى الدين الحلى رحمه الله تعالى حتى وقفت فى فى ترجمة الشيخ على بن عثمان بن على بن سليمان أمين الدين السليمانى الأربلى الصوفى الشاعر على قصيدة لامية نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمن كل بيت منها نوعا منه أولها الجناس التام .... فعلمت أن الشيخ صفى الدين لم يكن أبا عذر هذا المرام ، ولا أول من نظم جواهر هذه العقود فى نظام ، فإن الشيخ المذكور توفى قبل أن يولد الشيخ صفى الدين بسبع سنين وذلك أن وفاة الشيخ أمين الدين سنة ٦٧٠ وولادة الشيخ صفى الدين فى سنة ٦٧٧ ، وأما نظم أنواع البديع على هذا الوزن والروى الذى نظم عليه الشيخ صفى الدين فلا أتحقق أيضا أن الشيخ صفى الدين هو أول من نظم عليه ، فإنه كان معاصراً للشيخ أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن على الهوارى المعروف بشمس الدين بن جابر الأندلسى الأعمى صاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان ، ولا أعلم من السابق منهما إلى نظم بديعيته على هذا الأسلوب ، وإن كان الشيخ صفى الدين قد حاز قصبات السبق فى مضمار براعة هذا المطلوب . فابن جابر لم يستوف الأنواع التى نظمها الشيخ صفى الدين بل أخل بنحو سبعين نوعا من الأنواع ، وكلاهما لم يلتزم التورية

باسم النوع البديعى ، وأول من التزم ذلك الشيخ عز الدين الموصلى ، ثم تلاه الشيخ تقى الدين أبو بكر على بن عبد الله الحموى المعروف بابن حجة والتزم ما التزم الشيخ عز الدين الموصلى وزاد عليه فى أكثر الأبيات بحسن النظم والانسجام، إلا أن لذلك فضل المتقدم على المتأخر والمبتدع على المتبع ، وقل من التزم بعدهما هذا الالتزام ، وما ذلك إلا لصعوبة هذا المرام » .

ولعل ابن معصوم لم يطلع على ما أسلفناه عن ابن حجر من أسبقية الحلى على ابن جابر فى هذا المضمار حتى يجزم بهذا الرأى كما جزمت .

وإذن فللبديعيات أطوار ثلاثة . أما الأول . فهو طور الاختراع وقدكان ذلك على يد السليمانى المتوفى سنة ٦٧٠ فى قصيدته البديعية التى نظمها على بحر الخفيف فى المدح وعلى روى اللام ، وأما الثانى فقدكان على يد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فقد نظم بديعيته على بحر البسيط وعلى روى الميم المكسورة وفى مدح النبى صلى الله عليه وسلم جاعلا كل بيت منها مثالا لنوع من البديع أوأكثر ، وفى هذا الطور يظهر أثر بردة البوصيرى فى الوزن والروى والغرض ، وأما الطور الثالث .فقد كان على يد عز الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩ فقد حاكى الصفى فيما صنع وأربى عليه بالتزام التورية باسم النوع البديعى ، فذهب بهذا الفن إلى أبعد غايات التكلف والثقل حتى لم يستطع مجاراته إلا القليل من أصحاب البديعيات ، وكل من جاء بعد هؤلاء الزعماء الثلاثة فهو حاذ حذوهم سالك سبيلهم ليس له فضل إلا فى بعض أنواع استدركها وجلها تافه لا يؤهل صاحبه لأن يكون لاحقا بهذه الطليعة مسلوكا فى نظامها .

وقبل الخوض فى هذه البديعيات يجدر بى أن أسارع إلى التنبيه على أن أصحاب البديعيات لم يكونوا كلهم مسلمين ، بل كان منهم مسلمون ومنهم مسيحيون ، فالمسلمون لم يكونوا سواء فى الغرض ، والوزن ، أو الروى، فمنهم من نظم بديعيته على الخفيف وعلى روى اللام وفى غير المديح النبوى كما رأيت عند مخترعها الأول السليمانى وكما سترى عند غيره ممن لم يلتزموا المديح النبوى، ومنهم من نظم على بحر البسيط وعلى روى الميم المكسورة . وفى

المديح النبوى كما رأيت عند صفى الدين ومن شايعه ، ومنهم من نظم على البسيط وعلى روى الكاف أو النون أو الراء كما سيمر بك ذلك فى موضعه ، وأما المسيحيون فقد كان غرضهم مدح عيسى عليه السلام والرسل الأطهار على بحر البسيط وعلى روى الميم المكسورة ، أو بحر الكامل وعلى روى الميم كما ستقف على ذلك .

ولعل من غريب مانبنه عليه أن بديعية من هذه البديعيات كانت فى البديع الهندى لا العربى . ومن هنا يستبين لك مبلغ التساهل وعدم التحقيق الذى تراه فى كتب المؤلفين إذ يقولون : « البديعيات قصائد من بحر البسيط فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم (١) » أو يقولون « وكل هذه البديعيات من بحر البسيط وعلى روى الميم » وكلها فى مدح النبى ومدح أصحابه(٢) » . « فالبديعيات كما رأيت لم تخضع لغرض واحد ووزن واحد وروى واحد .

وقد أحصيت من هذه البديعيات أربعا وأربعين بديعية منها ماهو مشروح ومنها ماهو مجرد ومنها ماهو مطبوع ومنها ماهو مخطوط ، ومنها ما هو بمصر ومنها ماهو بغيرها ومنها ماهو معروف الصاحب ، ومنها ماهو مجهول ، وقد اطلعت على جمهرة منها سمحت بها هذه « الظروف » القاسية التى قضت على مثل هذه المؤلفات بأن تكون حبيسة الكهوف والمغارات ، فوقفت على أن من جاءوا بعد الرعيل الأول كلهم سارقون أومقلدون وقليل منهم من يحكم السرقة أو يجيد المحاكاة ، لذلك لم أشعر بأسف حينما كنت أفتقد بديعية من هذه البديعيات فلا أجدها فما منها إلا كما أسلفت .

وهاك تعريفا موجزاً بهذه البديعيات التى أحصيتها مرتبا ترتيب وفيات أصحابها وسنخرج على هذا الإيجاز عند الحديث على بديعية ابن حجة الحموى فسنختصها بالتحليل لشهرتها وتمثيلها لعصر من عصور الأدب.

( ١ ) بديعية أمين الدين السليمانى المتوفى سنة ٦٧٠ نظمها فى ستة وثلاثين بيتا من بحر الخفيف وعلى روى اللام المكسورة فى غير المديح النبوى وقد سلف الحديث عنها .

---

(١) المفصل ج ٢ — ٢٠٠ .

(٢) تعليق على دائرة المعارف الإسلامية للأستاذ عبد الوهاب حمودة .

(٢) بديعية صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ : وقد شرحها شرحا موجزاً واقعا فى ثلاث وسبعين صفحة من القطع المتوسط (١) . قال عنه النابلسى (٢) : «وقد شرحها شرحا لطيفا لم يوف بالمقاصد ولا أبان عما فى النوع من الخبايا بل ترك ذلك مهملا بل ربما لم يصب فى بعض الأنواع » . وقد بدأ الصفى شرحه بمقدمة عرض فيها لمن ألفوا فى البديع منذ مخترعه الأول ابن المعتز إلى ابن أبى الإصبع ، وقد أشار إلى أن بديعيته كانت نتيجة سبعين كتابا قال : « وذكر ابن أبى الأصبع أنه لم يؤلف كتابه «تحرير التحبير» إلا بعد الوقوف على أربعين كتابا فى هذا العلم أوبعضه ، وعدها فى صدر كتابه فأنهيت الكتاب مطالعة ، وطالعت مما لم يقف عليه مما كان قبله وما ألف بعده ثلاثين كتابا ، وسأذكر تفصيل الجملتين بعد انتهاء الشرح إن شاء الله تعالى ، فجمعت ما وجدت فى كتب العلماء ، وأضفت إليه أنواعا استخرجتها من أشعار القدماء ، وعزمت أن أؤلف كتابا محيطا بجملها ، إذ لاسبيل إلى الإحاطة بكلها ، فعرضت لى علة طالت مدتها ، وامتدت شدتها ، واتفق أنى رأيت فى المنام رسالة من النبى عليه السلام تتقاضانى المدح (٣) وتدنى البرء من الأسقام ، فعدلت عن الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع شتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتا من بحر البسيط تشتمل على مائة وخمسين نوعا من محاسنه ، ومن عد جملة أصناف التجنيس بنوع واحد كانت عنده العدة مائة وأربعين نوعا ، فإن فى السبعة الأبيات الأوائل منها اثنى عشر صنفا منه ، وجعلت كل بيت منها شاهداً ومثالا لذلك النوع ، وربما اتفق فى البيت الواحد منها النوعان والثلاثة بحسب انسجام القريحة والمعتمد على ما أسس عليه البيت ، ثم أخليتها من الأنواع التى اخترعتها واقتصرت على نظم الجملة التى جمعتها ، لأسلم من شقاق جاهل حاسد ، أو عالم معاند ، فمن شاق راجعته إلى النقل ، ومن وافق وكلته إلى شاهد العقل ، وألزمت نفسى فى نظمها عدم التكلف ، وترك التعسف والجرى

---

(١) وطبعت بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٦ .

(٢) نفحات الأزهار ٣٠ .

(٣) وما أقرب الشبه بين هذا الباعث وباعث البردة .

على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته ، وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطلع والمنزع ، وحسن الطلب والمقطع ، وتمكن قوافيها ، وظهور القوى وعدم الحشو فيها ، بحيث يحسبها السامع غفلا من الصنائع ..... فإنها نتيجة سبعين كتابا لم أعد منها بابا فاشتغل بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المقلقلة .

ودع كل صوت غير صوتى فإننى أنا الطائر المحكى والآخر الصدا

وعلى رغم اعتداد الحلى بصنيعه هذا وإسرافه فى إطراء نفسه وإعلانه عن رقة ألفاظها وقوة معانيها قد جاءت بديعيته آخذة بأسباب التكلف ماضية فى الإبعاد عن طريق الشعر الذى ينبغى أن يصفى من هذه الشوائب ، واقرأ هذه الأبيات من أولها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
واقر السلام على عرب بذى سلم
( براعة المطلع والتجنيس المركب والمطلق )

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم
لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمى
( تجنيس التلفيق )

أبيت والدمع هام هائم سرب
والجسم فى أضم لحما على وضم(١)
( التجنيس المذيل واللاحق )

فإنك تقف على صدق ما نقول .

ومهما حدثنا الصفى أوغيره بأن الباعث على بديعيته هو مدح النبى صلى الله عليه وسلم فينبغى أن نتلقى مثل هذا بكثير من الاحتراس ، لأنه فى شرحه لم يعرض لموقف من مواقف النبوة أو يشرح مشهداً من مشاهد الرسالة ، وعلى هذا درج شراح البديعيات إلا نزرا يسيراً لا ينقض هذا الحكم العام .

(١) أضم : جبل والوادى الذى فيه المدينة النبوية . الوضم : ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير .

والذى نستطيع قوله مطمئنين إليه ، أن الحافز الأول على هذه البديعيات إنما هو الصنعة البديعية ، أما المدح النبوى فقد دعت إليه معارضة البردة فى غرضها . لذلك تراه مدحا صناعيا لاروح فيه ولاقوة يبدأ بأول لون من ألوان البديع وينتهى بانتهاء آخرها ، والصفى فى شرحه لم يشر إلى اسم بديعيته ولم يسمها باسم « الكافية البديعية » كما قال فى كشف الظنون ، وقد عنون شرحه ، فى فهرس دار الكتب المصرية باسم « النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية » . والنسخة المطبوعة التى تحت يدى الآن ليست بمعنونة بهذا العنوان ولعل ذلك على ظهر نسخة مخطوطة .

هذا وقد خالف الصفى مصطلح السكاكى حيث لم يفصل المباحث التى أطلق عليها علم البيان من تشبيه ومجاز وكناية كما فعل ، بل خلطها جميعا تحت عنوان البديع وعلى هذا درج أصحاب البديعيات من بعده ماعدا ابن جابر .

كما أنه لم يفصل بين اللفظى والمعنوى كما صنع السكاكى والقزوينى ، وعلى هذا درج أصحاب البديعيات من بعده ، ولم يخرق هذا الإجماع سوى ابن جابر الأندلسى كما سيأتى فى الحديث عنه .

وقد رزقت بديعية الصفى حظا واسعا من الشهرة ، فكانت منارا اهتدى به من جاء بعده من أصحاب البديعيات ، كما شرحها الشيخ عبد الغنى الرافعى ، الطرابلسى شرحا سماه « الجوهر السنى فى شرح بديعية الصفى (١) » .

(٣) بديعية ابن جابر الأندلسى : وقد عاصر الصفى تقريبا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى الهوارى المالكى الأعمى المولود بالمرية سنة ٦٩٨ ، فلما شب قرأ القرآن والنحو على محمد بن سعيد الرندى ، والحديث على أبى عبد الله الزواوى ثم رحل إلى الديار المصرية وصحبه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى فكان ابن جابر ينظم والغرناطى يكتب ثم نبغ الغرناطى فى النظم أيضا لكن المكثر هو ابن جابر ونظم « الحلة السيرا(٢) فى مدح خير الورى » على قافية الميم ، وهى بديعية على طريقة الصفى الحلى ،

(١) ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم – ٤٨٣٩ بلاغة .

(٢) السيراء : نوع من البرود فيه خطوط صفر أو يخالطه حرير .

وشرحها صاحبه أبو جعفر ثم حجا ورجعا إلى الشام فأقاما بدمشق قليلا ثم تحولا إلى حلب ، ثم سكنا ألبيرة فاستمرا بها نحواً من خمسين سنة ، ثم فى الآخر تزوج ابن جابر فتهاجرا ذكر لى ذلك صاحبهما الشيخ برهان الدين سبط ابن العجمى (١) .

وقد كان ابن جابر شاعراً يميل إلى الصنعة قال المقرى(٢) : «ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التى فى التورية بسور القرآن ومدح النبى صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهى من غرر القصائد ...... وهى :

فى كل فاتحة للقول معتبره — حق الثناء على المبعوث بالبقرة
فى آل عمران قد ما شاع مبعثه — رجالهم والنساء استوضحوا خبره
من مدّ للناس من نعماه مائدة — عمت فليست على الأنعام مقتصرة

وهى طويلة استوعبت التورية بسور القرآن على نحو ما سمعت .

وروى له المقرى هذين البيتين (٣) :

جعلت ملاك العين والقلب فى الهوى — بناطقه القرطين صامتة القلب
يصحف لى ألحاظها لين قدها — وتقلبه كيما تصيد به قلبى

ثم قال : قال بعض علماء المشرق . أجاد والله هذا العالم المغربى المقال ، وأراد أن لفظ ( لين ) إذا قلب صار ( نَيلا ) وإذا صحف صار ( نبْلاً ) وقد استوعب المقرى جميع أخباره ، وروى له جملة من أشعاره ، ثم قال(٤) : وإنما أطنبت لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين فى عدم توفيته فى حق المذكور وحق رفيقه مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضا فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب لكونهما رحلا عنه قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خبرهما فى الشرق أشهر » .

---

(١) الدرر الكامنة . وقد ترجم له كذلك . لسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة و الصفدى فى نكت الهميان – ٢٤٥ – والسيوطى فى بغية الوعاة ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٤ – ٣٧٣ وقد ترجم لصاحبه الذى شرح بديعيته الأخيران .

(٢) نفح الطيب ج ٤–٣٨٥ .

(٣) نفح الطيب ج ٤–٣٩٩ .

(٤) نفح الطيب ج ٤–٤٠٩ .

فابن جابر أندلسى فى نشأته وثقافته الأوليين ، ولكنه مشرقى فى شهرته وآثاره الكثيرة التى من أشهرها بديعيته التى سماها « الحلة السيرا فى مدح خير الورى » .

وعرض فيها لألوان البديع التى ذكرها الخطيب القزوينى فى كتابيه التلخيص والإيضاح ولهذه البديعية ميزتان ظاهرتان بين البديعيات . أما الأولى . فإن ابن جابر قد فصل فى بديعيته بين ألوان البديع اللفظية والمعنوية ولم يخلط بينهما كما صنع أصحاب البديعيات جميعا ، وأما الثانية فهى اقتصاره على أبواب البديع التى ذكرها الخطيب وتنحية المسائل التى عرفت عنده ، وعند السكاكى باسم » علم البيان » عن بديعيته وقد وقعت هذه البديعية فى مائة وسبعة وعشرين بيتا . ومن أولها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ... وانثر له المدح وانشر أطيب الكلم

( براعة الاستهلال )

وابذل دموعك واعذل كل مصطبر ... والحق بمن سار والحظ ما على القلم

( الجناس اللاحق )

وهكذا يمضى فيها ابن جابر فى نظم أدنى إلى الشعر وإن كانت فيه لوثة الصنعة وتراه فيها يعنون كل نوع من الأنواع دون أن يشير إليه إلا بالمثال على نحو ماصنع الحلى .

وقد عابه ابن حجة الحموى على براعة استهلاله قال(١) : « فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بغرض الناظم وقصده ، بل أطلق التصريح ونثر المدح ، ونشر طيب الكلم ، فإن قال قائل . إنها براعة استهلال . قلت : إن البديعية لابد لها من براعة وحسن تخلص وحسن ختام ، فإذا كان مطلع القصيدة مبنيا على تصريح المدح لم يبق لحسن التخلص محل ولاموضع ..... ونظم هذه القصيدة سافل بالنسبة إلى طريق الجماعة ،غير أن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبا جعفر الأندلسى شرحها شرحا مفيداً » .

---

(١) طيبة : مدينة الرسول عليه السلام كطاب ، والطيبة والمطيبة .

(٢) الخزانة – ١٤ .

والنقد الأول فني لا طريق إلى رده ، وأما رميه لها بالسفالة فإنه إسراف من ابن حجة فى جانب ابن‌جابر كما أسرف فى‌حق غيره ليصل إلى مايريده من إعلاء شأن بديعيته وأنها تضم من أبكار الأفكار وغوالى المعانى ما لم يتح للذين سبقوه فى حين أن لهم عليه سابقة الفضل . وقد أطرى هذه البديعية العلامة جلال الدين السيوطى قال(١)« ونظمها عال ولكنه أخل فيها بذكر لأنواع من البديع كثيرة جدا »(٢) .

وقد شرح بديعية ابن جابر رفيقه أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى الأندلسى الغرناطى الذى كان من حاله ما سلف فى ترجمة رفيقه وكان مقتدراً على النظم والنثر عارفا بالبديع وفنونه دينا حسن الخلق حلو المحاضرة ثم توفى سنة ٧٧٩ (٣) .

وهذا الشرح جيد كثير الفوائد وقد سماه « طراز الحلة وشفاء الغلة(٤) »

أما الباعث على هذا الشرح فحسبنا مايحدثنا به أبوجعفر يقول « إنه‌لما‌كانت القصيدة المنظومة فى علم البديع المسماة « بالحلة السيرا فى مدح خير الورى » التى أنشأها صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين أبوعبد الله محمد بن جابر الأندلسى نادرة فى فنها ، فريدة فى حسنها ، يجتنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الإجادة من مزنها ، لم ينسج على منوالها ، ولاسمحت قريحة بمثالها ، رأيت أن‌أضع لها شرحا يجلو عرائس معانيها لمعانيها ، ويبدى غرائب ما فيها لموافيها ، لا أمل الناظر فيه بالتطويل ولا أعوقه بكثرة الاختصار عن مدارك التحصيل فخير الأمور أوسطها ...... » .

---

(١) بغية الوعاة — ١٤ .

(٢) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا « ونظمها عال لكنه أدخل فيها ذكر أنواع من البديع كثيرة جداً » وصوابها ما سطرناه نقلا عن نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية . لأن ابن جابر لم يزد فى بديعيته على ما ذكره الخطيب ولكنه أهمل فيها نظم عدة أنواع نظمها من قبله صفى‌الدين الحلى . ولعل ابن حجة يرمى إلى هذا فيتلاقى مع السيوطى .

(٣) بغية الوعاة — ١٤ .

(٤) من نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم — ٦٣ خصوصية بلاغة .

ثم قدم بين يدى غرضه مسائل خمسا :

الأولى فى البديع لغة واصطلاحا ، والثانية فى الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، والثالثة فى مكان البديع من أخويه المعانى والبيان وأنه منهما بمنزلة المركب من المفرد ، والرابعة فى تقسيم البديع إلى لفظى ومعنوى ، وقد اختار صنيع صاحب الإيضاح وعرض لغيره ولم يرتضه ، والخامسة فى بيان أن البديع أحد علوم الأدب الستة ، وهى اللغة ، والتصريف وعلم العربية والمعانى والبيان والبديع ، ثم خلص من ذلك قال : ولما سمى الناظم قصيدته : « بالحلة السيرا فى مدح سيد الورى » ناسب أن يسمى هذا الشرح « بطراز الحلة وشفاء الغلة » لأنه طرز تلك الحلة ، ثم نبه على أن الناظم تبع فى هذه القصيدة جلال الدين القزوينى فى كتابيه التلخيص والإيضاح ، فذكر من ألقاب البديع ما ذكره إلا أن المصنف بدأ بالقسم الذى يتعلق باللفظ وأخر القسم الذى يتعلق بالمعنى ، وهو فى هذا الترتيب موافق لصاحب « المصباح » وهو ترتيب حسن لأن اللفظ وسيلة إلى المعنى وحق الوسيلة أن تكون متقدمة ، وأيضا فإن مايتعلق بالمعنى لا يكون إلا بعد التركيب بخلاف مايتعلق باللفظ ، وحال الإفراد مقدم على حال التركيب ، واختص الجناس منها بأربعة وثلاثين بيتا ، وقسمه إلى أقسامه السبعة من لاحق ومضارع ، وناقص وتام ، ومحرف ومقلوب ، وملحق بالجناس ، وكل نوع منها محتو على أقسام انتهت جملتها إلى ستين قسما .

ثم مضى أبو جعفر يشرح القصيدة دارجا على عرض البيت أولا ثم تبيين مفرداته اللغوية . ثم التنبيه على موضع الشاهد منه ، ثم إزجاء الشواهد للنوع من شعر الشعراء ونثر الناثرين .

وفى بعض الأحايين يسوق شواهد من شعره وشعر صاحبه ، ثم يعرض لما فيه من السيرة النبوية وهذه ميزة هذا الشرح على شروح البديعيات (١) .

---

(١) هذه النسخة التى اطلعت عليها فى مكتبة الأزهر منسوخة بخط عبده فتح الباب وقد فرغ منها يوم الاثنين ٢٨ خلت من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هجرية وقد وقعت فى ٢٧٤ ورقة من القطع المتوسط ، ويوجد بدار الكتب المصرية ثلاث نسخ منه مخطوطة تحت الأرقام ٢٥٧ و٢٥٨ ، و ٢٨٢ بلاغة .

هذا . ويوجد فى دار الكتب المصرية شرح مختصر جدا لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن على بن جابر على بديعيته المذكورة بخط محمد بن ابراهيم البشتكى المتوفى سنة ٨٣٠ ، وعليه خط الحافظ ابن حجر ومع هذا الشرح آخر على البديعية المذكورة منتقى من شرح أبى جعفر بخط البدر البشتكى أيضا وعليه خط الحافظ ابن حجر(١) .

(٤) وفى المائة الثامنة للهجرة كذلك عاش عز الدين الموصلى (٢) . على بن الحسين بن على كان شاعرا من أهل الموصل وأقام مدة فى حلب وسكن دمشق إلى أن مات بها سنة ٧٨٩ مخلفا ديوانا من الشعر ، وبديعية عدد أبياتها خمسة وأربعون ومائة بيت مطلعها :

براعة تستهل الدمع فى العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد أطرى هذا المطلع عبد الغنى النابلسى إطراء مسرفا (٣) .

وإذا كان صفى الدين الحلى أول من التزم النظم على بحر البسيط وعلى روى الميم المكسورة وفى المديح النبوى مجاريا بردة البوصيرى فى كل أولئك مربيا عليها بجعل كل بيت منها مثالا لنوع من البديع أو أكثر ، فقد وطئ عقبه فى ذلك عز الدين الموصلى مربيا عليه . إذ كان أول من شرع للبديعيات شرعة التقيد بالتزام التورية باسم النوع البديعى فزادها ذلك الالتزام ثقلا إلى ثقلها وتكلفا إلى تكلفها ، قال ابن حجة عن الحلى والموصلى(٤) : « وبديعية صفى الدين غزلها لاينكر غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى مورى به من جنس الغزل ، ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة . وأما الشيخ عز الدين الموصلى فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتا » . وقال النابلسى :(٥) « ثم جاء بعد صفى الدين الشيخ عز الدين الموصلى رحمه الله تعالى فعارضه بقصيدة على منوال قصيدته ، وذكر من الأنواع

(١) والشرحان معاً فى نسخة تحت رقم – ٢٦٢ أدب .
(٢) نقل ترجمته الزركلى فى الأعلام عن السحب الوابلة المخطوطة .
(٣) نفحات الأزهار – ١٢ .
(٤) الخزانة – ١٦ .
(٥) نفحات الأزهار – ٣ .

ما ذكره ، وزاد عليه بعض شيء يسير من اختراعاته معجبا بذكر النوع البديعي في ألفاظ البيت موريا به لئلا يحتاج إلى تعريف النوع من خارج النظم ، ولكنه تعسف وتكلف في غالب أبياته ، وهجر مضجع الرقة والانسجام ، ثم شرحها شرحا بين فيه مقصده ومراده مع الاختصار ، ولم يشف غلة الأفكار » .

وقال ابن معصوم(١) : « وأول من التزم التورية باسم النوع البديعي عز الدين الموصلي » . وقد طبعت بديعيته وحدها ، وأما شرحها فلا يزال قارا بين المخطوطات (٢) وقد سماه « التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع » .

(٥) ثم بديعية وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد اليمني المتوفى سنة ٨٠٠ وقد شرحها شرحا وافيا (٣) .

(٦) وأخرى لشرف الدين عيسى بن حجاج بن عيسى بن شداد السعدي القاهري الملقب بعويس العاليه .

كان شاعرا ذا شهرة بمعرفة الشطرنج ، ولد بالقاهرة سنة ٧٣٠ وتوفي بها سنة ٨٠٧ هـ مخلفا ديوان شعر (٤) . وقد نسب إليه في كشف الظنون بديعية ولم يزد على ذلك .

(٧) وغير هذه لزين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري القرشي اليمني ، كان أديبا محدثا من أهل الموصل سكن مصر إلى أن توفي بها سنة ٨٢٨ مخلفا آثارا منها ألفية في النحو ، ولسان العرب في علوم الأدب ، وشرح ألفية ابن مالك في ثلاثة أجزاء ، وديوان شعر ، وبديعية سماها « عين البديع في مدح الشفيع » وأولها .

دع عنك سلعا وسل عن ساكن الحرم ....

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع .

(٢) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة مخطوطة رقم ٦٠٧ بلاغة .

(٣) هكذا جاء في كشف الظنون جـ ١ — ١٨٩ .

(٤) الأعلام للزركلي نقلا عن السحب الوابلة .

وقد سلك فيها طريق الحلى فلم يلتزم التورية باسم النوع (١) .

(٨) وفى أواخر المائة الثامنة وأوائل التاسعة عاش علم من أعلام البديعيات ، واستحوذت بديعيته من بينها على مكانة ممتازة فى قلوب الناس ، ورزقت من الشهرة وبعد الصيت ما لم ترزقه بديعية أخرى ، ذلك هو أبو المحاسن تقى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله بن حجة الحموى المولود بحماه سنة ٧٧٧ « وبها نشأ وحفظ القرآن ، وطلب العلم ، وعانى عمل الحرير ، يعقد الأزرار وينظم الأزجال ، ثم مال إلى الأدب ونثر ونظم ، ثم سافر إلى دمشق ، ومدح أعيانها واتصل بخدمة نائبها الأمير شيخ المحمودى ، ثم قدم إلى القاهرة ، وسئل الحافظ ابن حجر من شاعر العصر . فقال : الشيخ تقى الدين بن حجة ونظم بديعيته المشهورة على طريقة شيخه عز الدين الموصلى ، وشرحها شرحا حافلا عديم النظير ، ولما توفى الملك المؤيد شيخ استباح الشعراء حريمه فهجوه ، ولا زالوا به يوجعونه حتى خرج من مصر قاصدا وطنه وبقى بها إلى أن قضى سنة ٨٣٧ » (٢) .

وقد ورث ابن حجة اللغة العربية ميراثا حافلا منه ثبوت الحجة على الموصلى والحلى ، وهو بحث انتقادى على بديعيتى صفى الدين الحلى وعز الدين الموصلى ، ومنه ديوانه الموسوم « بالثمرات الشهية فى الفواكه الحموية والزوائد المصرية » ومنه « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » ومنه « قهوة الإنشاء » — وهى مجموعة خطابات « ومنشورات » أصدرها بديوان المماليك(٣) . وما إلى ذلك مما خلفه ، وقد هذب ابن حجة واختصر كثيرا من الكتب القديمة نخص بالذكر « الصادح والباغم لابن الهبارية »(٤) .

إلا أن من أشهر آثاره التى أكسبته صيتا بعيدا بديعيته التى سماها

(١) وتوجد منها نسخة مخطوطة بالمكتبة الخالدية ببيت المقدس وأخرى بالمكتبة الملكية . ببرلين ، وأخرى باسم العقد البديع فى مدح الشفيع بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

(٢) ملخصاً من شذرات الذهب فى أخبار من ذهب فى وفيات سنة ٨٣٧ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) وقد تحدث عنه فى الخزانة ص ١١٧ — ١١٨ .

« تقديم أبى بكر » محاكاة لبديعية عز الدين الموصلى ، وشرحها الذى دعاه « خزانة الأدب وغاية الأرب » .

قال صاحب كشف الظنون فى أثناء حديثه عن بديعية ابن حجة(١) : « ثم شرحها شرحا مفيدا وهو مجموع أدب قل أن يوجد فى غيره ، ولعل مقتنيه يستغنى عن غيره من الكتب الأدبية ، ولو لم يكن فيه إلا جودة الشواهد لكل نوع من الأنواع مع ما امتاز به من الاستكثار من إيراد نوادر العصريين فإن مصنفه مرتفع عنه كلفة العارية ، وهذا وحده مقصود لكل حاذق — كذا نقل عن ابن حجر على ظهر نسخة منها .

أما الحوافز التى دعت ابن حجة على نظم هذه البديعية فله وحده بيانها قال(٢) : « وبعد فهذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم على منوال طرز البردة كان مولانا المقر الأشرف العالى المولوى القاضوى المخزومى الناصرى سيدى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة — جمل الله الوجود بوجوده — هو الذى ثقف لى هذه الصعدة (٣) ، وحلب لى ضرعها الحافل لحصول هذه الزبدة ، وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلى — رحمه الله تعالى — التزم فيها بتسمية النوع البديعى وروى بها من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفى الدين الحلى تغمده الله تعالى برحمته — لأنه ما التزم فى بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل — غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بيوت إذن الله أن ترفع ، ولا طالت يده لإبهام العقادة إلى شىء من إشارات ابن أبى الإصبع — وربما رضى فى الغالب بتسمية النوع ولم يعرب عن المسمى — ونثر شمل الألفاظ والمعانى لشدة ماعقده نظما .

فيا دارها بالخيف إن مزارها    قريب ولكن دون ذلك أهوال (٤)

---

(١) جـ ١ — ١٩٠ —    (٢) مقدمة الخزانة .

(٢) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك .

(٣) الخيف : ناحية من منى وما انحدر عن غلظ الجبل و ارتفع عن مسيل الماء .

فاستخار الله مولانا الناصرى المشار إليه ورسم لى بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجارى الحلى برقة السحر الحلال الذى ينفث فى عقد الأقلام ، فصرت أشيد البيت فيرسم لى بهدمه وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس ، ويقول : بيت الصفى أصفى موردا وأنور اقتباسا . فأسنّ كل ماحدّه الفكر ، وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة فيحكم لى بالسبق وينقلنى إلى غيره — وقد صار لى فكرة إلى الغايات سباقة — فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال .

وجاريت الصفى مقيدا بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال — وسميتها « تقديم أبى بكر » عالما أنه لايسمع من الحلى والموصلى فى هذا التقديم مقال . وكان هذا المشار إليه عظم الله شأنه هو الذى مشى أمامى وأشار إلى هذا السلوك وأرشد . فاقتديت برأيه وهل يقتدى أبو بكر بغير محمد » .

ولئن كان ابن حجة من المولعين بقرض المدائح النبوية وله فيها قصيدة وسمها بأمان الخائف (١) ومطلعها :

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم

ولم يكن فى هذه البديعية مدفوعا بباعث من وجدانه وحافز من شعوره إلى المديح النبوى بل إجابة لرغبة البارزى وإشباعا لنهمة المعارضة ، فالبارزى هو الذى اقترحها عليه وهو الذى تولاها بنقده وتعهدها بثقافة حتى استوت واستقامت فى نظره، وقد كان همه موجها إلى الجمع بين طريقتى الصفى والموصلى ومحاولة التفوق عليهما بالإجادة والإتقان .

أما المديح النبوى فشىء دعت إليه المعارضة وبعثت عليه المحاراة ، لذلك لاتراه فى هذا الشرح الطويل الذيول يعرض لشىء من السيرة بشرح أو بيان ، وإنما يعنى بالبديع ، فالبديع هو الذى حفزه ، وهو الذى وجهه ، وهو الذى استولى على كل جهده .

ومراجعة البارزى ابن حجة فى كل بيت من أبيات بديعيته تنبئ عن

(١) الخزانة ١٥ .

مقدار مابذله ابن حجة فى قرضها من مجهود شاق وتعب مضن ، وإن كان لم يعقب سوى التكلف الثقيل والتعمل المرذول والإمحال من المعانى المستطرفة والألفاظ الرائعة، كما أن هذه المراجعة ناطقة بما أصاب النقد فى هذه العصور من ضعف وفتور وميل عن روعة الشعر وجلاله إلى عبثه وضلاله — إذ كيف يستسيغ البارزى أن يبذل هذا الجهد فى تثقيف هذا العمل الذى لا نجد له شبيها سوى أنواع الزينة التى يضعها أهل الثراء على أطراف موائدهم وفى زوايا مجالسهم ، مظهرها زاه ، ومخبرها خاو ، لذلك تستطيع أن تحكم على هذه البديعية بأن فائدتها الأدبية قليلة الجدوى عديمة القيمة — على رغم إعجابه المسرف بها — اقرأ قوله(١) : « وأما براعة بديعيتى فأنها ببركة ممدوحها صلى الله عليه وسلم نور هذه المطالع ، وقبلة هذا الكلام الجامع ، فإنى جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء بالشرط المقرر لكل منهما — وأبرزت تسمية نوعها البديعى فى أحسن قوالب التورية وشنفت بأقراط غزلها الأسماع مع حشمة الألفاظ وعذوبتها ، وعدم تجافى جنوبها عن مضاجع الرقة » وقد أملت حالة العصر على ابن حجة هذا الزهو بنفسه والإعجاب بنبوغه ، فملأ شرحه فخرا وإطراء على نفسه ، اقرأ قوله(٢) : «فكتبت هذا التقريظ الذى صلت البلغاء خلفه فإنه للمحاسن جامع » وقوله(٣) « وقلت بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرق منه .... » . وقوله فى أثناء حديثه عن إحدى قصائده النبوية(٤): « ومن ألطف الإشارات إلى أن هذا التغزل صدر قصيدة نبوية قولى :

أورى بذكر البان والرنْد والنّقَا     وسفح اللوى والجزع والقصْد أنتم(٥)

ولم أزل فى براعة الاستهلال أستهل أهلة هذه المعانى إلى أن وصلت إلى حسن التخلص » .

---

(١) الخزانة ص ١٦ .
(٢) ص ٩٨ خزانة .
(٣) ص ٣٩ خزانة .
(٤) ص ١٥ خزانة .
(٥) البان : شجر . الرند : شجر طيب الرائحة والعود . النقا : من الرمل القطعة تنقاد محدودبه . اللوى : ما التوى من الرمل . الجزع : الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض تشبه الأعين .

وقد غلبت على ابن حجة نزعات العصر فراح يعلن إعجابه بالتورية والاستخدام رافعا عقيرته بأنهما من حسنات المتأخرين وأياديهم البيض على الأدب العربى وما إلى ذلك من سمات العصر الغالبة عليه كالأحاجى والألغاز .

أما خزانة الأدب فقد جذبت نحوها كثيرا من العلماء فأثنوا عليها ثناء بالغا كما سلف عن ابن حجر ونقله صاحب كشف الظنون ، وذلك رأى غلب على كثير من الباحثين سوى أن النابلسى لم يرقه ذلك بل قال(١) : « ثم جاء بعد عز الدين الموصلى العلامة تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى — رحمه الله تعالى — فعارضه وجاراه ، وزاحمه فيما اقترحه واجتراه ، ولم يزد على ما ذكره من الأنواع شيئا بل ربما نقص عن ذلك معيبا بعض الأنواع بحسب ما اقتضته طبيعته والتزم تسمية النوع البديعى فى أثناء البيت كما التزمه الموصلى ، ثم شرح قصيدته شرحا أخذ فيه بأذيال الإطالة ، وألبسه حلل السآمة والملالة واعترض فيه على القوم .

وقال لمتعصبى أفكاره هلموا فاليوم اليوم ، وتشدق فى عباراته ، وأفحش فى إشاراته مع مافى أبيات قصيدته من الركة والقلاقة ، واختلاس كلمات الغير بحسب ماعنده من الفاقة » .

والحق أن الخزانة أصدق مثل للأدب العربى فى عصر المماليك ، فقد ضمت بين جوانحها جملة وافرة من منظوم الكلام ومنثوره يستطيع الباحث على ضوئها أن يحكم على هذا الأدب حكما صادقا ينتظم نواحى القوة والضعف فيه .

وهى « بدورها » شاهد ناطق على صدق فطرة ابن حجة وأنه خارج على ميزان عصره فى بعض الأحكام كأن يقول فى الجناس والاشتقاق (٢) « أما الجناس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتعقيد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة » وقوله فيمن

(١) نفحات الأزهار .　　(٢) الخزانة — ٢٥ .

أغرموا بالجناس[1] : « ولم يجنح إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ ، وإذ خلت بيوت الألفاظ من مكان المعانى تنزلت منزلة الأطلال البالية » .

وكأن تراه ثائرا على بعض الأنواع البديعية التافهة التى لاحظ لها فى الفن والأدب كقوله فى المراجعة[2] «المراجعة ليس تحتها كبير أمر ولو فوض إلى حكم فى البديع مانظمتها فى أسلاك أنواعه» . ومثل ذلك قال فى تشابه الأطراف[3] وفى التفويف [4] — وفى عتاب المرء نفسه [5] — وفى القسم [6] . — وفى الترديد [7] — وفى التكرار [8] — وفى التفصيل [9] — وفى التوليد [10] وفى المماثلة [11] — وفى التعطف[12] — وكما نراه مناديا بتقليل الأقسام كقوله فى التوهيم[13] .

« قلت هذا النوع أعنى التوهيم وتقدمه باب الترشيح كان الأليق بهما أن ينتظما فى سلك باب التورية »

ويذكر التوهيم مع أيهامها والترشيح مع المرشحة ، وكقوله فى التعطف .

« ولكن القوم كلما طلبوا الكثرة تغالوا فى الرخيص والشروع فى المعارضة ملزم » .

وما إلى ذلك كما سيمر بك تفصيله فى مواطنه مما يشهد لابن حجة فى أحيان كثيرة بسلامة الفطرة وصدق النظر ، سوى أنه وقع فيما وقع فيه غيره من رجال البديعيات من الخلط بين مسائل البيان ومسائل البديع ، وليس منكرا أن يخلط بين هذه المسائل إنما المنكر أنك تراه يفرق بين موضوعى العلمين فى أثناء تدليله على أن الاستشهاد بكلام المولدين فى البديع سائغ جائز ، ومع هذا يعرض لمسائل البيان كلها فى علم البديع . قال[14] .

---

(1) ص ٢٦ خزانة .
(2) ص ١٢٤ خزانة .
(3) ١٢٨ .
(4) « ١٤٠ .
(5) ١٨٠
(6) ١٨١ .
(7) ٢٠٤ .
(8) ٢٠٥ .
(9) ٢٧٥ .
(10) ٤٣٨ .
(11) ٤٥٣ .
(12) ٥٠٩ .
(13) ٤٧٩ .
(14) ٥ .

« وهنا بحث لطيف وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ليس فيه نقص لأن البديع أحد علوم الأدب الستة، وذلك أنك إذا نظرت فى الكلام العربى . إما أن تبحث عن المعنى الذى وضع له اللفظ وهو علم اللغة ، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب مايعتريه وهو علم التصريف وإما أن تبحث عن المعنى الذى يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم وهو علم العربية . وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوى وهو علم المعانى ، وإما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية ، وهو علم البيان — وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع ، فالعلوم الثلاثة الأول يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم ، والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم لأنها راجعة إلى المعانى ...... الخ .

وموضوع المؤاخذة من هذا البحث هو خلط ابن حجة بين مباحث البيان والبديع مع تسطيره الفرق بين مباحثهما ، ولا يعفى ابن حجة أو غيره من هذه المؤاخذة ماتراه فى بعض المواطن من بيان التفرقة بين نظرة البيانى والبديعى .

فالمجاز هو المجاز ، والتشبيه هو التشبيه ، والكناية هى الكناية ، لم يستعملها العرب بأسلوبين ، ولم ينظروا إليها نظرتين ، بل هو استعمال واحد ونظرة واحدة لاتتغير ولا تتبدل ، وسواء بعد ذلك إيقاع اسم البيان عليها أو اسم البديع كما سيتضح هذا فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

هذا وقد غلبت الصناعة البديعية على ابن حجة وملكت عليه زمام نفسه فلم يستطع التحرر منها فى كثير من مواطن الخزانة ، بل تراه يحيل ويغمض من أجل المحافظة على تورية سخيفة أو سجع متكلف ، كما تراه معجبا بشعراء عصره مكثرا من إزجاء الشواهد الكثيرة من شعرهم مناديا بخفتها ، معلنا عن رقتها وكثير منها مسترذل مملول .

ولكن ذلك كله لم يغط على شهرة بديعيته بين البديعيات فشغلت أقلام

كثير من العلماء إذ شرحها عبد الحى بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلى الصالحى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ (١) وهو صاحب كتاب شذرات الذهب. وعارضها السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ببديعية سماها « نظم البديع فى مدح خير شفيع ».

كما شرحها شرحا مختصرا المرحوم حفنى بك ناصف المتوفى سنة ١٩١٩ م وسمى شرحه « القطار السريع لعلم البديع » اختار فيه أرجح الأقوال وأصح التعريفات ووضح الأمثلة بأبين العبارات(٢).

وقد تعقب ابن حجة فى شرحه الشيخ عبد الغنى النابلسى فى شرحه لبديعيته ونبه على مواطن زلله وإن لازمه التعصب فى كثير من أحكامه عليه.

وألف أبو بكر عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى الحسينى الحضرمى كتابا سماه « إقامة الحجة على التقى ابن حجة ». تتبعه فى البديعية وشرحها وأبان عن سرقاته الظاهرة وغلطاته البينة (٣). كما ألف شمس الدين محمد ابن الحسن بن على النواجى كتابا على هذا المنوال سماه (الحجة فى سرقات ابن حجة)(٤).

وكل هذا لم يزعزع ثقة الناس بالبديعية وشرحها، فبقيت رائجة ذائعة وبقى شرحها أغنى الشروح، وللأدب فيه أوفر حظ وأسنى نصيب، لذلك آثرتها بالتحليل دون غيرها.

وقد وقعت هذه البديعية فى اثنين وأربعين ومائة بيت مشتملة على مثلها من أصباغ البديع وسأعرض لما احتوى عليه شرحها مكتفيا بالإشارة الدالة واللمحة المفيدة منها على مأخذ بيته إن كان، وهفواته فى شرحه إن وجدت.

(١) براعة الاستهلال(٥):

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم     براعة تستهل الدمع فى العلم

(١) ويوجد من هذا الشرح نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٩٥ مجاميع.

(٢) وهو مطبوع فى مائة صحيفة من القطع الصغير.

(٣) وهو مطبوع بمطبعة نخبة الأخبار سنة ١٣٠٥ هـ.

(٤) وهو محفوظ بدار الكتب تحت رقم ١٢٧٩ أدب.

(٥) ص ٣-٢٥.

المصراع الثانى من هذا المطلع هو المصراع الأول من مطلع عز الدين الموصلى نفسه حيث قال :

براعة تستهل الدمع فى العلم ‏ ‏ ‏ ‏ عبارة عن نداء المفرد العلم

ولأجل أن يغطى السرقة لم يذكر هذا البيت ضمن مطالع البديعيات التى التزم ذكرها فى كل نوع . ويمكن أن يعد هذا من قبيل التضمين فإن كان كذلك فقد أحسن تضمين الشطر ووفق إلى لطف استعماله وحسن موقعه — والحق أن مطلعه خير من مطلع الموصلى وإن استعان بشىء من كلامه .

وقد نقل فى الشرح اتفاق علماء البديع على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعانى واضحة فى إستهلالها ، وأن تكون الألفاظ رقيقة ، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصا عند السماع ، وأن يكون المطلع مع اجتناب الحشو ليس له تعلق بما بعده ، وأنهم شرطوا أن يجتهد الناظم فى تناسب قسميه بحيث لايكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثانى ، ثم نقل ماقاله ابن المعتز وابن أبى الإصبع ، ثم ساق أمثلة تمثل حسن المطالع وقبحها للأقدمين والمحدثين إلى عصره مستحسنا مالايستحسن فى بعض الأحايين ، ثم نبه على أن المتأخرين فرعوا من حسن الابتداء براعة الاستهلال فى النظم والنثر ، وأن فيها زيادة على حسن الابتداء إذ أنهم شرطوا فى براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على مابنيت عليه مشعرا بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة يستدل بها على قصده من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو غير ذلك ، وكذلك فى النثر فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان ثم نبه على سر التسمية . قال : وما سمى هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به ، ورفع الصوت فى اللغة هو الاستهلال ثم مضى يزجى الأمثلة من الشعر والنثر تمثل الحسن والقبح .

(٢) الجناس المركب والمطلق: (١)

بالله سر بى فسربى طلقوا وطنى ... وركبوا فى ضلوعى مطلق السقم(٢)

أشار إلى أن الجناس غير مذهبه ومذهب من نسج على منواله ثم بين أن الجناس من صور الألفاظ وإنما يحسن إذا قل وأتى عفوا من غير كد ولا استكراه ، ثم نبه على أنه نوع متوسط بالنسبة إلى مافوقه من أنواع البديع ثم نقل أقوال بعض العلماء فيه منبها على من تعلق به من الشعراء، ثم بين أن الجناس جنس وأنواعه التام والمحرف والمصحف والملفق وهلم جرا .

فالمركب – أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة والأخرى مركبة من كلمتين ، وهو على ضربين :

فالأول ماتشابه لفظا وخطا ، والثانى ماهو متشابه لفظا لاخطا، ويسمى المفروق وشفع ذلك بالأمثلة ثم قال : ومن أنواع الجناس المركب نوع يسمى المرفو ، وهو أن يكون أحد الركنين جزءا مستقلا والآخر كلمة وجزء كلمة، ثم ساق له أمثلة وعلق عليها بأن هذا النوع لايخلو من تعسف وعقادة فى الترتيب . وأما الجناس المطلق فقد بين أن للناس فى الفرق بينه وبين المشتق معارك، وأن السكاكى وغيره سموه المتشابه والمتقارب نظرا لشدة مشابهته وقربه من المشتق . ثم بين أن جماعة من المؤلفين غلطوا فى عد المشتق من الجناس وليس كذلك ، فإن معنى المشتق يرجع إلى معنى واحد، والمراد من الجناس اختلاف المعنى فى ركنيه ، والمطلق كل ركن منه يباين الآخر فى المعنى ثم مضى يشرح الفرق بالشواهد من النثر والنظم .

(٣) الملفق(٣) :

ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى ... يسعى معى فسعى لكن أراق دمى

جناس هذا البيت مسروق اللفظ والمعنى من قول أبى الفتح البستى :

إلى حتفى سعى قدمى ... أرى قدمى أراق دمى

(١) ص ٢٥ – ٣٣ .

(٢) السرب : القطيع من الظباء والنساء وغيرها .

(٣) ص ٣٣ ، ٣٥ .

مع ما امتاز به بيت البستى من انسجام الألفاظ وسهولة التراكيب بالنسبة إلى بيت ابن حجة وقد عرف الملفق بقوله — أن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين وهذا هو الفرق بينه وبين المركب وقل من أفرده عنه وغالب المؤلفين مافرقوا بينهما بل عدوا كل واحد منهما مركبا إلا الحاتمى وابن رشيق وأمثالهما ثم قال — ولعمرى لو سموا الملفق مركبا والمركب ملفقا لكان أقرب إلى المطابقة فى التسمية لأن الملفق مركب فى الركنين والمركب ركن واحد كلمة مفردة والثانى مركب من كلمتين وهذا هو التلفيق وذلك من بصر ابن حجة ودقة نظره فى البحث ثم أردف ذلك بسوق الشواهد .

(٤) المذيل واللاحق (١) :

وذيل الهم همّل الدمع لى فجرى كلاحق الغيث حيث الأرض فى ضرم

وهذا بيت محصوله قليل كما ترى .

وقد بين أن جماعة من المؤلفين اختلفوا فى اسم المذيل وأن أنسب الأسماء له هو هذا الاسم لأن المذيل هو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفا فى آخره فصار له كالذيل ، وهذا هو الفرق بينه وبين المطرف ثم سرد الأمثلة لذلك — وأما اللاحق فقل من فرق بينه وبين المضارع — والمراد بالمضارع هنا المشابه — والفرق بينهما دقيق فإن اللاحق هنا ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه ومتى كان الحرف المبدل من مخرج المبدل منه سمى مضارعا ، وإن كان قريبا منه كان مضارعا أيضا ثم ساق أمثلة توضح ذلك :

(٥) التام والمطرف (٢) :

ياسعد ماتم لى سعد يطرفنى بقربهم وقليل الحظ لم يُلم

مطرف هذا البيت مسروق من مطرف صفى الدين الحلى :

من شأنه حمل أعباء الهوى كمداً إذا همى شأنه بالدمع لم يلم

---

(١) ص ٣٥ — ٣٧ (٢) ص ٣٧ — ٤٤

ثم مضى يشرح يقول : أما الجناس التام فهو ما تماثل ركناه واتفقا لفظا واختلفا معنى من غير تفاوت فى تصحيح تركيبهما واختلاف حركتهما سواء كانا من اسمين أو فعلين أو اسم وفعل فإنهم قالوا إذا انتظم ركناه من معنى واحد كاسمين أو فعلين سمى مماثلا وإن انتظما من نوعين كاسم وفعل سمى مستوفى ، ثم ساق الأمثلة مبينا أن هذا النوع أكمل الأنواع إبدارا وأسماها رتبة وأولها فى الترتيب . وأما الجناس المطرف فهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفا فى طرفه الأول وهذا هو الفرق بينه وبين المذيل ويسمى المطرف الناقص والمردف وأنسبها الأول ثم مضى يزجى الأمثلة من النظم والنثر .

( ٦ ) المصحف والمحرف(١) :

هل من يفى ويقى إن صَحّفوا عذلى     وحرّفوا وأتوا بالكلم فى الكَلِمِ

أخذ ابن حجة مُحَرَّف صفى الدين بعينه حيث قال :

من لى بكل غرير من ظبائهم     عزيز حُسنٍ يداوى الكَلْمَ بالكلم

وصحف مصحف الشيخ عز الدين حيث قال :

هل من تقى نقى حين صحف لى     مُحَرّف القول زان الحكم بالحكم

ثم بين أن بين يفى ويقى جناس التصحيف منبها على أن بعضهم يسميه جناس الخط وهو ما تماثل ركناه خطا واختلفا لفظا ثم سرد الأمثلة :

وأما جناس التحريف فهو ما اتفق ركناه فى عدد الحروف وترتيبها واختلفا فى الحركات سواء كانا من اسمين أوفعلين أواسم وفعل : وإذا اجتمع التصحيف والتحريف صار مشوشا ثم أزجى الأمثلة .

( ٧ ) اللفظى والمقلوب(٢) :

قد فاض دمعى وفاظ القلب إذ سمعا     لفظى عذل ملا الأسماع بالألم

أما اللفظى فهو النوع الذى إذا تماثل ركناه وتجانسا خطا خالف أحدهما الآخر بإبدال حرف منه فيه مناسبة لفظية كما يكتب بالضاد والظاء وشاهده فى

---

(١) ص ٤٤ – ٤٧ .     (٢) ص ٤٧ – ٥١ .

البيت « فاض وفاظ » فالأول من فيض الماء ، والثانى من التلف . ثم ساق الأمثلة . ثم قال وأما الجناس المقلوب وسماه قوم جناس العكس وهو الذى يشتمل كل واحد من ركنيه على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص ويخالف أحدهما الآخر فى الترتيب ثم ساق أمثلته .

(٨) الجناس المعنوى(١) :

أبا معاذ أخا الخنساء كنت لهم     يا معنوى فهدونى بجورهم

بين أن الجناس المعنوى على ضربين — تجنيس إضمار وتجنيس إشارة ونبه على أن بعضهم سمى تجنيس الإشارة تجنيس الكناية وأن كلا منهما مطابق التسمية وأن الصفى لم ينظم سوى نوع الإضمار ولم يذكره القزوينى فى كتابيه ، ولا ابن رشيق فى العمدة ، ولا ابن أبى الإصبع فى التحرير ، ولاابن منقذ فى البديع ، والعميان ذكروه(٢) فى شرح بديعيتهم . ولم يتيسر لهم نظمه وذكر الشهاب محمود فى كتابه المسمى « بحسن التوسل فى صناعة الترسل » : منه نوع الإشارة لا نوع الإضمار ولكن ما نظمه ولم يذكر نوع الإضمار فى بديعيته سوى صفى الدين الحلى ثم نقل عن شيخه علاء الدين القضامى أن الفاتح اباب تجنيس الإضمار هو ابن بكر بن عبدون بقوله وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصارت خلا :

ألا فى سبيل اللهو كأس مدامة     أتتنا بطعم عهـــده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة     وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

ثم تبعه الصفى فى بديعيته قال :

وكل لحظ أتى باسم ابن ذى يزن     فى فتكه بالمغنى أو أبى هرم

ثم قال ابن حجة وكنت أود أن يكون شيخنا المذكور حيا ويرانى قد عززتهما بثالث . وهو بيت بديعيته ، وقد عرف المعنوى المضمر بقوله : هو أن يضمر الناظم ركن التجنيس ويأتى فى الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة

---

(١) ص ٥١ — ٥٥ .

(٢) هكذا فى الأصل وصوابها — وقد ذكر فى شرح بديعية العميان ولم يتيسر لابن جابر نظمه فناظمها واحد وهو ابن جابر الأندلسى الأعمى .

عليه فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى كقول ابن عبدون المتقدم ..... فبنت بسطام بن قيس كان اسمها الصهباء والشنفرى قال :

اسقنيها يا سواد بن عمرو    إن جسمى بعد خالى لَخَلّ (١)

والخل هو الرقيق المهزول ، فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمران فى صهباء وصهباء وخل وخل وهما فى صدر البيت وعجزه ومن هنا أخذ الشيخ صفى الدين قوله المتقدم ، فابن ذى يزن اسمه سيف ، وأبو هرم اسمه سنان فظهر له جناسان مضمران من كنايات الألفاظ الظاهرة ، ثم أشار إلى إلى تعزيزهما بثالث هو بيت بديعيته ثم قال : فأبو معاذ اسمه جبل وأخو الخنساء اسمه صخر فظهر من كنايات الألفاظ الظاهرة أيضا جناسان مضمران فى صدر البيت وهما جبل وجبل وصخر وصخر.

والضرب الثانى وهو جناس الإشارة . هو أن يقصد الشاعر المجانسة فى بيته بين الركنين من الجناس فلا يوافقه الوزن على إبرازهما فيضمر الواحد ويعدل إلى مرادف فيه كناية تدل على الركن المضمر فإن لم يتفق له مرادف الركن المضمز يأتى بلفظة فيها كناية لطيفة تدل عليه وهذا لا يتفق فى الكلام ، ومثاله من النظم قول دعبل فى امرأته سلمى :

إنى أحبك حبا لو تضمنه    سلمى سميك ذاك الشاهق الراسى

فالكناية اللطيفة فى سميك لأنها أشعرت أن الركن المضمز فى سلمى يظهر منه جناس الإشارة بين الركن الظاهر والمضمر فى سلمى ، وسلمى الذى هو الجبل .

قال أبو بكر العلوى (٢) بعد أن نقل عن ابن حجة تعريف جناس الإضمار : « والذى أقوله . أن ابن عبدون ليس هو الفاتح لبابه كما زعموا وأن سكوت أئمة البديع عن ذكره ليس عن عدم إطلاع ولا جهلا بحقيقته بل قلة مبالاة به ، وقد ادعى الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه « جنان الجناس » وفى « الغيث الذى انسجم » بطلان هذا النوع من أصله ، والحق أن هذا

(١) من معانى الخال الكبر والثوب الناعم وبرد يمنى ورشاقة فى البدن .

(٢) إقامة الحجة على التقى ابن حجة ص ٩–١٠ .

النوع ملحق بالأحاجي وهي عند المتقدمين غير محسوبة من المحسنات ، فلهذا لم يتعرضوا له ، وتعريفه السابق نقله عن الشارح صادق على ما سأذكره من شواهد الأحاجي الآتية ، وهي باب واسع ومجال فسيح ذكر الحريري منها في المقامات أحاجي كثيرة وتبعة الناس في ذلك ، قال في المقامات :

يامن نتـائج فـكره مثل النقود الجـائزة
مامثـل قولك للـذي حاجيت صادف جائزة(١)

وتطبيقه على مقتضى التعريف السابق . أنه أضمر الركنين . وهما الفاصلة والْفَي صلة وأتى في الظاهر بمرادف المضمر للدلالة عليه وهو قوله : « صادف جائزة » .

ثم قال : أما جناس الإشارة الذي ذكره في الشرح ونظمه الشيخ عزالدين في بديعيته ...... وهو فرع عن هذا لكنه أبعد عن الأحاجي من هذا وأعذب ذوقا » . وما أشبه هذا الكلام بالصواب .

( ٩ ) الاستطراد (٢) :

واستطردوا خيل صبري عنهم فكبت
وقصرت كلياليـنا بوصلهم

بين معناه في اللغة والاصطلاح بما لم يخرج عمن تقدموه ، ثم فرق بينه وبين المخلص بأن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام وقطع الكلام بعد المستطرد به والأمران معدومان في المخلص ، ثم ساق الأمثلة .

(١٠) الاستعارة(٣) :

وكان غرس التمني يانعا فذوى بالاستعارة من نيران هجـرهم

نقل فيها تعريفات العلماء كالرماني وابن جني وابن المعتز وابن أبي الأصبع ثم تحدث عنها حديثا عاما لم تتميز فيه أقسامها التي ذكرها العلماء من قبله ، ثم أفاض في سرد الأمثلة .

---

(١) الجائزة : يحتمل أن تكون من جوائز الشعر والأمثال وهي ما جاز من بلد إلى بلد ومن معاني الجائزة العطية والتحفة .

(٢) ص ٥٥ — ٥٩ . (٣) ص ٥٩ — ٦٥ .

(١١) الاستخدام(١) :

واستخدموا العين منى وهى جارية وقد سمحت بها أيام عسرهم

واستعانته ببيت عز الدين الموصلى ظاهرة جداً حيث قال هذا :

والعين قرت بهم لما بها سمحوا واستخدموها من الأعدا فلم تنم

« فالعين الأولى الباصرة ، والثانية المعنية بالضمير فى قوله : « لما بها سمحوا » هى عين الذهب ، والثالثة المعنية بالضمير فى قوله واستخدموها هى ذات الإنسان ... ومن الواضح لدى كل فهم أن استخدامات بيت الناظم الثلاثة فى الذات والباصرة والذهب هى عين استخدامات عز الدين بمعناها وغالب لفظها(٢) » .

وقد بين ابن حجة أن الاستخدام استفعال من الخدمة ، وأما فى الاصطلاح فقد اختلفت العبارة فى ذلك على طريقين . الأولى طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه ومشى عليها كثير من الناس وهى أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر ، أو تعيد عليه إن شئت ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات .

وأما الطريقة الثانية فهى طريقة الشيخ بدر الدين بن مالك — رحمه الله تعالى — فى المصباح وهى أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ثم يأتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر المعنى الآخر ، وقد يكون اللفظان متأخرين عن اللفظ المشترك وقد يكونان متقدمين وقد يتوسط بينهما ، ثم بين أن الطريقتين راجعتان إلى مقصود واحد وهو استعمال المعنيين ، وهذا هو الفرق بين التورية والاستخدام فإن المراد من التورية هو أحد المعنيين ، وفى الاستخدام كل من المعنيين مراد ، ثم ساق الأمثلة .

(١٢) الهزل الذى يراد به الجد(٣) :

والبين هازلنى بالجد حين رأى دمعى وقال تبرد أنت بالديم

---

(١) ص ٦٥ – ٦٩ .
(٢) إقامة الحجة ص ١١–١٢ .
(٣) ص ٦٩ – ٧٠ .

« سلمنا أن البين هازل الناظم بقوله . تبرد أنت بالديم .لكن ما الجد المراد من هذه المهازلة فإنه لم يظهر من فحواها معنى يقصده الجد(١) » .

وقد نقل ابن حجة كلام صاحب التلخيص فى هذا النوع ثم قال . ولم يزد على ذلك شيئا . والهزل الذى يراد به الجد هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أوذمه فيخرج من ذلك مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال كما فعل أصحاب النوادر مثل أشعب وأبى دلامة وأبى العيناء ومن سلك مسلكهم ، ثم ساق أمثلة من النثر والشعر وبين لطف مسلكه ودقة مرامه .

(١٣) المقابلة(٢) :

قابلتهم بالرضا والسّلم منشرحا ولّوْا غضابا فياحربى لغيظهم

فرق ابن حجة بينها وبين المطابقة معتمداً فى ذلك على ما ذكره ابن أبى الأصبع مبينا أن المقابلة أعم من المطابقة لأن الأولى هى التنظير بين شيئين فأكثر وبين ما يخالف وما يوافق ، فبقولنا وما يوافق صارت المقابلة أعم من المطابقة ، ثم ساق أمثلتها من النثر والنظم .

(١٤) الالتفات(٣) :

وما أرونى التفاتا عند نفرتهم وأنت يا ظبى أدرى بالتفاتهم

أشار إلى تعريف قدامة ، ثم إلى تعريف ابن المعتز ، وساق الأمثلة ، ثم مضى يخلع على بيت بديعيته خلع المدح والإطراء منبّهاً على أنه اشتمل على ثمانية أنواع من البديع ، التورية باسم النوع ، ومراعاة النظير فى الملاءمة بين الالتفات والظبى والنفرة والانسجام ، والتمكين ، والسهولة ، والتوشيح ، ورد العجز على الصدر ، والالتفات الذى هو المقصود دون غيره .

(١٥) الافتنان(٤) :

تغــزلى وافتنـــــانى فى شمائلهم أضحى رثاً لاصطبارى بعدبعدهم(٥)

عرفه بقوله .هو أن يفتن الشاعر فيأتى بفنين متضادين من فنون الشعر

(١) إقامة الحجة — ١٢ .
(٢) ص ٧٠ — ٧٣ .
(٣) ص ٧٣ — ٧٦ .
(٤) ص ٧٦ — ٨٠ .
(٥) رثا : مخفف الرث بمعنى البالى

فى بيت واحد فأكثر مثل النسيب والحماسة ، والمديح والهجاء ، وما إلى ذلك فمن ذلك قول عنترة :

إن تُغْد فى دونى القناع فإننى    طب بأخذ الفارس المستلئم[1]

فأول البيت نسيب وآخره حماسة :

(١٦) الاستدراك[2] :

قالوا نرى لك لحما بعد فرقتنا    فقلت مستدركا الكن على وضم

قوله « مستدرَكا » حشو لا فائدة فيه لأنه معقب بأداة الاستدراك ، ومع أن الذى حمله على هذا هو التزام التورية باسم النوع لم يوفق لما أراد لأن لفظة « مستدركا » لم يشترك فيها معنيان حتى تصلح للتورية ، وكثير من أبيات البديعية على هذا النحو .

وقد نوع الاستدراك إلى نوعين .نوع يتقدم الاستدراك فيه تقرير لما أخبر به المتكلم وتوكيد ، ونوع لايتقدمه ذلك ، فمن الأول قول القائل :

وإخوان حسبتهم دروعا    فكانوها ولكن للأعادى

وهذا النوع هو الذى جعله صاحب الإيضاح ضربا من ضروب القول بالموجب ومثل له بتلك الأبيات ، وأما القسم الثانى . وهو الذى لايتقدم الاستدراك فيه تقرير ولاتوكيد فمنه قول زهير :

أخو ثقة لايهلك الخمر ماله    ولكنه قد يهلك المال نائله

ثم بين أنه لابد أن يكون فى الاستدراك نكتة زائدة عن معنى الاستدراك حتى يدخل فى أنواع البديع ، وأن النكتة فى بيت زهير أنه او اقتصر على صدر البيت دل على أن ماله موفور وتلك صفة ذم ، فاستدرك مايزيل هذا الاحتمال ويخلص الكلام للمدح المحض .

(١٧) الطى والنشر[3] :

والطى والنشر والتفتير مع قصر    للظّهر والعظم والأحوال والهمم[4]

(١) أغدفت قناعها أرسلته على وجهها .    (٢) ص ٨٠ – ٨١ .

(٣) ص ٨١ – ٨٥ .

(٤) فتره تفتيرا : سكّنه بعد حدة وآلانه بعد شدة وتفتّر السحاب تفتيرا : تحير وسكن وتهيأ للمطر وفى الخزانة ( التغيير ) بدل ( التغيير ) لكن الأنسب ما أثبتناه هنا .

عرفه بقوله : هو أن تذكر شيئين فصاعدا إما تفصيلا فتنص على كل واحد منهما وإما إجمالا فتأتى بلفظ واحد يشتمل على متعدد ، وتفوض إلى العقل رد كل واحد إلى مايليق به ، فالمذكور على التفصيل قسمان : قسم يرجع إلى المذكور بعده على الترتيب من غير الأضداد لتخرج المقابلة . فيكون الأول للأول والثانى للثانى ، وهذا هو الأكثر والأشهر ، وقسم على العكس ، وأما المذكور على الإجمال فهو قسم واحد ، ثم أسهب فى سرد الأمثلة من النثر والنظم لكل ضرب مشيراً إلى أن أصحاب البديعيات لم ينظموا إلا المفصل المرتب لأنه المقدم عند علماء البديع وكذلك صنع هو :

(١٨) الطباق(١) :

بوحشة بدّلوا أنسى وقد خفضوا — قدرى وزادوا علواً فى طباقهم

أشار إلى مأخذه من اللغة ، وإلى أقوال العلماء فيه ، وإلى إدخال بعض الأنواع كالتدبيج والمقابلة تحته أو إخراجها ، وارتضى طريقة ابن أبى الأصبع حيث نوع المطابقة إلى نوعين . نوع يأتى بألفاظ الحقيقة ، وآخر بألفاظ المجاز ، فالأول يسمى طباقا والآخر يسمى تكافؤا ، ثم قال : والذى أقوله أن المطابقة التى يأتى بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شىء سهل اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع تشاركه فى البهجة والرونق ، ثم مضى يسوق الأمثلة الكثيرة التى تجمع بين الطباق وغيره كالتكميل والتشبيه والمجاز واللف والنشر والجناس وما إلى ذلك ولاسيما التورية .

ولم يقف عند هذا الحد بل قال : « إن الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سننهم لم يرضوا بالمطابقة المجردة ولم ينظموها إلا فى سلك التورية ، وأما صفى الدين فلم يأت بها إلا مجردة وكذلك العميان » . وليس من شك فى أن نزعة العصر غلبت على ابن حجة حيث راح يهون من شأن الطباق وحده ويدعو إلى ترشيحه بغيره ، وذلك من أمارات الفشل الأدبى الذى منى به الأدباء فى هذه العصور ، فلقد كان الطباق المجرد الذى سقنا نصوصه فيما

(١) ص ٨٥ — ٩٥ .

سلف من الأدب القديم والمحدث حلوا عذبا لا نقص فيه ولا ضعف فأصبح الآن لا يقع موقعه ولايصيب موطنه إلا إذا رشح بغيره من ألوان البديع.

(١٩) النزاهة(١) :

نزّهْت لفظى عن فحش وقلت لهـُم     عـُرْبٌ وفى حيهم يا غربة الذمم

أشار إلى أن هذا النوع لم ينظمه من أصحاب البديعيات سوى صفي الدين ثم أطرى هذا المحسن وأكثر من شأنه، ثم عرفه بما سلف عن ابن أبي الإصبع، ثم ساق الأمثلة.

(٢٠) التخيير(٢) :

تخيروا لى سماع العذل وانتـزعوا     قلبي وزادوا نحولى مت من سقَمى

وهذا أيضا نحا فيه منحى ابن أبي الإصبع كما سلف.

(٢١) الإبهام(٣) :

وزاد إبهام عذلى عاذلى ودجا     ليلى فهل من بهيم يشتفى ألمى

لم يزد فى حده، على ماذكره ابن أبي الإصبع وما مثل به من قول بشار:

خاط لى عمر قبـاء     ليت عينيه سواء

وذلك هو المعروف عند السكاكى والخطيب باسم التوجيه أو الإبهام «وليت شعرى أى تضاد فى المعنيين اللذين احتملهما لفظ البهيم لأن غاية مافيه اشتراك لفظ البهيم بين العاذل والليل على زعم الناظم ولا إبهام فى ذلك بين فنين من الكلام ولا تضاد حتى تتشوف النفوس إلى علم المراد منهما. وأين هذا من قول عز الدين الموصلى :(٤)

أبهمت نصحى مشيراً بالأصابع لى     ليت الوجود رمى الإبهام بالعدم

فلفظ الإبهام فى البيت محتمل أن يراد به إبهام النصح وإبهام اليد المشيرة والتضاد فى المعنيين واضح. وهذا الإبهام هومافى البيت المقول فى الخياط بعينه (١)

---

(١) ص ٩٥ – ٩٦.
(٢) ص ٩٦ – ٩٧.
(٣) ص ٩٧ – ١٠٢.
(٤) إقامة الحجة – ١٧.

(٢٢) إرسال المثل[١] :

وكم تمثلت إذ أرخوا شعورهم وقلت بالله خلوا الرقص فى الظلم

التورية بكلمة « تمثلت » عن اسم النوع غامضة ملبسة بالتمثيل الذى اعتبروه نوعا خلاف هذا النوع لذلك ترى عز الدين الموصلى أجلى حيث قال :

أنوار بهجته إرسالها مثلا تلوح أشهر من نار على علم

ولم يزد ابن حجة على ماتقدم لغيره ولاسيما ابن أبى الأصبع .

(٢٣) التهكم[٢] :

ذلّ العذول بهم وجدا فقلت له تهكما أنت ذو عز وذوشمم

وطئ فى هذا النوع عقب ابن أبى الإصبع وأربى عليه بالإكثار من من الأمثلة .

(٢٤) المراجعة[٣] :

قال اصطبر قلت صبرى ما يراجعنى

قال احتمل قلت من يقوى لصدهم

وقد تأثر فى بيته ببيت صفى الدين حيث يقول :

قالوا اصطبر قلت صبرى غير متبع قالوا اسلهم قلت ودى غيرمنصرم

وقد بين ابن حجة أن هذا اللون من الألوان التافهة التى ليس تحتها كبير أمر ولو فوض إليه حكم فى البديع مانظمها فى أسلاك أنواعه ، ثم أشار إلى أنه من اختراع ابن أبى الإصبع وتعجب من مثله كيف قرنه إلى الذى استنبطه من الأنواع البديعية الغريبة ، ثم نقل تعريف ابن أبى الإصبع لها وساق الأمثلة ، ثم نبه على أن بعضهم يسميه السؤال والجواب ، وذلك النقد من محاسن ابن حجة وبعد نظره .

---

(١) ص ١٠٢ - ١٢٢ .
(٢) ص ١٢٢ - ١٢٤ .
(٣) ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٢٥) التوشيح(١) :

توشيحهم بملا تلك الشعور إذا لفــوه طيا تعرفنا بنشرهم(٢)

عرفه بما قاله ابن أبى الإصبع وغيره ثم ساق الأمثلة .

(٢٦) تشابه الأطراف(٣) :

شابهت أطراف أقوالى فإن أهم أهم إلى كل واد فى صفاتهم

والتورية باسم النوع فى هذا البيت غير ظاهرة فقد صرح الناظم بأنه شابه أطراف أقواله وليس له معنى آخر يشترك مع هذا فى اللفظ المذكور حتى تصح التورية وذلك موطن من مواطن كثيرة لم تصب التورية موضعها كبيت الاستدراك والنزاهة والتهكم المتقدمة ، وبيت الهجو فى معرض المدح وبيت التخلص وبيت المبالغة وبيت الإيجاز وبيت المدح فى معرض الذم إلى غير ذلك.

وقد نبه ابن حجة على أن هذا النوع من الأنواع التافهة ولولا المعارضة ما نظمه فى هذا السلك ثم عرفه بما قاله ابن أبى الإصبع مشيراً إلى أنه كان يسمى من قبله التسبيغ فغيره ابن أبى الإصبع إلى هذا الاسم لأنه به أليق ثم ساق الأمثلة .

(٢٧) التغاير(٤) :

أغاير الناس فى حب الرقيب فمذ أراه أبسط آمالى بقــربهم

نبه على أن قوما سموه التلطف وهو أن يتلطف الشاعر بتوصله إلى مدح ما كان قد ذمه هو أوغيره ، ثم ساق له الأمثلة .

(٢٨) التذييل(٥) :

والله ماطال تذييل اللقــاء بهم يا عاذلى وكفى بالله فى القسم

لم يزد فيه على من تقدموه .

---

(١) ص ١٢٨ .

(٢) تعرفنا : مشتركة بين التعريف والعرف . ملا : مقصور ملاء جمع ملاءة وهى الريطة .

(٣) ص ١٢٨ – ١٣٧ .

(٤) ص ١٢٨ – ١٣٧ .

(٥) ص ١٣٧ – ١٤٠

(٢٩) التفويف(١) :

خشن ألن ، احزن افرح ، امنع اعط أنل
فَوِّفْ أجدْ ، وشِّ رقِّقْ شدِّ حبِّ لم

وهذا موطن ثالث يدل على بصر ابن حجة ، وإنكاره لبعض الأنواع التافهة حيث قال :

تأملت التفويف فوجدته نوعا لم يفد غير إرشاد ناظمه إلى طرق العقادة . والشاعر إذا كان معنويا وتجشم مشاقه تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعانى الغريبة وتجفوه حسان الألفاظ ولم تعطف عليه برقة ، وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتا ولكن الشروع فى المعارضة ملزم ، ولم يسعنى غير تشريع الطباق فى بيته وهو فى اللغة مشتق من الثوب المفوف الذى فيه خطوط بيض والمراد تلوينه ونقشه .

والتفويف فى الصناعة عبارة عن إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والغزل وغير ذلك من الفنون والأغراض كل فن فى جملة من الكلام منفصلة عن أختها مع تساوى الجملة ، ويكون بالجملة الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة ، وأحسنها وأبلغها وأصعبها مسلكا القصار ، ثم ساق له الشواهد من كل نوع ، وحسبك بيته شاهداً على التكلف والتعقيد .

(٣٠) المواربة(٢) :

يا عاذلى أنت محبوب لدى فلا تواربالعقل منى واستفد حكمى

أشار إلى مأخذها من اللغة فبين أنها مأخوذة من الأرب وهى الحاجة ، ثم عرض لما قاله ابن أبى الإصبع فيها ، ثم ساق الأمثلة :

(٣١) الكلام الجامع(٣) :

جمع الكلام إذا لم تغن حكمته وجوده عند أهل الذوق كالعدم

عرفه بقوله .هو أن يأتى الشاعر ببيت مشتمل على حكمة أووعظ أوغير

---

(١) ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٢) ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) ص ١٤٢ — ١٤٣ .

ذلك من الحقائق التى تجرى مجرى الأمثال ويتمثل الناظم بحكمها أووعظها أوبحالة تقتضى إجراء المثل كقول أبى نواس :

إذا كان غير الله فى عدة الفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(٣٢) المناقضة(١) :

إنى أناقضهم إن أزمعوا ونأوا وجــرّ نملٌ ثبيرا إثر عيسهم

ومأخذ هذا البيت من قول المتنبى :

أحبك أو يقولوا جرّ نمل ثبيرا وابن ابراهيم ريعا

وقد عرفها الناظم بما سبق لغيره ، ثم فرق بينها وبين نفى الشىء بإيجابه بأن المناقضة ليس فيها نفى ولا إيجاب ونفى الشئ بإيجابه ليس فيه شرط .

(٣٣) التصدير(٢) :

ألم أصرح بتصدير المديح لهم ألم أهدّد ألم أصبر ألم أُلَم .

أشار إلى أن المتأخرين سموا رد العجز على الصدر بالتصدير وهى أخف على السمع وأليق بالمقام ثم أشار إلى تقسيمات ابن المعتز الثلاثة وما قاله ابن أبى الإصبع وإلى مازاده قدامة وسماه باسم التبديل ، ثم ساق الأمثلة .

(٣٤) القول بالموجب(٣) :

قولى له موجب إذ قال أشفقهم تسلّ قلت بنارى يوم فَقْدِهم

نبه على أنه يسمى أسلوب الحكيم ، وأن للناس فيه عبارات مختلفة ، فمنهم من قال . هو أن يخصص الصفة بعد أن كان ظاهرها العموم ، أويقول بالصفة الموجبة للحكم ولكن يثبتها لغير من أثبتها المتكلم ، ثم نقل كلام ابن أبى الإصبع فى التحرير وكلام القزوينى فى الإيضاح والتلخيص ، وساق أمثلته ، ثم نبه على أن حذاق البديع أخلوا هذا الباب من لفظة ( لكن ) فإنهم خصصوا بها نوع الاستدراك بحيث يفرق بينهما فرق دقيق وهذا هو الفرق ، ثم ساق الأمثلة .

---

(١) ص ١٤٣ . (٢) ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٣) ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٣٥) الهجو فى معرض المدح :(١)

وكم بمعرض مدح قد هجوتهم وقلت سدتم بحمل الضيم والتهم

نبه على أن هذا النوع من مستخرجات ابن أبى الإصبع ، ثم نقل تعريفه ومثل له بأمثلة منها قول الحماسى :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلم والعفة والخشية والتقوى وباطنه المقصود أنهم فى غاية الذل .

(٣٦) الاستثناء :(٢)

عفت القدود فلم أستثن بعدهم إلا معاطف أغصانٍ بذى سلم

نبه على أنه نوعان لغوى وقد فرغ منه النحاة ، وصناعى ، وهو الذى يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى يزيد على معنى الاستثناء ويكسوه بهجة وطلاوة ويميزه بما يستحق به الإثبات فى أبواب البديع ، ثم ساق أمثلته التى أسلفنا منها شيئا .

(٣٧) التشريع :(٣)

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النّقا فنعمنا فى ظلالهم

أشار إلى أن ابن أبى الإصبع سمى هذا النوع بالتوءم ، ثم شرحه بما شرحه به وساق الأمثلة . وقد بلغ ابن حجة فى هذا البيت نهاية القدرة فى هذه الصناعة حيث يستطاع استخراج بيتين من بيته هذا الأول

طاب اللقا على النقا وهو من منهوك الرجز

والثانى :—

لذ تشريع الشعور لنا فنعمنا فى ظلالهم

وهو من المديد ، وهذا من أمارة تمكنه فى الصناعة وغرامه بها .

(١) ص ١٤٦ – ١٤٧ . (٢) ص ١٤٧ – ١٤٩ .
(٣) ص ١٤٩ – ١٥٢ .

(٣٨) التتميم :(١)

بكل بدر بليل الشعر يحسده     بدر السماء على التتميم فى الظلم

نبه على أن هذا النوع كان يسمى التمام وإنما سماه الحاتمى بالتتميم وسماه ابن المعتز اعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه ، ثم عرفه بتعريفهم له وساق الأمثلة ، منبها على أن جماعة من المؤلفين وهموا فخلطوا التكميل بالتتميم وساقوا شواهد التتميم فى باب التكميل وبالعكس ، والفرق بينهما . أن التتميم يرد على الناقص فيتمه ، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله إذ الكمال أمر زائد على التمام ، وأيضا إن التمام يكون متمما لمعانى النقص لا لأغراض الشعر ومقاصده ، والتكميل يكملها ثم بين أن بيت بديعيته متعلق بما قبله ، فقوله . بليل الشعر تتميم أول ، وقوله على التتميم تتميم ثان ، وقوله فى الظلم تتميم ثالث .

(٣٩) تجاهل العارف(٢) :

وافتر عُجْباً تجاهلنا بمعرفة     قلنا أبرقٌ بدا أم ثغر مبتسم

نبه على أن هذه التسمية لابن المعتز وأن السكاكى سماه سوق المعلوم مساق غيره لنكتة المبالغة فى التشبيه ثم لم يزد على ماعرفوه به .

(٤٠) الاكتفاء(٣) :

لما اكتفى خده القانى بحمرته     قال العواذل بغضا . إنه لدمى (م)

عرفه بقوله — هو أن يأتى الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة . بمحذوف فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقى لفظ البيت عليه ويكتفى بما هو معلوم فى الذهن فيما يقتضى تمام المعنى وهو نوع ظريف ينقسم إلى قسمين . قسم يكون بجميع الكلمة وقسم يكون ببعضها والاكتفاء بالبعض أصعب مسلكا لكنه أحلى موقعا ولم أره فى كتب البديع ولا فى شعر المتقدمين ، فمن الأول قول ابن مطروح :

لا أنتهى لا أنثنى لا أرعــوى     مادمت فى قيد الحياة ولا إذا «مت»

---

(١) ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) ص ١٥٣ — ١٥٨ .

(٣) ص ١٥٨ — ١٦٤ .

فمن المعلوم أن باقى الكلام . ولا إذا مت لما تقدم من قوله الحياه ، ومتى ذكر تمامه فى البيت الثانى كان عيبا من عيوب الشعر مع مايفوته من حلاوة الاكتفاء ولطفه وحسن موقعه فى الأذهان ، ثم ساق أمثلة كثيرة أسلفنا منها الكثير فى الفصل السابق .

وقد شاع هذا اللون فى العصور المتأخرة ، وأول من عرض له من البديعيين صفى الدين الحلى ثم اتبعه أصحاب البديعيات .

**(٤١) مراعاة النظير (١) :**

ذكرت نظم اللآلى والحباب له　　　راعى النظير بثغرٍ منه منتظم

نبه على أنه يسمى التناسب ، والائتلاف ، والتوفيق ، والمؤاخاة ، ثم عرفه بما سلف لغيره وساق أمثلته .

**(٤٢) التمثيل (٢) :**

وقلت ردفك موج كى أمثله　　　بالموج قال قد استسمنت ذا وَرَمِ

نبه على أن قدامة قد فرع هذا النوع من ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ونقل حده له ثم بين أنه ضرب من الاستعارة والتشبيه ونبه على أنهم ألحقوا به مايخرجه المتكلم مخرج المثل السائر .

**(٤٣) التوجيه (٣) :**

وأسود الخال فى نعمان وجنته　　　لى منذر منه بالتوجيه للعدم (٤)

لم يفت ابن حجة فى هذا الباب أن ينبه على خلط رجال هذا الفن إذ بين أن التوجيه هو إبهام المتقدمين وأمثلته القليلة هى أمثلته ، وأن تسمية هذا النوع بالإبهام كما صنع ابن أبى الأصبع أليق من تسميته بالتوجيه كما فعل السكاكى ومتابعوه ثم بين التوجيه عند المتأخرين قال :

وأما التوجيه عند المتأخرين فقد قرروا أن يوجه المتكلم بعض كلامه

---

(١) ص ١٦٤ — ١٦٧ .　　(٢) ص ١٦٤ — ١٦٩ .

(٣) ص ١٦٩ — ١٨٠ .

(٤) النعمان : الدم وأضيفت الشقائق إليه لحمرته .

أو جملته الى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم أوغير ذلك مما يتشعب له من الفنون توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثانى من غير اشتراك حقيقى ، بخلاف التورية وهذا هو مذهب صفى الدين الحلى فى بديعيته وشرحها ، وعلى منواله نسجت بديعيتى لأجل المعارضة ، وقد أدخل قوم التوجيه فى التورية وليس منها ، والفرق بينهما من وجهين . أحدهما . أن التورية تكون باللفظة المشتركة والتوجيه باللفظ المصطلح عليه والثانى أن التورية تكون باللفظة الواحدة والتوجيه لايصح إلا بعدة ألفاظ متلائمة كقول علاء الدين الوداعى :

من أم بابك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة ، والكف عن صلة ... والقلب عن جابرٍ والأذن عن حسن

أما قرة : « فهو قرة بن خالد السدوسى وهو ثقة يروى عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعى »

وأما صلة : « فهو صلة بن أشيم العدوى من كبار التابعين ، وأما جابر فهو جابر بن عبد الله صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وليس بجابر الجعفى ، وأما الحسن فهو : الحسن البصرى كان تابعيا » .

ولعلك لاتشك فى أن هذا المثال وما ساقه على غراره من أمثلة ينطبق تمام الانطباق على مراعاة النظير أو إيهام التناسب ، ولا ينهض تحديدهم لهذا النوع فاصلا بين ذلك ولا ندرى كيف فات ذلك ابن حجة ممتثلا نزعة التقليد والمحاكاة .

(٤٤) عتاب المرء نفسه (١) :

يانفس ذوقى عتابى قد دنا أجلى ... منى ولم تقطعى آمال وصلهم

وهذا موطن رابع يثور فيه ابن حجة على الأنواع التافهة فقد قال . هذا النوع أعنى عتاب المرء نفسه لم أجد العتب مرتبا إلا على من أدخله فى البديع وعده من أنواعه ، وليس بينهما نسبة ــ والذوق السليم أعدل شاهد

(١) ص ١٨٠ – ١٧١ .

على ذلك ، ولولا أن الشروع فى المعارضة ملزم مانظمت حصاه مع جواهر هذه العقود ، ثم نبه على أنه من إفراد ابن المعتز ، وساق ما مثل به .

وقد أسلفت غير مرة أن النسخة التى بين يدى من بديع ابن المعتز ليس فيها هذا النوع وإنما فيها ماسماه : « إعنات الشاعر نفسه فى القوافى » ومن أمثلته التى ساقها هذان البيتان اللذان مثل بهما ابن حجة وغيره ممن تقدموه

عصانى قومى فى الرشاد الذى به أمرت ومن يعص المجرب يندم
فصبرا بنى بكر على الموت إننى أرى عارضا ينهل بالموت والدم

وذلك هو الذى عرف فيما بعد ابن المعتز بلزوم مالا يلزم ، فلعل علماء البديع جميعا وقعوا على نسخة ناقصة محرفة فقالوا ماقالوا :

(٤٥) القسم (١) :

برئت من أدبى ، والعز من شيمى إن لم أبر بنأى عنهم قَسَمى

وهذا موطن خامس يمثل إنكاره للتوافه فقد بين أن هذا النوع ليس تحته كبير أمر ولكن الشروع فى المعارضة ملزم ... الخ .

(٤٦) حسن التخلص(٢) :

ومن غدا قسمه التشبيب فى غــزل حسن التخلص بالمختار من قسمى(٣)

عرفه بقوله : هو الانتقال من معنى إلى معنى بتخلص سهل بحيث لايشعر السامع بالانتقال من الأول إلا وقد وقع فى الثانى لشدة الانسجام بينهما ، ثم نبه على أن المتقدمين لم يبرعوا فى هذا النوع براعة المتأخرين بل كان عزيزا عند الأولين سهلا كثيرا عند المتأخرين ، ثم ساق أمثلة .

(٤٧) الاطراد(٤) :

( محمد بن الذبيحين الأمين أبو البتول خير نبى فى اطرادهم )
لم يزد فى هذا النوع على من سبقوه .

(١) ص ١٨١ – ١٨٥ . (٢) ص ١٨٥ – ١٩٩ .

(٣) القسم : النصيب جمعه أقسام والقسم مصدر قسم والعطاء ولا يجمع الأخير . قسم : جمع قسمة .

(٤) ص ١٩٩ – ٢٠١ .

(٤٨) العكس [١] :

عين الكمال كمال العين رؤيته    ياعكس طرفٍ من الكفار عنه عمى

نبه على أن هذا النوع رخيص بالنسبة إلى مافوقه من أنواع البديع الغالية وإن لم يصوب البليغ عكسه بنكتة بديعية تنظمه فى سلك أنواع البديع فهو مستمر على عكسه ثم ساق ماتقدم لغيره .

(٤٩) الترديد[٢] :

أبدى البديع له الوصف البديع وفى    نظم البديع حلا ترديده بفمى

(٥٠) التكرار[٣] :

كررت مدحى حلا فى الزائد الكرم    م ابن الزائد الكرم ابن الزائد الكرم

شرحهما بما سبق لغيره ، ثم نبه على دنو منزلتهما وانقطاع الصلة بينهما وبين أنواع البديع ثم سرد فرق ابن أبى الإصبع بينهما ، ثم ساق الأمثلة.

(٥١) المذهب الكلامى [٤] :

ومذهبى فى كلامى أن بعثته    لو لم تكن ماتميزنا على الأمم

نبه على أن هذه التسمية منسوبة إلى الجاحظ ، ثم عرفه بما سلف لغيره ، ثم لمز ابن المعتز فى قوله :

« إنه لم يعلم له شاهدا فى القرآن » قال : ليس عدم علمه مانعا علم غيره ثم بين أن أعظم شواهده إنما تكون من القرآن ، وساق منه ومن الحديث والشعر الشىء الكثير .

(٥٢) المناسبة[٥] :

فعلمه وافر والزهد ناسبه    وحلمه ظاهر عن كل مجترم

بين أنها على ضربين . مناسبة فى المعانى ، ومناسبة فى الألفاظ ، ثم ساق شواهد كثيرة للقسم المعنوى ساقها غيره لمراعاة النظير ، وقد أسلفت

---

(١) ص ٢٠١ — ٢٠٤ .
(٢) ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٣) ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٤) ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٥) ص ٢٠٧ — ٢١٠ .

الإشارة إلى ذلك غير مرة . وأما اللفظية فما حرى أمثلتها التى ساقها بالموازنة كما فعل الخطيب القزوينى وذلك من أمثلة خلط ابن حجة وغيره وميلهم إلى الإكثار من الألوان وتشعيب الأقسام وماضرهم لو اتبعوا خطة الخطيب الصائبة التى سلكها فى كتابيه ، ولكنه الشغف بالكثرة التى ليس تحتها طائل .

(٥٣) التوشيع(١) :

ووشّع الأرض منه العدل فاتشحتْ  بحلة الأمجدين العهد والذمم(٢)

أشار إلى مأخذه من اللغة ، ثم شرح معناه فى الاصطلاح بما لا يخرج عما قاله الخطيب القزوينى فى هذا النوع من باب الإطناب ، وذلك إلى الاستعارة والتشبيه والكناية وما إليها من أبواب المعانى والبيان من أمثلة الاضطراب والخلط بين مسائل العلوم الثلاثة مع اعترافهم باستقلالها وتعددها .

(٥٤) التكميل(٣) :

آدابه تمت لانقْص يدخلها  والوجه تكميله فى غاية العظم

بين معناه بما سبق لابن أبى الأصبع ، ثم نبه على أن غالب المؤلفين خلطوا التكميل بالتتميم وانهما لمتميزان ، ثم فرق بينهما بما أسلفه فى التتميم ثم ساق الأمثلة التى توضح مراده .

(٥٥) التفريق(٤) :

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لى  فى ذاك نقص وهذا كامل الشيم

(٥٦) التشطير(٥) :

وانشق من أدب له بلا كذب  شطرين فى قسم تشطير ملتزم(٦)

---

(١) ص ٢١٠ – ٢١٢ .

(٢) وشعه كرضعه خلطه ووشعه الشيب توشيعا علاه .

(٣) ص ٢١٢ – ٢١٤ .  (٤) ص ٢١٤ .

(٥) ص ٢١٥ .  (٦) قسم : قسم ككرم قسما صار قسيما جميلا

(٥٧) التشبيه (١) :

والبدر فى التم كالعرجون صار له    فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم(٢)

(٥٨) التلميح (٣) :

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة    وما ليوشع تلميح بركبهم

(٥٩) تشبيه شيئين بشيئين (٤) :

شيئان قد أشبها شيئين فيه لنا    تبسم وعطاً كالبرق فى الديم

(٦٠) الانسجام (٥) :

له انسجام دموعى فى مدائحه    بالله شنف بها ياطيب النغم

وهذه الأنواع الستة قد سلك فيها مسالك السابقين مع إربائه عليهم بما امتاز به من الإكثار من الشواهد .

(٦١) التفصيل (٦) :

وإن ذكرت زمانا ضاع من عمرى    فى غير تفصيل مدح صحت ياندمى

هذا النوع معناه أن يأتى الشاعر بشطر بيت له متقدم صدرا كان أوعجزا ليفصل به كلامه بعد حسن التصريف فى التوطئة الملائمة ، وهذا أمر سهل يقدر عليه كل إنسان مبتدئ فى الشعر ، فهو من عبث هذه الصناعة ، لذلك أنكره ابن حجة قال : إنه نوع رخيص بالنسبة الى فن البديع ، وقد نبهت على عدة أنواع سافلة ، ولكنها المعارضة أملت عليه نظمه.

(٦٢) النوادر (٧) :

نوادر المدح فى أوصافه نشقت    منها الصبا فأتتنا وهى فى شمم

نبه على أن قوما سموه الإغراب والطرفة ، وهو أن يأتى الشاعر بمعنى

---

(١) ص ٢١٦ .

(٢) العرجون : العذق أو إذا يبس وأعوج أو أصله ، والعذق : النخلة وإما بالكسر وهو المراد هنا فهو القنوة منها .

(٣) ص ٢٣ .

(٤) ص ٢٣٦ .

(٥) ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(٦) ص ٢٣٥ .

(٧) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

يستغرب لقلة استعماله لا لأنه لم يسمع بمثله ، ثم نبه على أن هذا مما اختاره قدامة وأن غالب علماء البديع اختاروا غير رأى قدامة فى هذا النوع فإنهم قالوا : لايكون المعنى غريبا إلا إذا لم يسمع ثم عرض لما قاله فيه ابن أبى الإصبع وقال : إنه أقرب من اختيار قدامة ثم ساق الشواهد .

(٦٣) المبالغة (١) :

بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغى        والشهب قد رمدت من عثير الدهم

(٦٤) الإغراق (٢) :

لو شاء اغراق من ناواه مدله        فى البر بحراً بموج فيه ملتطم

(٦٥) الغلو (٣) :

بلا غلو إلى السبع الطباق سرى        وعاد والليل لم يجفل بصبحهم (٤)

لم يأت بجديد فى هذه الألوان الثلاثة بل عرض لأقوال من تقدموه من قبول هذه الألوان فى الكلام أو رفضها واختار القبول ثم قال (٥) وهذا النوع أعنى المبالغة شركه قوم مع الإغراق والغلو لعدم معرفة الفرق وهو مثل الصبح ظاهر ، والمبالغة فى الاصطلاح هى إفراط وصف الشىء بالممكن القريب وقوعه عادة ، والإغراق وصف الشىء بالممكن البعيد وقوعه عادة ، والغلو وصفه بما يستحيل وقوعه — ولقد كان الخطيب فى كتابيه أدق منه نظرا وأصوب فكرا حيث جمع هذه الألوان الثلاثة تحت اسم المبالغة ونوعها إلى التبليغ وهو ماسماه ابن حجة وغيره المبالغة ، ثم الإغراق ، ثم الغلو .

(٦٦) ائتلاف المعنى مع المعنى :(٦)

سهل شديد له بالمعنيين بدا        تألفٌ فى العطا والدين للعظم

(١) ٢٧٨ — ٢٨١ .    (٢) ص ٢٨١ — ٢٨٣ .
(٣) ص ٢٨٣ — ٢٨٦ .
(٤) جفل البحر السمك ألقاه على الساحل وبابه ضرب .
(٥) ص ٢٨٣ — ٢٨٦ .
(٦) ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

نبه على أنه نوعان . الأول اشتمال الكلام على معنى معه أمران أحدهما ملائم والآخر بخلافه ومثاله قول المتنبي :

فالعرب منه مع الكُدرى طائرةٌ والروم طائرةٌ منه مع الحجل(١)

وقالوا إن تقوية المعنى الأول مناسبة القطا الكدرى مع العرب لأنه يلائمهم بنزوله السهل من الأرض وينفر من العمران إلا إذا زاد به العطش ، ومناسبة الحجل مع الروم أنها تسكن الجبال وتنزل فى المواضع المعروفة بالشجر ، والضرب الثانى أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين له فيقرن بهما ما لاقترانه مزية ، وهو أبدع من الأول وأوقع ، ولذلك نظم عليه بيته كما قال — فقد قرن سهولة النبي بالعطاء ، وقرن شدته بالدين لعظمه .

(٦٧) نفى الشيء بإيجابه(٢) :

لاينتفى الخير من إيجابه أبدا ولا يشين العطا بالمن والسأم

(٦٨) الإيغال(٣) :

للجود فى السير إيغال اليه وكم حبا الأنام بود غير منصرم

فى المصراع الأول من بيت الإيغال تخريج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر بقلب العبارة إذ المراد منه . إيغاله عليه السلام فى السير إلى الجود . وهو فى هذين النوعين حاذ حذو من تقدموه .

(٦٩) التهذيب والتأديب(٤) :

تهذيب تأديبه قد زاده عظما فى مهده وهو طفل غير منفطم

أشار إلى أن العلماء لم يقرروا لهذا النوع شاهداً يخصه لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر وهو عبارة عن ترداد النظر فى الكلام بعد عمله

(١) الكدرى : ضرب من القطا غبر الألوان رقش الظهور صفر الحلوق .
الحجل : الذكر من القبج الواحدة حجلة والحجلى : اسم للجمع .
(٢) ص ٢٨٧ — ٢٨٩ .
(٣) ص ٢٨٩ — ٢٩١ .
(٤) ص ٢٩١ — ٢٩٣ .

والشروع فى تهذيبه وتنقيحه ... ثم عرض للمنقحين كزهير ومن شايعه وساق الأمثلة من شعرهم .

وما أدرى كيف يجعل هذا النوع من أنواع البديع . اللهم إلا إشباعا لرغبة الإكثار الممل .

(٧٠) مالا يستحيل بالانعكاس(١) :

بحر وذو أدب بدء وذو رحب     لم يستحل بانعكاس ثابت القدم(٢)

أشار الى أن قوما سموه المقلوب والمستوى ، وسماه السكاكى مقلوب الكل ، وسماه الحريرى مالا يستحيل بالانعكاس ، ثم عرفه وساق أمثلته .

(٧١) التورية (٣) :

أوصافه الغر قد حلت بتورية     جيدى وعقد لسانى بعد ذا وفمى

نبه على أنه يقال لها . الإيهام . والتوجيه . والتخيير . والتورية أولى لقربها من مطابقة المسمى ، ثم عرض لمأخذها من اللغة والاصطلاح منبها على أن المتأخرين هم الذين تنبهوا لمحاسنها ثم ذكر أطوارها فى طبقاتهم ، ثم عد رجالها الذين اتخذوها مذهبا من المصريين والشاميين مطنبا فى هذا الباب أطنابا شديدا لم يتفق له فى غيره من الأبواب .

(٧٢) المشاكلة(٤) :

من اعتدى فبعدوان يشاكله     لحكمةٍ هو فيها خير منتقم

(٧٣) الجمع مع التقسيم(٥) :

جمع الأعادى بتقسيم يفُرقه     فالحى للأسر والأموات للضرم

(٧٤) الجمع مع التفريق(٦) :

سناه كالبرق إن أبدوا ظلام وغى     والعزم كالبرق فى تفريق جمعهم

---

(١) ص ٢٩٣ — ٢٩٥ .

(٢) البدء : السيد والشاب العاقل رحب : ككرم : اتسع .

(٣) ص ٢٩٥ — ٤٣٥ .     (٤) ص ٤٣٥ — ٤٣٦ .

(٥) ٤٣٦ — ٤٣٧ .     (٦) ص ٤٣٧ .

(٧٥) الإشارة (١) :

ومن إشارته فى الحرب كم فهم م الأنصار معنى به فازوا بنصرهم

هذه الأنواع الأربعة قد سلك فيها مسالك السابقين .

(٧٦) التوليد (٢) :

نوليد نصرتهم يبدو بطلعتــه ماالسبعة الشهب ما توليد رملهم(٣)

وقد أنكر ابن حجة أن يكون هذا اللون من ألوان البديع .

(٧٧) الكناية (٤) :

قالوا طويل نجاد السيف قلت وكم لناره ألسن تكنى عن الكرم

بين أنها الإرداف عند علماء البيان وإنما علماء البديع أفردوا الإرداف عنها ، ثم عرفها وساق أمثلتها على طراز من تقدموه :

(٧٨) الجمع (٥) :

آدابه وعطاياه ، ورأفته سجيّةٌ ضمن جمع فيه ملتئم

(٧٩) السلب والإيجاب(٦) :

إيجابه بالعطايا ليس يسلبه ويسلب المن منه سلب محتشم

(٨٠) التقسيم (٧) :

هداه تقسيمه حالى به صلحت حيا وميتا ومبعوثا مع الأمم

(٨١) الإيجاز (٨) :

أوجز وسل أول الأبيات عن مدح فيه وسل مكة ياقاصد الحرم

---

(١) ص ٤٣٧ – ٤٣٨ . (٢) ص ٤٣٨ – ٤٤٠ .

(٣) يقال بينة : مولدة غير محققه وكتاب مولد مفتعل فلعله من هذا ويكون المعنى ما يفتعلونه بطرق الرمل .

(٤) ص ٤٤٠ – ٤٤١ . (٥) ص ٤٤١ – ٤٤٣ .

(٦) ص ٤٤٢ – ٤٤٣ . (٧) ص ٤٤٣ – ٤٤٥ .

(٨) ص ٤٤٥ – ٤٤٦ .

(٨٢) المشاركة (١) :

بالحجر ساد فلا ندّ يشاركه حجر الكتاب المبين الواضح اللقم (٢)

(٨٣) التصريع (٣) :

تصريع أبواب عدن يوم بعثهم يلقاه بالفتح قبل الناس كلهم

(٨٤) الاعتراض (٤) :

فلا اعتراض علينا فى محبتـه وهو الشفيع ومن يرجوه يعتصم

(٨٥) الرجوع (٥) :

وما لنا من رجوع عن حماه بلى لنا رجوع عن الأوطان والحشم

قد ترسم فى هذه الأنواع الثمانية خطا السابقين ونسج على منوالهم .

(٨٦) الترتيب (٦) :

ترتب الحيوانات السلام له والنبْت حتى جماد الصخر فى الأكم

أشار إلى أن هذا النوع من مستخرجات التيفاشى وهو الذى سماه بهذا الاسم وقال . هو أن يجنح الشاعر إلى أوصاف شتى فى موضوع واحد أو فى بيت وما بعده على الترتيب ويكون ترتيبها فى الخلقة الطبيعية ولا يدخل الناظم فيها وصفا زائدا عما يوجد علمه فى الذهن أو فى العيان كقول مسلم ابن الوليد :

هيفاء فى فرعها ليل على قمـر على قضيب على حقف النقا الدهس (٧)

فإن الأوصاف الأربعة على ترتيب خلقة الإنسان من الأعلى إلى الأسفل .

---

(١) ص ٤٤٦ – ٤٤٧ .

(٢) اللقم : معظم الطريق أو وسطه . الحجر مثلثة الحاء : المنع .

(٣) ص ٤٤٧ – ٤٤٨

(٤) ص ٤٤٨ .

(٥) ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(٦) ص ٤٤٩ – ٤٥٠ .

(٧) الحقف : المعوج من الرمل جمعه أحقاف وحقاف وحقوف وجمع الجمع حقائف . رمل أدهس بين الدهس وهو السهولة . الهيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر وهيف كفرح وخاف .

(٨٧) الاشتقاق (١) :

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبيين اشتقاقهم

نبه على أن هذا النوع من مستخرجات أبى هلال ، وبين أن الخطيب لم يذكره فى كتابيه وكذلك الشهاب محمود فى حسن التوسل ، وكذلك العميان ، ولم يذكره من أصحاب البديعيات سوى صفى الدين وعز الدين ، ثم قال . وعرفه أبو هلال قال . هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم معنى فى غرض يقصده من مدح أو هجاء » وإذا عرضت هذا على ما ذكرناه فى موطنه عن أبى هلال وجدت مباينة ظاهرة بين التعريفين . فأبو هلال حقا هو الذى استخرج هذا النوع وأطلق عليه هذا الاسم ونوعه إلى نوعين فالأول أن يشتق اللفظ من اللفظ ، والثانى أن يشتق المعنى من اللفظ ..... الخ . فلعل ابن حجة وقع على نسخة خلاف التى تحت أيدينا وفيها ما ذكره .

(٨٨) الاتفاق (٢) :

ووصفه لابنه قد جاء تسمية فإنه حسنٌ حسب اتفاقهم

(٨٩) الإبداع (٣) :

أبداع أخلاقه إبداع خالقه فى زخرف الشعرا فاسجع بها وهم

وهذان قد درج فيهما مدارج السابقين .

(٩٠) المماثلة (٤) :

فالخير ماثله والعفو جاوره والعدل جانسه فى الحكم والحكم

عرّف هذا النوع بقوله . هو أن تماثل ألفاظ الكلام أو بعضها فى الزنة دون التقفية ، ثم قال وقد تأتى بعض ألفاظ مقفاة من غير قصد، لأن التقفية فى هذا الباب غير لازمة والفرق بين المماثلة والمناسبة توالى الكلمات المتزنة وتفرقها فى المناسبة ثم مضى يحط من شأن هذا النوع قال . وهذا النوع ماتستحق عقود البديع بسموها أن ينتظم النوع السافل فى أسلاكها وما أعلم

(١) ص ٤٥٠ – ٤٥١ .
(٢) ص ٤٥١ – ٤٥٢ .
(٣) ص ٤٥٢ – ٤٥٣ .
(٤) ص ٤٥٣ – ٤٥٤ .

وجه الإبداع فيه ماهو . ولا نرى من استخراجه وعده بديعا غير الكثرة ، وقد حسن أن أنشد هنا : « وكثر فارتابت ولو شاء قَلَّلا » . وبالله ماالختلج فى فكرى من حين تأدبت أن أرصعه فى قصيدة من قصائدى ولكن حكم المعارضة أوجب ذلك . أقول . وهذا التعريف ينطبق على ما أورده الخطيب فى تعريف الموازنة وجعل المماثلة نوعا منها .

(٩١) حصر الجزئى وإلحاقه بالكلى (١) :

ألحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلى للعظم

لم يوفق الناظم فى هذا البيت إلى جعله مثالا للنوع المذكور فوق التورية باسمه على رغم امتداحه هذا البيت وأنه ليس له نظير فى أبيات البديعيات ، وقد عرف هذا النوع نقلا عن مستخرجه ابن أبى الإصبع بقوله . هو أن يأتى المتكلم إلى نوع فيجعله بالتعظيم له جنسا بعد حصر أقسام الأنواع فيه والأجناس ، ومن أمثلته الظاهرة التى ساقها غيره قوله عليه السلام: « الدعاء هو العبادة » ألحق الدعاء الذى هو هنا نوع جزئى تعظيما لشأنه بالكلى الذى هو هنا العبادة وجعله جنسا لجميع أنواعها ولو طبقت هذا التعريف وهذا المثال على بيته لما وجدته صالحا لتمثيل ذلك النوع لأن محصل بيته أمر المادح أن يلحق جميع الأنبياء به عليه السلام ، فأى جزئى حصر الناظم فى بيته وألحقه بكليه ، وقد ساق قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلاهو... الآية مثالا لذلك النوع وهو لاينطبق عليها أيضا فالحق أنه زل فى هذا البيت وفى تطبيق أمثلته عليه .

(٩٢) الفرائد (٢) :

وشم وميض بروق من فرائده وانظم حنانيْك عقداً غير منفصم

(٩٣) الترشيح (٣) :

يَس زادت على لقمان حكمته وبان ترشيحه فى نون والقلم

(١) ص ٤٥٤ – ٤٥٥ .

(٢) ص ٤٥٥ .

(٣) ص ٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٩٤) العنوان(١) :

به العصا أثمرت عزا لصاحبها موسى وكم قدمحت عنوان سحرهم

(٩٥) التسهيم(٢) :

كذا الخليل بتسهيم الدعاء به أصابهم ونجا من حـــر نارهم

(٩٦) التطريز (٣) :

شملى بتطريز مدحى فيه منتظمٌ ياطيب منتظَمٍ ياطيب منتظِم

(٩٧) التنكيت(٤) :

وآله البحر آل إن يقس بنـــدىً كفوفُـهم فافهموا تنكيت مدحهم

وهذه الأنواع الستة لم يزد فيها على من أسلفناها عنهم .

(٩٨) الإرداف(٥) :

وفى الوغى رادفوا لُسْن القنا سكنا من العدى فى محل النطق بالكلم

قال ابن حجة . نوع الإرداف قالوا . إنه هو والكناية شيء واحد . قلت وإذا كان الامر كذلك كان الواجب اختصارهما وإنما أئمة البديع كقدامة والحاتمى والرمانى قالوا إن الفرق بينهما ظاهر . والإرداف أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له بل يعبر عنه بلفظ هو رديفه وتابعه كقول البحترى يصف طعنة :ـ

فأوجرته أخرى فأحللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد(٦)

ومراده القلب فذكره بلفظ الإرداف ، والفرق بين الإرداف والكناية ، أنه عبارة عن تبديل الكلمة بردفها والكناية هى العدول عن التصريح بذكر الشيء إلى مايلزم لأن الإرداف ليس فيه انتقال من لازم إلى ملزوم » .

وأنت خبير بأن هذا المثال الذى أقامه شاهدا على الإرداف منطبق

(١) ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .
(٢) ص ٤٥٧ – ٤٥٨ .
(٣) ٤٥٨ – ٤٥٩ .
(٤) ٤٥٩ – ٤٦٠ .
(٥) ص ٤٦٠ – ٤٦١ .
(٦) أوجره الرمح : طعنه به فى فيه .

على ما ذكره الخطيب باسم الكناية عن الموصوف التى جعلها أولى أقسام الكناية الثلاثة ، فهذا الفرق الذى ذكره غير ظاهر ، وادعاؤه أن الإرداف ليس فيه تلازم باطل .

(٩٩) الإيداع (١) :

وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرخم(٢)

والشطر الثانى الذى أودعه بيته من قصيدة ميمية لأبى الطيب . والبيت هو.

لاتشكون إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

فانظر الفرق بين البيتين .

ثم بين ابن حجة أن هذا النوع يغلب عليه التضمين والتضمين غيره ، فإنه معدود من العيوب ، وهو أن يكون البيت متوقفا فى معناه على البيت الذى بعده ، وأما الإيداع فهو أن يودع الناظم شعره بيتا من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطىء له توطئة تناسبه ...

وأنت ترى أن ابن حجة فى واد ومن يطلقون على الايداع اسم التضمين فى واد آخر ، فالمعدود من العيوب هو التضمين العروضى ، وقد مرّ التضمين البديعى الذى ليس بمعيب عن ابن رشيق وغيره فهذا موطن سها فيه ابن حجة سهوا ظاهرا كما ترى .

(١٠٠) التوهيم (٣) :

والبعض ماتوا من التوهيم واطرحوا والسمر قد قبلتهم عند موتهم(٤)

قال ابن حجة . هذا النوع أعنى التوهيم وتقدمه باب الترشيح كان الأليق بهما أن ينتظما فى سلك باب التورية ، ويذكر التوهيم مع إيهامها والترشيح مع المرشحة ، ثم نقل ماقاله ابن أبى الإصبع .

والتوهيم فى بيت بديعيته مع ضميمة البيت السابق له ، فذكر الموت

---

(١) ص ٤٦١ – ٤٧٩ . (٢) الرخم طائر الواحدة بهاء .

(٣) ص ٤٧٩ – ٤٨٠ .

(٤) التوهيم فى اللغة : الإيقاع فى الوهم . السمر : الرماح .

فى البيت يوهم السامع أن نساءهم السمر قد أدارتهم إلى جهة القبلة كما هو المعهود ، والتوهيم هنا فى التقبيل وفى السمر ، والمراد بالسمر الرماح ، وبالتقبيل الطعن فى الأفواه .. الخ .

(١٠١) الإلغاز (١) :

وكلما ألغـــزوه حلّه لسنٌ مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم(٢)

بين أن هذا النوع يسمى المحاجاة والتعمية وهى أعم أسمائه ، وهو أن يأتى المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ويأتى بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه ، وأبدع مافيه أنه لم يسفر فى أفق الحلى غير وجه التورية ، وأما تعسف الفرقة التى ليس لها إلمام بالتورية فى الإلغاز فأمرهم مسلم إليهم ، ثم بين الشاهد من بيته قال . هذا البيت بديع فى هذا الباب فإن اللغز فى الرمح ، والتورية فى لسن ، لأن لسان الرمح لسان القائل فى التورية للتكليم وفى التعقيد المشترك بين تعقيد اللغز وتعقيد الرمح » .

ولم يفرق ابن حجة بين الإلغاز والتورية وقد فرق بينهما غيره قال « والفرق بينه وبين التورية المحضة أن الكلام فيها صحيح على كلا المعنيين من غير اشتراط استحالة أحدهما أو بعد وقوعه وشدة غرابته واللغز بخلاف ذلك فإنه لابد أن يكون فيه وصف المورى به مستحيل الوقوع عادة أوعقلا أو بعيده جدا حتى يستغربه السامع فيتطلب بقدح زناد الفكر معنى آخر ممكنا(٣) .

(١٠٢) سلامة الاختراع (٤) :

وقده باختراع سالمٍ ألفٌ يبدو بترويسه من رأس كل كمى(٥)

(١) ص ٤٨٠ – ٤٩٣ .

(٢) تعقيده : العقدة أصل اللسان . والأوضح أنه من قولك عقدته تعقيداً أغلبته حتى غلظ والمراد هنا عقد الرمح .

(٣) إقامة الحجة ٦٣ .

(٤) ص ٤٩٣ – ٤٩٨ .

(٥) ترويسه : راس روسا : مشى متبختراً .

(١٠٣) التفسير (١) :

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغى ... كم فسروا من بدور فى دجى الظلم

(١٠٤) حسن الاتباع (٢) :

ذكراه تطربهم والسيف ينهل من ... أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم

اتبع فى هذا البيت الأخير قول ابن الفارض .

فلى ذكرها يحلو على كل صيغة ... ولو مزجوا عذلى له بخصام (٣)

وهو فى هذه الأنواع الثلاثة حاذ حذو السابقين مرب عليهم بالإكثار من شواهد المتأخرين .

(١٠٥) الموارِدة (٤) :

كأنما الهام أحداقٌ مسهّدة ... ونومها واردته فى سيوفهم (٥)

فسرها بقوله . هى أن يتوارد الشاعران على بيت أو بعض بيت بلفظه ومعناه فإن كان أحدهما أقدم من الآخر وأعلى رتبة فى النظم حكم له بالسبق وإلا فلكل منهما مانظمه ، ثم ساق الأمثلة .

وما أحرى هذا النوع بالاندماج فى مبحث السرقات دون أن يعد على حدة .

(١٠٦) الإيضاح (٦) :

هذا وتزداد إيضاحا مخافتُهم ... فى كل معترك من بطش ربهم

نبه على أنه من مستخرجات ابن أبى الأصبع ثم حده ، بما قاله .

(١٠٧) التفريع (٧) :

ما العود أن فاح نشرا أو شدا طربا ... يوماً بأطرب من تفريع وصفهم

---

(١) ص ٤٩٨ — ٤٩٩ . (٢) ص ٤٩٩ — ٥٠٣ .

(٣) فى الأصل . ولو مزجوه عذلى بخصام . فأصلحته كما ترى حتى يستقيم .

(٤) ص ٥٠٣ — ٥٠٥ .

(٥) الأحداق جمع حدقة وهى سواد العين . وارده : ورد معه . الهام : جمع هامة وهو طائر من طير الليل وهو الصدى .

(٦) ص ٥٠٥ . (٧) ص ٥٠٥ — ٥٠٧ .

بين أن التفريع ضد التأصيل ثم حده بقوله . هو أن يصدر الشاعر أو المتكلم كلامه باسم منفى بما خاصة ، ثم يصف ذلك الاسم المنفى بأحسن أوصافه المناسبة للمقام أما فى الحسن وإما فى القبح ثم يجعله أصلا يفرع منه جملة من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيب أو غير ذلك ، ثم يخبر عن ذلك الاسم بأفعل التفضيل ثم يدخل من ذلك على المقصود بالمدح أو الذم أو غيرهما ويعلق المجرور بأفعل التفضيل فتحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن وبين الاسم الداخل عليه ما النافية لأن حرف النفى قد نفى الأفضلية فتبقى المساواة ، بيان ذلك أن تقول . ما الزهر إذا بكى الغمام فضحك بأحسن من أخلاق زيد ، فالمساواة بين الزهر والأخلاق هاهنا ثابتة بالشروط المذكورة ، ثم ساق أمثلته .

أقول . وهذا النوع هو المسمى بالتفضيل إلا أن بعض رجال البديع يلحقه بالتفريع وبعضهم يأبى إلا أن يكون مستقلا لعدم مناسبة الاسم المسمى ، والتفريع الذى لاخلاف بينهم فيه هو الذى عرض له الخطيب فى كتابيه وأشار إليه الناظم فى شرحه وهو نوع آخر غير هذا لم ينظمه أحد من أصحاب البديعيات .

(١٠٨) حسن النسق (١) :

من ذا يناسقهم من ذا يطابقهم      من ذا يسابقهم فى حلبة الكرم

لم يزد فيه على ابن أبى الإصبع شيئا يذكر .

(١٠٩) التعديد (٢) :

تعديد فضلهم يبدى لسامعه      علما وذوقا وشوقا عند ذكرهم

أشار إلى أن هذا النوع قد ذكره الفخر الرازى وغيره وسماه قوم الإعداد ، وهو عبارة عن إيقاع أسماء منفردة على سياق واحد ، فإن روعى فى ذلك ازدواج أو مطابقة أو تجنيس أو مقابلة فذلك الغاية فى حسن النسق ومثاله قول المتنبى : —

---

(١) ص ٥٠٧ .      (٢) ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وما أحرى هذا بأن يلحق بمراعاة النظير والكنها الرغبة فى الإكثار الممل.

(١١٠) التعليل (١) :

نعم وقد طاب تعليل النسيم لنا لأنه مــرّ فى آثار تـربهم

حدّ هذا النوع قال . هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة العلة تتقدم على المعلول ، فإذا طبقت هذا الحد على بيته وجدته لاينطبق عليه لأن العلة مؤخرة والمعلول المقدم وقد اشترطوا تقدمها ، نعم انه يصلح أن يكون شاهدا لحسن التعليل الذى لم ينظمه لأنه لايشترط فيه التقدم ، وهكذا ترى بيته فى واد وشرحه فى واد آخر .

(١١١) التعطف (٢) :

تعطف الخير كم أبدوا لمذنبهم والخير مازال فى أبواب صفحهم

بين أن التعطف شبيه بالترديد إلا أن التعطف يشترط فيه أن تكون إحدى كلمتيه فى مصراع والأخرى فى مصراع آخر ، ثم نبه على أنه من الأنواع التى ليس تحتها كبير أمر .

(١١٢) الاستتباع (٣) :

يحمون مستتبعين العفو إن ظفـــروا ويحفظون وفاهم حفظ دينهم

عرفه بما قاله الخطيب وساق بعض أمثلته .

(١١٣) الطاعة والعصيان (٤) :

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم له العلو فجانسْه بمدحهم

(١١٤) المدح فى معرض الذم (٥) :

فى معرض الذم إن رمت المديح فقل لاعيب فيهم سوى اكرام وفدهم

---

(١) ص ٥٠٨ — ٥٠٩ (٢) ص ٥٠٩ — ٥١٠
(٣) ص ٥٠٩ — ٥١٠ . (٤) ص ٥١٠ — ٥١١ .
(٥) ٥١١ — ٥١٢ .

(١١٥) البسط (١) :

هم معشر بسطوا جودا سقاه حيا       فأخضر العيش فى أكناف أرضهم

(١١٦) الاتساع (٢) :

نور القبائل ذو النورين ثالثهم       وللمعالى اتساع فى عليهم

(١١٧) جمع المؤتلف والمختلف(٣) :

جمعت مؤتلفا فيه ومختلفا       مدحا وقصرت عن أوصاف شيخهم

وقد درج فى هذه الألوان فى مدارج السابقين . سوى أن بيت المدح فى معرض الذم مسروق من عز الدين الموصلى بلفظه ومعناه تقريبا حيث قال :

فى معرض الذم ان رمت المديح فهم       لاعيب فيهم سوى الإعدام للنعم

ولا أدرى كيف خفى على أستاذه البارزى الذى يراجعه .

(١١٨) التعريض (٤) :

تعريض مدح أبى بكر يقدمنى       فى سبق حلبهم مع موصليهم

وصف هذا النوع باللطف ثم حده بقوله . هو أن يكنى المتكلم بشيء عن آخر لايصرح به ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه كقول القائل . ما أقبح البخل . فيعلم أنك أردت أن تقول له أنت بخيل .

(١١٩) الترصيع (٥) :

نعم ترصع شعرى واعتلت هممى       وكم ترفع قدرى وانجلت غممى

انتقل الناظم فى هذا البيت والذى قبله وما بعده ، من أبيات من مدح النبى عليه السلام وأصحابه إلى الإطراء على شعره والإعلاء من قدر نفسه ، وأظنك توافقنى على أن هذا الإطراء لشعره الذى سلف من هذه البديعية لايتفق مع نسجها السخيف وصنعتها الثقيلة .

---

(١) ص ٥١٢ .
(٢) ص ٥١٢ – ٥١٣ .
(٣) ص ٥١٣ – ٥١٤ .
(٤) ص ٥١٤ .
(٥) ص ٥١٤ – ٥١٦ .

(١٢٠) السجع (١) :

سجعى ومنتظمى قد أظهرا حكمى    وصرت كالعلم فى العرب والعجم

لم يزد فى هذا النوع على من تقدموه .

(١٢١) التسميط (٢) :

تسميط جوهره يُلْنى بأبحره    ورشف كوثره يروى لكل ظم

عرفه بقوله : هو أن يجعل الشاعر كل بيت يسمطه أربعة أقسام : ثلاثة منها على سجع واحد بخلاف قافية البيت ، كما ترى ذلك فى بيت بديعيته ، ثم فرق بينه وبين التسجيع بأن أجزاء التسميط غير ملتزم أن تكون على روى البيت وكون أجزائه متزنة فيكون عددها محصورا ، والفرق بين التفويف وبينه تسجيع بيت التسميط ، ثم نقل عن ابن أبى الإصبع قوله . أنهم ماخالفوا بين قافية البيت وأسجاع التسميط ألا لتكون القافية كالسمط والأجزاء المسجعة بمنزلة حب العقد لأن السمط يجمع حب العقد ، ثم قال . ومن التسميط نوع آخر يسمى تسميط التقطيع وهو أن تسجع جميع أجزاء التفعيل على روى يخالف القافية كقول ابن أبى الإصبع :

وأسمر مثمر من مزهر نضر    من مقمر مسفر عن منظر حسن

(١٢٢) الالتزام (٣) :

لأن مدح رسول الله ملتزمى    فيه ومدح سواه ليس من لزمى

نبه على أنه سمى الالتزام ، ولزوم مالايلزم ، والإعنات ، والتضييق ، ثم عرفه بما سلف لغيره .

(١٢٣) المزاوجة (٤) :

إذا تزاوج ذنبى وانفردت له    بالمدح منّ ونجانى من النقم

نقل تعريف المسكاكى لها حيث قال . هى أن يزاوج المتكلم بين معنيين

---

(١) ص ٥١٦ – ٥٢٩

(٢) ص ٥٣٠ – ٥٣١ .

(٣) السمط : خيط النظم .

(٤) ص ٥٣٠ – ٥٣١

(٥) ص ٥٣١

فى شرط وجزاء ، وفسره السعد فى مطوله ، بأن يرتب على كل منهما معنى رتب عليه الآخر كقول البحترى :

إذا مانهى الناهى فلج بى الهـــوى أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

زاوج بين المعنيين الواقعين فى الشرط والجزاء وهما نهى الناهى وأصاختها الى الواشى بأن رتب على كل منهما وجود اللجوج (١) . ثم قال السعد ومن تتبع الأمثلة عرف أن المزاوجة ما ذكرناه لا ماسبق . الى الأوهام أن معناها أن يجمع بين معنيين فى الشرط ومعنيين فى الجزاء ، أقول . وهذا الأخير هو الذى سبق الى وهم الناظم وغيره من رجال البديعيات فجاء بيته كما ترى لاينطبق عليه ماقاله السعد .

(١٢٤) التجزئة(٢) :

وريّت فى كلمى جزأت من قسمى أبديت من حكمى جليت كل عم

فسرها بقوله . هى أن يأتى المتكلم ببيت ويجزئه جميعه أجزاء عروضية ويسجعها كلها على وزنين مختلفين جزءا بجزء أحدهما على روى يخالف روى البيت والثانى على روى البيت ، كما فى بيته ولا شبهة فى أن هذا نوع من السجع ولكنه التشقيق البارد .

(١٢٥) التجريد(٣) :

إلى المعانى جنود فى البديع وقد جردت منها لمدحى فيه كل كمى

لم يزد على أن نقل تعريف الخطيب ثم ساق الأمثلة دون أن يعرض لأقسامه .

(١٢٦) المجاز(٤) :

وهو المجاز الى الجنات أن عمرت أبياته بقبول سابغ النعم

اشتمل بيت الناظم على المجاز العقلى فى قوله وهو المجاز فهو إسناد إلى

---

(١) المعروف اللجاج

(٢) ص ٥٣١ – ٥٣٢

(٣) ص ٥٣٢

(٤) ص ٥٣٢ – ٥٣٣ .

السبب ، وفى قوله أن عمرت أبياته مجاز لغوى حيث نسب العمارة إلى أبيات النظم ، وقوله سابغ النعم مجاز لغوى أيضا .

وقد عرض فى هذا الباب لرأى السكاكى وعلماء البيان فى المجاز بما هو متعالم مشهور ، ثم فسر المجاز عند البديعيين بأنه عبارة عن تجوز الحقيقة بحيث يأتى المتكلم إلى اسم موضوع لمعنى فيخصصه إما أن يجعله مفردا بعد أن كان مركبا أو غير ذلك من وجوه الاختصاص ، ثم بين أن المجاز عندهم جنس يشتمل على أنواع كثيرة كالاستعارة والمبالغة والإرداف والتمثيل والتشبيه وغير ذلك ، وهو فى هذا حاذ حذو ابن رشيق وابن الأثير كما أسلفنا .

(١٢٧) ائتلاف اللفظ مع المعنى(١) :

تألف اللفظ والمعنى بمدحته ... والجسم عندى بغير الروح لم يقم

(١٢٨) ائتلاف اللفظ مع الوزن(٢) :

واللفظ والوزن فى أوصافه ائتلفا ... فما يكون مديحى غير منسجم

(١٢٩) ائتلاف المعنى مع الوزن(٣) :

والوزن صح مع المعنى تألفه ... فى مدحه فأتى بالدار فى الكلم

درج فى هذه الألوان على منهاج قدامة وابن أبى الإصبع .

(١٣٠) ائتلاف اللفظ مع اللفظ(٤) :

واللفظ باللفظ فى التأسيس مؤتلف ... فى كل بيت بسكان البديع حمى

فسره بقوله ، هو أن يكون فى الكلام معنى يصح معه هذا النوع ويأخذ عدة معان فيختار منها لفظة بينها وبين الكلام ائتلاف كقول البحترى فى الإبل النحيلة .

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار .

(١) ص ٥٣٣ .
(٢) ص ٥٣٣ – ٥٣٤ .
(٣) ص ٥٣٤ – ٥٣٥ .
(٤) ص ٥٣٥ .

فإن تشبيه الإبل بالقسى كناية عن هزالها ، فلو شبهها بغير ذلك كالعرجون والدال جاز ، لكن المناسبة بين الأسهم والأوتار والقسى حسنت التشبيه .

وأنت ترى أن هذا النوع ، ومراعاة النظير ، والمناسبة المعنوية كلها أسماء متواردة على معنى واحد ، وقد ساق الناظم هذا البيت فيما مضى شاهدا على مراعاة النظير ، وذلك مظهر من مظاهر أصحاب البديعيات يدل على عدم الدقة واختلال الضبط .

(١٣١) التمكين(١) :

تمكين سقمى بدا من خيفةٍ حصلت  لكن مدائحه قد أبرأت سقمى

هذا النوع هو ائتلاف القافية عند قدامة ومنهم من سماه التمكين .

(١٣٢) الحذف(٢) :

وقد أمنت وزال الخوف منحذفا  نحو العدو ولم أحقر ولم أضم

هذا نوع من الحذف أطلقه علماء البديع على أن يحذف المتكلم من كلامه حرفا من حروف الهجاء أو جميع الحروف المعجمة (٣) بشرط عدم التكلف ، ثم ساق خطبة الحريرى المهملة وهى علم هذا الباب ، ثم اعتذر عن نفسه وعن الموصلى بأنهما لم يستطيعا نظم البيت عاطلا لأنهما التزما التورية باسم النوع وفيه حرفان معجمان ، وكل ما استطاعه هو إخلاء البيت من الحروف التى تنقط من تحت .

ولأجل أن يستطيع النظامون ذلك سماه البكره جى وغيره بالمهمل ونظموه فى بديعياتهم قال البكره جى .

ومدحهم صار وصلا للعهـــود كما  اهمال مدح سواهم صار كاللمم(٤)

(١) ص ٥٣٥ – ٥٣٦ .  (٢) ص ٥٣٦ – ٥٣٨

(٣) فى الأصل المهملة وهى خطأ مطبعى أو سهو من الناسخ إذ المعنى لا يستقيم عليها .

(٤) اللمم : الجنون وصغار الذنوب .

(١٣٣) التدبيج (١) :

واخضر أسود عيشي حين دبجه بياض حظي ومن زرق العداة حمى

نحا فيه منحى مستخرجه ابن أبي الإصبع .

(١٣٤) الاقتباس (٢) :

وقلت ياليت قومي يعلمون بما قد نلت كي يلحظوني باقتباسهم

حكى الإجماع على أن الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله خاصة ، ثم نوع الاقتباس من القرآن الى أنواع ثلاثة .

( ا ) مقبول . وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك . (ب) ومباح . وهو ما كان في الغزل والرسائل والقصص . (ج) ومردود وهو على ضربين . أحدهما مانسبه الله تعالى إلى نفسه ، والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزلي ، ثم نقل عن بعضهم أنه عد المضمن في الكلام من الحديث النبوي اقتباسا ونقل عن الطيبي أنه سمى استخدام مسائل الفقه اقتباسا ، ثم اختار ابن حجة أن يلحق بالفقه سائر العلوم كما اختار تسميته في المنظوم بالعقد ، وفي المنثور بالاقتباس ، ثم مضى يطنب في سرد الأمثلة .

(١٣٥) السهولة (٣) :

يارب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم

نبه على أن التيفاشي أضاف هذا النوع إلى باب الظرافة ، وأن قوما شركوها بالانسجام وقد ذكرها ابن سنان في سر الفصاحة فقال هي خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسف في السبك ، وقال التيفاشي . السهولة أن يأتي الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ماسواها عند من له أدنى ذوق ، ويكفيك بيت الناظم شاهدا عليها .

وما أدري كيف يعد مثل ذلك اللون في ألوان البديع وحاله ما رأيت :

(١) ص ٥٣٨ — ٥٣٩ (٢) ص ٤٣٩ — ٥٥٤
(٣) ص ٥٥٤ — ٥٥٧ .

(١٣٦) حسن البيان (١) :

حتى يبث بديعى فى محاسنــه حسن البيان وأشدو فى حجازهم

شرحه وأبان عن مراتبه كما صنع ابن أبى الإصبع ، وهو كسابقه ما كان ينبغى أن يوضع فى أنواع البديع .

(١٣٧) الإدماج(٢) :

قد عز ادماج شوقى والدموع لها على بهار خدودى صبْغة العنم (٣)

(١٣٨) الاحتراس(٤) :

فإن أقف غير مطرود بحجرته لم أحترس بعدها من كيد مختصم

نهج فى هذين مناهج السابقين .

(١٣٩) براعة الطلب(٥) :

وفى براعة ما أرجوه من طلب أن لم أصرح فلم احتج الى الكلم

نبه على أنه من مستخرجات الشيخ عز الدين الزّنجانى فى كتاب المعيار ، وهو أن يلوح الطالب بالطلب بألفاظ عذبة منقحة بتعظيم الممدوح خالية من الإلحاف والتصريح كقول المتنبى :

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

والفرق بين براعة الطلب والإدماج . أن الإدماج أن يقدر معنى من المعانى ثم يدمج غرضه ضمنه ويوهم أنه لم يقصده ، وهذا مقصور على الطلب فقط ، وهو أيضا فرق بينه وبين الكناية .

(١٤٠) العقد(٦) :

قد صح عقد بيانى فى مناقبه وإن منه لسحرا غير سحرهم

(١) ص ٥٥٧ — ٥٥٨ (٢) ص ٥٥٨ — ٥٥٩

(٣) البهار : نبت طيب الريح. العنم شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب أو أطراف الخروب الشامى .

(٤) ص ٥٥٩ — ٥٦٠ (٥) ص ٥٦٠ — ٥٦١

(٦) ص ٥٦١ — ٥٦٢

(١٤١) المساواة (١) :

تمت مساواة أنواع البديع به لكن يزيد على مافى بديعهم

وهذان قد سلك فيهما مسالك السابقين .

(١٤٢) حسن الختام :

حسن ابتدائى به أرجو التخلص من نار الجحيم وهذا حسن مختتمى

نبه على أن ابن أبى الإصبع عدّ هذا من مستخرجاته وهو فى كتب غيره بغير هذا الاسم ، فإن التيفاشى سماه حسن المقطع ، وسماه ابن أبى الإصبع حسن الخاتمة .

وقد فرغ ابن حجة من هذا الشرح الفضفاض الطويل الذيول سنة ست وعشرين وثمانمائة . وحسب الخزانة امتيازا أنها كانت موردا قريبا لشراح البديعيات الذين جاءوا من بعد ، كما كانت منارا يهتدى به من يبغى تأريخ الأدب فى عصر المماليك .

وقبل أن نمضى فى إتمام سلسلة البديعيات ينبغى أن نشير الى أبرز الألوان التى نظمها أصحاب البديعيات فوق مانظمه ابن حجة حتى يلم هذا البحث بما ينبغى أن يلم به .

(ا) الاقتضاب : لم ينظمه من أصحاب البديعيات سوى السيوطى حيث قال :

إن اقتضاب مديح المصطفى أربى والمدح أولى وأغلى بازدواجهم

وهو عكس حسن التخلص .

(ب) الاحتباك : وأول من نظمه السيوطى حيث قال :

وخاتم الرسل وهو المبتدا وغدا خير النبيين طرا فى احتباكهم

وقد أشار السيوطى إلى أن هذا نوع لطيف لم ينتسبه له أحد من أهل هذا الفن ولاذكره أهل البديعيات ، ثم نقل تعريفه عن شيخ أحد أصحابه قال . أن يذكر جملتان فى كلٍّ متقابلان ويحذف من كل ضد ماذكر فى الأخرى كقوله تعالى « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » . فقد حذف

(١) ص ٥٦٢ الخ .

من الأولى مؤمنة ، ومن الثانية فى سبيل الشيطان ، ثم نبه السيوطى على أنه عثر عليه فى شرح بديعية العميان التى أسفلنا الحديث عنها حيث ذكره الشارح استطرادا .... ثم قال السيوطى . ومأخذه من الحبك الذى هو السد والإحكام وتحسين أثر الصنعة .

(ج) الطرد والعكس : هذا نوع لم ينظمه من أصحاب البديعيات سوى السيوطى والعمرى ، قال السيوطى :

لذى البصائر أقيال(1)به سعدوا والطرد والعكس للشانيه حيث عمى

ونقل السيوطى فى «عقود الجمان» تفسيره عن الطيبى فى التبيان ، قال : هو أن يؤتى بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثانى وبالعكس كقوله تعالى « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون» يعنى أن منطوق الجملة الأولى وهو نفى المعصية بمخالفة الأمر هو مفهوم الثانية ، ومنطوق الثانية وهو فعلهم بما يؤمرون وامتثالهم له هو مفهوم الأولى ومنطوق الأولى مؤكد لمفهوم الثانية ، وبالعكس ، أما بيت العمرى فهو :

فالسعد والقرب حظ المهتدين به والطرد والعكس فيمن عن سناه عمى

وما أقرب الشبه بين البيتين كما ترى .

( د ) الترقى : هذا النوع نظمه شعبان الآثارى ، والعمرى . قال شعبان :

يامن ترقيه من أرض إلى فلك إلى السماء إلى بحبوحة الكرم

وهو انتقال المتكلم فى وصف أو غيره من مقام الى مقام أرفع منه وأعلى أما حسا فقط أو معنى فقط أو حسا ومعنى كقوله تعالى «ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى » فقد انتقل فى الآية من مقام الدنوالى التدلى ومنه إلى القرب قاب قوسين وهذا الترقى حسا وفيه الترقى معنى أيضا حيث انتقل من مقام عدم المخاطبة والرؤية إلى مقام الخطاب والوحى والرؤية .

(هـ) التغليب : نظمه شعبان الآثارى قال :

هنئت ياقلب لم لاعشت فى حرم بمخجل القمرين الطاهر الشيم

(1) أقيال : جمع قيل من ملوك حمير ، يقول ما شاء فينفذ .

وهو أن يثنى الناظم أو الناثر اسمين أو وصفين باسم واحد منهما أو صفة كالقمرين للشمس والقمر ....

(و) الحقيقة : نظمها شعبان الآثارى والحميدى . قال الحميدى .

الله كونه من نوره بشرا مبشرا لمطيع هاديا لعم

(ز) التاريخ : قال الشيخ عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ بعد أن نظم هذا النوع وعرفه وذكر عناية المتأخرين به « وقد انفردت بذكر هذا النوع فى فن البديع ولم يذكره أحد ممن رأيت من أصحاب البديعيات ولا غيرهم[١] » . وهذه دعوى من النابلسى يغمرها الإسراف وينقصها التحقيق إذ قد نظم نوع التاريخ من قبله الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥ فى بديعيته حيث قال فى عدد الأبيات والأنواع وفى التاريخ .

جانوعه «مصلح» « أبياته » منٌ أرختهء « ناظما للحاسب الفهم »

فأنواعه مائة وثمانية وستون منها التاريخ وأبياته مائة وأربعون والسنة التى نظم فيها تسع وسبعون وتسعمائة ، فترى من هذا أن النابلسى مسبوق إلى نظم هذا النوع من أصحاب البديعيات ، وأنه تبع فيه الحميدى فنظمه فى بديعيته ، قال النابلسى فى المجردة عن التورية باسم النوع :

وقلت للربّع لما الفكر أرخهــا ياربع قد تم مدحى سيد الأمم

فالشطر الأخير تأريخ لسنة ١٠٧٥ ، ثم قال[٢] «فى البيت التاريخ» وهو نوع اخترعه المتأخرون، ولهم فيه العجب العجاب، وقد أدرجته فى سلك فنون البديع لعلو مراتبه ، وسمو مناقبه ، ولطافة مسلكه ، وطلوع شمس البلاغة فى أوج فلكه . وهو عبارة عن أن يأتى الشاعر أو المتكلم بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التى يريدها المتكلم من تأريخ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال . وهل تحسب الحروف المرسومة أو الحروف المنطوق بها . لم أر من تكلم على ذلك من أصله ، وينبغى حساب الحروف المنطوق بها لا المرسومة كلفظ فتى ويخشى مما يكتب بالياء ويقرأ بالألف ... ويشترط فى التاريخ أن يتقدم على ألفاظه

(١) نفحات الأزهار – ٣٣٩ .
(٢) نفحات الأزهار – ٣٣٦ .

لفظ «أرخ» أو أرخوا ، أو واحدة مما يشتق من التاريخ من غير فصل بينه وبين كلمات التاريخ .... وألا تكون كلماته معقدة أو غير ظاهرة المعنى وأحسنه ما اشتمل على اسم المؤرخ أو لقبه أو شيء من متعلقاته وكان منسجم الألفاظ مؤتلف المعنى خاليا من التكلف والتعسف » ثم مضى يسوق طرفا من شعره فى هذا النوع .

ثم قال(١) : وللمتأخرين فى فن التاريخ اختراعات عجيبة وأساليب لطيفة غريبة فترى بعضهم ينظم مرتين فإذا نظرت لما قبل لفظة أرخ ونحوها من أول البيت وجدته محسوبا تماما ، واذا نظرت لما بعدها من آخر البيت وجدته كذلك ، وقد اتفق لى هذا فقلت فى تأريخ عرس وختان فى سنة ست وسبعين وألف .

عرس أتى وختـــان كلاهما فى قـــران
حاولت تأريخ هذا وذا فقال لســـانى
أقبلت أزهر عرس أرخ بأزهى ختان
سنة ١٠٧٦ سنة ١٠٧٦

ثم قال ، وبعضهم يجعل التأريخ فى حساب الحروف المعجمة أو المهملة ، وبعضهم يجعله فى الحساب تاريخين أو أكثر بعد النص على ذلك كله إلى غير ذلك ....... الخ .

أما أولية هذا النوع فى الشعر العربى فلا يستطيع أحد أن يجزم بها على التعيين ، وأقدم النصوص التى تشير إلى هذا النوع ماذكره القرمانى فى تاريخه عند الكلام على فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ وأن السلطان محمدا فاتحها حباه الله هذا الفتح لكونه أعلم الملوك وأعد لهم وأحسنهم سيرة وأخلصهم نية وطوية قال . وضمن بعضهم هذا المعنى فى تأريخ الفتح فقال :

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

وقعت لفظة « آخرون » تاريخ فتح المدينة ، وقيل فى تاريخها أيضا «بلدة طيبة» اهـ .

---

(١) ٣٣٨ المصدر نفسه .

وما أشبه هذا بأن يكون مبدأ ذلك النوع فى الشعر العربى ولا سيما أنه لم يراع فيه الشروط التى وضعها المتأخرون من ذكر كلمة «أرخ» أو مايشتق منها كما أسلفنا من كلام النابلسى ، ولو أنه نشأ قبل ذلك لوجدناه بين الكتب المؤلفة فى وفيات الشعراء أو فى الكتب التى ألفت فى البديع كخزانة ابن حجة وأشباهها ، سوى أننا وجدنا فى كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية فى آخر ترجمة (١) العارف بالله الشيخ تاج الدين إبرهيم بن بخشى فقيه المتوفى سنة ٨٧٢ هذه العبارة « وقال المؤرخ فى تأريخ وفاته » .

انتقل الشيخ وتاريخه قد مسك الله بسر رفيع

وجُمَّل حروف هذه الجملة هو ٨٧٢ على طريقة حساب المرسوم لا المقروء سوى أنه يلاحظ أن ألف «الله» الأولى لم تحسب وإلا زاد العدد واحدا ويظهر لى أنهم لم يكونوا يثبتونها فى الخط .

وصاحب الشقائق النعمانية يؤرخ للعلماء من سنة ٦٩٩ فلو أن التاريخ مستعمل قبل هذا لأشار اليه فى أى موطن من المواطن قبل هذه التى نقلناها عنه وهى أقدم تأريخ فيه .

ثم سار الشعراء فى هذا الطريق متفننين وكلما جاءت منهم طائفة أربت على سابقتها فى هذا النوع .

وأما بقية الأنواع التى زادها أصحاب البديعيات الذين خلفوا ابن حجة سوى ماقدمناه فهى تافهة لاتستحق أن تسلك فى هذا النظام ، وسنشير إلى بعضها فى موطنه .

(٩) وكان من المعاصرين لابن حجة الحموى شرف الدين أبو محمد إسماعيل بن أبى بكر ابن عبد الله المقرئ بن على بن عطية الشاورى اليمنى الشافعى عالم البلاد اليمنية وأمامها ، ولد فى سردد باليمن سنة ٧٦٥ وتفقه على الكاهلى وغيره ثم انتقل إلى زبيد فأكمل تفقهه على العلامة جمال الدين شارح التنبيه وبرع فى العربية والفقه وبرز فى المنظوم والمنثور .

وقد نظم بديعية على نمط بديعية عز الدين الموصلى وشرحها شرحاً حسنا

(١) الشقائق على هامش الوفيات جـ ١ ص ١٢٠-١٢١ .

التزم فى البديعية فى كل بيت تورية مع التورية باسم النوع البديعى ، فتراه قد ضم الى طريقة الموصلى صعوبة إلى صعوبتها حيث قيد نفسه بالتزام توريتين فى كل بيت وقد سمى بديعيته هذه « الجواهر اللامعة فى تخميس الفرائد الجامعة للمعانى الرائعة » .

وأطلق على شرحها « الفريدة الجامعة للمعانى الرائعة ولا يزال مغمورا بين المخطوطات(١) » .

وقد خلف ابن المقرئ آثارا أخرى منها « عنوان الشرف الوافى فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى » . وديوان شعر وكلاهما مطبوع ، وقد شهد بفضل ابن المقرىء علماء عصره منهم ابن حجر وقد اجتمع به بمكة المشرفة ثم توفى فى زبيد سنة ٨٣٧ .(٢)

(١٠) ثم جاء جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد الخضيرى السيوطى المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ ، وقد تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة وتوفر على دراسة العلوم حتى صار علما من الأعلام بكثرة ما أبرزه من المؤلفات التى بلغت الخمسمائة فى مختلف العلوم ، وكان مما نبغ فيه علوم البلاغة وقد حدث بذلك عن نفسه قال :(٣) ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .. الخ . »

وقد ألف فى علوم البلاغة كتابا سماه : «عقود الجمان» وقد ابتكر فيه عدة ألوان من البديع أسندها اليه قاسم البكره جى الحلبى(٤) .

(١) التأسيس : قال البكره جى : إن السيوطى هو الذى اخترع هذا النوع وسماه بالتأسيس والتفريع وذكره فى عقود الجمان وعبارته فيه قوله « هذا نوع لطيف اخترعته لكثرة وروده واستعماله فى الحديث النبوى ولم أر فى الأنواع المتقدمة ما يناسبه فسميته « التأسيس والتفريع » وذلك بأن

(١) منه ثلاث نسخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٨٧ بلاغة ، ٣٠٠ ، ١٣ مجاميع .
(٢) ترجمته فى شذرات الذهب ، والأعلام للزركلى .
(٣) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
(٤) فى كتابه ( حلية البديع فى مدح الشفيع ) الذى سيأتى ذكره .

تمهد قاعدة كلية لما تقصده ثم ترتب عليها المقصود كقوله صلى الله عليه وسلم « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء » .

(ب) نفى الموضوع : قال البكره جى :(١) بعد أن ساق بيت بديعيته فى هذا النوع وهو أيضا من اختراع السيوطى فى العقود وعبارته فيه قوله . هذا النوع من مخترعاتى وسميته نفى الموضوع وهو كثير فى الحديث وكلام البلغاء بأن يكون اللفظ موضوعا لمعنى فيصرح بنفيه عنه ويثبته لغيره مبالغة فى ادعاء ذلك الحكم ومثاله ما رواه الشيخان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى ملك نفسه عند الغضب » .

(ج) تمهيد الدليل : قال البكره جى :(٢) هذا النوع أيضا من مخترعات السيوطى رحمه الله فى العقود وعبارته فيه . هذا نوع ثالث اخترعته وسميته تمهيد الدليل وهو أن يقصد حكم لشىء قريب له أدلة تقتضى تسليمه قطعا بأن يبدأ بالمقصود ويخبر عنه بجملة مسلمة ثم يخبر عن تلك الجملة بأخرى مسلمة فيلزم ثبوت الحكم الأول بأن يحذف الوسط ويخبر بالأخير عن الأول ، وهذا شكل من أشكال المناطقة ونحن معاشر أهل السنة لا نتبعهم أصلا ، وهم يصرحون بأنه فى طبع أهل الذوق والذكاء والقرآن والسنة طافحان باستعماله ، ثم تارة يكون الوسط جملة واحدة وتارة يكون أكثر ، فمن الأول قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا (٣) فإنه يصح أن يحذف الوسط فيقال . لا تدخلون الجنة حتى تحابوا .

( د ) التصحيف : قال البكره جى :(٤) إنه من اختراع السيوطى ؛ قال فى العقود « هذا نوع رابع اخترعته وهو أن يؤتى فى المقصود بكلام لتصحيفه معنى معتبر فيقصد ذلك لتذهب نفس السامع الى كل من معنييه ، وقد نظم فيه البكره جى فى بديعيته هذا البيت

---

(١) حلية البديع – ٣٤١ .

(٢) ص ٣٤٢ – ٣٤٣ نفس المصدر .

(٣) وفى الأصل « لا تدخلوا . ولا تؤمنوا . رواه مسلم

(٤) ص ٣٤٣ .

تصحيف قولى خليل المرء أحسنه      هو الذى حبس الأعمال بالحُزُم

فالتصحيف فيه واقع فى أربع كلمات . الأول فى «خليل» فإنه يصح أن يقرأ جليل من الجلالة أى العظم ، والثانى فى «أحسنه» فإنه يصح أن يقرأ أحسبه يعنى أعده من الحساب ، والثالث فى «حبس» من الحبس أى المنع ، ويصح أن يقرأ «جيش » أى رتب والرابع فى « الحزم » جمع حزام من حزم الحبل أى ربطه ، ويجوز أن يقرأ بالحرم أى حرم مكة ، ولاشك أن معناه على كلتا القراءتين مخالف للأخرى » .

هذه أنواع أربعة أخرى اخترعها السيوطى ونظمها البكره جى وهى كما ترى لاتحتاج فى تفاهتها إلى بيان .

ولم يقف السيوطى عند حد الاختراع بل نظم بديعية سماها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » معارضا بها بديعية الحموى ، وشرحها شرحا موجزا(١) جدا قال فى مقدمته : « أما بعد فهذه بديعية مدحت فيها من وجب على الخلق امتداحه وتحلى بقلائد أوصافه الكريمة مداحه ، معارضا بها بديعية الشاعر الماهر تقى الدين أبى بكربن حجة فى التورية باسم النوع البديعى ضارعا إلى الله تعالى أن يمن على بالتحلى بأجمل الأوصاف » . وهى مائة وأربعون بيتا مشتملة على مثلها من الأنواع ومطلعها ..

من العقيق ومن تذكار ذى سلم      براعة تستهل الدمع فى العلم

وهى كزميلاتها لاروح فيها ولا قوة ولا بهجة ولا روعة .

(١١) وقد عاصرت السيوطى « عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعونى المعروفة بالباعونية الشيخة الصالحة الأديبة العالمة العاملة أم عبد الوهاب الدمشقية إحدى أفراد الدهور ونوادر الزمان فضلا وأدبا وعلما وشعرا وديانة وصيانة تنسكت على يد الشيخ الجليل إسماعيل الخوارزمى وغيره ثم رحلت إلى القاهرة ونالت من العلوم حظا وافرا وأجيزت بالإفتاء والتدريس وألفت عدة مؤلفات(٢) » .

---

(١) واقع فى ١٨ صفحة من القطع الصغير وهو مطبوع .

(٢) شذور الذهب .

قال جورجى زيدان(١) : « أن عائشة الباعونية نبغت بمصر سنة ٩٣٠ وقال الزركلى فى الأعلام أنها توفيت سنة ٩٢٥ ، وقال مفهرسو البلاغة بدار الكتب أنها توفيت سنة ٩٢٣ .

ولا ندرى من أين استقوا هذه الأخبار ، مع أن صاحب شذرات الذهب ذكرها فى وفيات سنة ٩٢٢ هـ وكانت ولادتها ووفاتها بدمشق .

وأيا ما كان فقد اشتهرت الباعونية (٢) ببديعية سلكتها فى نظام البديعيين أطلقت عليها اسم « الفتح المبين فى مدح الأمين » فى مائة وثلاثين بيتا لم تتقيد فيها بتسمية النوع ، وأولها :

فى حسن مطلع أقمار بذى سلم أصبحت فى زمرة العشاق كالعلم
ياسعد إن أبصرت عيناك كاظمةً وجئت سلعا فسل عن أهلها القدم(٣)

وهكذا تمضى فيها فى أسلوب أدنى إلى الشعر منه إلى النظم .

وقد شرحت هذه البديعية شرحين أحدهما مختصر ، والآخر توسعت فيه إذ التزمت أن تذكر عند كل محسن من المحسنات ماقاله ابن جابر الأندلسى ، والحلى، والموصلى ، فى بديعياتهم وكلاهما مخطوطان (٤) ، وقد قال فيها النابلسى (٥) . ثم جاءت بعد ابن حجة فاضلة الزمان عائشة الباعونية — رحمها الله تعالى — ونظمت قصيدة على مثال قصيدته مع عدم تسمية النوع تمسكا بطلاقة الألفاظ وانسجام الكلمات ، وشرحتها شرحا مختصرا وقفت عليه بخطها أسفرت فيه عن لثام البيان بقدر الطاقة وحسب التيسير ) ولعل النابلسى لم يقف على شرحها الآخر الذى حدثتك عنه :

(١٢) وبديعية أخرى لعلى بن دقماق الحسينى المتوفى سنة ٩٤٠

---

(١) تاريخ الأدب — ٣ — ٢٧٤ .

(٢) نسبة إلى باعون من قرى عجلون فى شرق الأردن .

(٣) كاظمة : موضع معروف . القدم : أى ذوى القدم وهو السابقة فى الأمر أو الشجاع يقال رجل قدم وامرأة قدمة من رجال ونساء قدم .

(٤) توجد بدار الكتب نسخة من الأول / ٤٢٥ بلاغة ومن الثانى نسخة / ٥٧٤ بلاغة .

(٥) مقدمة نفحات الأزهار .

ولا تزال مغمورة بين المخطوطات عارية عن الشرح وتوجد نسختها بدار كتب الحكومة الألمانية فى برلين(١) .

(١٣) وغير هذه للشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن على الحميدى المصرى المتوفى سنة ١٠٠٥ حذا فيها حذو وصفى الدين الحلى وضمنها زيادة أنواع أسلفنا الإشارة إليها وقد سماها « تمليح البديع بمدح الشفيع » ، ولم يلتزم فيها التورية باسم النوع ،وشرحها شرحا سماه « فتح البديع بشرح تمليح البديع بمدح الشفيع » ، ثم اختصره وأطلق عليه « منح السميع بشرح تمليح البديع » وفرغ منه فى جمادى الأولى سنة ٩٢٢(٢) وقد رماه الحاج عثمان بك الجليلى المتوفى سنة ١٢٤٥ فى كتابه « الحجة على من زاد على ابن حجة » . بالخروج عن الجادة لقبوله الأنواع البخسة(٣) . ثم قال (٤) : ولقد عجبت من الحميدى كيف رضى أن ينظم الأرقط « هو حرف مهمل وحرف منقوط » والأخيف ( وهو كلمة مهملة وكلمة منقوطة ) ويجعلهما بعض أركان بيوت بديعيته وما قيمة هذه الأنواع ليبنى عليها بيتا ويتعب فيها فكرا .

ثم قال(٤) : قال الحميدى لقد زدت والحمد لله — فى بديعيتى أنواعا لم يسبقنى الحلى فيها ومتابعوه ولا السيوطى ومتابعوه ، ثم عد إلى اللونين السابقين: المفصل . وهو أن يكون كل كلمة من حرفين ، والصامت . وهوأن يكون من الحروف المهموسة،والناطق . وهو أن يكون من الحروف المستعلية ، والشبه بالأخيف ، وهو كلمة حروفها ناطقة وكلمة حروفها صامتة ، واللاحق بالأرقط . وهو حرف ناطق وحرف صامت ، والشبيه بالأرقط ، وهو حرف صامت وحرف ناطق ، وهكذا مما عرض له واستسمن ورمه مما يدل على الخبط والتخليط كالمقصور والممدود ، وذكر عدد الأبيات وعدد الأنواع مما لايتصل بالبديع وقد حدثناك عنه فى نوع

---

(١) بديعية العيان لعبد الله مخلص .

(٢) وتوجد نسخة مخطوطة من المختصر بدار الكتب المصرية رقم ١٢٧ بلاغة

(٣) ١٤ . (٤) ٢٨ .

(٥) ٧٢ المصدر نفسه .

التأريخ ونوع الحقيقة ، وقد وصل الحميدى بأنواع البديع إلى مائة وثمانية وستين نوعا فى مائة وأربعين بيتا .

(١٤) وللحميدى بديعية أخرى على بحر البسيط أيضا سوى أنها على روى الكاف (١) فى مائة وواحد وعشرين بيتا تخلص فيها للمديح النبوى والتزم فى أبياتها التورية بأسماء الأنواع ، ومطلعها :

بديع حسنك أبدى من محيّاك ... براعة تستهل البشر للباكى

(١٥) ثم عاصره شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الحموى المتوفى سنة ١٠١٧ ونظم بديعية فى المديح النبوى على بحر البسيط وعلى روى النون يبدو عليها الركاكة ويغمرها التكلف ومطلعها :

الوصل لى وعلى الواشى الجفاء وإن ... أماتنى البعد جاء القرب أحيانى

وفى ترجمته فى خلاصة الأثر روى البيت هكذا :—

هجرى على ولى وصل بأحيـــان ... أماتنى الهجر جاء الوصل أحيانى

وهكذا تمضى فى هذه الركاكة حتى تتم عدتها فى أربعة وستين ومائة بيت لم يلتزم فيها التورية باسم النوع البديعى ولم يشرحها ولا تزال بين المخطوطات(٢) .

(١٦) وقد وقفت فى ترجمة ابن جابر الأندلسى من نفح الطيب (٣) للمقرى المتوفى سنة ١٠٤١ على أن لإبراهيم بن على بن حسن بن محمد ابن صالح الكفعمى (٤) بديعية شرحها شرحها سماه « نور حدقة البديع ونور حديقة الربيع » . ثم قال المقرى عنه ما رأيت مثله فى سعة الحفظ والجمع ولم يذكر سنة وفاته فآثرت وضعها فى هذا الموضع ، وقد ذكر مطلعها ابن معصوم فى أنوار الربيع وهو :

إن جئت سلمى فسل من فى خيامهم ... ومن سكن منسكا عن دميتى و دمى(٥)

(١) ونسختها بالخزانة التيمورية .

(٢) ومنها نسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم ٣٣٥ مجاميع بالخزانة التيمورية .

(٣) جـ ٤ — ٣٩٧ .

(٤) نسبة إلى كفر عيما من قرى أعمال صفد كما تقول فى النسبة إلى بنى عبد الدار عبد رى » نفح الطيب .

(٥) الدمية : الصورة المنشقة من الرخام ، أوعام .

ولم يتقيد فيها بالتورية باسم النوع كما ترى ، وتجد ضعفها باديا من مطلعها لسخافة النسج ورداءة الحوك .

(١٧) وبديعية أخرى لعبد الله الزفتاوى المتوفى سنة ١٠٥٩ ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب الألمانية فى برلين ، وقد شرحها عبد اللطيف العشماوى بشرح سماه : « حسن الصنيع بشرح نورالربيع » ونسخته المخطوطة بالمكتبة الأهلية فى باريس .

(١٨) بديعية عبد القادر الطبرى ، وقد ذكرها ابن معصوم ضمن البديعيات التى التزم عرضها فى شرحه ومطلعها .

حسن ابتداء مديحى حى ذى سلم　　　أبدى براعة الاستهلال فى العلم

وقد التزم التورية باسم النوع كما ترى .

(١٩) بديعية شهاب‌الدين أحمد العطار — وقد سماها : «الفتح الإلىّ فى مطارحة الحلى » هكذا قال صاحب كشف الظنون .

(٢٠) بديعية أبى سعيد محمد بن داود المصرى الشاذلى التى عارض بها الصفى الحلى ، هكذا قال أيضا صاحب كشف الظنون المتوفى سنة ١٠٦٧ ولم يذكر سنة وفاته كسابقيه فآثرت وضعهم فى هذا الموضع .

(٢١) ومن أصحاب البديعيات فى القرن الحادى عشر . عبد على ابن ناصر بن رحمة الحوزى . قال فيه ابن معصوم (١) فاضل قال من الفضل بظل وريف ، وكامل من الكمال بين خصب وريف ، فالأسماع من زهرات أدبه فى ربيع ، ومن ثمرات فضله فى آخر خريف إن أنشأ أبدى من فنون السجع ضرائب ، أو طفق ينظم أهدَى الشنوف للأسماع والعقود للترائب .... واتصل بحكام البصرة وولاتها فوصلته بأسنى أفضالها ... ومن‌مؤلفاته : « المعوَّل فى شرح شواهد المطول » ، وقطر الغمام فى‌شرح كلام الملوك ملوك الكلام » ، وله ديوان شعر بالعربية ... وله أشعار بالفارسية والتركية » .

---

(١) سلافة العصر ص ٥٤٦ — ٥٥٤ .

ثم ساق أمثلة من نثره وأمثلة من شعره من بينها قصيدة رائية على بحر البسيط اشتملت على أنواع من البديع فى ثمانية وعشرين بيتا وأولها :

قلبي وطرفك منصوب ومكسور كلاهما مطلق منا ومأسور
ناديت دمع جفونى كى ترخمه يامستغاثى مالى عنك تحذير

وهكذا كما ترى نزعة العصر غالبة عليها من استخدام مصطلحات النحو من نصب وكسر وترخيم واستغاثة وتحذير ، وهى فى الغزل وليست فى المديح النبوى

(٢٢) ومن علماء القرنين الحادى عشر والثانى عشر . السيد على خان ابن الوزير الصدر المعتمد نظام الدين السيد أحمد بن محمد بن معصوم ابن نصير الدين إبراهيم بن سلام الله بن مسعود الحسينى الكاتب الشاعر المولود بمكة ، وقد ارتحل إلى الهند وأقام بها فى كنف والده وفيها تخرج على عدة من الجهابذة ، ثم عاد من الهند إلى مكة سنة ١١١٤ فحج ثم سافر إلى بلاد فارس وبها توفى بأصبهان سنة ١١١٩ أو سنة ١١٢٠ وقد خلف آثاراً قيمة فى النحو واللغة والتاريخ والبديع (١) ، ونظم بديعية فى مائة وسبعة وأربعين بيتا فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم اقتفى فيها أثر بديعية ابن حجة والتزم ما التزمه من التورية باسم النوع البديعى ، ومطلعها :

حسن ابتدائى بذكرى جيرة الحرم له براعة شوق يستهل دمى

ثم شرحها شرحا وافيا أطلق عليه : « أنوار الربيع فى أنواع البديع (٢) » .

وقال فى مقدمته : نظمت هذه البديعية التى فاقت بديعية ابن حجة ، فلو أدركها لما قامت له معها على تزكية نفسه حجة ، وقد التزمت فيها ما التزمه هو والعز الموصلى قبله من التورية باسم النوع فى كل بيت ... ثم مضى يكيل لها الثناء ويضفى عليها الإطراء ، ثم خلص من ذلك إلى تحديد البديع فى اللغة والاصطلاح ، ثم حذا حذو صفى الدين فى مقدمة شرحه من التعرض لمن ألفوا فى البديع ، ولمن نظموا البديعيات كما أسلفت الإشارة إلى كلامه فى أول هذا الفصل .

---

(١) ترجمته ملحقة بشرح بديعيته الآتى :

(٢) وهذا الشرح مطبوع بالهند ومنه نسخة بالمكتبة الأزهرية — ٥٢٦ خصوصية بلاغة ونسخة بدار الكتب مطبوعة بالهند — ٣٢٢ بلاغة وأخرى مخطوطة ٤٦٣ بلاغة .

وقد وجه عنايته فى شرحه إلى الناحية البديعية العلمية معولا على أزجاء الشواهد الكثيرة فى مختلف العصور دارجا على عرض مايماثل بيت بديعيته من بديعيات : الحلى وابن جابر الأندلسى . والعز الموصلى . وابن حجة . وعبد القادر الطبرى . وإسماعيل المقرىء ، والكفعمى .

وقد أطراه صاحب نفحة الريحانة قال[1] القول فيه . أنه أبرع من أظلته الخضراء وأقلته الغبراء ، وإذا أردت علاوة فى الوصف قلت . هى الغاية القصوى ، والآية الكبرى ، طلع بدر سعده فنسخ الأهلة ، وانهل سحاب فضله فأخجل السحب المنهلة

(٢٣) (٢٤) (٢) » . ومن علماء القرنين الحادى عشر والثانى عشر عبد الغنى بن إسماعيل المتصوف على الطريقة النقشبندية المتوفى سنة ١١٤٣ أصله من نابلس بالشام رحل إلى بغداد ثم عاد إلى لبنان ودخل مصر ، ثم حج وعاد إلى دمشق وكان عالما جليلا لقب بأستاذ الأساتذة وله مؤلفات قاربت التسعين فى موضوعات شتى [3] ومن أشهر آثاره بديعيتان سمى أحداهما « مليح البديع فى مدح الشفيع » وقد التزم فيها التورية باسم النوع ومطلعها :

ياحسن مطلع من أهوى بذى سلم    براعة الشوق فى استهلالها ألمى

ولم تحظ هذه البديعية منه بشرح وتبيين .

وأما الأخرى فقد أطلق عليها « نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار » وكان فيها طليقا من عقال التورية باسم النوع البديعى ، فكانت أدنى إلى الشعر منها إلى النظم ومطلعها :

يا منزل الركب بين البان فالعلم    من سفح كاظمة حييت بالديم

وكلتاهما فى مائة وخمسين بيتا اشتملت على مائة وخمسة وخمسين نوعا من أنواع البديع .

---

(١) معجم المطبوعات لسركيس .

(٢) وترجمة والده نظام الدين أحمد بن محمد فى خلاصة الأثر ج ١ – ٣٤٩ وترجمة له هو فى سلافة العصر .

(٣) إعجام الأعلام ١٤٧ وتاريخ أدب جرجى ج ٣ .

وقد حظيت هذه البديعية الثانية بشرح وتبيين من صاحبها سماه : « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار فى مدح النبي المختار (١) » . وقد ألمع فى مقدمته إلى صنيع السكاكى إذ اقتصر فى سرد أنواع البديع على تسعة وعشرين نوعا وقال : « ولك أن تستخرج ما تشاء ، ثم أشار إلى مخترعه الأول عبدالله بن المعتز ماضيا فى السرد إلى عصره على نهج من تقدموه ، ثم عرض لبديعية الصفى والموصلى ، والحموى ، والباعونية بما أسلفناه فى مواطنه . ثم قال :

« فعند ما شاهدت هذه البديعيات الأربع ، وطفقت أرتع بخيول الأفكار فى مسارحها وأربع ، وتأملت ما نقلوه فى شروحها من العبارات والشواهد ، وما نبهوا عليه من الأغراض والمقاصد ، حركتنى بواعث الأفكار ، وتجاذبتنى أيدى الخواطر الإلهية إلى اقتحام هذا المضمار ... ونظمت هذه القصيدة الميمية المسماة « نسمات الأسحار فى مدح النبي المختار » على طريقة تلك القصائد ، معرضا عن نظم اسم النوع البديعى فى أثناء البيت لأنى رأيت ذلك إنما يكسب تنافر الكلمات وعرابة المبانى ، وقلاقة المعانى ، وليتَ شعرى مع التصرف فى اسم ذلك النوع ضرورة نظمه بين كلمات البيت كيف يظهر لمن لم يعرفه أن اسمه كذا ما لم يكن فهمه باسمه ورسمه ، وبعد ذلك لا يحتاج إلى تسميته بالكلية ولو أعجبنى هذا الصنيع لكنت نسيم رياضه إلماما ، وحمائم أدواحه ترناما ، ومن يرود حدائق الرقة وهذا الانسجام ، فكيف تصعب عليه مسالك الركة والقلاقة فى النظام ... ثم أنى نظمت قصيدة أخرى على منوال هذه صرحت فيها باسم النوع تمثيلا لما ذكرته من الاستهلال ووفاء بما أشرت إليه فى المقال ، ثم إنى كتبت كل بيت منها عندما يماثله فى الهامش على حسب مقتضى الحال (٢) ... ثم مضى يبين أنهما فىَ مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن كل واحدة منهما مائة وخمسون بيتا مشتملة على مائة وخمسة وخمسين نوعا بعد زيادة أنواع لطيفة لم توجد فى تلك البديعيات ، وربما اتفق فى البيت الواحد النوعان والثلاثة بحسب انسجام القريحة فى النظم ... وقد سميت هذا الشرح « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار فى مدح النبي

(١) طبع هذا الشرح وبهامشه بديعيته الأولى ، وقطر الغيث المنسجم على لامية العجم للشيخ عبد الرحمن الشافعى العلوانى الطبيب .

(٢) وقد روعى فى الطبع ذلك .

المختار » ثم مضى يشرح فى أسلوب يمثل نزعة العصر كما رأيت ، حاملا على ابن حجة حملات قاسية فى كثير من الأحايين ، معتداً بنفسه ، مزهواً بتجديده ، وقد رأيت لوناً من ادعائه السبق فى فن التأريخ الشعرى كما أسلفت ذلك قريبا .

(٢٥) ثم بديعية أبى الوفاء بن عمر العرْضى الشافعى القادرى التى سماها « الطراز البديع فى امتداح الشفيع » وشرحها شرحا أطلق عليه « فتح البديع فى حل الطراز البديع فى امتداح الشفيع » ولا يزال مغمورا بين المخطوطات(١) وقد التزم فى هذه البديعية التورية باسم النوع البديعى ، والمديح النبوى ، ومطلعها :

براعتى فى ابتدا مدحى بذى سلم  قد استهلت لدمع فاض كالعلم

وقد التزم ذكرها البكره‌جى فى شرحه الآتى وهى ضعيفة النسج رديئة النظم

(٢٦) — ثم بديعية قاسم بن محمد البكره جى المتوفى سنة ١١٦٩(٢) كان أديبا من أهل حلب له شعر حسن

(٢٧) وله شرح على بديعية الشيخ مصطفى البكرى كما صرح بذلك فى شرحه الآتى وإن كان لم يذكر منها شيئا ، وقد سمى بديعيته هذه « حلية البديع فى مدح النبى الشفيع » وقد شرحها شرحا سماه « حلية العقد البديع فى مدح النبى الشفيع »(٣) » .

ومطلع البديعية :

من حسن مطلع أهل البان والعلم  براعتى مستهل دمعهـــا بدم

وقد صرح فى مقدمة شرحها بأنه نظمها على طريقة ابن حجة ، ثم ساق الحديث المألوف عن البديع والبديعيات ، ثم نبه على أنه سيعرض فى أثناء الشرح للإجابة عن بعض ما تعقب فيه النابلسى من سبقوه ، وأنه سيجمع فى هذا الشرح محاسن من تقدمه . وقد ألزم نفسه بعرض سبع بديعيات سوى بديعيته . وهى بديعيات : صفى الدين الحلى ، والعز الموصلى ، والباعونية ، وابن حجة ، وأبى الوفاء العرضى ، والنابلسى فى بديعيته ، وقد اشتملت

(١) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية — ٢٨٠ بلاغة .

(٢) ترجم له فى الأعلام الزركلى .

(٣) وهو مطبوع وقد اطلعت على نسخة منه بدار المكتبة الأزهرية — ١٨٥٢ خصوصية أدب

هذه البديعية على مائة وستة وخمسين نوعا فى مثلها من الأبيات . وقد حذا فى شرحها حذو سابقيه منبها على اختراعات السيوطى التى أسلفنا الإشارة إليها فيما تقدم .

(٢٨) وقد عاصره الخورى نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ من طائفة الروم الكاثوليك المولود بحلب ، والمتبحر فى العلوم العربية والرياضيات ، والفلسفة ، واللاهوت استعدادا للكهنوت وقد توفى سنة ١١٧٠ هـ (١) وكان من آثاره بديعية فى مدح عيسى والرسل عليهم السلام على بحر البسيط وعلى روى الميم المكسورة ملتزما فيها التورية باسم النوع البديعى ومطلعها :

بديع حسن امتداحى رسل ربهم براعة فى افتتاحى حمد ربهم

(٢٩) ثم بديعية السيد غلام على آزاد البلكرامى المتوفى سنة ١٢٠٠ وهى بديعية غريبة لأنها خاصة بأنواع البديع الهندى التى استنبطها أدباء الهند وهى موجودة فى صفحة ٢٢٠ — ٢٣٤ من كتابه «سبحة المرجان» المطبوع بالهند على الحجر سنة ١٣٠٣ (٢) .

(٣٠) ثم بديعية السيد أحمد عبد اللطيف البربيرى البيروتى المتوفى سنة ١٢٢٦ وشرحها مصطفى الصلاحى ونسختها المخطوطة ببرلين (٣) .

(٣١) وبديعية القاضى عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن الحسين الخزرجى الشافعى التى مطلعها :

براعة راق منها مطلع الكلم حسن افتتاحى بها فى عرب ذى سلم (٤)

وقد التزم فيها التورية باسم النوع البديعى ولم تحظ من أحد بشرح .

(٣٢) وأخرى للشيخ عبد الرحمن بن محمد بن يوسف العلوى التى مطلعها :

سل ما بسلمى وسل ماربة السلم وخص طيبة مأوى الطيب (٥) والكرم

---

(١) تاريخ الآداب العربية من نشأتها إلى أيامنا — ٥٣٧ .

(٢) تعليق لأحمد باشا تيمور على بديعية العميان .

(٣) بديعية العميان لعبد الله مخلص .

(٤) دائرة معارف البستانى . (٥) المصدر السابق .

ولم يلتزم فيها التورية باسم النوع كما رأيت .

(٣٣) وما زالت نزعة البديعيات غالبة على الشعر حبيبة إلى الشعراء حتى فى زمان النهضة الحديثة ، فهذا محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيله لى الشهير بالساعاتى[١] الشاعر المصرى المولود بالقاهرة سنة ١٢٤١ والناشيء بها ، ثم انتقل إلى الإسكندرية وتأدب بها ثم أدى فريضة الحج والتحق بأمير مكة الشريف محمد بن عون فأكرم مثواه وأحسن ملتقاه فمدحه بقصائد جياد ثم عاد إلى وطنه ثم سافر إلى القسطنطينية ثم عاد ثانيا إلى القاهرة وظل متنقلا بين المناصب حتى عين عضوا بمجلس أحكام الجيزة والقليوبية ثم قضى سنة ١٢٩٨ مخلفاً ديواناً من الشعر حاول فيه تجديده بإنصاف معانيه من ألفاظه وبتضمينه بعض المعانى الشريفة ، حتى اعتبر بحق برزخا بين النظّامين والشعراء ، فقد ارتفع بأجود شعره إلى طبقة انفرد بها فى ذلك العهد ، وقد جارى أبا نواس فى النعى على شعراء عصره إلا أن ذاك كان ينعى عليهم ذكر الدمن والأطلال كما أسلفنا وهذا يسميهم النحاة ويبكتهم بمثل قوله من قصيدة يمدح بها الشريف محمد بن عون ويعرض بذم بعض النحويين المتشاعرين[٢]

فدعنى من قول النحـــاة فإنهم ... تعدوا لصرف النطق فى غير لازم
إذا أنا أحكمت المعانى خفضتهم ... وأرفعـــها قهراً بقـــوة جازم
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ... ولست بسراق كبعض الأعاجم

سوى أن نزعة العصر غلبت عليه وحالت دون دعواه أنه شاعر ذو طبيعة فى قسم يسير فى شعره ، إذ تراه يستخدم فى هذه الأبيات المصطلحات العلمية من صرف وخفض ورفع وجزم ، وهى طبيعة العصر ونزعته .

كما أنه نظم بديعية اشتملت على مائة وخمسين نوعا من أنواع البديع فى مائة واثنين وأربعين بيتا معارضا بها بديعية ابن حجة ملتزما ماالتزمه من التورية باسم النوع البديعى وقد صدرها بقوله : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى

(١) لبراعته وولوعه بعملها وإن كان لم يحترفها .
(٢) الديوان ص ١١١ — ١١٢ .

أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » وهى فى ديوانه المطبوع (١) ومن أولها :

سفح الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعة فى استهلاله بدم

براعة الاستهلال

وكم بكيت عقيقا والبكاء على بدر وتوريتى كانت لبـــــدرهم

التورية

وذيل الدم دمع الـعين حين جرى كما سرى لاحق الأنواء فى الظلم

المذيل واللاحق

تسيل عينى لتلميح البروق لهـــا بما جرى من حديث السيل والعرم

التلميح

وهكذا حتى يكمل عدتها وهى على صنعتها أخف روحا من كثير من تلك البديعيات التى أسلفنا الحديث عنها .

قال الأستاذ المرحوم المنفلوطى (٢) « وفى عام خمس وسبعين ومائتين نظم قصيدته البديعية المشهورة التى عنى بشرحها شرحا وافيا المرحوم عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف العمومية » . وقال المرحوم أحمد باشا تيمور (٣) : « وللعلامة الأديب عبدالله باشا فكرى وزير المعارف المصرية المتوفى سنة ١٣٠٧ شرح حافل على هذه البديعية أودعه فوائد عزيزة المنال ، وكان بخزانته عند أسرته ، ولايدرى أحد ما فعل الدهر به بعد ذلك » . وإنك لتقرأ للساعاتى فيما عدا هذا شعراً رائقا ينم عن روعة أدبية لم تكن لأحد من شعراء عصره ، ومضى الشعر يتخلص من هذه الأثقال رويدا رويدا حتى طفر طفرته المباركة على يد زعيم النهضة الشعرية الحديثة محمود سامى البارودى فقد طار به طيرانا فى أجواء الطلاقة والحرية إذ لم يتقيد بالبديع ولم يحفل بحليه العاطل . (٣٤) (٣٥) (٣٦) سوى أن نزعة البديعيات وغلبتها على كثير من أذهان

---

(١) ص ٩٦ — ١١٠ (٢) مقدمة الديوان

(٣) فى تعليقه على بديعية العميان — ٤٩ .

الشعراء ما فتئت مسيطرة على شعر كثير من الشعراء فى هذا العصر الحديث لغلبة الروح التقليدية على شعراء العربية واستمرائهم طعم هذه الصنعة التى استبدت بالذوق العربى هذه القرون الطوال فكان من العسير أن تقضى عليها بواكير النهضة الحديثة فكان فى هذه الفترة شعراء لاتزال البديعيات حبيبة إلى نفوسهم فلم يقنعوا ببديعية أوبديعيتين ، ومن هؤلاء الخورى أرسانيوس الفاخورى المولود ببعدا من قرى لبنان والمتوفى بها سنة ١٣٠١ ه فقد نظم ثلاث بديعيات فى مدح عيسى والرسل عليهم السلام ، وقد التزم فى أولاها التورية باسم النوع البديعى ومطلعها :

براعة المدح فى نجم ضياه سمى تهدى بمطلعها من عن سناه عمى

ومطلع الثانية :

فحىّ حىّ الخليل الجامع العظم وبيت لحم وآلا قد سمت بهم

وكلتاهما من بحر البسيط وعلى روىّ الميم المكسورة كما ترى ، وقد شرح الثانية شرحا سماه « زهر الربيع فى فن البديع » .

ومطلع الثالثة :

إنى لأحكام القضاء مسلم ولسان حالى بالهوى متكلم

وهى على بحر الكامل وعلى روىّ الميم المضمومة ، وهذا الاحتفال بالبديعيات إلى هذا الحد ينبىء عن مقدار سيطرة التقليد على أذهان الشعراء حتى فى العصر الحديث

(٣٧) — وفى إبان هذه النهضة سنة ١٢٣٦ ولد العالم الأديب الشاعر عبد الهادى ابن رضوان نجا الأبيارى فى « أبيار » . من مديرية الغربية ، وتخرج فى الأزهر على أعلام زمانه وعهد إليه الخديو إسماعيل باشا بتأديب أولاده ، ثم جعله الخديوى توفيق إماما لخاصته ومفتيا إلى أن توفى سنة ١٣٠٥ تاركا آثارا قاربت الأربعين كتابا فى مختلف العلوم ، وكان من هذه الآثار بديعية طبعت بالقاهرة بمطبعة المدارس سنة ١٢٨٩ .

(٣٨) — وكان من شعراء هذا العصر السيد عبد القادر الحسينى الأدهمى الطرابلسى وقد نظم بديعية سماها : « ترجمان الضمير فى مدح الهادى البشير »

وقد فرغ منها سنة ١٣٠٨ وطبعت فى بيروت سنة ١٣٠٩ ، وقد شرحها السيد محمد بدر الدين الرافعى وسمى شرحه « بديع التحبير شرح ترجمان الضمير »(١) .

(٣٩) ومن شعراء هذا العصر الذين أغرموا بهذا اللون الشيخ عبدالحميد قدس بن محمد على الخطيب من علماء مكة وشعرائها والمتوفى سنة ١٣٣٥هـ فقد حاك بديعية سماها « نظم البديع » وشرحها شرحا سماه « طالع السعد الرفيع فى شرح نور البديع »(٢)

(٤٠) ومن علماء القرن الرابع عشر وشعرائه الشيخ محمد أمين بن خير الله الخطيب العمرى وقد نظم بديعية لاتزال مطمورة بين المخطوطات(٣)

(٤١) ومنهم الأستاذ العلامة الشيخ طاهر بن محمد بن صالح الجزائرى المتوفى بدمشق سنة ١٣٤١ وقد نظم بديعية وشرحها شرحا سماه : « بديع التلخيص وتلخيص البديع (٤)

(٤٢) هذا عدا بديعية لامية للشيخ محمد ناظم الملتقى شرحها شرحا سماه « تحفة الأدباء وتسلية الغرباء » . ولايزال مغمورا بين المخطوطات (٥) .

(٤٣) وأخرى لتاج الدين الحنفى المكى المفتى وقد شرحها شرحا أطلق عليه « مفتاح الفرج فى مدح عالى الدرج » ولم يؤذن له إلى وقتنا هذا بالنشر والطبع (٦) .

(٤٤) وبديعية أخرى مجهولة الصاحب من ردىء الشعر وضعيفه أولها :

عج بالطلول وجز ربعا بقربهم      يا حادى النوق لى حب بحيهم

وهى كما ترى موافقة الجمهور البديعيات فى بحرها ورويها ولكنها

---

(١) وقد طبع بالمطبعة العلمية بالقاهرة سنة ١٣١٢ هجرية .

(٢) مطبوع بالميمنية سنة ١٣٢١ ومنه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٥١١ بلاغة .

(٣) منها نسخة بدار الكتب المصرية ٥٥٥ بلاغة .

(٤) طبع بدمشق سنة ١٢٩٦ .

(٥) منه نسخة بدار الكتب المصرية ٢٧٧ بلاغة .

(٦) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ٧٢٨ بلاغة .

تخالفها فى كونها تقصد إلى غير المديح النبوى ، إذ أنها فى مدح شخص اسمه « عبد الله » مذكور فى بيت تخلصها(١) .

هذه هى البديعيات التى استبدت بزمام الشعر والفن منذ أواسط القرن السابع الهجرى إلى أواسط القرن الرابع عشر ، وسيطرت على أذهان الشعراء وهيمنت على مشاعرهم فهاموا بها غراما ، وتساجلوا فى ميدانها أزمانا ، وقد رأيت أنها هزيلة فى ناحيتيها : الأدبية والعلمية ، أما الأدبية فإنها نزلت بالشعر إلى هاوية الإسفاف والانحطاط وجردته من روعته وروائه ، وقضت على بهجته وبهائه ، وأما العلمية فإنها ذهبت بالبديع مذاهب التشعيب والتخليط اللذين عادا عليه بالضعة والهوان عند ذوى الصفاء من البلغاء ، وكان من أبرز آثارها السيئة أن غرست فى كثير من الأذهان أن أنواع البديع لا تقف عند حد ، ولا تنتهى عند حصر ، حتى لترى من بين علماء القرن الرابع عشر من يدعو إلى هذا الرأى ويفسح أمام العلماء ميدانه ، ذلك هو محمد صديق بن حسين خان ابن على البخارى ملك بهوبال بالهند فقد ألف كتابا فى علم البديع سماه : « غصن البان المورق بمحسنات البيان » .

تحدث فى مقدمته عن علوم البلاغة وأبان عن منزلة البديع ، والهدف الذى رمى إليه من كتابه هو نقل جملة من أنواع البديع الهندى إلى اللغة العربية ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : وأما الأهاند فدونوا هذا العلم فى لسانهم ، وصاغوا حلى من إبريز بيانهم ، وقد ماؤهم الذين كانوا قبل زمان الإسلام استخرجوا من الكلام بدائع وافية واستنبطوا من رشحات الأقلام صنائع شافية . منها مشتركة بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل ، وتجاهل العارف ، والمراجعة ، والاستعارة ، والتشبيه ، والجناس ، والسجع ، وغيرها ، ومنها مختصة بالعرب كاستخدام المضمر ، وحسن التخلص ، والتأريخ على قاعدة الجمّل ، وغيرها ، ومنها مختصة بالهند ، والمقصود هنا نقل القسم الأخير عن الهندية إلى العربية ، فوجدت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند وبعضها يقبله فنقلت عنها نبذة وجدت فائقة ، وألحقت بفن الأدب منها جملة رائقة » .

---

(١) وهى ضمن مجموعة بالخزانة التيمورية ٧٩٨ شعر .

ثم مضى يسرد تلك الألوان ، وعد فى أولها التنزيه ، وقد استخرجه بعض الهنود فى مقابلة التشبيه كقوله تعالى : « ليس كمثله شىء » . —

وهذا عمل — وإن كان جليل الأثر على اللغة والفن قد سبق إليه السيد غلام صاحب البديعية الهندية التى أسلفنا الإشارة إليها .

وقد نبه فى أثناء كتابه (١) على أن للقاضى محمد بن على الشوكانى رسالة سماها : « الروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار البديع » اخترع فيها ثلاثة وأربعين نوعاً من أنواع البديع واختار لها أسماء مناسبة ، فرأى المؤلف أن يربطها بأنواع البديع المذكورة فتحا للباب ، ورفعاً للحجاب ، وتنشيطاً لهمم أهل الفن ، وترغيباً للمشتغلين به المتوفرين على التوسع فيه ، والاستكثار من أنواعه ، فإن هذا فن لاحجر ولامنع من الاستزادة فيه بل كل ما له مدخل فى تحسين الكلام وتزويق البيان فهو بالتنبيه عليه قمين ، والفن فن مواضعة واصطلاح لافن حصر وتحجير ، ثم نقل رسالته بنصها ، وفيها يشير الشوكانى إلى أن ما جمعه العلماء من فن البديع وما ذكره الشعراء فى بديعياتهم بالنسبة إلى ما يحتمله الكلام من التحسين يسير غير كثير ، وأنه حرر هذه كالبرهان على هذه الدعوى ، ثم خلص منها إلى قوله . —

فانظر يامن له فهم مرتاض بلطائف الكلام إلى ما اشتملت عليه هذه الأبيات التى ذكرتها فى هذا المقام .

ألا إن وادى الجزع أضحى ترابه  من المسك كافورا وأعواده رَنْدا(٢)
ومَا ذاك ألا إن هندا عشيّـــةً  تمشت فجرّت فى جوانبه بُرْدا

هذا ينبغى أن يسمى « شهادة الديار بما فاض عليها من الآثار » .

ثم يمضى الشوكانى إلى أن يصل اختراعه إلى ثلاثة وأربعين نوعاً على هذا النهج المضحك الذى تلمح من أوله روح العبث بهذا الفن والنزول به إلى درك اللعب والسخرية وهو العزيز مكانه ، الساحرة ألوانه . —

وأخيراً ترى الملك صديق خان يختم مؤلفه هذا بقوله . وحاصل القضية

---

(١) ص ٨١ .

(٢) الرند : شجر طيب الرائحة .

أن علم البديع الذى تعرف به وجوه تحسين الكلام لا وجه لاقتصار المصنفين فيه على أنواع مخصوصة ، ولا لاقتصار أهل البديعيات على تلك الأنواع التى أوردوها فى نظمهم ، بل ما كان له مدخل فى التحسين كان من علم البديع ويسميه مستخرجه بأى اسم كان ... ثم قال . قال الشوكانى . وقد أخبرنا بعض علماء الديار القاصية أنها قد انتهت عندهم إلى سبعمائة نوع » . وهكذا يبدأ البديع بملك وينتهى بملك .

ورحم الله ابن المعتز وأبا يعقوب السكاكى فإنهما لو حسبا أن فتحهما باب الاختراع فى هذا الفن سينتهى به إلى هذا الحد المزرى لكفا عما قالاه مما أسلفناه،وعلى الرغم من ذلك كله لم تصادف هذه الدعاوى رواجاً فى هذا العصر فقد قبرت كل الألوان التافهة ، وطويت صحف هذه الصناعة التى نشرت أزماناً طوالا ، وصد عنه الكتاب والشعراء إلا النزر اليسير من خطباء هذا الجيل وكتابه ممن يغرمون بالأسجاع ، وأما ما عدا ذلك فالعناية متجهة إلى المعانى وطرح البديع والتحرر من قيوده ، وتعليل ذلك سهل ميسور على الباحث ، فقد اتصلت اللغة العربية فى هذا العصر بلغات لا تحفل بالبديع ، وتعددت الصحف التى تحتم على الكتاب أن يسرعوا فى صياغة أغراضهم معنيين بالتدقيق فى المعانى مع المحافظة على سلامة الأسلوب ، فبدأ الأدب فى هذا العصر دقيقاً فى أسلوبه ، حراً فى أفكاره ، واضحاً فى أغراضه ، مؤذناً بمعاودة عهد الصفاء والإشراق الذى بدأ بعبد الحميد وختم بابن العميد .

وإلى هنا ينتهى القسم الأول من هذا البحث وهو « حياة الصبغ البديعى الأدبيةوالعلمية » ويبقى القسم الثانى وهو « مكانه من البلاغة » ذلك ما سنكشف عنه فى هذه الصفحات متوخين نهاية الإيجاز بمشيئة الله تعالى .

# القسم الثاني

## مكان الصبغ البديعي من البلاغة

أبرز عناصر القسم الثانى :

الغرض منه – حكم المتأخرين على البديع بالعرضية – جور هذا الحكم – مبلغ ما لقيه من رواج – الأصباغ التى انطبقت عليها البلاغة وكان تحسينها للأساليب ذاتياً – (١) الطباق والمقابلة (٢) مراعاة النظير (٣) الإرصاد (٤) المشاكلة (٥) المزاوجة ورأى عبد القاهر والفخر الرازى (٦) العكس (٧) الرجوع (٨) التورية (٩) الاستخدام (١٠) اللف والنشر (١١) الجمع (١٢) التفريق (١٣) التقسيم (١٤) الجمع مع التفريق (١٥) الجمع مع التقسيم (١٦) الجمع مع التفريق والتقسيم (١٧) التجريد (١٨) المبالغة (١٩) المذهب الكلامى (٢٠) حسن التعليل (٢١) التفريع (٢٢) تأكيد المدح بما يشبه الذم (٢٣) تأكيد الذم بما يشبه المدح (٢٤) الاستتباع (٢٥) الإدماج (٢٦) (٢٦) التوجيه (٢٧) الهزل الذى يراد به الجد (٢٨) تجاهل العارف (٢٩) القول بالموجب (٣٠) الاطراد (٣١) الجناس (٣٢) رد العجز على الصدر (٣٣) السجع (٣٤) الموازنة .

الأصباغ التى ينبغى أن تنحى عن هذه القلادة :

(١) القلب حلية عاطلة لا يقتضيه حال .

(٢) التشريع من مباحث علم العروض والقوافى .

(٣) لزوم مالا يلزم كسابقه – إجحاف الخطيب بمكان البديع من البلاغة – جعله تابعاً وذيلا – متابعة العلماء له – حصره البلاغة فى علمى المعانى والبيان – اختلاف العلماء فى تحديد مكانة البديع – الكلية والجزئية – المقدمة والنتيجة – تبعيته للمعانى – تبعيته للبيان – هدم البهاء السبكى لاشتراط المطابقة ووضوح الدلالة فى البديع – مبلغ سيطرة نظرة الخطيب على الأذهان – مظاهر ذلك – اختلافهم فى توجيه تعريف المعانى عند السكاكى – رأى شارحى المفتاح – رأى العصام – إسرافهم فى فهم كلام السكاكى – ماينبغى أن يحمل عليه صنيع

السكاكى – اعتدال حكم السكاكى على البديع – عذر السكاكى فيما يبدو فى طريقته من خلط – نظرة السكاكى إلى البديع لا تغاير نظرته إلى علمى المعانى والبيان – ما أراه فى بيان مكان البديع من البلاغة – مرشحات هذا الرأى – إيمانى الكامل به – ما أراه لتقويم الأسلوب البليغ – وثائق قوته فى القديم – خاتمة ورجاء .

غرضنا الذى نرمى إليه من وراء هذا البحث هو إنصاف البديع من جور المتأخرين وإنقاذه من عسفهم ، بوضعه فى مكانه اللائق به من البلاغة والاقتصاص له من هذا الحكم الجائر الذى حط من مكانته ، وأضعف من قوته ، وقلل من بهائه وروعته ، وقضى عليه بأن يكون ذيلا من ذيول البلاغة ، وذنباً من أذنابها ، وعرضاً من أعراضها ، لا يقصد لذاته ، ولا يؤم لنفسه ، ولا يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى ، بل هو التابع الزنيم واللاحق الذليل الذى لا يلقى من الإكبار والإجلال ما يلقاه الذاتى الأصيل .

وقد لقى هذا الحكم رواجاً من المتأخرين ، وصادف تأييداً لدى الشارحين والمقررين ، واكتسب الأشياع ، واجتذب الأنصار من الدارسين والمحصلين ، فمضوا يؤكدون هذا الحكم بضرب الأمثال . فتارة يقولون : « هذا علم البنات » وطوراً يقولون : « هذا ذيل وذنب وحلية وعرض ، لا يبلو العقول ، ولا يسبر الأذهان ، ولا يكشف عن مقدار ما ينبغى أن يكون عليه طالب البلاغة من بصر بالأساليب العلمية ، وقدرة على توجيهها » وقد تم لهم ما أرادوا ، إذ انصرفت عن هذا العلم الأذهان ، وأشاحت عنه الهمم ، حتى صار لا يقرأ فى معاهد التعليم ، وإن قرىء فلون أولونان لا ينقعان غلة ولا يشبعان نهما ، ولا يبصران بمنزلة هذا العلم التى كانت له فى نفوس العلماء المتقدمين والأدباء السابقين .

وسيكون عمادنا فى الأخذ بيد البديع حتى يبلغ محله ، ويحل موضعه هو بيان ما لأنواعه من صلة وثيقة بالبلاغة عامدين إلى إثبات الحسن الذاتى وإبطال العرضى راجعين بكل صبغ من أصباغه إلى موطنه من علمى البلاغة . المعانى والبيان . وذلك يقتضينا عرض أساليب من هذه الأصباغ وبحثها على ضوء ما تقتضيه البلاغة وتحتمه الأغراض وحسبنا للوصول إلى هذا الغرض أن نضع

بين يديك مثالا لكل صبغ من الأصباغ التى عرض لها الخطيب القزوينى فى تلخيصه ثم نمضى إلى اثبات غرضنا المروم راجين من الله المعونة والتوفيق ، ومن القارئ الإخلاص والإنصاف وإطلاق نفسه من ربقة التقليد بعد تحكيم عقله وإشهاد ذوقه .

(١) أسلوب الطباق :

قال الله تعالى : « قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » قوبل فى هذه الآية . بين تؤتى وتنزع ، وتعز وتذل ، وإذ كان الغرض منها هو تصوير القدرة فى أوسع معانيها ، وبيان السلطان فى أشمل مظاهره وأكملها ، فإن ذلك لا يتم إلا بالجمع بين الضدين ، والحكم بأنه يقدر على الأمرين . الإيتاء أو ما فى معناه ، والنزع أو ما فى معناه . وكذلك الإعزاز والإذلال ، ولما كان مقياس الذاتية والعرضية عند المتأخرين من علماء البلاغة ، هو عدم استقامة الأغراض بفقدان الأول ، واستقامتها بفقدان الثانى كان جديراً بنا أن نعرض الطباق على هذا المقياس ونجعله حكماً فيه ، فإنك إذا طبقت هذا على مثل تلك الآية الكريمة من أساليب اقتنعت بأن ذكر المقابل لا محيص عنه فى صياغة مثل هذا الغرض ، إذ قد يقدر شخص على الإيتاء ولكنه لا يقدر على النزع ،ويستطيع إنسان أن يعز ولكنه قد يعجز عن الإذلال ، ومع هذا لا تضن عليه بوصفه بالقدرة ولكن المضنون به عليه هو الحكم له بالقدرة التامة ، والسلطان الشامل ، فتلك هى التى تستحوذ على الأمرين وتتعلق بالضديق ، وذلك القدر كاف فى إثبات التحسين الذاتى لأساليب الطباق ، وعلى غراره تجرى أساليب المقابلة .

وإلى ذلك . فالطباق والمقابلة من الأمور الفطرية المركوزة فى الطباع التى لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده كما يقولون ، وقد أكمل الفخر الرازى فى نهاية الايجاز نظرة الشيخ عبد القاهر فى : « باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع » فأدرج الطباق والمقابلة فى هذا الباب ، فهما من مقتضيات الأحوال وموجبات الأغراض .

(٢) أسلوب مراعاة النظير :

قال عزّ من قائل : « الشمس والقمر بحسبان » جمع فى هذه الآية بين الشمس والقمر ، وهما متناسبان لتقارنهما فى الخيال ، وكونهما كوكبين سماويين يبددان ظلام الكون ، وإذ كان الغرض من هذا الجمع هو الحكم عليهما بأنهما يجريان فى بروجهما بحسبان معلوم المقدار لا يزيدان عليه ولا ينقصان عنه ، وفى ذلك نظام الكائنات واختلاف الفصول والأوقات وحساب الشهور والسنين ، كان ذلك الصنيع أخصر الطرق فى أداء هذا الغرض وإيصاله إلى النفوس ، نعم . من الممكن أن يقال فى غير القرآن . الشمس بحسبان ، والقمر بحسبان ، فيكون لغواً من القول « وباطلا » من التأليف لأنه إطناب لا داعى يستدعيه ، ولا غرض يستوحيه ، فأساليب مراعاة النظير التى عمادها : جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد مما تقتضيها الأحوال وتستدعيها الأغراض ،وقد أدرجها الفخر الرازى أيضاً فى باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع .

(٣) أسلوب الإرصاد :

قال الله تعالى « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

قالوا . قوله . يظلمهم . إرصاد دال على أن عجز الآية من مادة الظلم إذ لا معنى لأن يقال فى غير القرآن مثلا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم ينفعون أو يمنعون من الهلاك ، أو غير ذلك ، أما كون الروى هو النون بعد الواو فذلك مما يعلم بمعونة روى الآية السابقة وهى « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .

وأنا أقول . وإذا كان الغرض من هذه الآية هو نفى أن يكون من الله ظلم للعباد وإثبات ظلمهم لأنفسهم كان من طبيعة مثل هذا الأسلوب الذى يؤدى به مثل ذلك الغرض أن يدل أوله على آخره ، وسابقه على لاحقه ، وقد روى أنه لما بلغت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم « ثم أنشأناه خلقاً آخر » قال عبد الله ابن أبى سرح « فتبارك الله أحسن الخالقين » . فقال النبى صلى الله

عليه وسلم . كذلك أنزلت (١) – وقد أسلفنا سابقاً ما نقله الجاحظ فى البيان والتبيين عن عبد الله ابن المقفع من قوله: «ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته » وإذا تعلق غرض المتكلم بمثل هذا كان ما دعوه باسم الإرصاد عائداً على الأسلوب بالتحسين الذاتى لأنه مما يقتضيه المقام .

(٤) أسلوب المشاكلة :

قال الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » عبر بلفظ السيئة عن الاقتصاص لوقوع الاقتصاص فى صحبة السيئة ، وقد ساق الخطيب فى إيضاحه هذه الآية نفسها شاهداً على المجاز المرسل الذى تكون علاقته السببية . وقال تعليقاً عليها . تجوز بلفظ السيئة عن الاقتصاص لأنه سُبب عنها، ثم تراه يسوقها شاهداً على المشاكلة ، وذلك مثل من أمثلة الخلط والاضطراب التى وقع فيها الخطيب وسايره فيها غيره – فاندفعوا يفصلون بين أساليب المشاكلة والمجاز والكناية بفواصل لا يقرها عقل ولا تقبلها فطرة – اقرأ قول عبد الحكيم(٢) معلقاً على تعريف المشاكلة بأنها : « ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً » لتقف على مبلغ الفساد الذى لحق الأذهان فنضح على البلاغة نضوحاً وخيم العاقبة سىء الغاية . قال . قال الشارح(٣) – رحمه الله تعالى – فى شرحه للمفتاح . أى سواء كان بينهما شىء من العلاقات المعتبرة فى المجاز كاطلاق السيئة على جزاء السيئة المسبب عنها المترتب عليها ، أولا كإطلاق الطبخ على خياطة الجبة والقميص ، ومن هاهنا قوى إشكال المشاكلة بأنها ليست بحقيقة وهو ظاهر ولا مجاز لعدم العلاقة ، ولا محيص سوى التزام قسم ثالث فى الاستعمال الصحيح، أو القول بأن الوقوع المذكور نوع من العلاقة فيكون مجازاً اه . قال عبد الحكيم . أقول: القول بكونه مجازاً ينافى كونه من المحسنات البديعية وأنه لابد فى المجاز من اللزوم بين المعنيين فى الجملة فتعين الوجه الأول ، ولعل السر فى ذلك . أن فى المشاكلة نقل

(١) السبكى جـ ٤ – ٣٠٨ شروح التلخيص .

(٢) فيض الفتاح على حواشى تلخيص المفتاح جـ ٤–٢٧١ .

(٣) يعنى به سعد الدين التفتازانى .

المعنى من لباس إلى لباس فإن اللفظ بمنزلة اللباس ففيه إيراد المعنى بصورة عجيبة فيكفيه الوقوع فى الصحبة فيكون محسناً معنوياً ، وفى المجاز نقل اللفظ من معنى إلى معنى ، فلا بد من علاقة مصححة للانتقال ، والتغليب أيضاً من هذا القسم إذ فيه أيضاً نقل المعنى من لباس إلى لباس آخر لنكتة . ولذا كان وظيفة المعانى وإن صرح الشارح رحمه الله تعالى — فيما سبق بكونه من باب المجاز ، فالحقيقة والمجاز والكناية أقسام للكلمة إذا كان المقصود استعمال الكلمة فى المعنى .

وأما إذا كان المقصود نقل المعنى من لفظ إلى لفظ آخر فهو ليس شيئاً منها .

فأنت ترى من هذا أن عبد الحكيم يستبعد أن تكون المشاكلة من المجاز لأنه يعز عليه ألا تكون محسناً بديعياً ، ويلتزم أن تكون واسطة بين الحقيقة والمجاز ملتمساً لذلك الالتزام سراً أعجمياً يحيط به الغموض ويكتنفه الإبهام ، إذ الآية السابقة جارية على طريق المجاز المرسل حيث عبر بلفظ السيئة عن معنى الجزاء لأنه يؤلم ويسوء ، وسواء لديك بعد ذلك ألاحظت نقل كلمة السيئة إلى الجزاء أو معنى الجزاء إلى السيئة فالمؤدى واحد لا تبدل فيه ولا اختلاف .

فالحق الذى أرسله عن يقين واطمئنان . أن أساليب المشاكلة من المجاز فمنها ماينذرج تحت المجاز المرسل كالآية السابقة وما جرى مجراها ، ومنها ماينطوى تحت المجاز بالاستعارة كقول أبى الرقعمق : « أحمد بن محمد الأنطاكى من شعراء اليتيمية والمتوفى سنة ٣٩٩ هـ » وقد كان له إخوان أربعة ينادمهم — أيام كافور الإخشيدى فجاءه رسولهم فى يوم قارس البرد ، وليست له كسوة تقيه شره . فقال له . إخوانك يقرئونك السلام ويقولون لك . قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته علينا ما نطبخ لك منها فكتب إليهم : —

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة ... فأتى رسولهم إلى خصوصا
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فقد عبر الشاعر عن الخياطة بالطبخ تشبيهاً لها به فى كونها مما ينبغى أن تكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم فإذا كانت رغبتهم قد اتجهت إلى الطبخ

ليطعموه فينبغى أن تكون منهم مثل تلك الرغبة فى خياطة جبة وقميص بهما يتقى قارس البرد ويعتصم من أذاه ، فهل وجدت مضاضة وحرجا فى تطبيق الاستعارة التى أساسها المشابهة على هذا الأسلوب .

لاشك أن علاقة المشابهة واضحة كما رأيت دون أن يلجئك عبد الحكيم إلى رطاناته الأعجمية التى افتعلها متناسياً أنه يشرح بلاغة العرب التى تعتمد سلامة الأذواق ، وصدق الفطر ، وذلك القول الذى ملت إليه ورجحته فى المشاكلة مقول لغيرى قال الإنبابى(١) : « وقد تلخص من كلام ابن يعقوب والحفيد أن المشاكلة . قيل واسطة بين المجاز والحقيقة و الكناية، وقيل أنها دائماً مجاز مرسل علاقته المجاورة التى هى هنا الوقوع فى الصحبة ، وقيل إنها تجامع المجاز المرسل والاستعارة إن لوحظت علاقتهما وإلا فهى واسطة قاله بعض المشايخ » .

فقد استبان لك أن أسلوب المشاكلة من البيان وهو من البلاغة فى الصميم باعتراف المتأخرين .

(٥) أسلوب المزاوجة :

قال البحترى من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان : —

على أنها ما عندها لمواصـــــــل وصال ولاعنها لمصطبر صبر
إذا ما نهى الناهى فلج بى الهـــوى أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

فى البيت الثانى ترى البحترى يزاوج بين نهى الناهى وإصاختها إلى الواشى الواقعين فى الشرط والجزاء حيث رتب عليهما لجاج شىء ، وإذ كان الغرض من هذا البيت هو تصوير حاله مع معشوقته من أنه لا يزيده نهى الناهى عن حبها ، إلا تمكيناً فى الهوى وثباتاً فى الحب ، أما هى فسرعان ما يزعزعها الوشاة فى حبها فتمعن فى الهجر ، وتسرف فى القطيعة فشتان ما بين اللجاجين.

وإذا كان الشأن فى العاشق والمعشوق أن يوصفا بما صنع البحترى وكانت المبالغة فى توفير هذا الوصف لكليهما مما يتعلق بها الغرض ويتفاوت فيها

(١) جـ ٤ — ٣٦٤ من تقريره على التجريد .

المتكلمون قوة وضعفاً ، فصنيع البحترى مما يقتضيه المقام ، وهو من البلاغة فى الصميم إذ أنه حينما رتب لجاج الهوى على نهى الناهى له عن حبها ، ثم مضى يرتب اللجاج على إصاختها إلى الواشى ظن قبل ذكر المتعلق أنه من نوع لجاجه حتى يتواء ما فى الحب ويستويا فى الصبابة والهوى ، فلما ذكر المتعلق علم أنه ليس من نوعه وإن كان لا يقل عنه فى بابه . فكما أن حبه لها لازم ثابت لا يزيده النهى أو العذل إلا قوة كذلك هجرها لا تزيده الوشاية إلا شدة وعنفاً ، ومن أجل ذلك جعل الشيخ عبد القاهر المزاوجة من باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع وقدم لذلك مقدمة قال(١) . —

« واعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر ، ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ها هنا فى حال ما يضع بيساره هناك ، نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، ثم مضى يشرح المزاوجة ويردفها بالتقسيم والتشبيه المتعدد ، ولما كان قوله : « وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به » . مدخلا ماشابه المزاوجة والتقسيم مضى الفخر الرازى فى نهاية الإيجاز يكمل هذه النظرة ، ويتم هذه الخطة مدخلا فى هذا الباب ما ينتظمه من أصباغ البديع ، من مطابقة ، ومقابلة ، واعتراض ، والتفات ، واقتباس ، وتلميح ، ولف ونشر ، وإيهام « تورية » ، ومراعاة نظير ، وموجه « استتباع » ومحتمل للضدين « التوجيه » ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والسؤال والجواب ، والإغراق فى الصفة « المبالغة » ، والجمع ، والتفريق ، وحسن التعليل ، وما إلى ذلك مما ذكره ، ثم قال(٢) « وقد اقتصرنا على هذا القدر من الأمور التى تربط الجمل بعضها بالبعض

(١) دلائل الإعجاز ٧٣ .
(٢) نهاية الايجاز ١١٦ .

وإن كان ما بقى أكثر مما أوردناه » . وحسبك هذا للدلالة على سلامة ما إليه نرمى ونقصد .

(٦) أسلوب العكس :

قال الله تعالى : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » وقع العكس هنا بين متعلق فعلين فى جملتين فقد تعلق الفعل فى الأولى بالحى الخارج من الميت كالإنسان يخرج من النطفة كما يقولون ، وتعلق فى الثانية بالميت الخارج من الحى ، مثل البيضة الخارجة من الدجاجة كما يقولون ، وقد تقدم الحى على الميت فى المتعلق الأول ثم عكس فى الثانى .

وإذ كان الغرض من هذه الآية تصوير مظهرين من مظاهر القدرة بهما تفوق جميع القدر ، وكان إخراج الحى من الميت أشهر فى القدرة وأدل على سعة السلطان من عكسه وهو إخراج الميت من الحى ، كان الأول جديراً بالتصدير ، ثم يتلوه الثانى وبدون هذا ينعكس الغرض ولا يتم المراد ، فأسلوب العكس من البلاغة فى الذرى لأنه مما يقتضيه المقام .

(٧) أسلوب الرجوع :

قال زهير بن أبى سلمى فى مطلع قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . —

قف بالديار التى لم يعفها القـــــدم بلى وغيرها الأرواح والـــديم

أفاد فى صدر البيت أن تطاول الزمان وتقادم العهد لم يغير من هذه الديار بل هى لا تزال ماثلة شاخصة كعهده بها أيام كان يعمرها محبوبه ، ثم عاد فى عجز البيت على ذلك الكلام بالنقض والإبطال فأثبت أن القدم قد عفاها وأن الرياح والأمطار قد غيرتها فأحالتها عما كانت عليه ، وسر هذا الصنيع هو تصوير الكآبة والحزن والحيرة والدهشة التى سيطرت على عقله واستولت على فكره فدفعته إلى الإخبار أولا بمالا تقره الحقيقة ولا يعترف به الواقع ، فلما ثاب إليه العقل ، وعاوده الفكر صحح ماقال بذلك النقض .

فبهذا يستبين لك ويتضح أن أساليب الرجوع لما يصحبها من مثل هذه النكتة من صميم البلاغة لأنه مما يستدعيها المقام .

(٨) أسلوب التورية :

قال الله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » قال ابن يعقوب المغربي[١] « الأيدى جمع يد ، واليد لها معنيان . قريب وهو الجارحة المعلومة وبعيد وهو القدرة التى إطلاق اليد عليها مجاز ، والمراد بها هنا المعنى البعيد الذى هو القوة والقدرة ، والقرينة استحالة الجارحة عليه تعالى ، وقد تقدم مايفهم منه وجه خفائها فتكون تورية وإن كانت مجازاً ، وقد قرنت بما يلائم المعنى القريب الذى هو الجارحة وهو البناء لأنه إنما يعهد بالجارحة ، والمعهود بالقوة الإيجاد والخلق ، فقد رشح فيها معنى التورية وأصلها الذى هو الخفاء بوجود ما يبعد عن المراد مع خفاء القرينة . وهذا أعنى كون اليد أطلقت على معناها المجازى البعيد بقرينة خفية فكانت تورية مبنى على ما اشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين الذين يقتصرون على ما يبدو ، ولم يظهر لهم هنا للأيدى إلا المعنى البعيد ، وأما عند من يوسم بالتحقيق ممن يمارس مقتضى تراكيب البيان ، فالكلام تمثيل على سبيل الاستعارة ،وهو أن مجموع «بنيناها بأيد» نقل عن أصله على طريق التشبيه،وأصله وضع لبنة وما يشبهها على أخرى بقوة الأيدى إلى الإيجاد بالقوة لأن النفس بالمحسوس أعرف ....... وكذا « على العرش استوى» ....... فإن قلت : فعلى هذا الذى جعل من التحقيق هل يصح أن يكون التركيب تورية أولا . قلت . لا مانع من ذلك مع خفاء القرينة لأنهم لم يشترطوا فى التورية إفراد اللفظ » .

فقد رأيت أن مبنى التورية عند ابن يعقوب كون المراد بعيدا مع خفاء القرينة . وهذا هو الفرق بينها وبين المجاز عنده، اقرأ للدلالة على ذلك قوله[٢]

فإن قيل . المعنى البعيد فى التورية مرجوح الاستعمال فلا يكون اللفظ فيه إلا مجازا ، وهذا المعنى موجود فى كل مجاز فيكون كل مجاز تورية ، وظاهر كلامهم أن التورية حقيقة مباينة للمجاز وإلا كان كل مجاز من البديع ، قلت بعد تسليم أن المعنى لا يكون اللفظ فيه إلا مجازا لا يلزم منه اتحاد المجاز

---

(١) جـ ٤ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ من شروح التلخيص .
(٢) جـ ٤ - ٣٢٣ المصدر نفسه .

والتورية فيكون اللفظ مجازا باعتبار إطلاقه على غير معناه مع وجود القرينة الصارفة له عن الأصل، ويكون تورية باعتبار كون المراد بعيدا مع خفاء القرينة لما تقدم أنا نشترط فى كونه تورية خفاء القرينة فتلاقى التورية المجاز فى مادة واحدة مع كونها غيره . فإن ظهرت القرينة لم تلاقه أصلا » .

وإذا تلاقت التورية مع المجاز فى مادة واحدة فقد ثبت ما نرمى إليه من كون تحسينها ذاتيا لاعرضيا ، على أن مبنى الفرق على خفاء القرينة أو قربها غير مسلم لابن يعقوب ، فكم من مجاز واقع موقعه من الروعة والخلابة ، والسحر والجمال ، قد خفيت قرينته ، وبعدت عن كثير من الأذهان ، وكم من تورية فى عرفهم ظهرت قرينتها ومع ذلك لايضنون عليها بهذا الاسم ، وقد فرق عبد الحكيم بين التورية والمجاز والكناية بأن مبنى التورية على ألا يعتبر بينهما لزوم وانتقال من أحدهما إلى الآخر . ثم قال . وبه تمتاز التورية عن المجاز والكناية ، وبهذا ظهر أن التورية ليست من إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة حتى تكون من علم البيان ، نعم إنه إذا كان المعنيان مجازيين أو أحدهما مجازيا كانت من علم البيان بالنسبة إلى المعنى الحقيقى لهما أو لأحدهما، وأما بالنسبة إلى المعنى الذى هو تورية بالقياس إليه فلا إذ لاعلاقة بينهما ولا انتقال من أحدهما إلى الآخر » . وكأنه بذلك يرد على تعريف العصام للتورية حيث قال(١) . « فالمختصر الواضح أن يقال . هو أن يطلق اللفظ على غير ماوضع له لقرينة خفية مما يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة . ثم قال فهو داخل فى أصل البلاغة فكيف عد من البديع؟» . فأنت ترى أن تعريف العصام للتورية ينطبق على تعريفهم للمجاز سوى تقييد القرينة بالخفاء ، وهذا قيد غير كاف فى الفصل بينهما كما سلف .

فالحق الذى أراه مطمئنا إليه . أن التورية من باب المجاز إذا كان المعنى المورى عنه مجازيا ، وأما إذا كان حقيقيا فهى من باب المشترك وهو مجاز

---

(١) الأطول جـ ٢ – ١٩٤ .

أو حقيقة على خلاف قار فى موطنه من كتب الأصول (١) ، وأيا ما كان فهى عائدة على الأسلوب بالتحسين الذاتى لا العرضى .

(٩) أسلوب الاستخدام :

قال معاوية بن مالك بن جعفر معوّد(٢)الحكماء :

إذا نزل السماء بأرض قوم  رعيناه وإن كانوا غضابا

قالوا . أراد بالسماء الغيث ، وبضميره فى رعيناه النبت وكلا المعنيين مجازى .

وإذ كان الغرض من البيت وصف الشاعر قومه بالرياسة وشمول السلطان وأنهم يفعلون ما شاءوا من غير معارضة أو منع ، فعلى مسايرة علماء البديع فيما قالوه يكون أسلوب الاستخدام من الإيجاز إذ قوله . رعيناه . أخصر من قولك . رعينا النبات الناشىء عن المطر ، والإيجاز فى عرفهم ذاتى أصيل فى البلاغة لايصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام .

هذا ولا مانع عندى من إطلاق السماء على النبات مجازا مرسلا من درجتين بقرينة رعيناه فلا يكون هناك محل للاستخدام كما ترى .

(١٠)أسلوب اللف والنشر :

قال الله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » الغرض من هذه الآية بيان فائدة خلق الليل والنهار . إذ فائدة خلق الليل هى السكون والهدوء فيه ، وفائدة خلق النهار هى الحركة والابتغاء من فضل الله ، فذكر الليل والنهار على التفصيل،ثم ذكر فائدتهما على الترتيب من غير تعيين لأن السامع يعرف بنفسه أن السكون فائدة خلق الليل، وابتغاء شىء من الفضل فائدة خلق النهار ، فذكر الليل والنهار على هذا الوجه مما يهيئ النفوس ويعدها لتلقى الفائدة ، فإذا ذكرت الفائدة

---

(١) فابن الحاجب يذهب إلى أن المشترك مجاز لأن اللفظ كان لواحد واستعمل فى اثنين مثلا ، والشافعى يذهب إلى أنه حقيقة لأنه استعمل فى كل واحد واحد وهو الموضوع له .

(٢) سمى بهذ القوله :

أعود مثلها الحكماء بعدى  إذا ما الحق فى الأشياع نابا

على هذا الوجه تم الغرض واستقام المراد ، فأسلوب اللف والنشر من البلاغة فى الصميم لأنه مما يقتضيه المقام .

(١١) أسلوب الجمع :

قال الله تعالى: « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » جمع المال والبنون فى حكم وهو زينة الدنيا ، وإذ كان الغرض من الآية بيان أن مايفتخرون به من المال والبنين شىء يتزين به فى الحياة الدنيا لايعدوها ، وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها وأعراضها التى من شأنها أن تزول قبل زوالها، كان الجمع بين دعامتى الفخار والزهو فى الحياة الدنيا فى هذا الحكم مما يستدعيه مقام التزهيد فيهما والتهوين من شأنهما . ومع هذا تدرك أنه أوجز الطرق وأخصرها فى أداء هذا المعنى مع وفائه بالمراد .

(١٢) أسلوب التفريق :

قال رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية :

مانوال الغمام وقت ربيع ... كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين ... ونوال الغمام قطرة ماء (١)

الغرض من هذين البيتين البلوغ بالممدوح أقصى غايات الكرم والسخاء ولأجل أن يبلغ به تلك المنزلة تراه ينفى أن يكون نوال الغمام وقت ثرائه وغناه شبيها بنوال الممدوح يوم سخائه الذى هو يوم فقره لكثرة سائليه وكمال بذله ، ثم أوقع التباين بين النوالين فأسند لنوال ممدوحه بدرة عين ، ولنوال الغمام قطرة ماء، وشتان بين العطائين. وفى هذا من المبالغة فى توفير الوصف للممدوح مافيه ، ومقام المدح مما يستدعى هذه المبالغة أو ذلك التفريق ، فإذا نزل عنها المادح فتر مدحه، وضعف مسلكه. وذلك من البلاغة فى الصميم .

---

(١) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف أو سبعة آلاف دينار .

(١٣) أسلوب التقسيم :

قال الله تعالى: « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وأناثا ويجعل من يشاء عقيما ». الغرض من هذه الآية بيان حال العباد الذين شأنهم الولادة، وأنهم موزعون بين من لايولد له أصلا ،ومن يولد له، والثانى إما أن يكون المولود له من جنس الأناث ، وإما أن يكون من جنس الذكور ،وإما أن يقرن له بين جنس الذكور والإناث ،ولا يخرج حال العباد فى الولادة عن هذا ، وإذ كان المراد الإتيان على هذه الحال بالتبيين كان هذا الصنيع مما يقتضيه المقام ، فأسلوب التقسيم من البلاغة فى الصميم ، وقد سلف أن عبد القاهر اعتبر التقسيم وخصوصا إذا قسمت ثم جمعت من باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع ويجرى على غرار هذا .

(١٤) أسلوب الجمع مع التفريق :

(١٥) وأسلوب الجمع مع التقسيم :

(١٦) وأسلوب الجمع مع التفريق والتقسيم :

فكل أولئك مما يقتضيه المقام ويعود على الكلام بالتحسين الذاتى :

(١٧) أسلوب التجريد :

قال الشيخ عبد القاهر فى أثناء الفرق بين الاستعارة والتشبيه(١) : « فإن قلت: فما تقول فى نحو قولهم « لقيت به أسدا ، ورأيت به ليثا »فإنه مما لاوجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا: « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » فأتوا به معرفة على حده،إذا قالوا : « احذر الأسد » وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة وهو قوله عز وجل « لهم فيها دار الخلد » . والمعنى والله أعلم — أن النار هى دار الخلد،وأنت تعلم أن لامعنى هاهنا لأن يقال : إن النار شبهت بدار الخلد،إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشىء يسمى دار الخلد ، كما تقول فى زيد . إنه مثل الأسد . ثم تقول . هو الأسد . وإنما هو كقولك . النار منزلهم ومسكنهم » .

وصنيع عبد القاهر يفيد أن أسلوب التجريد على ضربين . ضرب يلحق

(١) أسرار البلاغة — ٢٩١ .

بالتشبيه وهو ما كان على طريق قولك . لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد ، فإن التشبيه يتصور فى هذا بوضوح ويدرك بجلاء ، وأما الضرب الآخر فهو مما لايصح إيقاع اسم التشبيه أو الاستعارة عليه وهو ماجرى مجرى الآية الكريمة ، وتعليقه عليها يفيد أنها من باب المبالغة فى التهويل بأمر جهنم ووصفها بكونها محلا للخلود وكونها لايعتريها ضعف ولا فتور ولا ينفك أهلها عن عذابها الدائم وشقائها المستمر . وقد أسلفنا عن ابن الأثير أنه قصر التجريد على نوع من الالتفات حيث عرفه بقوله (١) « هو إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك » . ثم عاب على أبى على الفارسى ضمّه إلى هذا النوع نوعا آخر نحو قولهم ( لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد » ثم قال (٢) « وليس هذا بتجريد وإنما هو تشبيه مضمر الأداة ، ألا ترى أن المذكور هو كالأسد وليس ثم شىء مجرد عنه » .

وحكمه على هذا النوع بأنه من باب التشبيه المضمر يوضح لك مافهمناه من كلام عبد القاهر .

وإذا رجعنا إلى مسلك الخطيب فى التلخيص ألفينا الأنواع التى ذكرها للتجريد منها مايندرج تحت المبالغة كقولك « لى من فلان صديق حميم » وقوله تعالى: « لهم فيها دار الخلد » ، ومنها ما يدخل تحت تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر كقول القائل :

وشوهاء تغدو بى إلى صارخ الوغى ... بمستلئم مثل الفنيق المرحل (٣)

وقول قتادة بن مسلم الحنفى :

فلئن بقيت لأرحلن بغــزوة ... تحوى الغنائم أو يموت كريم

ومنها ماينطبق عليه التشبيه كقولك « لئن سألت فلانا لتسألن به البحر »
ومنها مايشمله الالتفات كقول أبى الطيب :

لاخيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

( ١ ) المثل السائر – ١٦٥
( ٢ ) المصدر نفسه – ١٦٦
( ٣ ) الشوهاء من الخيل الطويلة الرائعة أو المفرطة رحب الشدقين والمنخرين الصغيرة الفم الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب. المرحل الذى عليه رحله أو الذى وضع عنه ( ضد ) .

ومنها ماينطوى تحت لواء الكناية كقول الأعشى :

ياخير من يركب المطى ولا      يشرب كأسا بكف من بخلا

وقد جاراه فى طريقته التى سلكها شراح تلخيصه مقلدين فركبوا فى سبيل تأويلها كل صعب جموح ، ولم يخرج على إجماعهم سوى العصام حيث يقول بعد شرح التعريف[1] « كما أن التجريد يفيد المبالغة فالاستعارة أيضا تفيد المبالغة ، فما الذى أوجب جعل الثانى من دواخل البلاغة والأول من توابعها ؟ وأنه لامعنى لجعل التجريد مقابلا للمبالغة المقبولة وعدّ كل منهما محسنا برأسه بل هو أيضا من صور المبالغة ، ثم قال . إن اعتبارنا أقرب وأدق فاحفظه قاطعا ربقه التقليد فإنه أحب وبالمصلحة أوفق » .

وما ذهب إليه العصام يؤكد وجهتنا التى نرمى إليها من احتساب مادعوه باسم التجريد من صميم البلاغة ومقتضيات الأحوال سواء أجعلنا أنواعه تحت المبالغة كما يذهب العصام ، أم رجعنا بها إلى مكانها من علمى المعانى والبيان كما صنعت أنا .

(١٨) أسلوب المبالغة :

أما المبالغة بأنواعها الثلاثة من تبليغ ، وإغراق ، وغلو ، فلا مرية فى أن التحسين فيها ذاتى يقتضيه المقام وتحتمه الأغراض .

(١) فقول ابن الرومى يهجو بخيلا :

لو أن قصرك يابن يوسف ممتل      إبرا يضيق بها فناء المنـــزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة      ليخيط قد قميصه لم تفعل[2]

تصوير لابد منه فى الوصول إلى غرضه من وصف مهجوه بمنتهى البخل والبلوغ فيه إلى أحط دركاته ، فليس أهون من الإبر فى البذل والعطاء ولا سيما إذا كانت وافرة كثيرة ، وليس أمعن فى الشح وأبلغ فى اللؤم من الضن بإبرة واحدة على من يستوجب حاله الإيثار والبذل لرتق الخرق وضم الممزق ولا سيما إذا كان نبيا ، ولئن كان ابن الرومى مبالغا فى هذا

---

(١) الأطول ج ٢ — ٢٠٤

(٢) معاهد التنصيص ج ١ — ٢٥٧

الوصف فإن مقام الهجاء اللاذع المقذع مما يستدعى توفير أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها حتى يكون الهجاء أوجع وأقذع ، وبمقياس المبالغة فى صفات الذم يقاس الهجاء علوا وإيجاعا وقوة وإحكاما .

(٢) وقول عمرو بن الأهتم التغلبى :

ونكرم جارنا مادام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

تصوير حسن لبلوغه فى إكرام الجار حدا يأباه معتاد الناس وينكره معروفهم اذ المألوف أن الجار يكرم مادام جارا ، فإن مال مال عنه الكرم وانقطع العطاء ، ولكن هؤلاء يخرجون على ميزان العادات فيبلغون فى الكرم هذه المرتبة . إذ أن عطاءهم يفيض على جارهم مادام فى جوارهم . فإن مال عنهم إلى جانب آخر لاحقته الكرامة وتعقبه العطاء أينما حل وأقام ، ولا ريب فى أن مقام الفخر مما يستدعى هذا الإغراق ، وكلما بولغ فيه كان أمكن وأقوى ، وأظهر وأعرف .

(٣) وقول الله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » تصوير لابد منه لبيان مابلغه هذا الزيت من الصفاء والبريق ، واللمعان والإشراق بحيث يقرب من الإضاءة ولو لم تمسسه نار ، فلو قيل . إنه صاف جدا أو نقى نقاء معدوم النظير مابلغ فى تصوير الحال التى هو عليها مبلغ الآية الكريمة .

وبهذا يستبين لك فى جلاء ووضوح أن أساليب المبالغة المقبولة مما تقتضيها المقامات وتعود على الكلام بالتحسين الذاتى .

(١٩) أسلوب المذهب الكلامى :

قال النابغة الذبيانى من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء عما بلغه أنه مدح آل جفنة بالشام فتنكر له النعمان وكرهه :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب(١)

(١) مستراد : موضع الرياد وهو الطلب أو اختلاف الإبل فى المرعى مقبلة ومدبرة .

ملوك وإخوان إذا مامدحتهم     أحكم فى أموالهم وأقــرب
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم     فلم ترهم فى مدحهم لك أذنبوا

فأنت ترى أن النابغة يرمى من وراء هذه الأبيات إلى استلال غضب النعمان واستمالة قلبه ، فيدعم اعتذاره بحجج وبراهين لاتدع شيئا من الغضب والنكير الا أتت عليه ، ألا تراه يقول : لاتلمنى ولا تعنفنى على مدح آل جفنة فقد أكرمونى وأحسنوا إلى « واللهى[1] تَفَتَّح اللهى » والصنيعة تستوجب المدح وتستلزم الإطراء ، كما لاتلوم قوما مدحوك جزاء إحسانك وكفاء معروفك ، فكما أن مدح أولئك لك ينبىء عن الوفاء وعرفان الجميل وتقدير الصنيعة دون أن يحتسب ذلك ذنبا عند غيرك ، كذلك مدحى من أحسن إلى وأكرم وفادتى . فترى أن مقام الاعتذار قد استدعى هذه الحجة واستوجب ذلك البرهان ، فالتعليل سواء كان حقيقيا كما فى هذا الباب أو خياليا كما فى تاليه من البلاغة فى الصميم .

(٢٠) أسلوب حسن التعليل :

(١) قال أبو هلال العسكرى فى غلام نبت عذاره :

زعم البنفسج أنه كعذاره[2]     حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به     فلشد مارفع البنفسج شانه

فى البنفسج زائدة تحت ورقه لايظهر لوجودها على هذا الوضع علة تعلل بها ، فادعى أبو هلال أنها كاللسان له وقد سل من قفاه عقابا له على زعمه أنه يشبه عذار الغلام حسنا ، فأنت ترى أن ذلك التعليل الخيالى قد استدعاه مقام الغزل والبلوغ بالمحبوب إلى أعلى قمم الحسن والجمال حتّى عوقب البنفسج على زعمه مشابهته هذا العقاب الشنيع بسل لسانه من قفاه « والصنعة انما يمد باعها ، وينشر شعاعها ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ،

---

(١) قال فى الأساس ومن المجاز : اللُّهى تفتح اللَّهى أى العطايا . وفى القاموس : اللهوة واللهو العطية أو أفضل العطايا وأجزلها . واللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق جمعه لهوات ولهيات ولهى ولهاء .

(٢) أراد بالعذار أول ما يبدو على الخد من شعر.

حيث تعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم ، والوصف والبث ، والفخر والمباهاة ، وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدئ فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانى متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لاينقطع والمستخرج من معدن لاينتهى (١) .

هذا والتماس علة لطيفة لشيء غير معلل مما يؤكد ذلك الشيء ويقويه .

( ٢ ) وقال أبو الطيب المتنبي من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :

مابه قتل أعاديه ولكن     يتقى إخلاف ماترجو الذئاب

فالمتعارف لدى الناس أن الباعث على سفك دماء الأعداء إنما هو إرادة هلاكهم ودفع مضارهم حتى يصفو الجو منهم وتأمن النفس منازعتهم ، ولكن المتنبي يأبى أن يسلم أن هذه العلة هى التى بعثت ممدوحه وحفزته على القتال ، وانما الحافز شيء آخر ذلك هو تمكن الكرم من نفسه حتى صار يتقى أخلاف ما تؤمل الذئاب على يديه من اتساع رزقها من قتلاه ، قال الشيخ عبد القاهر (٢) تعليقا على هذا البيت : «واعلم أن هذا لايكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح ، أويكون لها تأثير فى الذم كقصد المتنبي ها هنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود، وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها وأن يخيب رجاءها ولايسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه يهزم العدى ويكسرهم كسرا لايطعمون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق » .

---

( ١ ) أسرار البلاغة ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

( ٢ ) أسرار البلاغة ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

وهكذا . إذا استعرضت أساليب حسن التعليل التى عرض لها عبد القاهر ووطىء عقبه فيها الخطيب ألفيتها من البلاغة فى أكرم محل وأعز مكان .

(٢١) أسلوب التفريع :

قال الكميت من قصيدة يمدح بها آل البيت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية     كما دماؤكم تشفى من الكلب

قال الخطيب فى الإيضاح : «فرع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب »، وقال الدسوقى(١) . قال الفنرى .

« أراد بالتفريع التعقيب الصورى والتبعية فى الذكر كما ينبىء عنه لفظ الوصف لا أن شفاء الدماء من الكلب متفرع فى الواقع على شفاء أحلامهم لسقام الجهل إذ لا تفريع بينهما فى نفس الأمر أصلا ، فلا يرد أن التشبيه فى قوله . كما دماؤكم . يدل على أن أمر التفريع على عكس ما ذكره الشارح ، إذ المشبه به أصل والمشبة فرع فلا حاجة إلى اعتبار القلب ) .

على أن الكاف فى مثله ليست للتشبيه بل لمجرد التعليل كما قيل به فى قوله تعالى « واذكروه كما هداكم » ثم قال : والحاصل أن المراد بتفرع الثانى على الأول كونه ناشئا ذكره عن ذكر الأول حيث جعل الأول وسيلة للثانى أى كالتقدمة والتوطئة له حتى إن الثانى فى قصد المتكلم لا يستقل عن ذكر الأول ».

واذ كان غرض الكميت من هذا البيت وصفهم برجاحة العقول وفطنة الأذهان وأنهم ملوك وأشراف وكانت بلاغة التفريع آتية من دعم صفة بصفة أخرى سواء فى المدح أوفى الذم وكان المقام فى كل منهما مما يستدعى هذا الدعم كان أسلوب التفريع من البلاغة فى الصميم .

(٢٢) أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم :

( ١ ) قال النابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم     بهن فلول من قراع الكتائب

---

( ١ ) شروح التلخيص ج ٤ — ٣٨٥

يقول . لاعيب فى هؤلاء القوم أصلا إلا هذا العيب وهو فلول أسيافهم من المقارعة والمضاربة وهذا ليس بعيب بل هو غاية المدح فهو تأكيد للمدح بما يشبه الذم لأن قوله . غير أن سيوفهم يوهم أن ما يأتى بعده ذم ، فإذا كان مدحا تأكد المدح وتقوى ، وإذ كان الغرض من هذا البيت المبالغة فى تنزيه الممدوحين وبراءتهم من العيوب ، وكان مثل ذلك الأسلوب مما يوفر ذلك الغرض ويؤكده ، فى النفوس مع ما فيه من خلابة كان ذلك مما يستدعيه المقام ويفتقر إليه تمام الغرض فهو من البلاغة بمكان مهيب .

( ٢ ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » .

فإثبات الأفصحية على جميع العرب منبىء عن كما لها فيه ، والإتيان بأداة الاستثناء بعدها مشعر بأنه أريد إثبات المخالفة لما قبلها لأن الاستثناء أصله المخالفة ، فلما كان المأتى به بعد الأداة كونه من قريش أفصح العرب جميعا عاد ذلك على الحكم الأول بالتأكيد والتقوية ، وبذلك يتم الغرض المروم من الحديث وهو وصفه بكمال الفصاحة أبلغ وصف وآكده ، لذلك كان هذا الأسلوب مما تقتضيه المقامات وتحتاج فى تمامها إليه الأغراض ، ومثله فى ذلك.

(٢٣) تأكيد الذم بما يشبه المدح :

(٢٤) أسلوب الاستتباع :

قال أبو الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة وقد ورد عليه رسول الروم يطلب الهدنة(١) :

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له كأنهم فيما وهبت ملام

قال العكبرى . « يقول . أنك تردهم عما يطلبون من الهدنة ردك لوم اللائمين لك فى العطاء . أى كما أنك لاتصغى إلى ملامة لائم فى سخائك فكذلك لا تقبل الهدنة ».

فترى المتنبى يمدح سيف الدولة بالشجاعة والعزة فى رد الرسل عما أتوا له

---

( ١ ) التبيان للعكبرى ج ٣ – ٣٩٤

وصدهم عن مطلوبهم والتهاون بمرسلهم ، واستتبع فى باقى البيت مدحه بالكرم لعصيان الملام فى الهبات ، وإذ كان الغرض من هذا البيت توفير صفتى الشجاعة والسخاء لممدوحه كان أسلوب الاستتباع مما يقتضيه المقام ، ومثل ذلك يقال فى :

(٢٥) أسلوب الإدماج :

(٢٦) أسلوب التوجيه :

قال بشار بن برد فى خياط أعور :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء

لا يدرى غرض بشار من هذا البيت أمديح هو أم هجاء . فإنه كما ترى يحتمل تمنى العوراء صحيحة فيكون مديحا ، ويحتمل عكسه فيكون هجاء ، ولذلك تراه يقول بعد هذا البيت :

فاسأل الناس جميعا أمديح أم هجاء

وإذا كان الوضوح فى الغرض والظهور فى القصد مما يتوخاه البلغاء ويقصدونه لداع يستدعيه ، كذلك الإبهام لما يعقبه من الحيرة فى تفهم المراد ، وما يكسبه صاحبه من جعله فى مأمن من العقاب وصيانة من المؤاخذة فهو إن شاء مال به إلى الذم فيكون نيلا من مذمومه ، وإن شاء مال به إلى المدح فينجو من الإثم ، ويبرأ من العقاب ، لذلك كان أسلوب التوجيه من البلاغة فى الصميم لأنه مما يستدعيه المقام .

(٢٧) أسلوب الهزل الذى يراد به الجد :

قال أبو نواس من قصيدة يهجو بها تميما وأسدا ويفتخر بقحطان :

إذا ما تميمى أتاك مفاخرا فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب

غرض أبى نواس من هذا البيت ذم التميمى بأكل الضب الذى كانت تعافه أشراف العرب ، وأنه لا مفاخرة له مادام يستطيب مالا يستطيبه الأشراف ، ولكنه سلكه فى أسلوب هزلى إذ لا معنى للسؤال عن أكل الضب عند المفاخرة إلا الهزل ، وإذا صار الهزل طريقا إلى الجد كان أوجع فى الهجو وأبلغ

فى الإقذاع من أن يقصد إلى الحد رأسا ، لذلك كان هذا الأسلوب مما يقتضيه مقام الهجاء اللاذع الممعن فى الإيذاء فهو من البلاغة فى مكان أمين .

(٢٨) أسلوب تجاهل العارف :

قال بعض الشعراء ، وينسب إلى العرجى :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنـــا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

مقام الغزل مما يستدعى أوفر المبالغات فى تصوير حال العاشق فى الحب وما صار إليه من ذهول العقل وما انتهى اليه من ذهاب الفكر وفقدان التمييز وكلما بولغ فى وصف تلك الحال قوى الغرض وتأكد المراد . والعرجى يعلم أن محبوبته من البشر لا من الظبيات ، ولكنه شاعر غزل يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويعلم من أين يجىء إلى الغرض ، فتجاهل وأظهر أن الحب قد أدهشه وسلب منه العقل والرشاد فصار لا يدرى أهى من البشر أم من غيره . وكل أولئك ليحقق غرضه من بلوغه فى صبابته وحبه أعمق المراتب وأقصى الغايات ولا ريب فى أن ذلك مما يستدعيه مثل هذا المقام .

(٢٩) أسلوب القول بالموجب :

قال ابن حجاج أو محمد بن إبراهيم الأسدى :

قلت ثقلت إذ أتيت مرارا قال ثقلت كاهلى بالأيادى

بحسبك أن تعلم أن الخطيب القزوينى عد هذا الأسلوب ضمن أساليب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتؤمن بأنه من البلاغة فى الصميم باعتراف من عاد فحكم عليه بأنه ذيل وذنب وحلية وعرض .

(٣٠) أسلوب الاطراد :

قال ربيعة من بنى نصر بن قعين يرثى ذؤابا ابنه :

أن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

غرض الشاعر من هذا البيت وصف ابنه بالشجاعة حيث هدم أساس مجد قاتليه وقوّض دعامتهم بقتل رئيسهم « عتيبة بن الحارث بن شهاب »

ولأجل أن يتأكد غرضه بوصفه بالشجاعة النادرة تراه يذكر المقتول بنسبه حتى يتعين ويتحدد فى الأذهان بذاته ولا يلتبس بغيره وذلك مما تدعو إليه الفطرة وتراه فى معتاد الأساليب إلى الآن فقد تخبر بأن فلانا قتل فلانا المعروف بالشجاعة مثلا فترى مخاطبك وقد علته الدهشة واستولت عليه الحيرة وحاول أن يؤول أو يذهب فكره إلى شخص آخر فيقول لك :

قتل فلانا . فتقول . نعم . قتل فلان ابن فلان ... الخ .

وإذن فأساليب الاطراد مما يقتضيها الحال وتتعلق بها سلامة الأغراض .

تلك هى الألوان البديعية التى حظيت من الخطيب وأستاذه السكاكى باسم المعنوية . وقد رأيت من هذا العرض الموجز مبلغ صلتها بالبلاغة وأنها لم تكن حلى عرضية تستقيم بدونها الأغراض .

أما ما دعوها باسم اللفظية فهى وإن كانت متطامنة عن المدى الذى بلغته المعنوية من صلة وثيقة بالبلاغة فإنها تسمو كثيراً عن المنزلة التى وضعها فيها المتأخرون إذ أنها تعود على الأساليب بالتحسين الذاتى لا العرضى وسيتجلى لك هذا مما نعرضه عليك عرضا موجزاً فى هذه الكلمات .

( ١ ) أسلوب الجناس :

نقل البهاء السبكى أحد شراح التلخيص (١) عن صاحب كنز البلاغة « عماد الدين اسماعيل بن الأثير الحلبى من علماء القرن الثامن الهجرى » . أنه قال فيه «لم أر من ذكر فائدة الجناس وخطر لى أنها الميل إلى الإصغاء إليه. فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها . ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوف اليه » .

ولا ريب فى أن المتكلم إذا راعى هاتين الفائدتين. أمالة السامع واصغاءه وتشوفه واستشرافه فقد راعى موجبات البلاغة وتوخى مقتضيات الأحوال وتلك هى البلاغة ،ولم يكن صاحب كنز البلاغة هو السابق إلى بيان فائدة الجناس بل سبقه إليه عبد القاهر الجرجانى بعدة قرون فقد قال فى أثناء احتجاجه

---

( ١ ) شروح التلخيص ج ٤ – ٤١٢

للمعانى على الألفاظ (١) « وها هنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومنصرف فيما هنالك منها التجنيس (٢) والحشو — أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً . أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله « من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب »

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت      فيه الظنون أمذْهَب أم مُذْهَب

واستحسنت تجنيس القائل « حتى نجا من خوفه وما نجا (٣) » . وقول المحدث (٤) :

ناظراه فيما جنى ناظراه      أودعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ . أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنس وخصوصا المستوفى (٥) منه المتفق فى الصورة — من حل الشعر ومذكورا فى أقسام البديع ، فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن ، ولما وجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى ، والمصرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها » .

---

( ١ ) مقدمة أسرار البلاغة ص ٤ — ١٤

( ٢ ) فترى عبد القاهر يسوى بين التجنيس والحشو ، ثم ترى الخطيب يذكر الحشو ضمن مباحث الأطناب ويذكر التجنيس فى البديع .

( ٣ ) نجا الأولى بمعنى أحدث والثانية بمعنى خلص .

( ٤ ) أبو الفتح البستى وقيل شمسويه المصرى.

( ٥ ) يريد به التام أعم من أن يكون مماثلا أو غير مماثل .

ففائدة التجنيس ونكتته عند عبد القاهر كما يقول « هى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وان كانت لاتظهر ظهورا قويا إلا فى التجنيس المستوفى المتفق الصورةمنه كقول أبى تمام( يمدح أبا الغريب يحيي بن عبد الله » .

مامات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيي بن عبد الله

أو المرفو الجارى هذا المجرى كقول البستى « أودعانى أمت بما أودعانى ».

فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا ، فمما يظهر ذاك فيه ماكان نحو قول أبى تمام من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى :

يمدون من أيد عواصٍ عواصم تصول بأسياف قواض قواضب(١)

وقول البحترى من قصيدة يمدح بها اسحاق بن يعقوب :

لئن صدفَتْ عنا فرّبتَ أنفس صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم والباء من قواضب أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود عليك مؤكدة حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرف عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة : بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا وذلك أن تختلف الكلمات من أولها كقول أبى حفص عمر بن على المطوعى :

وكم سبقت منه إلى عوارف ثنائى على تلك العوارف وارف(٢)

وكم غرر من بره ولطائف فشكرى على تلك اللطائف طائف

وذاك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة

---

(١) العواصى جمع العاصى وهو العرق الذى لا يرقأ ويقال : رقأ العرق رقأ ورقوء ارتفع والعواصم جمع اسم الفاعل من عصم بمعنى اكتسب أو منع ووقى . قواضب : قواطع . صدفت : انصرفت ومالت .

(٢) العوارف جمع عارفة المعروف . الطائف : العسس وهى مصدر عس إذا طاف ليلا .

فى الجملة فإنه لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخييل فه وان كان لا يقوى تلك القوة . . فالذى يجب الاعتماد عليه فى هذا الفن أن التوهم على ضربين . ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقادا وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ولكنه شىء يجرى فى الخاطر وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام والشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب فاعرفه(١) » .

وإذا كان الجناس مما يحمل السامع على الإصغاء والتشوف كما يقول صاحب كنز البلاغة ، أو يخدعه عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمه كأنه لم يزده وقد أحسن الزيادة ووفاها » كما يقول عبد القاهر ، وكانتا من مقاصد البلغاء وأهدافهم التى يتوخونها فى أساليبهم سواء كان مظهر الأداء فى لفظ أو لفظين ، أو فى معنى أو معنيين ، فإن الجناس من مقتضيات الأحوال وموجبات البلاغة إلا أن ذلك لا يستقيم للجناس إلا إذا كان مقبولا وإلى ذلك أشار عبد القاهر بقوله (٢) . وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق المتكلم نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن ها هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته — وأن كان مطلوبا — بهذه المنزلة ، وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبدا من قول الشافعى — رحمه الله تعالى — وقد سئل عن النبيذ فقال « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » ومما تجده كذلك قول البحترى من قصيدة يمدح بها ابن نوبخت :

يعشى عن المجد الغبى ولن ترى فى سؤدد أربا لغير أريب

فقد رأيت أن أسلوب التجنيس يكسب الكلام حسنا وجمالا ويعود على المعنى بالتمكين فى ذهن السامع فهو من صميم البلاغة ومقاصدها التى تؤم .

( ٢ ) ومثله فى هذا ما جرى مجراه من أساليب رد العجز على الصدر .

---

( ١ ) من أسرار البلاغة ص ١٢ — ١٤

( ٢ ) أسرار البلاغة — ٧

( ٣ ) أسلوب السجع :

وقد رأيت فيما سلف تسوية عبد القاهر بين الجناس والسجع فى أنهما لا يكونان مقبولين حتى يكون المعنى هو الذى طلبهما واستدعاهما ، وساق المتكلم نحوهما وحتى تجدهما لاتبتغى بهما بدلا ولاتجد عنهما حولا ، ثم قال بعد أن ساق أمثلة من مقبول الجناس(١) ومثال ما جاء من السجع هذا المجىء وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل « قيس بن سعد بن عبادة » .

« اللهم هب لى حمدا ، وهب لى مجدا ، فلا مجد إلا بفعال (٢) ، ولا فعال إلا بمال » .... وقوله عليه الصلاة والسلام » بأيها الناس . أفشوا السلام . وأطعموا الطعام،وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » . فأنت لا تجد فى جميع ماذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع . وترك ماهو أحق بالمعنى منه وأبر به وأهدى الى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابى ـ حين شكا الى عامل الماء بقوله . حلأت ركابى ، وشققت ثيابى ، وضربت صحابى(٣) ( فقال له العامل وتسجع أيضا ـ إنكار السجع حتى قال . فكيف أقول . وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى أو محدثا فى الكلام استكراها ، أوخارجا الى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه ، وقال الجاحظ لأنه و قال . حلأت إبلى ، أوجمالى، أونوقى أوبعرانى ، أوصرمتى (٤) ، لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه فكيف يدع الركاب الى غير الركاب ؟ وكذلك قوله . وشققت ثيابى . وضربت صحابى » .

وإذ كانت للسجع فائدة ونكتة لا تقل عما ذكروه للجناس ، اذ أنه

---

( ١ ) أسرار البلاغة ص ٨ ـ ٩

( ٢ ) الفعال : اسم الفعل الحسن والكرم أو يكون فى الخير والشر وهو مخلص لفاعل واحد وإذا كان من فاعلين فهو فعال بالكسر .

( ٣ ) حلأه عن الماء تحليئا وتحلئة طرده ومنعه . الركاب : الإبل واحدتها راحلة . صحاب : جمع صاحب .

( ٤ ) الصرمة : القطعة من الإبل : فقيل ما بين العشرين إلى الثلاثين وقيل غير ذلك .

يخامر العقول مخامرة الخمر ، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء ، ويؤثر فى النفوس تأثير السحر ، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التى تطرب لها الأذن،وتهش لها النفس،فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور فيتمكن المعنى فى الأذهان ، ويقر فى الأفكار ،ويعز لدى العقول ، وكان كل أولئك مما يتوخاه البلغاء ويقصده ذوو البيان واللسن ، كان السجع مما يستدعيه المقام وتوجبه البلاغة .

( ٤ ) وهكذا تجرى فى مجراه الموازنة :

( ٥ ) أسلوب القلب

قال الأرجانى :

مودته تدوم لكل هول　　　وهل كل مودته تدوم

عكس هذا البيت كطرده ، ولم يرزق هذا النوع شاهداً شعريا أرق وأحكم من هذا البيت ، وما عداه متكلف ثقيل ، مستكره مرذول ، سوى أن هذا النوع فيما ترى مع ما يستدعيه من جهد شاق وتعب ناصب فى اختيار المفردات التى يتأتى بينها هذا العكس – حلية عاطلة ، وصناعة باطلة لايستدعيها حال ، ولاتقتضيها بلاغة فأحرى به أن ينحى عن هذه القلادة ولاينظم فى سلكها .

( ٦ ) أسلوب التشريع :

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها　　　شرك الردى – وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت فى يومها　　　أبكت غدا – تبا لها من دار

هذان البيتان من قصيدة للحريرى بناها على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما ، فإذا أنشدت هذين البيتين على حالهما كانامن ثانى الكامل ، وإذا حذفت الجزءين الأخيرين كانا من ثامنه فيصيران إلى هذا الوضع :

يا خاطب الدنيا الدنيـــة　　　إنها شرك الــــردى

دار متى ما أضــحكت　　　فى يومها أبكت غـــدا

وهذا اللون — وإن دل على قدرة فى امتلاك ناصية القوافى — أولى به علم العروض والقوافى ، ويشركه فى هذه الأولوية .

( ٧ ) لزوم مالايلزم :

أما بعد : فقد استبان لك من هذا العرض الموجز لأساليب البديع أن جمهورها الغالب وثيق الصلة ببلاغة الكلام ، وإن مكانه من الغرض ومحاله من التحسين ذاتى أصيل لاشائبة للعرضية فيه مادام مقياس الذاتية والعرضية عند علماء البلاغة هو اقتضاء المقام أوعدم اقتضائه .

وإذن قد اهتضمها الخطيب حقها وأجحف بمنزلتها ، وأوردها غير ورودها حينما جعلها ذيلا من ذيول البلاغة وذنبا من أذنابها لا تجىء إلا تابعة ولا تسمو إلى آفاق الذاتية والأصالة ، اقرأ قوله فى التلخيص بعد أن عرف بلاغة الكلام « وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسنا[1] » وقول التفتازانى فى مختصره تعليقا على هذا : أى وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخر سوى المطابقة والفصاحة تورث الكلام حسنا ، وفى قوله « تتبعها » إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضى خارج عن حد[2] البلاغة وإلى أن هذه إنما تعد حسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة » وقول ابن يعقوب المغربى : وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخرى . أى أحوال عارضة للكلام سوى الفصاحة والمطابقة لمقتضى الحال تورث تلك الوجوه الكلام حسنا زائدا على الحسن الذاتى الحاصل بالبلاغة ونبه بقوله .. تتبع .. على أن حسن الكلام بهذه الأوجه لا يعتبر حتى يحصل متبوعه الذى هو حسن البلاغة ، وقول العصام فى الأطول[3] « فى قوله تتبعها تنبيهات « أحدها » أن الوجوه البديعية لا تحسن بدون البلاغة « وثانيها » أنه يجب تأخير علم البديع عن علم البلاغة «وثالثها» أن الحسن الذى تورثه عرضى غير داخل فى حد البلاغة « ورابعها » أن هذه

---

( ١ ) تلخيص ٥

( ٢ ) أى أصلها . دسوقى .

( ٣ ) جـ ١ — ٣٦

الوجوه إنما تكون من البديع إذا لم يقتضها الحال إذ لواقتضاها الحال لم تكن تابعة للبلاغة » .

وقد ترتب على هذه النظرة التى نظرها الخطيب ومن لف لفه إلى أصباغ البديع أن تكون البلاغة عندهم مقصورة فيما دعوه بعلمى «المعانى والبيان» وقد صرح بذلك فى مقدمة الإيضاح قال : « والبلاغة فى الكلام مرجعها (١) . إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره والثانى أعنى التمييز منه ما يتبين فى علم متن اللغة أوالتصريف أوالنحو أويدرك بالحس وهو ما عدا التعقيد المعنوى ، وما يحترز به عن الأول أعنى الخطأ هو علم المعانى ، وما يحترز به عن الثانى أعنى التعقيد المعنوى هوعلم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع » وقال سعد الدين فى المطول « فظهر أن علم البلاغة منحصر فى علمى المعانى والبيان وان كانت البلاغة ترجع إلى غيرهما من العلوم أيضا » .

وقد أتم الخطيب هذا المنهج السقيم ، وأكمل تلك الخطة الواهنة حيث عرف البديع بقوله . . هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة » . وقال سعد الدين فى مطوله . فقوله بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة تنبيه على أن هذه الوجوه إنما تعد حسنة للكلام بعد رعاية الأمرين » . وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير » ومن قبل ذلك قال فى المختصر فى مقدمة علم البيان(٢) » قدمه على البديع للاحتياج إليه فى نفس البلاغة ، وتعلق البديع بالتوابع . قال الدسوقى تعليقا على هذا « أى توابع البلاغة . وذلك لأن البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، فلاجرم أنه لا تعلق به بالبلاغة وإنما يفيد حسنا عرضيا للكلام البليغ ، وكلام الشارح المذكور يشير إلى أن البديع من توابع البلاغة ، وهو ما جزم به بعضهم ، خلافا لمن قال :

(١) أى ما يجب أن يحصل حتى يمكن حصولها .
(٢) جـ ٣ – ٢٥٦ شروح.

أنه من تتمة علم المعانى ، ولمن قال : إنه من تتمة علم البيان .

ومع صراحة قول الخطيب فى أن مكان البديع من علمى البلاغة مكان التابع من المتبوع ، قد اختلفت نظرة العلماء فى تحديد تلك المكانة وبيان تلك المنزلة ، قال البهاء السبكى (١) معلقا على قول الخطيب فى تعريف البديع .. بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة « يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة ويكون المراد . هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين فيكون المعانى والبيان جزءين للبديع ، ويحتمل أن يراد قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين فلايكون المعانى والبيان جزءين للبديع بل مقدمتين له ، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول ، وفى استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر لأنك إذا قلت . . عرفت زيدا بعد معرفتى لعمرو فالمخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو ، لا معرفة زيد وعمرو » .

وممن صرح بالاحتمال الأول – وإن كان يعتبر البديع من البلاغة كما سيأتى : أبو جعفر الغرناطى فى مقدمة شرح بديعية ابن جابر الأندلسى الذى أسلفنا الحديث عنه فى الفصل السابق حيث قال بعد شرح التعريف : « فتحصل من هذا الحد أن العلم بوجوه تحسين الكلام لا يسمى بديعا إلا بشرطين : أن يكون ذلك الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، وأن تكون كيفية طرق دلالته معلومة الوضوح والخفاء . فالشرط الأول هو علم المعانى – والشرط الثانى هو علم البيان ، فلو عدم الشرطان أو أحدهما من الكلام لم يكن العلم بوجوه تحسين ذلك الكلام بديعا ، وإذا تأملت ماقررناه من أن علم المعانى والبيان داخلان فى حد البديع علمت أن نسبته إليهما نسبة المركب إلى مفرداته إذ لا يدخل فى الحد إلا ماهو من مفردات المحدود التى تركب منها » . ثم قال فى موطن آخر . قد تقدم أن نسبة البديع من المعانى والبيان نسبة المركب من المفرد ، فكما أن المركب لايستقيم وجوده إلا بوجود مفرداته كذلك البديع لا يستقيم إلا بوجود المعانى والبيان ، فإذا عدم المعانى والبيان من الكلام عدم

---

(١) جـ ٤ ص ٢٨٣ – ٢٨٤

البديع منه لأن المركب يعدم بعدم مفرداته ، فلو وجد كلام خال من مطابقة مقتضى الحال الذى هو علم المعانى أو من العلم بكيفية طرق الدلالة فى الظهور والخفاء الذى هو علم البيان لم يكن العلم بوجوه تحسين الكلام بديعا ، مثال ذلك أنك لو قلت . « أن يزيد ليزيدن ظلما إذا أن المظلوم من أذى » . والحال لا يقتضى التأكيد فلم يطابق مقتضى الحال فعدم منه المعانى ، ولا علمت كيفية طرق دلالته فى الوضوح والخفاء إذا فرضنا أن المتكلم لم يكن عالما بالكيفيات المعتبرة فى ذلك وهو الكناية والتشبيه والمجاز فعدم منه البيان فلا يسمى العلم بوجوه تحسين الكلام فى هذا المثال بديعا وإن كان قد اشتمل على ماترى من محاسن الجناس ، واعلم أن أعم هذه العلوم الثلاثة علم المعانى ، وأخصها علم البديع لأنه مركب من الفنين الآخرين وزيادة ، والقاعدة أن الأخص يتركب من الأعم وزيادة ، والبيان متوسط بينهما . فهو مشتمل على المعانى مندرج تحت البديع ، فكل بديع مستلزم للمعانى والبيان لأنهما جزءاه ، وكل بيان مستلزم للمعانى لأنها جزؤه ، وليست المعانى مستلزمة للبيان ولا للبديع إذ توجد بدونهما ، وذلك فى كلام طابق مقتضى الحال ولم تعلم كيفية طرق دلالته ولا وجوه تحسينه ، ولا البيان مستلزما للبديع إذ يوجد بدونه فى كلام طابق مقتضى الحال وعلمت كيفية طرق دلالته ولم يعلم وجوه تحسينه » .

وبما عرضناه عليك من أساليب للبديع يتجلى لك أن هذا الكلام كله نظرى لايستند على دعائم عملية تكنفه وتؤازره ، فالمقسم ، أو المزاوج ، أو المتطابق ، أو المعلل ، أو المبالغ مثلا لم يلاحظ قبلية أو بعدية — كما لم يلاحظ المؤكد ، أو الموجز ، أو المطنب أنه راعى ذلك بعد رعاية ما يقتضيه علم الإعراب وإن كان لابد من صحة التراكيب — وإنما يرمى إلى غرض كما يرمى الذى فصل أو وصل ، ويقصد إلى هدف كما يصنع الذى شبه أو تجوز أو كنى ، دون هذه المراعاة الاعتبارية النظرية التى خبوا فى بيانها ووضعوا فلم يأتوا بشىء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وقد وفق

البهاء السبكي توفيقا يحمد له حيث قال(١) : « والحق الذى لاينازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، وأدل برهان على ذلك أنك لاتجدهم فى شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ولا تجدهم فى شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد ، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التى هى طرق علم البيان ، هذا هو الانصاف وإن كان مخالفاً لكلام الأكثرين » .

وقد سيطرت نظرة الخطيب إلى هذه الأصباغ على أذهان كثير من المتأخرين فراحوا يخضعون أقوال من سبقوه — ممن لم يفرقوا بين عرضى وذاتى ولم يضعوا البديع هذا الموضع المهين الشاذ — إلى نظرته تلك حتى تتمشى معها لأن نظرة الخطيب فى زعمهم منزهة عن الخطأ ، مصونة عن الزلل لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها اقرأ قول عبد الحكيم يعرض لمكان البديع من البلاغة عند العلماء يقول(٢) : « ثم أن منهم من جعل البديع علما على حدة كالمصنف رحمه الله تعالى ، ومنهم من جعله من ملحقات علم البيان نظرا إلى المحسنات اللفظية (٣) ، ومنهم من جعله من ملحقات علم المعانى كالسكاكى رحمه الله (٤) وقد بينه العلامة (٥) رحمه الله فى شرحه ، فهو جزء جعلى من علم المعانى ، وليس جزءا منه حقيقة إذ لادخل له فى البلاغة كمباحث الإمامة فى الكلام (٦) فحاول إدراج البديع فيه منبها على كونه غير داخل فيه حقيقة فقال :

---

(١) جـ ٤ — ٢٨٤ شروح التلخيص . (٢) جـ ٢ — ٢٦

(٣) قال الشربينى تعليقا على هذا . فهو نظير التشبيهات والاستعارات والكنايات فى البيان . إلا أن هذه لما كانت كيفية لدلالة اللفظ كانت أصلا بخلاف المحسنات البديعية فإنها عارضة خارجة عن الدلالة وكيفيتها فكانت ملحقة .

(٤) قال عبد الحكيم جـ ٤ — ٢٦١ . جعل السكاكى بيان المحسنات من توابع علم البيان ولم يجعله علما برأسه .. فما هذا الاضطراب .

(٥) يريد به قطب الدين الشيرازى .

(٦) ينظر الشربينى لتوضيح هذا التنظير جـ ٢ — ٢٧

وما يتصل بالتراكيب (١) أى يعرض لها تبعا لما هو المقصود الأصلى أعنى البلاغة أو بالخواص أى يعد من متمماتها من الاستحسان وغيره من الاستهجان الواقع فى كلام البلغاء هفوة منهم أو قصدا إلى أغراض لهم تتعلق بذلك كالأضاحيك والهزليات والتعريض بالغير والمحكيات فيعرفها صاحب المعانى احترازا عن مثلها كمعرفة السموم فى الطب ، أو ليأتى بمثلها فى موضعها وما قاله السيد السند — قدس سره — فى شرحه من أن حمل الاستحسان على المحسنات البديعية غير صحيح لأن تلك المحسنات لامدخل لها فى الاحتراز المذكور ولا فى تحصيل البلاغة ، فكيف تجعل جزءا من علم المعانى . وإدراجها فى حده مع جعلها تابعة له خارجة عنه مما لاتقبله فطرة سليمة ، والتمسك بذكر الاتصال المنبىء عن التبعية وهم ، فإن معلومات علم واحد قد يتصل بعضها ببعض — فمدفوع بأن الشارح العلامة — رحمه الله — فسر قوله على مايقتضى الحال ذكره . أعم مما يقتضيه الحال إفادة « وهى المبينة فى علم المعانى » أو دلالة « وهى المبينة فى البيان » أو تبيينا وتزيينا » وهى المبينة فى البديع » فهو شامل لعلم البديع فإنه مفيد للاحترازعن الخطأ فيما يقتضى الحال ذكره «تبيينا وتزيينا» . وقال العصام(٢) : « قد عرف صاحب المفتاح المعانى بأنه .. تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام ما يقتضى الحال ذكره » ثم مضى العصام يبين وجهة عدول الخطيب عن هذا التعريف ، ويشرح محتوياته ثم قال . ولما انجر الكلام إلى إيراد تعريف السكاكى فلا نرى بدا من شرح قوله .. وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، فإنه مما استصعب على جلة القوم ، وزلت فيه الأقدام ، ولم يترشح حق بيانه من الأقلام فإن الشارحين جمهورهم ذهبوا الى أن المراد من الاستحسان .. المحسنات البديعية وبغيره الاستهجان الذى وقع منهم هفوة ، أو لاستعمالهم المستهجنات فى الأضاحيك والهجويات ، فذكر المحسنات البديعية فى تعريف المعانى ، وأشار بذكر الاتصال إلى

---

( ١ ) أى من قول السكاكى فى تعريف علم المعانى وسيأتى إثباته .

( ٢ ) الأطول جـ ١ — ٤١ — ٤٢

أنها خارجة من المعانى ملحقة بالخواص فى التزيين إلا أن تزيينها عرضى وتزيين الخواص ذاتى .

ولا يخفى أنه إفساد للتعريف ، لأنه لامدخل له فى الاحتراز عن الخطأ فى تطبيق الكلام على مايقتضى الحال ذكره ولا يفهم من ذكر الاتصال أنه خارج من المعانى فإن معلومات علم قد يتصل بعضها ببعض ، فذكره فى التعريف افساد للتعريف لأنه يفيد دخولها فى معلومات المعانى .

والسيد السند ذهب إلى أن ضمير .. وما يتصل بها .. إلى التراكيب .. أى تتبع مايتصل بالتراكيب من معرفة أن اشتمالها على الخواص هل يستحسن أو يستهجن ؟ إذ التركيب المؤكد مثلا قد يستحسن من متكلم فى مقام فيحمل على أنه قصد مايقتضيه، ولا يستحسن من آخر فى ذلك المقام لسوء ظن به فلا يحمل على قصده بل على أن صدوره منه اتفاقى ، وكذا حال المخاطب ، وقد صرح بذلك المفتاح حيث قال .. ومن متممات البلاغة ماقد سبق لى أن نظم الكلام إذا استحسن من بليغ لا يمتنع ألا يستحسن مثله من غير البليغ . وإن اتحد المقام ، بل لابد لحسن الكلام من انطباق له على ما لأجله يساق ومن صاحب له عراف بجهات الحسن لايتخطاها ، ولا بد مع ذلك من أذن لافتنانات الكلام مصوغة ، فظهر أنه لابد لصاحب المعانى مع معرفة الخواص من معرفة كون التراكيب مستحسنة وغير مستحسنة ليتمكن من إيراد تراكيبه منطبقة على ماساقها لأجله ومن حمل كل تركيب يرد عليه على ما يليق بحال المتكلم ، فإن البلغاء أيضا على درجات متفاوتة فربما يستحسن كلام فى مقام من بليغ فيحمل على دقائق جمة ولا يستحسن مثله فى ذلك المقام من آخر دونه فى البلاغة فلا يحمل عليها بل على مايناسب منها مرتبته، ثم قال العصام .. والأوجه أن مراده بالخواص ماتعين كونه خواص لايتجاوزها كالتأكيد والذكر والحذف ، وبما يتصل بها من الاستحسان المحسنات البديعية ، وبغيره المجازات والكنايات فإنها قد تصير مقتضيات الأحوال فلا بد من معرفة كونها خواص فى تلك الأوقات لئلا يقع المتكلم فى الخطأ فإن ماقد يكون خاصة وقد لايكون أكثر ايقاعا فى الخطأ ... » .

فقد رأيت من مجموع هذا الكلام مبلغ إسراف العلماء فى فهم كلام

السكاكى ومحاولتهم إخضاعه لنظريتهم التى عمادها الفرق بين التحسين الذاتى والعرضى وأن الأول من البلاغة فى الصميم بخلاف الثانى .

وأنت إذا راجعت صنيع السكاكى الذى أسلفناه فى موطنه من هذا البحث ألفيته يحصر البلاغة فى علمى المعانى والبيان فيأتى على أبوابهما المعروفة ثم يعرض لتحديد الفصاحة والبلاغة ثم يقول(١) .

« وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها « المعانى والبيان » وأن الفصاحة بنوعيها « اللفظية والمعنوية » مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا مايصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهى قسمان .. قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ ، ثم يمضى دون أن يطلق عليها اسم البديع — فيذكر ضمن الأصباغ المعنوية ، الاعتراض أو الحشو ويمثل له بقول طرفة :

فسقى ديارك — غير مفسدها — صوب الربيع وديمة تهمى (٢)

وذلك هو الذى مثل به الخطيب للتكميل أو الاحتراس وجعله نوعا من أنواع الأطناب التى يقتضيها الحال ، ثم يذكر السكاكى الالتفات فى عداد المعنوية أيضا ويكف عن بيانه منبها على أنه سلف فى مباحث علم المعانى ، كما يذكر الإيجاز والإطناب مقتصرا على الإشارة إلى أنهما سبقا بين مباحث المعانى أيضا ، وعلى ضوء هذا تستطيع أن تحكم بأن هذه الوجوه تعدل الفصاحة والبلاغة فى تحسين الكلام وتزيينه وإذ كان التحسين الذى تعقبه الفصاحة والبلاغة فى الأساليب ذاتيا فالتحسين الذى تعقبه هذه الوجوه فى الكلام كذلك .

ولعل عذر السكاكى فى إفراده هذه الوجوه بالذكر بعد الفراغ من العلمين هو أنه أخذ نفسه بتبيين الخواص التى تعرض للتراكيب فلم يلف

---

(١) المفتاح — ١٧٩

(٢) الصوب : الانصباب والقصد والإراقة ، ومجىء السماء بالمطر . الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . تهمى : همى الماء والدمع يهمى هميا وهمياً وهميانا والعين صبت دمعها .

شيئا منها طباقا أو مقابلة أو تقسيما أو مزاوجة أو ما إليها فوضعها هذا الوضع الذى لم ينزل من مكانتها مسويا بينها وبين العلمين فى العود على الكلام بالتحسين والتزيين الذاتيين تاركا للقارىء الخيار فى وضعها موضع المقدمات ، أو توزيعها على علمى المعانى والبيان كما صنعت أنا فيما عرضته بين يديك .

وقد خدعت طريقة السكاكى هذه كثيرا من المتأخرين فراحوا يباعدون بين هذه الوجوه وبين البلاغة .. فتارة يوقعون عليها اسم الحلية والعرض ، وطورا يطلقون عليها اسم اللاحق والمذنب الذى لايمس صميما ولا يمثل غرضا ، إذ أنهم حينما رأوا السكاكى يسرد بين هذه الوجوه وجوها سلكها فى نظام علم المعانى حزبهم الأمر وكاد ينغلق أمامهم وجه الصواب لولا أنهم برعوا فى صناعة التأويل ، وركبوا فى سبيلها الأباطيل فقالوا تخلصا من هذه الورطة .. «أن وجوه البديع إذا اقتضاها المقام كانت من البلاغة وإلا فهى عرض وتزيين » . قال السيد السند — قدس سره — فى حاشيته على المطول تعليقا على قول سعد الدين فيه : « وقول صاحب الكشاف .. أنه يسمى التفاتا فى علم البيان مبنى على أنه كثيرا مايطلق البيان على العلوم الثلاثة » . « أقول .. ذهب بعضهم إلى أن الالتفات من حيث أنه يشتمل على نكتة هى خاصية التركيب من علم المعانى ، ومن حيث أنه إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة فى الوضوح والخفاء من علم البيان ،ومن حيث إنه يحسن الكلام ويزينه من علم البديع ، والسكاكى أورده فى المعانى والبديع (١) »

وأنا أقول للعلامة السيد .. إن السكاكى حينما عرض للالتفات فى المعانى وفاه حقه البلاغى حسبما يقتضيه المقام ، وحينما عرض له ضمن هذه الوجوه لم يزد على أن أحال عليه فيما سلف ، فلم يشر إلى أنه هناك محسن ذاتى وهنا محسن عرضى ، ولم ينظر إليه نظرتين ، ولم يعتبر فيه اعتبارين بل رمى إلى أنه فى الموطنين على حد سواء ،وكذلك صنع فى الإيجاز والإطناب ، أما سر التكرير فى الموضعين .. فقل .. أنه نوع من الخلط والاضطراب

(١) المطول — ١٣٠

إذا لم تحسن الظن بالسكاكى ، أما إذا حسن فيه ظنك — وهو به جدير — فقل: إنه أعاده هاهنا لمجرد المجاراة للعلماء السابقين إذ قد جرت عادتهم أن يذكروا الالتفات والإيجاز والإطناب ضمن مباحث البديع ، فنبه بهذا على أنها تعدل مباحث المعانى فى العود على الكلام بالتحسين الذاتى لا العرضى الذى افتعله المتأخرون ، يرشح هذا أنه لم يجعلها علما مستقلا كما رأيت .

والذى أراه لايعدوه إيمانى ولا يزايله يقينى — وقد شجعنى على المضى فيه أساتذتى الذين افخر بالتتلمذ عليهم — إن أصباغ البديع التى تجرى على نمط ما اختاره الخطيب فى القبول والصفاء .. من البلاغة فى أكرم موضع وأعز مكان ، وسواء لدينا بعد ذلك جعلها علما مستقلا ، أو تابعة لأحد العلمين ، أو موزعة بينهما كما أسلفناه .

فإن تعريف بلاغة الكلام الذى ذكره الخطيب بقوله : « هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » شامل لهذه الأصباغ مع التوسع فى مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه حتى ينطبق على أحوال البديع .

فإذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيما أو مزاوجة أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال ، وخلوه منها غير مطابق، فيكون فى الأول بليغا، وفى الثانى على خلافه ، وذلك أمر تقره الفطرة، ويساعد عليه ما سردناه من شواهد فى الباب الأول من القرآن الكريم — والحديث الشريف — والأدب القديم — وما عرضناه بين يديك من أساليب خاضعة لأحوالها ، وكفى بهذا شاهدا على صدق مانقول .

وإن شئت زيادة فى التدليل على سلامة هذه الخطة واستقامة هذا المنهج قلت لك :

(١) إن إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى جعل التقسيم والمزاوجة مع التشبيه المتعدد فى باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع — ثم أكمل خطته الفخر الرازى فى نهاية الإيجاز كما أسلفنا .

(٢) وإن أبا جعفر الغرناطى فى مقدمة شرحه لبديعية ابن جابر الأندلسى

عرف البلاغة فى الاصطلاح بقوله : « هى بلوغ المتكلم فى تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام » .

ثم قال .. وهى راجعة إلى ثلاثة أشياء .. إلى مايحترز به عن الخطأ فى خواص التراكيب وهو علم المعانى – وفى طرق دلالتها وهو علم البيان وفى وجوه تحسينها وهو علم البديع – فالبلاغة إذن لاتحصل إلا لمن استكمل العلوم الثلاثة » وأنت فى حل – إذا لم ترتض التوسع فى تعريف الخطيب – من اعتناق هذا التعريف الذى يتسع للبديع ولا يضيق عنه .

ثم قال أبو جعفر فى موطن آخر من المقدمة : «اعلم أن الطيبى (١)وغيره نصوا على أن أنواع البديع تتعلق ببابين .. باب البلاغة .. وباب الفصاحة فما كان منها متعلقا بالمعنى ، أو بالمعنى واللفظ معا فهو من باب البلاغة وما كان منها متعلقا باللفظ فقط فهو من باب الفصاحة فهى ثلاثة أقسام .. قسم يتعلق بالمعنى فقط كالتورية وتجاهل العارف وما جرى مجراهما مما لا تعلق له باللفظ ، وقسم يتعلق باللفظ فقط كالتجنيس ورد العجز على الصدر ونحوهما مما لا تعلق له بالمعنى ، وقسم يتعلق باللفظ والمعنى كالمطابقة والمقابلة وما أشبههما مما لكل واحد من اللفظ والمعنى فيه حظ ، وأسقط صاحب الإيضاح هذا القسم وجعل البديع قسمين – قسم يتعلق باللفظ – وقسم يتعلق بالمعنى ، وهو الأبين وعليه درج صاحبنا فى القصيدة» .

والذى يعنينا من هذا ويؤازر خطتنا هو حصره البلاغة فى ثلاثة العلوم وجعله البديع موزعا بين البلاغة والفصاحة – أما تقسيمه إلى لفظى وإلى معنوى وقول شراح التلخيص .. أن الحسن فى الأول راجع إلى اللفظ أولا وبالذات وإلى المعنى ثانيا وبالعرض والثانى على عكس ذلك ، فهذا شىء قد أبطله عبد القاهر فيما عرضناه عليك قريبا واحتاط له السكاكى أبلغ احتياط وأتمه حيث قال بعد سوق الأنواع اللفظية (٢) : « وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى لا أن تكون المعانى لها توابع » .

---

( ١ ) بكسر الطاء كما يقول السيوطى فى البغية ص ١٢٨ وهو الحسن بن محمد صاحب التبيان فى المعانى والبيان المتوفى سنة ٧٤٣ .

( ٢ ) مفتاح العلوم – ١٨٢

ومتى كانت الألفاظ تابعة للمعانى كانت المعانى هى الهدف المروم والغرض المقصود .

هذا ولا يحل الأسلوب محله من البلاغة والقبول – ولا يصادف موضعه من الخلابة واستلاب العقول ، إلا إذا تلاقى فى تقويمه اللفظ والمعنى جميعا واستوفى كل واحد منهما نصيبه من الحسن واستحوذ على قسطه من الجمال وعلى ذلك درج عقلاء النقاد فى القديم والحديث . قال ابن رشيق (١) « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك أن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ماقدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لافائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة فى السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلا أنه لاينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنّا لا نجد روحا فى غير جسم البتة » .

هذا .. ولعلى بتلك المحاولة التى حاولتها عن إيمان لايخالجه شك ، ويقين لايحوم حوله ضعف أكون قد أديت للبديع بعض حقه بإنصافه من حكومة المتأخرين الظالمة ، حتى يأخذ محله من البلاغة ، ويعاود عهده المشرق الزاهر الذى كان له فى صحف المتقدمين ، مرفوع الرأس موفور الكرامة ، صافى المورد ، عذب المغترف ، فإن صحت واستقامت قوية على السبر والاختبار – فذلك ما أرجوه من الله على عهدى به ، وإلا فتلك جولة تفسح الميادين وتنير الآفاق للباحثين أرجو ثوابها وأطمع فى أجرها وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

---

(١) العمدة جـ ١ ٩٩ – ١٠٠

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٩٠ —

التأليف (٦٤)

الأدب (٥٣)

القاهرة

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com